

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الجزائر 2

قسم علوم اللسان

كلية الآداب و اللغات

✧ عصر فصاحة الخطاب الشفاهي العفوي

دراسة لسانية لغة الحياة اليومية العفوية في عصر الفصاحة

مذكرة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في علوم اللسان

إشراف الأستاذ الدكتور: محمد الحباس

إعداد الطالب : علي منصوري

السنة الجامعية 2015/2014

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الجزائر 2

قسم علوم اللسان

كلية الآداب و اللغات

خصائص فصحي التخاطب الشفاهي العفوي

دراسة لسانية لغة الحياة اليومية العفوية في عصر الفصاحة

مذكرة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في علوم اللسان

إعداد الطالب : علي منصوري

إشراف الأستاذ الدكتور: محمد الحباس

السنة الجامعية 2015/2014

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَفِيضْهُ لِي يَا رَحِيمُ
وَأَفِيضْهُ لِي يَا رَحِيمُ

إهداء

أهدي هذا الجهد ... جهد المقل
إلى الوالدين الكريمين و كافة عائلتي
و إلى الأسرة الصغيرة
و إلى جميع الأصدقاء و الأحباب

شكر و عرفان

نتقدم بخالص الشكر و الامتنان للعلامه الدكتور عبد الرحمن حاج صالح الذي تعود إليه فكره هذا العمل

كما نتقدم بشكرنا العظيم و اعترافنا للدكتور محمد الحباس الذي قبل الإشراف على هذه الدراسة

كما نتقدم بأسمى عبارات الشكر للدكتور عبد المجيد سالمى على ما قدمه لنا من تسهيلات و خدمات جليله .

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

الرقم	المحتوى	الصفحة
	فهرس المحتويات	08
	المقدمة	13
1	الفصل الأول : اللغة شكلها الشفاهي و الأشكال المقابلة المفاهيم : العامة و اللسانية	23
1.1	الإطار العلمي للبحث و مفاهيمه الأولية	25
2.1	اللغة الشفاهية المنطوقة	31
1.2.1	المفهوم والتحديد	31
2.2.1	النطق واللغة المنطوقة	38
3.2.1	الكلام واللغة المتكلمة	40
4.2.1	التحدث واللغة المحدثّة	41
5.2.1	التلفظ واللغة الملفوظة	42
3.1	مسألة الشفاهية في اللغة الإنسانية وخطورتها	45
1.3.1	إشكالية دراسة الموروث اللغوي كمادة صوتية	45
2.3.1	الإشكالية نفسها في علم الفلكلور	47
4.1	اللغة الشفاهية التخاطبية المجتمعية	49
1.4.1	ضوابط المفهوم	49
2.4.1	الوظيفة التواصلية المحضة في الشفاهية المجتمعية	52
3.4.1	العفوية والتلقائية في الشفاهية التواصلية	53
5.1	لغة الكتابة ولغة الكلام	55
1.5.1	ثنائية الكتابة واللغة في النظر اللساني	55
2.5.1	مفاضلة بين الكتابي و الشفاهي - وجهات نظر لغوية -	57
6.1	الكتابي والشفاهي في الثقافة والآداب - القيمة و المصادقية -	61
1.6.1	جدلية الكتابي والشفاهي في الفكر الحديث	61
2.6.1	قيمة تدوين الموروث اللغوي الشفاهي	64
7.1	اللغة الشفاهية اليومية في العربية القديمة : الواقع و المنجز	66
1.7.1	الواقع اللغوي الشفاهي للعرب أدبي و يومي	66
2.7.1	وعي العرب القدامى بالشفاهية اليومية	68

الرقم	المحتوى	الصفحة
8.1	لغة التخاطب عند النحاة واللغويين القدامى	70
1.8.1	الصيغ المستعملة عندهم إشارة إلى الكلام اليومي	70
2.8.1	إطلاقات وإصطلاحات عامة	72
9.1	جمع اللغة والمشافهة : حقائق و جهود لسانية مبكرة	74
1.9.1	اشتغال المدونة الفصحائية على الكلام اليومي	74
2.9.1	نقل كلام العرب بلفظه المسموع : الضبط و التحري	77
10.1	مصطلحات اللغويين المحدثين للغة الأدب ولغة التخاطب اليومي	79
1.10.1	الاصطلاحات القديمة بين الاعتماد و التطوير	79
2.10.1	اصطلاحات حديثة مختلفة	81
2	الفصل الثاني : قضايا فصحي التخاطب العفوي في الدرس اللغوي العربي القديم و الحديث	85
1.2	مفاهيم الفصحى الأدبية و اللهجة و العامية في الشفاهية	87
1.1.2	فرضية الفصحى الأدبية المشتركة الموحدة	87
1.1.1.2	المعيار الصوتي la norme phonétique	87
2.1.1.2	المعيار الصرفي la norme morphologique	95
3.1.1.2	المعيار النحوي la norme grammatical	96
4.1.1.2	المعيار الإفرادي (المعجمي) la norme léxical	97
5.1.1.2	المعيار البلاغي la norme rhétorique	99
6.1.1.2	الصفة الشفاهية للفصحى الأدبية	101
7.1.1.2	هل استعملت الفصحى الموحدة في التخاطب اليومي عند العرب ؟	103
2.1.2	اللهجات	108
3.1.2	العامية	113
2.2	واقع فصحي التخاطب العربي العفوي	117
1.2.2	عودة إلى فكرة تقارب اللهجات و نشوء لغة تخاطب عامة	117
2.2.2	فصاحة العرب في خطابهم العفوي	125
3.2.2	بين الفصاحة التلقائية والحن	131
3.2	الميزات العامة للعربية الشفاهية العفوية	134

الرقم	المحتوى	الصفحة
1.3.2	ارتباطها بالحياة اليومية	134
2.3.2	الاقتصاد اللغوي في الشفاهية التخاطبية العربية	137
3.3.2	أسبقية الشفاهية العربية وتأثيراتها	141
4.3.2	مقام الكلام في الخطاب الشفاهي العربي	144
5.3.2	الشفاهية العربية التخاطبية نموذج لظاهرة عالمية	148
3	الفصل الثالث : الاقتصاد اللغوي و التخفيف في الاستعمال اللغوي العفوي - مفهومه بين القديم و الدرس اللغوي الحديث	153
1.3	مفهوم الاقتصاد اللغوي	155
1.1.3	التوجيه العام لمصطلح الاقتصاد	155
2.1.3	الحاجة أمس إلى الاقتصاد في التواصل باللغة	159
3.1.3	مستويات الاقتصاد اللغوي	164
2.3	أشهر مصطلحات الاقتصاد اللغوي عند العرب و معانيها	171
1.2.3	التخفيف و الاستخفاف و طلب الخفة	171
2.2.3	التسهيل و السهولة	173
3.3	مفاهيم الاقتصاد في الدرس اللغوي العربي القديم	175
1.3.3	الاقتصاد في الدرس النحوي	175
2.3.3	الاقتصاد عند البلاغيين	179
4.3	الاقتصاد اللغوي في الدرس اللساني الحديث	182
1.4.3	الاقتصاد اللغوي في الدرس اللساني الغربي	182
2.4.3	الاقتصاد اللغوي في الدرس اللساني العربي	188
5.3	الاقتصاد اللغوي و التخفيف في اللغة التخاطبية العفوية	192
1.5.3	العفوية في الاستعمال تتطلب الاقتصاد و التخفيف	192
2.5.3	قضية الاقتصاد و التخفيف في فصحي التخاطب العفوي العربي	196
1.2.5.3	تأصيل القضية من خلال المفاهيم السابقة	196
2.2.5.3	آراء عبد الرحمن الحاج صالح و دعوته إلى دراسة الموضوع	200
4	الفصل الرابع : إشكاليات المدونة التخاطبية العفوية الفصيحة في التراث و منهجية دراستها	206
1.4	المدونة الشفاهية التخاطبية : العينات و مصادرها و مظاهرها	207

الرقم	المحتوى	الصفحة
1.1.4	ملاحظات في المدونة المقصودة بالدراسة	207
2.1.4	الشواهد القرآنية و الأدبية ليست محلا للدراسة	210
3.1.4	كتب النحو و جمع اللغة المعتمدة	211
1.3.1.4	كتاب سيبويه	212
2.3.1.4	معاني القرآن للأخفش	214
3.3.1.4	معاني القرآن للفراء	215
4.3.1.4	مجالس أبي العباس ثعلب	216
5.3.1.4	العين للخليل بن أحمد	217
4.1.4	القراء و المصادر المؤلفة في القراءات	218
2.4	التحديد المنهجي للمدونة في البحث (الإطار الزمني و المكاني)	221
1.2.4	قضية زمن الفصاحة و أطره الجغرافية	221
2.2.4	لغات بعض القبائل و خصوصيتها في الموضوع	224
3.2.4	إشكالية الفصحى التخاطبية العفوية كمدونة	228
3.4	حول هذا البحث و منهجيته	230
1.3.4	التركيز على خصائص اللغة الشفاهية العفوية	230
2.3.4	أكثر مظاهر التخفيف لا تختص بالتخاطب العفوي فحسب	233
3.3.4	دور كتب القراءات في المفاهيم النظرية	234
4.3.4	حول منهج الدراسة و مناقشة إشكالياته	235
5	الفصل الخامس : خصائص التخاطب الشفاهي العفوي في عربية الاحتجاج	237
1.5	تسريع الكلام في التخاطب Débit de la parole – verbomanie	240
1.1.5	الاختزال Brachylogie – Réduction	243
1.1.1.5	اختزال الصوائت Brachylogie des voyelles	243
1.1.1.1.5	اختزال الحركات الإعرابية Brachylogie des désinences	243
2.1.1.1.5	إشمام الحركة في الوقف	251
3.1.1.1.5	روم الحركة في الوقف	255
2.1.1.5	اختزال الأصوات Brachylogie des phonèmes	257
1.2.1.1.5	الاختزال بحذف صوت أو أصوات من الكلمة Haplologie	257

الصفحة	المحتوى	الرقم
261	الإدغام Assimilation	2.2.1.1.5
266	ترخيم المنادى L'Euphonie	3.2.1.1.5
268	تخفيف الهمز	4.2.1.1.5
275	اختزال الكلمات أو الاختصار Abréviation	3.1.1.5
281	الوقف La pause	2.5
284	تكرير الكلام و إعادته Recurrences (les Redites)	3.5
287	تغيير بنى الكلم	4.5
287	القلب المكاني	1.4.5
289	الإبدال	2.4.5
292	الإعلال	3.4.5
295	العدول المعجمي L'écart léxiquai	5.5
298	خاتمة البحث	6
304	بيبلوغرافيا الدراسة	7

المقدمة

مقدمة :

قامت الدراسات اللسانية منذ نشأتها ، و اتضح معالم البحث فيها على الانشغال بالحقائق اللغوية في واقع التخاطب دون غيرها ، ذلك ما كانت - و لا تزال أيضا - النزعة العلمية الموضوعية تدعو بإلحاح شديد إليه ، بعدما ظل الباحثون فترة طويلة من الزمن ، و عبر أجيال متباعدة يفتقدون هذا التوجه ، في عهود سطوة المعيارية سواء عند متأخري النحاة العرب ، أو في الدراسات اللغوية الأوروبية السابقة للقرن التاسع عشر ، أو حتى بعد انتشار الدراسات التاريخية و المقارنة في تلك الفترة .

لقد وجدت اللسانيات أن تلك الدراسات لم تكن لتنهض بالمفاهيم العلمية للغة البشرية بسبب بعدها عن تحقيق رؤية علمية و عملية للظاهرة اللسانية ، خصوصا و أن الحضارات القديمة التي عرفت بوعي متقدم في دراسة لغتها كحضارة الهنود أو حضارة العرب ، ركزت جل اهتمامها على محاولة النفاذ إلى ضوابط التحكم في لغاتها خدمة لنصوصها المقدسة ، و محافظة على شكل راق يوصف بالسليم أو بالصحيح لتلك اللغات .

إنّ منهجا كالمناهج القواعدي المعياري الذي يفرض على المتكلمين نمطا رفيعا من اللغة ، قد انتفت الأسباب التي تبرر العمل به في لغات كثيرة اليوم ، باستثناء اللغة العربية الفصيحة لغة النص القرآني الخالد ، و الذي يقتضي خلوده و استمراره الإبقاء على صورة اللغة التي نزل بها ، و إذا كان النحو العربي بشكله الذي وصل إلينا يهدف إلى المحافظة على أرقى أشكال الأداء اللغوي - و بالرغم مما وجه إليه من انتقاد - ، فلا سبيل إلى إلغائه من البحث اللغوي بأي حال من الأحوال ، لأن السلامة اللغوية في اللغة العربية كانت و ستبقى من أهم وسائل المحافظة على القرآن و فهمه ، و إحدى مقومات المشروع الحضاري و الفكري و القومي للشعوب العربية .

و لكن ، و تبعا لهذا ظل كثير من اللغويين على الاعتقاد الخاطئ أن النحاة العرب القدامى اقتصرُوا في دراسة لغتهم في عصر الفصاحة على الهيئة المثلى للعربية ، التي تراءت لهم في اللغة الرسمية الكاملة آداء و نطقا ، و أنهم إنما استفادوا جميع ما تختص به العربية من لغة الشعر و الخطابة فحسب أو من القرآن الكريم ، و ظنوا كذلك بالمقابل أن الفصاحة العربية إنما هي هذه اللغة التي تلقن في المدارس للمتعلمين ، أو توجد في لغة الخطابة و البحث العلمي و المناسبات الثقافية ، حيث يحذر المتكلم بها من تجاوز الحركات الإعرابية أو تحقيق الأصوات ، هكذا خالية من أي مظاهر للتخفيف و التسهيل و هذا خطأ .

لقد نسي كثير من المحسوبين على التيار المحافظ أو المتشدد أو تناسوا ، أن النحاة العرب دونوا في كتبهم كثيرا مما سمعوه عن العرب الفصحاء من كلامهم اليومي العفوي ، المتصف بالتخفيف و الاختزال ، و مظاهر الاقتصاد و بذل الجهد الأدنى في ممارسة هذه اللغة ، في حين لم تعدل بهم هذه الخصائص عن الفصاحة ، و ما نص النحاة في عصر التدوين أن هذا يعد عدولا عنها ، بل سارعوا إلى تسجيل ملاحظاتهم على ذلك بدقة متناهية .

بل و ذهب بعض المحسوبين على الدرس اللساني كالدكتور تمام حسان إلى الادعاء أن النحاة لم يأخذوا من كلام العرب في تخاطباتهم اليومية العادية ، و أن استشهادهم في مجال النحو و علوم العربية اقتصر على لغة القرآن و الشعر و الفنون النثرية الأدبية ، و هذا ما لا يمكن التسليم به البتة ، خصوصا إذا عرفنا ما تحويه كتب المتقدمين من النحاة من أمثال الخليل و سيبويه و الأخفش و الفراء و غيرهم .

إن النحاة العرب الأوائل أسسوا مفاهيمهم المبكرة على إثر عمل علمي جليل قاموا به ، لا يختلف في صميمه عما دعا إليه المنهج اللساني الحديث ، و ذلك لما أحدثوا تلك الجهود الميدانية في إطار ما يسمى بالسماع و التدوين ، و لم يتركوا شيئا مما تشافهت به العرب

في عهود الاحتجاج إلا و نقلوه إلينا على أدق طرق التحمل و الرواية ، و كان مما دونوه نصوص نثرية عفوية سمعت عن الفصحاء في أبسط حوائجهم اليومية ، و هذه حقيقة لم تحظ بالاهتمام الكافي مقابل الاهتمام بالموروث الأدبي .

و الحقيقة الأخرى التي لم يهتم بها أكثر الدارسين العرب ، هي مستوى الإدراج المستخف في عربية الاحتجاج الفصيحة التي لاحظها هؤلاء النحاة عند العرب في هذا التخاطب اليومي ، رغم أننا نرى ما يقابلها في وجوه القراءات القرآنية من أوجه التسهيل و الإختلاس و الإشمام و الروم و غيرها ، الأمر الذي من شأنه أن يصحح النظرة التقليدية للغة العربية الفصيحة ، بل و يمكننا من كشف حقائق تاريخية عن العرب القدامى ، تشهد لها مظاهر كثيرة في العاميات العربية التي هي لغة الحياة اليومية .

و أدى عدم الاهتمام بهذا النوع من الموروث اللغوي إلى عقد عداوة وهمية بين الفصحى و العامية ، و كأن العامية هي لغة أجنبية أخرى تختلف اختلافا تاما عن الفصحى ، بينما الواقع يشهد أن كثيرا من العامي يمكن رده إلى أصله الفصيح ، و لا يزال الباحثون إلى يومنا هذا يكتشفون بعض الصيغ و الألفاظ الدارجة في ألسن العامة ممن لا نجد لديهم أدنى ثقافة ، لها أصل فيما نطق بها العرب الفصحاء في القرون التي سميت بعصور الاحتجاج .

إنه من المجحف في حق العربية الفصحى أن تشيع لها صورة قاصرة في أذهان الناس تجعلها لديهم لغة لا تقوم بحاجات الإنسان من تخفيف مؤونة التكلف و الإغراق و التشدق ، إضافة إلى التشبث بافتراضات ليس عليها أدنى دليل علمي كالقول باللغة النموذجية الأدبية الفصيحة مقابل اللهجات العربية ، و أنها إنما اقتصررت عند العرب الفصحاء على الفنون الأدبية دون التخاطب اليومي ، و هذا ما لا يستند إلى دليل علمي كما أشار إلى ذلك الدكتور عبده الراجحي ، و الدكتور عبد الرحمن حاج صالح .

و لقد ظل الأستاذ عبد الرحمن حاج صالح منذ زمن طويل ينبه إلى هذه المسألة ، لما لها من أثر معرفي متعلق بـماضي اللغة العربية و راهنها و مستقبلها ، و يحض على دراستها أو دراسة بعض جوانبها مما هو متوافر بين أيدينا من كتب النحاة القدامى ، و التي انصرف الاهتمام عند دارسيها إلى اللغة الأدبية من الشعر و النثر دون الالتفات إلى ما نقله النحاة عن العرب من تخاطبهم الشفاهي العفوي .

و لقد كانت دعوته إلى دراسة هذا الموضوع في مناسبات مختلفة منها محاضراته التي ألقاها في أشغال الندوة العالمية التي نظمها المجلس الأعلى للغة العربية في نوفمبر 2000 م تحت عنوان مكانة اللغة العربية بين اللغات العالمية ، و في عدة دراسات و مقالات علمية أشهرها مقاله الموسوم بـ : اللغة العربية بين المشافهة و التحرير .

إن البحث في خصائص اللغة اليومية للعرب الفصحاء من الناحية العلمية أمر يحتاج إلى جهد غير يسير ، لأنه يعد استنتاجا لمدونة من واقع التخاطب ليست لنا منها سوى صورة مكتوبة ، و ملاحظات ذكرها النحاة الأوائل ، و هي بالطبع تختلف في أشكالها و مقاماتها عن ما هو شائع من الشواهد المدروسة في التراث اللغوي .

و هذه الدراسة هي محاولة للكشف عن ما يمكن كشفه من تلك الخصائص على ضوء ما بينه النحاة ، و على ضوء ما نلاحظه في لغة الحياة اليومية في جميع لغات العالم ، مستفيدين في ذلك من بعض النظريات و الآراء اللسانية الحديثة ، في كل ما يحمله هذا النوع من النشاط اللغوي البشري من خصائص عامة .

و تتلخص فكرة هذه الدراسة في محاولة رصد ما نقله النحاة في عصر التدوين من كلام العرب الفصحاء و التنصيص على ملاحظاتهم فيها ، فيما يخص الكلام العفوي اليومي الذي ليس شعرا و لا خطابة و لا يندرج في اللغة الأدبية و فنون القول التي كانت معروفة

لديهم ، لذلك كانت إشكاليته الأساسية : ما هي خصائص فصحي التخاطب العفوي الشفاهي التي سمعها النحاة العرب و دونوها و أبدوا ملاحظاتهم عليها ؟ .

و لقد دعنا محاولة معالجة هذه الإشكالية إلى التعرّيج على كثير من المسائل النظرية و القضايا التاريخية المتعلقة باللغة عموما و باللغة العربية على وجه الخصوص ، منها قضايا اللغة الشفاهية في دائرة المنطوق و الاستعمال في مقابل اللغة الرسمية الأدبية ، و في مقابل لغة الكتابة و التحرير ، و منها البحث في قضايا التخاطب اللغوي عند العرب القدامى بين القول باللغة الموحدة النموذجية و القول باللهجات و العاميات ، إضافة إلى مسائل تتعلق بالاقتصاد اللغوي في اللغة اليومية على وجه الخصوص ، و مسائل أخرى تتعلق بإشكاليات المدونة الفصحائية التي تخص الخطاب العفوي عند العرب و كيفية تحديدها و البحث عنها ، وصولا إلى خصائص التخاطب العفوي الشفاهي عند العرب في عصر الفصحاة على ضوء ما ذكره العلماء العرب في كتبهم التي وصلت إلينا ، و على ضوء ما يمكن إيجاده من الأمثلة المشابهة اليوم في العاميات العربية .

و على هذا فإننا حاولنا الإجابة على جملة من الإشكاليات الفرعية في طريق الإجابة عن الإشكالية الأساسية السالفة الذكر ، و هذه الإشكاليات هي : ما مفهوم اللغة الشفاهية المنطوقة ؟ ، و ما الفرق بينها و بين لغة الكتابة ؟ ، و ما هي ميزاتها في الشكل الأدنى للاستعمال - و هو التخاطب اليومي - ؟ ، و هل يوجد في الموروث اللغوي العربي وعي بالتخاطب اليومي لدى العرب و اهتمام به ؟ ، و ما مدى صحة القول باللغة الأدبية الفصحى و ما المقصود بذلك ؟ هل تكلم العرب الفصحاء في تخاطبهم اليومي بالعربية النموذجية ؟ و هل يمكن التسليم بتلك الفرضيات أمام ما يقتضيه البحث العلمي اللساني ؟ ، و ما مدى ارتباط فصحي التخاطب التي نطق بها أسلافنا بمبدأ الاقتصاد اللغوي ؟ ، و هل نجد في الدراسات العربية المبكرة مفاهيم تتعلق بذلك ؟ و ما هي سبل التوصل إلى المدونة

الفصيحة الخاصة بلغة الحياة اليومية في عصور الاحتجاج ؟ ، و كيف نتمكن من دراسة هذه المدونة و استخراج خصائصها ؟ ما هي مظاهرها و ماهي منهجية دراستها ؟ .

و قد كان علينا في طريق الإجابة عن هذه الإشكاليات الفرعية ، إثارة عدد من القضايا اللغوية المتعلقة بالتخاطب اللساني بشكل عام ، و باللغة العربية الفصيحة بشكل خاص كون بعضها استحالّت عند بعض الباحثين مسلمات ، نظرا لاهتمام طوائف من المستشرقين بتاريخ الفصحى ، ما فتئ الدرس اللساني أن يشكك في نتائجها ، استنادا للحقائق اللغوية الثابتة بطريق علمي كمبدأ التطور اللغوي .

و لقد اخترنا أن تكون الدراسة في مقدمة و خمسة فصول ثلاثة منها نظرية ، و واحد منهجي ، و آخرها و أهمها الفصل الخامس التطبيقي ثم خاتمة :

أما المقدمة فأجملنا فيها صورة عامة عن موضوع البحث و إشكاليته ، و أما الفصل الأول فنظري ، و عنوانه : اللغة شكلها الشفاهي و الأشكال المقابلة - المفاهيم : العامة و اللسانية - ، خصصناه للحديث عن اللغة الشفاهية المنطوقة ، مفاهيمها الأساسية ، و مصطلحاتها التي تطلق عليها ، و مختلف الآراء التي تناولتها في مجالات عديدة أهمها تاريخ الدراسات اللغوية من جهة ، و البحث في الموروث الشفاهي للشعوب القديمة في إطار ما يسمى بالتراث الشعبي ، كما تطرقنا إلى مسألة مهمة و هي ثنائية الكلام و الكتابة أو ما يطلق عليه بلغة التحرير و لغة التعبير ، كما أشرنا إلى وعي العلماء العرب القدامى بهذا النوع من الموروث و اهتمامهم به .

و أما الفصل الثاني فنظري كذلك ، و عنوانه : قضايا فصحي التخاطب العفوي في الدرس اللغوي العربي القديم و الحديث ، تطرقنا فيه لموضوع اللغة العربية الفصحى ، تاريخها و مختلف البراء التي تناولتها ، و حاولنا أن نرتب مفهومها علميا لما يطلق عليه بالفصحى الموحدة الأدبية ، و مفهوم اللهجات و مفهوم العاميات حتى نضع لغة الحياة

اليومية - موضوع الدراسة - في إطارها الصحيح ، و نعرف بماذا نطقت العرب في تخاطبها العفوي ، و ما هي ميزات هذه العربية التي تكلم بها العرب ، و حصل بها التفاهم خصوصا بعد تفتح القبائل العربية على بعضها قبيل الاسلام و بعد مجيئه .

و أما الفصل الثالث فنظري كذلك ، و عنوانه : الاقتصاد اللغوي و التخفيف في الاستعمال اللغوي العفوي - مفهومه بين القديم و الدرس اللغوي الحديث - ، حاولنا فيه أن نوصل لمفهوم الاقتصاد و علاقته بلغة الحياة اليومية ، و ان علماء اللغة العرب القدامى أدركوا مرامي الفرد العربي في استعمال لغته ، و نزوعه إلى بذل أقل مجهود خصوصا فيما يكثر دورانه على ألسنتهم فيما يتشافهون به من الكلام ، كما أشرنا إلى رؤى كثير من هؤلاء تتعلق بلغة العرب ، و أن هذه المسألة بقيت ملحة للبحث فيها خصوصا بعد اقتصار تصور الناس في عصرنا على أن العربية الفصيحة لا تمثلها سوى اللغة الأدبية ، أو اللغة الرسمية ذات المستوى المنقبض ، و لذلك اشرنا كذلك إلى عناية الدكتور عبد الرحمن حاج صالح بالموضوع ، و دعوته في كثير من المناسبات إلى الاهتمام بالموضوع .

أما الفصل الرابع فمنهجي ، و عنوانه : إشكاليات المدونة التخاطبية العفوية الفصيحة في التراث و منهجية دراستها ، تطرقنا فيه إلى مسائل تتعلق بالمدونة التي درسناها ، و رؤيتنا الخاصة في كيفية تحليلها و مقابلتها ببعض الظواهر الشائعة في التخاطب العفوي عند المجتمعات اليوم ، و ينبغي أن نشير إلى مسألتين غاية في الخطورة في هذا الصدد : أولهما أن مثل هذه الدراسة لا يمكن أن تتعدى المتوفر من المدونة الموجودة في أوثق المصادر النحوية ، و لذلك لم يكن في استطاعتنا إثارة كثير من القضايا التي تخص التخاطب العفوي اليومي المشاهدة اليوم من دون مدونة صحيحة تشهد بذلك ، و لذلك فهذه الدراسة هي بحث في مدونة موجودة لا يمكن التخمين خارج نصوصها ، و ثانيهما أننا راينا أكثر الخصائص لا تنفرد بها لغة الحياة اليومية عن اللغة الأدبية ، ما دفعنا إلى الاقتصار

على الظواهر التي تغطي بشكل ملحوظ على اللغة التخاطبية ، و هذا يعني أن اللغة الأدبية قد تشتمل على بعض تلك الخصائص بنسبة أقل .

أما الفصل الأخير فتطبيقي ، و عنوانه : خصائص التخاطب الشفاهي العفوي في عربية الاحتجاج ، حاولنا فيه الإلمام بتلك الخصائص تبعا للمدونة الفصيحة من جهة ، و تبعا كذلك لآراء العلماء العرب حولها ، و تبعا لما توصلت إليه بعض الدراسات اللسانية في ميزات اللغة اليومية مع ذكر بعض النماذج المسموعة في التخاطب المجتمعي اليوم على سبيل المقارنة ، ثم خاتمة لخصنا فيها اهم ما توصل إليه هذا البحث من نتائج .

و لقد كانت طبيعة هذه الدراسة تقتضي التعويل على منهجين أساسيين في البحث ، هما المنهج التاريخي الذي وظفناه في المحطات التي تناولنا فيها تاريخ العربية الفصحى ، و الدراسات اللغوية العربية التراثية التي تتضمن كثيرا من ملاحظات اللغويين العرب القدامى حول لغة العرب القدامى و قضاياها المختلفة ، و المنهج الوصفي الذي اعتمدناه في الفصل الأخير ، بجمع ما أمكننا من المدونة الموجودة في أمات كتب النحو ، و محاولة إثبات ملاحظات عليها انطلاقا من المفاهيم اللسانية و من الواقع اللغوي .

و لقد كان كتاب سيبويه العمدة الأساس في هذه الدراسة ، نظرا لما يحتله هذا الكتاب من مكانة لا يرقى إليها شك ، و ليس بدعا أن يطلق عليه قرآن النحو ، فقد اشتمل على ملامح درس لغوي علمي مبكر عند العرب ، فضلا عن كم هائل من مسموع كلام العرب الفصحاء ، كما استفدنا استفادة كبيرة جدا من معجم العين للخليل ، و كتاب معاني القرآن للفراء و كتاب معاني القرآن للاخفش الأوسط ، و مجالس ثعلب ، و الخصائص لابن جني نظرا لما تحويه هذه الكتب العظيمة من كلام العرب الفصحاء المسموع و المدون .

كما أننا أفدنا إفادة كبيرة من بعض المراجع القيمة التي أثار اصحابها ملاحظات في الصميم ، على رأسها كتاب اللسانيات العربية و كتاب السماع اللغوي العلمي عند العرب

و مفهوم الفصاحة لأستاذنا الدكتور عبد الرحمن حاج صالح ، و كتاب أسرار اللغة و كتاب
في اللهجات العربية للدكتور إبراهيم أنيس ، و كتاب بلاغة المكتوب و بلاغة المنطوق
للدكتورة لنور الهدى باديس النويري ، اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة للدكتور محمد العيد ،
كما أفدنا من بحث أستاذتنا الباحثة فاطمة سويبي بعنوان : مقارنة بين لغة التحرير و لغة
المشافهة .

و يعود الفضل بالدرجة الأولى في وضع هذا المجهود المتواضع للدكتور عبد الرحمن
حاج صالح ، الذي بعث فينا الرغبة لدراسة مثل هذا الموضوع خدمة للعربية ، و تصحيحا
لبعض المفاهيم الشائعة عن هذه اللغة الشريفة ، كما يعود إليه الفضل في أن أمدنا بنصائح
و توجيهات حين أبدينا رغبة في هذه الدراسة ، و كتب لنا ملحوظاته على خطة الموضوع
و خطواته ، و التي مهدت لنا الكثير من السبل في غمار البحث .

و لم يكن الخوض في بحث مثل هذا أمرا يسيرا ، و لا إيجاد بحوث تطرقت إليه أو إلى
بعض جوانبه باستفاضة أمرا ممكنا ، كما أن كثيرا من مسائله هي تارة محل خلاف علمي
و تاريخي ، أو محل صراع بين الباحثين ذوي الخلفيات و التوجهات المختلفة ، كما أن
الموضوع لا يخلو من مجازفات اجتهدنا أن نضبطها وفق ما توفر لدينا من المراجع
و البحوث .

كما لا يفوتني أن أتقدم بخالص الشكر و عظيم الامتنان إلى الدكتور محمد الحباس الذي
تولى الإشراف على هذا العمل ، و متابعتة بالنصح و التوجيه و التسديد ، و الشكر الخالص
موصول كذلك للدكتور عبد المجيد سالمى على كل المساعدات التي أسداها إلينا في مشوارنا
العلمي و المهني ، و الشكر كذلك موجه سلفا لأعضاء اللجنة الموقرة التي و من المؤكد
ستقف على كثير من النقائص في هذا البحث ، و ستوجهنا بآراءها النيرة و ملاحظاتها
القيمة من أجل رده إلى الصواب .

1- الفصل الأول

اللغة : شكلها الشفاهي و الأشكال المقابلة

– المفاهيم العامة و اللسانية –

"والصوت هو آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منشورا إلا بظهور الصوت"

أبو عثمان الجاحظ

"الكلام مجموع ما يقوله الناس"

"الكتابة تطمس المعالم الحقيقية للغة"

فرديناند دي سوسير

1 - اللغة : شكلها الشفاهي و الأشكال المقابلة - المفاهيم : العامة و اللسانية -

1.1 - الإطار العلمي للبحث و مفاهيمه الأولية : تتدرج هذه الدراسة فيما يصطلح عليه

من سنوات ب : "اللسانيات العربية"¹ La Linguistique Arabe ، وتحاول عرض الواقع اللغوي للمجتمع العربي في عصر الفصاحة على المقاربة العلمية التي تكفل وصف ما قيل فعلا ، و ذلك من خلال ما تركه لنا النحاة الأوائل فيما وصفوه و دونوه ، و تهدف أولا إلى النأي بهذه المدونة عن بعض التصورات الخاطئة ، فموضوعها إذن هو : العربية الفصيحة الشفاهية اليومية L'arabe Classique Orale Quotidienne² .

و هذا بحث قد يحلينا إلى الوقوف عند مصطلح اللغة الشفاهية ، وما يمكن أن يصاحب هذا المفهوم ، فلقد عني كثير من الدارسين و المنظرين في اللغة و الأدب بمحاولة إيجاد السبل العلمية التي تمكنهم من الوقوف على النتائج اللغوي المفقود للشعوب الدارسة ، لأنهم أيقنوا أنهم لو تحقق لهم ذلك فإنهم سيضعون أيديهم على مدونة Corpus من شأنها ان تكشف عن كثير من خبايا ماضي الإنسان ، الفكري و اللغوي على السواء ،

¹ . يعتري هذا المصطلح جدل كبير بين اللسانيين العرب ممن واكبوا وصول الدرس اللساني إلى الوطن العربي، وبين من قدموا هذا الدرس على السواء، وموضوع الاختلاف هو ما يراد من هذا الميدان المعرفي بغض النظر عن اصطلاحاته ومفاهيمه، وقد سار على ثلاثة تيارات أولها نقد التراث اللغوي ، وثانيهما التحليل البنوي للغة، وثالثهما تطبيق النظرة اللسانية الحديثة على اللغة العربية، كما ذكر حلمي خليل، وترى فاطمة الهاشمي بكوش رأيا مخالفا موجزه أن اللسانيات العربية لابد أن تمر عبر ثلاث مراحل أولها الاقتناع بعدم كفاية النحو التقليدي ، ثانيهما تبني النموذج الوصفي، ثالثهما وصف اللغة العربية من خلال اللسانيات العربية.

- ينظر في هذا: نشأة الدرس اللساني العربي الحديث، فاطمة الهاشمي بكوش ، إيتراك للنشر والتوزيع ، مصر الجديدة ، ط1 ، 2004م، ص4،6 .

وظلت هذه المسألة و الإشكاليات المتعلقة بها موضوع نقاش موسع بين اللسانيين العرب ، و للنظر أكثر في هذه القضية يمكن الرجوع إلى كتاب اللسانيات واللغة العربية لعبد القادر فاسي الفهري ، وكتاب قضايا لسانية وحضارية لمنذر العياشي ، و كذلك اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة - حريات النشأة و التكوين - لمصطفى غلفان .

² . هكذا وجدنا ترجمة الفصحى فيما بحثنا ، و سنتعمد في ترجمة المصطلحات على كتابين هما :

- معجم اللسانيات ، جورج موان ، تر : جمال الحضري ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع .
- مشروع المصطلحات الخاصة ، هيثم الناهي ، هبة شري ، حياة حسنين ، المنظمة العربية للترجمة .

و فلذلك فدراسة ما تشافهت به حضارة من الحضارات السابقة حقيقة و فعلا ، ليس طريقا نحو تحقيق مفاهيم لسانية أو انطباعات لغوية فحسب ، بل إنها تجعل الذاكرة لتلك الحضارات كتابا مفتوحا بكل أبعاده الثقافية و الفكرية و العقائدية و الاجتماعية ، و لهذا أيضا لن نكون مغالين إذا قلنا أن المدونة القديمة الشفاهية الشعبية صارت : تطرح أمامنا أكثر من سؤال معرفي على الصعيد العام في الثقافة والتاريخ والأنثروبولوجيا ، وعلى الصعيد الخاص في البحث اللغوي واللساني .

و ليس بدعا على الإطلاق ، ان تتضافر جهود كل المهتمين بهذا النوع من الموروث ، أكانوا من علماء الآداب الشعبية و الفلكلور ، أم من علماء اللسانيات التاريخية ، أم حتى من المهتمين بآثار الشعوب القديمة و تراثها الثقافية ، و لم يصبح من المنهج العلمي أن تتأى التخصصات العلمية عن بعضها البعض ، و لا تفيد من بعضها البعض ، خصوصا و أنه منذ القرن التاسع عشر انصهرت الفوارق بين العلوم الانسانية ، لما اتخذت التفكير البنوي منهجا لها ، في البحث و التفكير و المنطلقات .

إن البحث في فيما تحقق على ألسنة العوام من الناس من أشكـال لغوية قبل قرون من الآن ، و محاولة دراستها لتعد في نظر الكثيرين مجازفة علمية في مجال البحث اللساني لأننا ببساطة لا نملك أن نوفر مادتها ، ولا أن نعيدها و نحيتها من جديد ، و لذلك فإننا اليوم ، أحوج ما نكون إلى التأصيل لجملة من التصورات الكثيرة التي تتصل بهذا المجال ، حتى نضع أمام أنفسنا مدخلا واضح المعالم لدراسة لغة العرب في أبسط أشكالها ، مما قد ينبو عن كثير من الدارسين الالتفات إليه ، وهو اللغة الشفاهية العفوية le Language Orale Spontané¹ ، لدى العرب الأولين في عصور الاحتجاج ، والذي

¹ . ينظر في ترجمة مصطلح التخاطب الشفاهي العفوي :

- Contribution à l'analyse du langage oral spontané, these pour obtenir le grade de Docteur de l'universite joseph fourier, laboratoire de Communication Langagière et Interaction Personne-Système – Fédération imag, grenoble 1, france, par Mohamed-Zakaria kurdi, avril 2003 .

على الأقل قد حصل لدينا ظن راجح بأن الناس يسيئون تصويره ، فيما لديهم من انطباع عن تاريخ العرب ومجتمعهم الأول .

إن كثيرا من الأحداث و المنجزات العلمية و الثقافية في العصور المتأخرة ، صورت للأجيال الناشئة أنه من أراد أن ينطق العربية كما نطقها أسلافنا ، فإنه ينبغي له ان يتشادق في القول و يمطّط الكلام ، و يجهد نفسه بأن ينهك جهازه النطقي باستغراق الحروف مخارجا و صفات ، و أن تقرر أصوات الحركات الإعرابية آذان سامعيه حتى تتحقق على لسانه العربية الفصحى ، حتى أساء الناس تصور الحقائق التاريخية المتعلقة بلغة العرب ، و كيفيات آداءهم للغتهم في حياتهم اليومية ، في الوقت الذي تشهد فيه الدراسات اللغوية العربية المبكرة بما يخالف هذا التصور الخاطئ .

و نسي أكثر الناس بأن فيما بين أيديهم من هذا التراث اللغوي الضخم ، ما يغنيهم عن التصور الخاطئ و عن التساؤل ، و بأن علماء العرب قد تركوا لهم عناية و رعاية باللغة العربية لم تشهدها أمة من الأمم التي درست لغاتها ، و لا حتى من درسوا لغاتهم لأجل نصوصهم المقدسة ¹ ، بل إنهم قد لا يصدقون أن هؤلاء العلماء النحاة و اللغويون العرب ، سَجَلُوا لهم ما سمعوه مشافهة من العرب ، و دونوا لهم العربية الخالصة في أزهى أزمانها ، و وفروا لهم مادة من العربية الشفاهية مشفوعة بملاحظاتهم العلمية ، و أغنوا العرب المتأخرين عن التيهان في المستحاثات بحثا عن بقايا ما تشافه به أسلافهم ، في وقت استفاق علماء اللغويات و الآداب الشعبية الغربيون ، و بدؤوا تَوًّا يبحثون عن الأسس العلمية التي توصلهم إلى تراثهم الشفاهي المفقود .

وما فتئ كثير من الدارسين عند الغرب في العصور المتأخرة ، يعودون إلى أسئلة الشفاهية والموروث الشفاهي ، فأسسوا على ذلك رؤى واتجاهات شتى في أكثر من جانب يخص هذه المسألة ، كبعدها الثقافي ، وقيمتها التاريخية والحضارية ، ورواسب الأديان

¹ . كالهنود الذين درسوا السنسكريتية بدافع عقائدي ، و هو تفسير كتابهم المقدس فيدا Védas .

والمعتقدات لدى الشعوب القديمة ، وتجليات الأدب الشعبي والفلكلور ، وأساطير الأمم البائدة وثقافتها ، وقد أدهم ذلك بصورة قسرية إلى استنتاج الشفاهي أو محاولة ذلك من خلال ما هو متوافر بين أيديهم ، فإذا هم قد استصحبوا معهم قضايا الموازنة بينه وبين "المكتوب" l'écrit ومناقشة ذلك في أطاريح كثيرة في الفكر والثقافة واللغويات والآداب وغيرها.

و الحقيقة العلمية تدفعنا إلى القول بالمقابل : إنه لا يمكن تصور البحث اللساني للغ شفهية ما بمعزل عن موضوع هذه الصراعات¹ إن صح التعبير ، إلا أنه يختلف عنها بوضوح المنهج في التناول ، وتحديد المقاصد العلمية في دراسة اللغة ، دون التفات إلى متاهات التساؤلات التي لا تفضي في أكثر الأحيان إلى نتيجة علمية دقيقة وواضحة .

و يمكن لنا اليوم في مجال البحث اللساني أن ننطلق من سؤال مهم يتسم بالعلمية والمنطقية في آن واحد وهو : هل صورة العربية الفصيحة التي لازمتنا وقرأناها في دواوين العرب ، و تعلمناها في المدارس نطقا و قراءة و كتابة : هي بصفاتها نفسها لغة العرب الأولين في أبسط صور حياتهم اليومية ؟².

قبل الحديث في أي مسألة لابد من تأكيد أمر مهم : هو أن العرب في عصر الفصحاة الأولى كانت في ألسنتهم مظاهر ميزت بين لغة شعرهم و خطبهم و مقاماتهم الرفيعة ، عن لغة حياتهم اليومية ، وهذا معلوم لدى المتمرسين باللغة العربية و الدارسين لتاريخ هذه اللغة و ظروف نشأة النحو العربي ، و لكن في نفس الوقت ليس أمر الفصحاة مقصورا على

¹ . عقد فرديناند دي سوسير في محاضراته فصلا أسماء : "الصورة الكتابية للغة" وتحدث عن ضرورة اللجوء للكتابة في دراسة اللغة من جهة، ومن جهة أخرى بين أسباب عدم الانسجام بين اللغة والكتابة وقد لخص ذلك في الأخير بقوله: "إن الكتابة تطمس المعالم الحقيقية للغة"

ينظر علم اللغة العام ، تر: يوثيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، العراق، 1985م، ص42،46،47،48.

² . يقول محمود فهمي حجازي : " وقد أثار بعض الباحثين منذ أواخر القرن التاسع عشر قضية لغة الحديث اليومي في جزيرة العرب في هذه الفترة القرن الأول والثاني للهجرة ، و تساءل البعض : هل كانت اللغة الفصحى لغة الشعر فقط أم أنها كانت أيضا لغة التعامل في الأمور اليومية ولغة التعامل بين القبائل ؟ " ، يراجع كتابه : علم اللغة العربية مدخل تاريخي مقارنة في ضوء التراث واللغات السامية ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 1996م ، ص 234 .

لغتهم الأدبية ، فالعرب الذين أخذت عنهم اللغة اتصفوا بالفصاحة في كل أحوالهم الرسمية وغير الرسمية كما اصطلح على ذلك كثير من الدارسين¹.

و من الطبيعي أن نشير بادئ ذي بدء إلى أن البحث في اللغات المحكية على السنة العوام في فترة زمنية معينة يحتاج منا إلى استجماع عدد كبير من القرائن العلمية ، و التي من شأنها أن تقرنا أكثر من هذه المدونة ، خصوصا و أننا كما أسلفنا ليس باستطاعتنا أن نحوز مادة حية منها ، و هذا الأمر الذي يدفعنا إلى عدم الانعزال في الرؤية اللسانية فحسب إذا عرفنا أن كثيرا من الأسئلة المتعلقة بالتراث الشفاهي للشعوب هي محل بحث في ميادين ثقافية و فكرية كالأدب الشعبي أو علم الفلكلور ، و النظريات العلمية المتحققة فيه .

ولا يمكن أن ننكر أن كثيرا من المفاهيم العامة المتصلة بالشفاهية كإشكال ثقافي عام ، هي ذات صلة وثيقة بها كمبحث لساني في نفس الوقت ، ويمكن أن نجد ملاحظات مهمة جدا عند بعض مفكري الغرب الذين عدّوا مسألة الموروث الشفاهي هاجسا في مؤلفاتهم ، كوالتر أونج Walter ong في مؤلفه الشهير الكتابية والشفاهية ، أو بول زومتور Paul Zomthor في مؤلفه مقدمة للشعر الشفاهي ، أو جاك بودي Jack Boody في كتابه من الشفاهية إلى الكتابة ، أو عند أرلات شومان Aelette Chemain في بحثها الموسوم من الشفاهية إلى الكتابية -استمرار أو قطعية- ، وغيرهم من الدارسين الغربيين الذين تناولوا المسألة في بعدها الثقافي والفكري والأدبي ، و لعل ظهور ما سمي بعلم اللغة الشعبي² Linguistique Folklorique دليل واضح على ذلك .

و كيف لنا أن نتجاهل ما قدمه لنا المهتمون بالتراث الشعبي للأمم السالفة من نظريات متقدمة في الموضوع ، و ما قدمه لنا غيرهم في الدراسات التي عنيت باللغات المحكية

¹ . مصطلحا الرسمية وغير الرسمية شائعان عند الدارسين، على أن أوساطا أخرى تطلق على هذين المفهومين لغة الكتابة و لغة الكلام ، واختار عبد الرحمن حاج صالح مصطلح المستوى المنقبض والترتيلي مقابل المستوى العفوي وهناك إطلاقات أخرى سيأتي بيانها.

² . ينظر موجز تاريخ علم اللغة ، ر . ه . روبنز ، تر : أحمد عوض ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1997 م ، ص 16.

القديمة ، و قد قطعوا في ذلك أشواطاً مهمة من البحث و التحري في طرائق الحصول على عينة صادقة من تلك اللغات ، خصوصاً و ان بعضها أثبت أن بعض ملامح تلك اللغات الشفاهية للشعوب القديمة لا تزال عالقة بالأسنة العوام إلى يومنا و ذلك رغم نزوع اللغات إلى مبدأ التطور ، و نحن في البحث اللغوي أحوج إلى ذلك المفهوم ، من منطلق أننا ندرسها دراسة علمية واصفة ، و لا نحفل كثيراً - إن صح التعبير - بأبعادها الثقافية .

و نحن كدارسين للعربية القديمة ، لم يكن وصول الموروث الشفاهي إلينا إلا عن طريق واحد وهو الرواية وتدوين المرويات كآليات لحفظ المسموع اللغوي ، ما يفتح المجال كذلك للحديث عن طاقة هذه الآليات في توضيح ملامح الشفاهية التواصلية ، ثم تدوينها في الشكل المكتوب - و الذي من المفروض يحجب عنا الهيئة الصوتية المنشودة للدراسة - ، يجعلنا نتساءل عن الملاحظات التي أرفقها اللغويون العرب القدامى به ، و التي كانت عملية وصفية دقيقة لما سمعوه و دونوه .

و اللسانيات كمجال معرفي له خصوصياته و أسسه البحثية ، تمدنا ببعض المفاهيم المتصلة بهذا الموضوع اتصالاً وثيقاً ، فالتخاطب الشفاهي المجتمعي كأداة تواصل من الدرجة الأولى كونه خطاباً لغوياً متحققاً لا يمكن أن ينفصل عن كونه عفوياً تلقائياً ، وكونه نطقاً حاملاً للهوية الصوتية للغة ، فهو من جهة أولى "كلام" Parole أو أداء فعلي للغة ، وهو من مبادئ فرديناند دي سوسير¹ Ferdinand de Saussure ، و لقد أشار منذ مطلع القرن العشرين إلى حتمية التفرقة بين اللغة Language و الأداء الفردي الواقعي و الفعلي لهذا الرصيد الجمعي المشترك ، كما أن بعض الرؤى اللسانية التي ظهرت فيما بعد ألقت ظلالها على هذا المفهوم بشكل أعمق يأخذ بعين الاعتبار إحالة الفعل اللغوي على جميع ما يحيط بلحظة التكلم ، لذا فإن مثل هذا المستوى من الفعل اللغوي هو "تلفظ" Énonciation

¹ . يقول سوسير: "الكلام مجموع ما يقول الناس"، علم اللغة العام، ص 38.

يحمل في متته دلالات عن إطاره الاجتماعي حسب إميل بنفينيست¹ Emile Benveniste ، و مفهوم آخر يمكن أن نفيد كثيرا من حيثياته ، يعالج أسس التخاطب الدائر بين المتكلمين المستخدمين للمادة اللغوية ، ليستحيل ما يمكن ان نسميه محادثة Conversation وتحدث ، لا ينفصل عن حاجته لتوافر آليات التخاطب اللساني التي حددها رومان جاكبسون² Roman Jakobson من مرسل Expéditeur و مرسل إليه Récepteur ، وكذلك مختلف المفاهيم المتواجدة في ميدان "السوسيولسانيات" Sociolinguistique وهو المجال الذي يهتم بهذا النوع من الخطاب .

هذه مفاهيم مهمة جدا باعتبار أن الدرس اللساني الحديث قد أولى دراسة اللسان في إطاره الاستعمالي أهمية قصوى ، و كذا كافة المعطيات التي من الواجب أو من الممكن توافرها في الشفاهية العفوية ، والتي من ممكن أن تفسر لنا بعض السلوكات اللسانية في التواصل المجتمعي بصنوفه وأشكاله ، و لذلك فلا بد لنا من مقدمات مفاهيمية ، تمكننا من وضع ما يبيصطح عليه باللغة الشفاهية اليومية أو العفوية في إطارها الذي تستحقه .

2.1- اللغة الشفاهية المنطوقة:

1.2.1- المفهوم والتحديد:

إن الباحث في التراث اللغوي الشفاهي لكل المجتمعات يلحظ أول وهلة أن هذا المجال اتخذ مسارين عظيمين في تناول الموروث الشفاهي للشعوب القديمة : أحدهما لغوي صرف انكبّ على محاولة تحليل هذه المادة وفهمها من الناحية "الشكلية" Formalisme سعيًا

¹ . المصطلحات المفاتيح في اللسانيات ، ماري نوال غاري بريور ، ترجمة عبد القادر فهم الشيباني، سيدي بلعباس، الجزائر، ط 1 ، 2007م ، ص 53 ، 54.

² . ينظر أساسيات اللغة رومان جاكبسون وموريس هالة تر: سعيد الغانمي، ط 1 ، 1429هـ / 2008م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب ، ص 20.

لاكتناه نظامها وبنياتها وقواعدها، ودراسة مستوياتها "الصوتية" Phonétique و"الصرفية" Morphologique و"النحوية" Grammatical و"المعجمية" Lexical ، وقواعدها العامة.

وأما الثاني فأدبي، يعتبرها منطلقاً لدراسة "أساطير" Legends تلك الحضارات القديمة وثقافتها، ضمن ما يسمى "بالأدب الشعبي" Littérature Populaire و"الفلكلور" Folklore ويمكن لنا أن نستفيد من هذين التيارين كثيراً من سمات هذه الظاهرة نقصد - الموروث الشفاهي للشعوب القديمة - ، ولكننا قبل ذلك نطرح تساؤلاً مهماً وهو الآتي : أكانت اللغة غير شفاهية منطوقة حتى نلجأ إلى هذا التحديد ؟

لقد أقرّ دي سوسير بأن دارس اللغة إنما يتعامل معها في صورتها الكتابية إذا تعلق الأمر بلغة محكية، وأنه يجد نفسه مضطراً إلى الاعتماد على الشهادة الخطية ¹ ، لذا نجده ينبه على خطورة المكتوب ويقصد بذلك أن اللساني الذي يعتمد إلى دراسة اللغة عبر مدونة مكتوبة لا يمكن أن يكون علمياً يخضع اللغة في صورتها الحيّة إلى الملاحظة الصرف، وهو المبدأ الأكبر الذي قامت عليه اللسانيات في نشأتها.

والمفهوم من هذا وكإجابة على تساؤلنا فإن الشفهيّة للغة أصل متأصل في كيانها وجوهر لطبيعتها لم تستطع الكتابة على اتساع مداها أن تنتقص منه ² ، لذا نجد سوسير يؤكد فيما بعد بقوله : "فاللغة إذن لها تقليد شفهي ثابت محدد" ³ ، وقد يكون هذا التحديد مردّه إدراك علماء اللغة لخطورة طغيان صورة الكتابية على تصور الناس للغة وبل والتعامل معها في صورتها الكتابية التي ليست إلا تعبيراً عنها ⁴.

¹ . ينظر علم اللغة العام، ص 42.

² . في مدار اللغة واللسان، أحمد حاطوم، شركة المطبوعات للنشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1996م، ص 11.

³ . علم اللغة العام، ص 43.

⁴ . يقول محمود فهمي حجازي: "هناك خلط غير يسير يقع فيه كثيرون لا يميزون بين الأصوات والكتابة ، أو بمعنى آخر بين اللغة في صورتها المسموعة وبين اللغة وقد كتبت بالحروف ، ويعتقد كثيرون أن الكتابة بصفة عامة صورة صادقة للغة وفي هذا نظر " ، يراجع كتابه مدخل إلى علم اللغة ، ص 29.

وبالعودة إلى مصطلح الشفاهي فإننا نجده في المعاجم العربية دالا على ذلك ، ونقصد

دلالة المواجهة والمباشرة والاتصال دون حائل ، وفي توجيهه اللغوي نجد ما يلي:

شفه : المشافهة بالكلام : المواجهة من فيك إلى فيه، ذكره الخليل (ت 170 هـ)¹ ، وواقفة ابن فارس (ت 395 هـ)² وذكر الجوهري (ت 393 هـ) : والمشافهة ، المخاطبة من فيك إلى فيه³، وعند الزمخشري (ت 538 هـ)⁴ : تقول العرب شافهته بحدِيثي ، وجاء في المحيط⁵ : وله شفة في الناس أي ثناء ، و حسب ما ورد في القاموس المحيط⁶ : وشافهه أدنى أدنى شفنه من شفته، وفي المعاجم الحديثة نجد: شافهه مشافهة وشفاها، خاطبه متكّما معه⁷، وشافه الرجل الرجل، خاطبة وتكلم معه⁸ ، وبالرغم من استخدام كثير من اللغويين المحدثين لهذا المفهوم تحت تسمية شفــــــــــــــــوي و الشفوية ، ألا أن الأفصح تركه والاقتصار على قولنا شفهي وشفهية⁹ وشفهية⁹.

¹ . كتاب العين، تح : مهدي المخزومي ، ابراهيم السامرائي ، دار و مكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، مادة شفه ، (ج3/ص402) .

² . معجم مقاييس اللغة ، تح : عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، 1423هـ/2002م ، مادة: شفى ، (ج3/ص200) .

³ . الصحاح ، تاج اللغة وصحاح العربية ، تح : أحمد عبد الغفور عطار، طبعة خيرية ، ط 2 ، 1402هـ/1982م ، باب : الباء والفاء والميم ، (ج6/ص2237) .

⁴ . أساس البلاغة ، تح : محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان ، ط1 ، 1419هـ/1998م ، مادة شفه ، ص 514 .

⁵ . المحيط في اللغة ، للصاحب بن عباد، تح : محمد حسين آل ياسين، عالم الكتب بيروت، لبنان، ط 1 ، 1414هـ/1994م، مادة شفه (ج3/ص394) .

⁶ . للفيروز آبادي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، مادة شفه ص1611 .

⁷ . المعجم الوسيط ، إبراهيم أنيس وجماعة من المؤلفين ، طبع مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، مصر، ط 2 ، مادة شفه، ص513 .

⁸ . المعجم العربي الأساسي أحمد مختار عمر وجماعة من المؤلفين، طبعة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مادة: ش-ف-هـ، ص 695 .

⁹ . ينظر الكتاب لسيبويه تح : عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر (ج3/ص360) . والصحاح للجوهري باب الباء والفاء والميم (ج6/ص2237) .

و "تخاطب" مصدر الفعل "تخاطب" على وزن تفاعل بزيادة التاء في أوله والألف بعد فاءه، وأشهر معانيه الدلالة على مشاركة اثنين فأكثر في أصل الفعل الثلاثي صراحة¹.

وأما مصطلح التخاطب الشفاهي فإنه الأنسب لما نريد بحثه ودراسته ، والعدول عن القول خطاب إلى تخاطب يحيلنا إلى دلالة هذا الوزن للمصدر، وهو كون الخطاب عملية تبادلية ذات حركة أخذ وردّ دائر ومتصل.

والشفاهي : مصدر شافه ، لحقته ياء النسبة فصار على وزن "فَعَالِيّ"، وفعال مصدر فاعل²، في قولنا شافه شفاها ، كقاتل قتالا ، أما ياء نسبته فإلى الشفاه التي يكنى بها عن الكلام والتصويت والنطق ، قال الزمخشري³ : وله في الناس شفة حسنة، ذكر جميل .

أما من الناحية الاصطلاحية فإننا نجد التخاطب الشفاهي أو اللغة الشفاهية المنطوقة في الدرس اللغوي بعدة تسميات لمدلول واحد ومنها : اللغة "الشفاهية" Orale أو "المتكلمة" Parlée أو "المنطوقة" Prononcé أو "الملفوظة" Énoncé أو "المتحدثة" Parlée .

وعلى هذا سنجد مفهوم اللغة الشفاهية لدى اللغويين على ضربين :

أولهما : عام يشمل أي أداء صوتي للغة سواء كانت عفوية أو أدبية ، و هذا وفق التحديد المصطلحي المعتمد ، و في هذا الصدد قال أحد الدارسين "لا نعني باللغة المنطوقة ما يقابل الكتابة أو اللغة الفصيحة بالنظر إلى المستويات أو اللهجات المحكية ، وإنما نعني بها

¹ . ينظر دروس التصريف ، محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية بيروت، لبنان، 1416هـ / 1995م، (ج1/ص79).

² . المعجم المفصل في علم الصرف ، راجي الأسمر، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان ، ط 1 ، 1413هـ / 1993م، ص 373.

³ . أساس البلاغة ص 514.

الشكل المنطوق للغة الكتابة فالتفرقة هنا ليست تفرقة بين مستويات لغوية وإنما هي تفرقة بين هئتين للخطاب بلغة واحدة¹.

وثانيهما : خاص ويقصد به اللغة الشفاهية الاجتماعية التواصلية ، أو ما درجنا على تسميتها بالعفوية ، والتي يشترك فيها العوام والخواص من الناس ، والتي تصدر عنهم في مواقف حياتية بسيطة ، يترجمون فيها رغباتهم وحواراتهم العامة، دونما قيد.

و تراثنا اللغوي يحوي إشارات إلى هذا المفهوم ، فعلى سبيل المثال يعرف أبو الفتح بن جني (ت 392 هـ) اللغة أنها " أصوات يعبر كل قوم عن مرادهم " ² وهو بذلك يجعل اللغة في المقام الأول ذات هوية صوتية مسموعة منطوقة لا صورة في الذهن ولا مكتوبة على ورق ولا مشتملة على الدوال الأخرى ، و يعد هذا التعريف للغة من أقرب التعريفات التراثية إلى المفهوم العلمي الصحيح ، إذ يؤكد ابن جني فيه على الطبيعة الصوتية أولا ، ثم ما يقابلها من الدلالات المقابلة لها في منظومة المواضع الاجتماعية .

وقد يكون قريبا من ذلك ما وصف به الجرجاني (ت 816 هـ) اللغة بأنها : ما يعبر بها كل قوم عن أغراضهم " ³ إذ لا يكون هذا إلا عن طريق التصويت والنطق باللغة في هئتها الشفاهية الطبيعية ، وأنها إنما هي " نغم تقيد وكلم تسمع " كما ذكر ابن سيده (ت 458 هـ) ⁴، وهذا يدل على أن اللغويين العرب قد تفتنوا إلى أولية اللغة الشفاهية مقابل صورتها

¹ . اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة -بحث في النظرية-، محمد العيد، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة ، مصر، ط1 ، 1990م، ص 61.

² . الخصائص، تح : محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت، لبنان (ج1/ص33).

³ . التعريفات ، تح : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي بيروت ، لبنان، ط1 ، 1405 هـ ، ص 247 .

و يقول محمود فهمي حجازي : " وهذا التعريف يتضمن العناصر الأساسية لتعريف اللغة ويتفق مع كثير من التعريفات الحديث للغة فهو يوضح الطبيعة الصوتية للغة ويؤكد أن اللغة أصوات، وهو بهذا يستبعد الخطأ الشائع الذي يتوهم أن اللغة في جوهرها ظاهرة مكتوبة "

يراجع كتابه مدخل إلى علم اللغة ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، 1997م، ص10.

⁴ . المخصص، تح : خليل إبراهيم الجفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، لبنان، 1417هـ / 1996م، (ج1/ص40).

المفترضة أو ما يقصد به الرصيد أو النظام *Système* ، أو المكتوبة مثلا مما دعاهم إلى الاهتمام بها على هذا الأساس دون غيره .

ويعرف "شانك شونتال" *Shank Chantal* اللغة المنطوقة بأنها : الكلام التلقائي المصوغ صياغة حرة في مواقف تبليغية طبيعية¹ و هذا التعريف يتميز بأنه أكثر دقة ودلالة على المراد بعد أن اتخذت اللغة في أذهان الدارسين أشكالا متعددة في ميادين قد لا تمت إلى علم اللغة بأدنى صلة مما يقدر يطلق عليه لغة كما ذكر جون لاينز² .

ويرى أحد الدارسين³ أنه في الخطاب الشفاهي يتجلى نظام الاتصال من خلال اللقاء المباشر بين طرفين وهما وجها لوجه حيث يتحقق الفعل الكلامي، أو بعبارة أخرى فإن صفة الشفاهية تعود بمفهوم اللغة إلى معناها الفطري الطبيعي حيث يكون الخطاب تخاطبا ونطقا وكلاما وتلفظا وتحدثا بالمعنى الدقيق لهذه المصطلحات.

ولذا نجد الدراسات اللغوية القديمة والحديثة تشير إلى اللغة الشفاهية اعتمادا على هذه المصطلحات ، وهي تريد بذلك المفهوم المشار إليه، إذ إن تلك المصطلحات السالفة الذكر تجتمع كما هو معلوم في دائرة تحقق اللغة بالصوت، وفي قناة مواجهة مباشرة، وإذا وردت في نص من كتب اللغة والنحو عنوا بذلك المسموع من كلام العرب لدى اللغويين القدامى كأن يقال مثلا: هذا ما تفوهت به العرب، أو نطقت به، والعرب يتكلمون، والملفوظ من قولهم، وسمعناهم يتحدثون وما إلى ذلك ، وقد درج اللغويون المحدثون كذلك على هذا.

¹ . اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة، محمد العبد ص 61.

² . و ذلك كقولهم لغة الإشارة و لغة الجسد و لغة النحل ، ينظر اللغة و علم اللغة ، جون لاينز ، تر : مصطفى التوني ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، مصر ، 1987 م ، (ج 1 / ص 3) .

يقول فندريس: أصبح هناك عدة أنواع من اللغات فكل أعضاء الحواس على استخدامها في خلق لغة هناك لغة الشم ولغة اللمس ولغة البصر ولغة السمع..". يراجع كتابه اللغة ، ص 31.

³ . ينظر النثر العربي القديم ، من الشفاهية إلى الكتابة ، محمد رجب النجار، دار الكتاب الجامعي القاهرة ، مصر، ط 1 ، 1996م ، ص 18.

ويرى "ماريو باي" Mario Pei أن اللغة المتكلمة تمتد إلى كل مجالات الحياة البشرية بدون استثناء أو تمييز¹، ويقصد بذلك عدم انحصارها في طبقة من المجتمع دون أخرى كما هو شأن اللغة الأدبية أو الفصحى بمفهومها الشائع، وهذه من خصائصها وبالتالي فهي تشمل خاصية أخرى بالاعتناء وهي كونها اجتماعية تواصلية بالدرجة الأولى، تليق بنقل المقاصد العامة والرغبات البسيطة لأفراد المجتمع، وتصح كذلك لما هو أرقى من هذا.

و يعرف إبراهيم انيس لغة التخاطب بأنها التي إذا استعملها الناس "يؤدون بها التافه من شؤونهم، لا يعمدون إليها عن قصد، ولا يتخيرون الفاظها، بل يكتفون منها بتأدية الأغراض العامة في الحياة العادية"²

ويعرف "جريجوري شرباتوف" Gregory Sherpatov³ لغة المخاطبة بقوله: "هي وسيلة أساسية لاتصال السكان الشفاهي في حياتهم اليومية (في البيت - في السوق - في الشارع). ويعرف أحمد الهاشمي ما أسماه لغة المحادثة أو لغة التخاطب بأنها حديث يدور بين بعض الناس وبعض في إصلاح شؤون المعيشة واجتلاب ضروب المصالح والمنافع"⁴.

ويصف محمد إسماعيل بصل هذا النوع من اللغة الإنسانية المنطوقة قائلاً: "إن اللغة المنطوقة هي اللغة المثلى للمحاكاة لأنها الوحيدة القادرة على حمل التعابير التي يريد المتكلم أن يبلغ عنها"⁵، ويقول باحث آخر هو محمود الجوهري⁶: " لغة الحياة اليومية لغة عملية، تستهدف التعبير الأوضح والأكثر سخونة والأسرع

¹ . أسس علم اللغة، ماريو باي، تر: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة مصر، ط8، 1419هـ/ 1908م، ص40.

² . في اللهجات العربية، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، مصر، ط9، 1995 م، ص38.

³ . عن مقال له بعنوان: خصائص لغة المخاطبة بين الفصحى والعامية، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، مصر، العدد 53، فبراير 1983م، ص205.

⁴ . جواهر أدب، أحمد الهاشمي، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، ص429.

⁵ . مدخل إلى معرفة اللسانيات، محمد إسماعيل بصل، دار الحديث، بيروت، لبنان، ط1، 1986م، ص190.

⁶ . لغة الحياة اليومية محمد الجوهري مركز البحوث و الدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة 2007م، ص16.

إقناعاً ، و مستخدم هذه اللغة - في الأغلب الأعم - إنسان عادي المفروض أنه غير متخصص أو متعمق ، لا يتوقف كثيراً أمام أصول ما يستخدمه من ألفاظ ، و أما ضلاله التاريخية و الدينية " .

لقد أدرك أكثر الدارسين للغة أهمية دراسة اللغة المنطوقة التي ينتشافة بها الناس ، خصوصاً بعد التطور العميق الذي عرفته الدراسات اللغوية وتطبيق النظر "الوصفي" Descriptif ، في هذا النوع من المعرفة و في ميدان السوسيولسانيات Sociolinguistique ، وقد يكون ذلك مردّه إلى قناعة متأصلة فيهم بأن المادة اللغوية حين تكون في إطارها الاجتماعي قد تعطينا انطباعات قد يتغاير تماماً مع تصوراتنا لهذه اللغة في أوسع مفاهيمها ، ولذلك¹ كان لعلم اللغة الاجتماعي أهمية كبرى في بحث الاستخدام اللغوي الشفاهي .

أما المصطلحات الأخرى التي وردت بها هذه القضية في مختلف البحوث اللغوية والتي أشرنا إليها من قبل فهي:

2.2.1 - النطق واللغة المنطوقة:

وهو مصطلح صوتي بالدرجة الأولى نعني - النطق - ، يقول الجوهري : "المنطق الكلام"² ، و يقول ابن فارس: " المنطق الكلام ، و الناطق الحيوان و الصامت ما سواه "³ ، و "ناطقني كلمني " كما ذكر الزمخشري⁴ ، و نطق: " تكلم بصوت وحروف تعرف بها المعاني"⁵ ، وفي القرآن الكريم قوله تعالى على لسان سيدنا سليمان عليه السلام "يَأْتِيهَا النَّاسُ

¹ . اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة، محمد العيد ص 21.

² . ينظر الصحاح ، مادة نطق ، (ج4/ص1559) .

³ . مقاييس اللغة، مادة نطق (ج5/ص440) .

⁴ . أساس البلاغة ، مادة نطق ، ص 887 .

⁵ . القاموس المحيط ، باب القاف فصل النون (ج1/ص1195) .

عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ" ¹ ، قال البغوي (ت 510 هـ) : "سَمَّى صوت الطير منطقاً لحصول العلم منه كما يفهم كلام الناس" ² .

والنطق في "علم الأصوات" Phonétique هو خروج الصوت وحدوثه ، وهو مرتبط بما يسمى "أعضاء النطق" Organes Vocal أو جهاز النطق ، يقول كمال بشر "تنظم عملية الكلام خمس خطوات أو أحداث متتالية مترابطة يقود بعضها إلى بعض حتى تتم الدائرة بين المتكلم والسّامع في أبسط موقف من المواقف اللغوية وذكر منها" عملية إصدار الكلام المتمثل في أصوات ينتجها ذلك الجهاز المسمى جهاز النطق" ³ ، واللغة إنما تصير واقعا في عالم التخاطب بتمام هذه العملية وفق العرف والوضع اللغوي الحاصل في أي مجتمع، ولهذا يعبر عن التخاطب الشفاهي باللغة المنطوقة احترازا كذلك عن المفهوم العام للغة في اللسانيات "وهو النظام" Système ، والرصيد المشترك المائل في أذهان أفراد المجتمع. ولهذا نرى بعض الدارسين يطلق عليها مصطلح اللغة الصوتية، ووصفها بأنها تؤدي جميع "الوظائف الأساسية للغة les Fonctions de base de la langue : الاستخدام كأداة للاتصال- تحديد معاني الكلمات- وإطلاق التسميات على الأشياء والظواهر والمفاهيم- التعبير عن الشعور والأفكار" ⁴ ، و ما إلى ذلك .

ولقد مر بنا من قبل تعريف شانك شونتال اللغة المنطوقة بأنها "الكلام التلقائي المصوغ صياغة حرة في مواقف بليغة طبيعية" ⁵ ، وهذا منذ نشأة اللغة قبل ظهور الكتابة وارتقاء اللغة

¹ . سورة النمل، الآية 16.

² . معالم التنزيل لابي محمد الحسين بن مسعود البغوي ،تح : محمد عبد الله النمر ، و عثمان ضميرية ، و سليمان سلم الخرش ، دار طيبة للنشر و التوزيع ، الرياض ، ط4 ، 1417هـ/ 1997م ، (ج6/ص148)

³ . علم الأصوات، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2000م، ص37.

⁴ . عن مقال بعنوان: أصل الفعل العربي وأصل الكلام الإنساني، لجعفر دك الباب، مجلة بحوث في اللغة، صادر عن اتحاد الكتاب العرب، عدد1، ص 255.

⁵ . اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة ، محمد العيد ، ص 61 .

حيث عرف الإنسان الآداب كالخطابة والملاحم، وهذا ما يؤكد لنا " أن الأصل في اللغة أنها نظام من الرموز الصوتية المنطوقة التي يتعامل بها الإنسان¹.

3.2.1 - الكلام واللغة المتكلمة:

وهذا مصطلح من الخطورة في الدراسات اللغوية الحديثة بمكان ، إذ صار من المفاهيم المفاتيح في اللسانيات البنائية التي أرسى دعائمها دي سوسير، ولكن المصطلح بمفهومه العام يراد به كذلك ما يدور عليه الخطاب الشفاهي من حدوث "الاتصال" Communication بالشفاهة المباشرة، قال الخليل: كليمك الذي يكلمك وتكلمه²، ومادة هذه اللفظة " أصل صحيح دالٌّ على نطق مفهم " كما ذكر بن فارس³، قال بن سيده: "الكلام القول"⁴، و في أحد المعاجم الحديثة: الكلام في اللغة الأصوات المفيدة، وعند المتكلمين: المعنى القائم بالنفس الذي يعبر عنه بالفاظ⁵ وكذا يدخل في هذا الجانب المعرفي مصطلح اللغة المتكلمة. المتكلمة.

ولقد اتضح الأمر وصار أكثر دقة بعد أن اختار دي سوسير صراحة مصطلح "الكلام" Parole للدلالة على الجانب "الاستعمالي" Utilisé للغة، أو الأداء اللغوي إذ نجده يقول إن الكلام هو "الأفعال الصوتية Actes vocales، على خلاف اللغة التي هي نظام ماثل في أذهان الأفراد على شكل مخزون أو رصيد لذا فلا علاقة بين مفهوم اللغة ومفهوم الكلام ، فكلاهما مستقل عن الآخر⁶.

¹ . مدخل إلى علم اللغة ، محمود فهمي حجازي ، ص 29 .

² . العين، مادة كلم ، (ج5/ص378) .

³ . مقاييس اللغة ، مادة كلم ، (ج5/ص131) .

⁴ . لسان العرب ، لابن منظور ، تح: عبد الله علي الكبير ، محمد أحمد حسب الله ، هاشم محمد الشاذلي ، دار

المعارف ، القاهرة ، مصر ، مادة فصل الميم باب الكاف ، (ج5/ص3922) .

⁵ . المعجم الوسيط ، مادة كلمة ، ص832 .

⁶ . ينظر علم اللغة العام ، ص 38.

و تبعا للمفهوم الشائع الذي ارتبط بمصطلح كلام مقابل لغة ربطه اللغويون بالاستعمال الفردي الواقعي¹ ، فقد ذكر ماريو باي أن "اللغة المتكلمة تمتد إلى كل مجالات الحياة البشرية بدون استثناء أو تمييز، كل الناس تتفاهم أساسا عن طريق الأصوات الكلامية"². إن مفهوم الكلام بصفة أعم هو تحقق اللغة في دائرة التخاطب عن طريق التصويت فترسم الهيئة الفعلية للغة ، واللغة أصلا تكون كلاما وتكون مشافهة كما أشار إلى ذلك محمود السّعران في أثناء وصفه للغة أنها كلام³ ، و على ماسبق فإن إطلاق مصطلح اللغة المتكلمة في الأغلب ينصرف إلى اللغة بمعناها الاستعمالي الصوتي المسموع .

4.2.1 - التحدث واللغة المحدثّة:

ولغة المحادثة أيضا مصطلح استعمله بعض الدارسين أثناء حديثه عن الخطاب الشفاهي الاجتماعي ، والحديث يقصد به دوران الفعل الكلامي بين الأفراد المستعملين للغة ما ، وهذا معنى الكلمة في أصلها اللغوي بل ربما أريد به كثافة السلوك الصوتي ، قال الخليل⁴: "رجل حَدِّث كثير الكلام" ، ويقال حَدِّث كما ذكر الزمخشري⁵ ، والحدث جماعة

¹ . يقول دي سوسير " الكلام إذن ليس وسيلة جماعية" ، يراجع علم اللغة العام ص 38 .

و بعض الدارسين للغة يستشكلون هذا الطرح ، لأن سوسير في نظرهم لم يكن مصيبا في تصويره إلى حد ما، ويذكر هـدسون: "أن الكلام يسمح لنا بالاتصال بعضنا ببعض على مستوى أكثر تركيبا وتعقيدا، عما لو لم يكن هناك كلام ، ولأن الاتصال نشاط اجتماعي يمكننا القول بان الكلام نشاط اجتماعي أيضا، إلا أنه لا يرتبط مباشرة بزعم دي سوسير أن الكلام مسألة فردية بحتة" ينظر كتابه : علم اللغة الاجتماعي ، تر: محمود عياد ، عالم الكتب، القاهرة ، ط 2 ، 1990م، ص168.

² . أسس علم اللغة، ص 40.

³ . علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت، لبنان ، ص 55.

⁴ . العين ، مادة حدث ، (ج3/ص177) .

⁵ . أساس البلاغة ص 134، والمحيط في اللغة (ج3/ص34) مادة حدث .

يتحدثون¹، وقد أطلق أحمد الهاشمي لغة المحادثة على ما وصفه بأنه "حديث يدور بين بعض الناس وبعض في إصلاح شؤون المعيشة واجتلاب ضروب المصالح والمنافع"².

5.1.1 - التلفظ واللغة الملفوظة:

وقد كان العلماء الأوائل يلجأون إلى استخدام هذا المصطلح يقولون أحيانا هو من لفظ العرب أو ما لفظت به العرب دلالة على المسموع عند كلامهم ، ومخاطباتهم التي دونت³، في عصر الفصاحة .

ولعل هذا المصطلح يدل بصفة غالبية على كون اللغة في صورتها الملفوظة من الأفواه ، وهذا توجيهه اللغوي والاصطلاحي، فهو يعني لغة : "أن ترمي بشيء كان في فيك"⁴ ، وذكر أن فارس أنه " كلمة صحيحة تدل على طرح الشيء ،وغالبا أن يكون ذلك من الفم "⁵ ، واللفظة الملفوظ من الكلام⁶، وخطاب لفظي أي شفوي⁷، كما ورد في كتب اللغة والمعاجم ، والمعاجم .

ويستخدم النحويون العرب القدامى مصطلح لفظ في بيانهم لمفهوم الكلمة ، و مقدمات درسهم النحوي تشمل الأبواب المبدئية التي يفرقون فيها بين الكلمة و القول و اللفظ ، و يستعملون هذا الأخير وهم يقصدون التحقق الصوتي و الفعلي لها كمادة مسموعة ومنطوقة ، إذ نجد في أكثر من موضع

¹ . لسان العرب، مادة حدث، (ج2/ص797).

² . جواهر الأدب، أحمد الهاشمي، ص429.

³ . ولنا عودة إلى أساليب علماء العربية في إطلاقاتهم على المدونة الشفاهية العفوية التي أخذوها عن العرب.

⁴ . العين ، مادة لفظ ، (ج8/ص161) ، والمحيط في اللغة (ج10/ص29) .

⁵ . مقاييس اللغة ، مادة لفظ ، (ج5/ص259).

⁶ . المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط 38، 1998م، ص 727.

⁷ . المعجم العربي الأساسي، مادة ل.ف.ظ، ص1094.

قولهم : الكلمة : لفظ¹ ، والكلام : الألفاظ² ، وكانوا على وعي بأن الكلام الملفوظ لابد أن يكون له حضور في الواقع يؤيده سماع ما تلفظ به، ولذا كانوا يسمون الأداء الفعلي للأصوات لفظا، ومن أمثلة ذلك ما ذكره سيبويه (ت 180 هـ) إذ قال: " خرج الخليل يوما على أصحابه فقال: كيف تلفظون بالباء من : أضرب ، والدال من : قد ، وما أشبه ذلك من السواكن؟ فقالوا با، دال، فقال: إنما سميتم باسم الحرف ولم تلفظوا به"³.

والملاحظ أن الخليل حين سمع منهم نطقهم للحروف على هيئتها المستقلة رأى أن ذلك لا يعدو سوى تسمية للحروف بأسمائها، ولفظه - أي الحرف - إنما يكون في موقعه وسياقه حيث يأخذ كلفيته الأدائية الفعلية في الوحدة اللغوية .

و"التلفظ" L'Énonciation كذلك مصطلح لساني شهير ومعروف، ويعرف بأنه ذلك الفعل الذي يكمن في استعمال اللسان بغية تبليغ رسالة إلى شخص معين "ويكون الملفوظ هو الصيغة اللسانية التي تنتج عن فعل التلفظ"⁴، وقد ارتبط هذا المصطلح بعالم اللسانيات إميل

¹ . ونجد في كتب النحو المعروفة كثيرا من نماذج هذا التحديد أو قريبا منه، يراجع على سبيل المثال التذليل والتكميل في شرح كتاب التسهيل لأبي حيان الأندلسي تح : حسين الهنداوي، دار التعلم، دمشق، (ج 1/ص14)، والنحو الشافي حمود حسين مغالسة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1418هـ / 1997م ، ص 13.

وفي متن الكافية : قال ابن الحاجب : " الكلمة لفظ وضع لمعنى مفرد ، و علق الرضي الاسترابادي بقوله : و اللفظ في الأصل مصدر ، ثم استعمل بمعنى الملفوظ به" ، يراجع شرح كافية ابن الحاجب للرضي الاسترابادي تح : يوسف حسن عمر ، منشورات جامعة قان يونس ، بنغازي ، ليبيا، ط2 ، 1996م ، (ج1/ص 19،20) .

وفي متن الأجرومية: الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع" التحفة السنية لمحمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة السنة، القاهرة، 1409هـ / 1989م، ص 5.

² . شرح جمل الزجاجي لابن خروف الإشبيلي تح : سلوى محمد عمرعرب، مطبوعات جامعة أم القرى، 1418هـ، ص 253.

³ . المقترض، لأبي العباس المبرد، تح : محمد عبد الخالق عزيمة ، مطبوعات وزارة الأوقاف المصرية، القاهرة ، ط 3 ، 1415هـ / 1994م، ص 170.

وقد أشار الجاحظ بوضوح إلى ذلك في قوله: "والصوت هو آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منثورا إلا بظهور الصوت"، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط7 ، 1418هـ / 1998م، (1/79).

⁴ . المصطلحات المفاتيح في اللسانيات، ماري نوال غاري يريور، 53.

إميل بنفيست الفرنسي الذي دعا إلى دراسة ما يحدث عندما يتحقق الكلام ، وضرورة التمييز بين اللغة باعتبارها نظاما ، واللغة كنشاط يتحقق من خلال وقائع، وعلامات لها دور في تصيير اللغة خطابا فعليا، هذا التصيير هو الحديث أو التلفظ أي إجراء اللغة وتحقيقها من خلال فعل كلامي فردي¹.

إن جميع المصطلحات التي سبق الحديث عنها انطلاقا من الشفاهة ، ومرورا على النطق والكلام والحديث والتلفظ يمكن استثمارها في تناول نوعية السلوك اللغوي الذي نود شرح قوانينه وأشكاله وكيفيات أدائه وظواهره ، وهو اللغة الشفاهية أو ما يمكن تسميتها بناء على ما سبق: اللغة المنطوقة أو المتكلمة أو لغة المحادثة أو اللغة الملفوظة ، على أن هذه المصطلحات كما هو مقرر في علم اللغة الحديث لها مفاهيم دقيقة ارتبطت بنظريات لسانية محددة تتفق مع ما نريد الإشارة إليه من اللغة الشفاهية العفوية في نقاط عامة مدارها على الشق المادي للظاهرة اللغوية وهو الصوت .

وإن كنا قد أوردنا عددا من التعريفات لهذه اللغة ، فإنه من الواجب علينا أن ننوه إلى أقربها إلى المقصود ونجعل منه منطلقا في دراستنا لها، ومن تلك المفاهيم التقديم الذي جاء به شانك شونتال للغة المنطوقة أنها: "الكلام التلقائي المصوغ صياغة حرة في مواقف تبليغية طبيعية"².

وكذلك المفهوم الذي قدمه جرجوري شرباتوف للغة المخاطبة أنها "وسيلة أساسية لاتصال السكان الشفاهي في حياتهم اليومية في البيت، في السوق، في الشارع...."³، وكذلك التمييز

¹ . ينظر مبادئ في اللسانيات، خولة طالب الإبراهيمي، دار القصة للنشر، الجزائر ، ط2 ، 2006م، 159.

² . اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة، محمد العيد، ص 61.

³ . مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، العدد 53، ص 205.

الذي جاء به ماريوباي حيث وصف اللغة المتكلمة بأنها "تمتد إلى كل مجالات الحياة البشرية بدون استثناء أو تمييز¹ لما سماه باللغة المتكلمة.

3.1- مسألة الشفاهية في اللغة الإنسانية وخطورتها:

1.3.1 - إشكالية دراسة الموروث اللغوي كمادة صوتية :

يعتبر الموروث اللغوي لكل المجتمعات الإنسانية عبر العصور مصدرا أساسيا يكشف لنا الحقائق العلمية والوقائع العامة التي مرت بها تلك الشعوب، إنه وثيقة حية يمكن المعرفة البشرية من الاقتراب لدرجة القطع باليقين في فهم حضارات الأمم المتعاقبة، وأشكال علومها وثقافتها، بعض النظر عن فهم "الفصائل اللغوية" Familles Linguistiques و"التنوعات اللهجية الإقليمية" Diversités Dialectiques Régionales لدراسي اللغة البشرية.

يقول الحاج بن مومن²: يمثل "التراث" Patrimoine لواءاً تنضوي تحته مجموعة بشرية معينة، ويعتبر بمثابة بطاقة تعريف محدد معالم العلاقات داخل تلك المجموعة، وهو حجة الشخص وبرهانة القاطع يثبت من خلاله انتماءه لعشيرته، الشيء الذي يمنحه تزكية أفرادها والتمتع بعضوية الكاملة، والتراث الشفوي باختلاف أنواعه وأشكاله، هو نسيج الذاكرة ووعاء المخيلة الذي يسعى من خلال سريان الصوت إلى ربط علاقات تواصل مع الآخر، ونحن نرى ما لأهمية هذا التحليل في رصد قيمة الموروث الشفاهي للإنسان عبر العصور، لذا نجده يتساءل في معرض في معرض حديثه عنه بقوله: وأمام هذا الكم الهائل من الأحداث الاجتماعية والثقافية الذي تختصه وتروجه الشفوية ، يبقى التساؤل مطروحا حول نوعية الأدوات المسخرة من طرف ذاكرة أجيالنا المتعاقبة لضمان دوام تلك الذخيرة³.

¹ . أسس علم اللغة، ص 40.

² . عن مقال له في كتاب التراث اللغوي الشفاهي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ، المغرب ، ط 1، 2005، ص 15.

³ . نفسه ، الصفحة نفسها.

فاللغة الشفاهية للشعوب القديمة إنما تأخذ قيمتها العلمية في الدراسة لو ظفر بها على هيئتها المنطوقة و هذا الأمر مستحيل ، و يزيد الأمر تعقيدا لمن يتصدى لتجميع لغة الحياة اليومية ، أنها مع طول تاريخها الذي يفوق تاريخ أي فصحي تتعايش معها كانت - بسبب عدم التدوين و افتقارها للنموذج المكتوب - كانت تعيش و تتطور دون الخضوع لقواعد صارمة متفق عليها و ملزمة¹ ، و حتى لو دونت لكان ذلك من دون منهج علمي واضح يكفل نقلها بخصائصها التي تكشف عن حقائق علمية تفيد الظن الراجح فضلا عن اليقين .

وقد أشار والتر أونج إلى هذه القضية بوضوح تام لما قال: "وفي غياب الكلمة لا يكون للكلمات في ذاتها حضور بصري، حتى عند ما تكون الأشياء التي تمثلها بصرية"، إنها أصوات تستطيع أن تستعيدها مرة أخرى أو تتذكرها بمعنى إعادة استعادتها، ... لكن ليس لها بؤرة تركيز ترى من خلاله ولا أثر يتبع، بل ليس لها منحنى سير يرصد، إنما مجرد وقائع وأحداث"² .

إن اللغة في هيئتها الصوتية كانت إلى زمن قريب تمثل إشكالا حقيقيا فيما يخص إجراءات تخزينها و أخذ عيناتها لدراسة حقيقتها إذا استثنينا صورتها الكتابية ما دام علم اللسان أثبت بعد "المنهج الفيلولوجي" ³ Méthode Philologique عن المنهج العلمي الكفيل بذلك، وقصر جدواه على ملاحظات تاريخية وشرح نصوص لأهداف غير لغوية.

أما اللغة ككيان ومادة لا بد لها من ملاحظة صرف وحضور سمعي، وبعبارة أخرى يجب أن يكون السامع حائزا بالقوة على ما يحققه المتكلم بالفعل: على هذا الشرط يتوقف وجود الكلام"⁴، وقد أشار العالم اللساني الأمريكي "ليونارد بلومفيلد Leonard Bloomfield إلى أن

¹ . لغة الحياة اليومية ، محمد الجوهري ص 11 .

² . الكتابية والشفاهية، تر: حسين البنا عز الدين، سلسلة عالم المعرفة الكويت، 1414هـ/ 1994م، ص 89.

³ . يذكر سوسير أن ما أسماه النقد الفيلولوجي "له عيب مهم: فهو يعتمد اعتمادا كلياً على اللغة المكتوبة"، ينظر علم اللغة العام، ص 19.

⁴ . اللغة، جوزيف فندريس، تر: عبد الحميد الرواحلي، محمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، ص 44.

الشكل المكتوب ليس لغة، ولكنه طريق تسجيل اللغة بواسطة إشارات ورموز مرئية¹، ولذلك قال "جوزيف فندريس" Josséph Vendryes : " ومن الخطأ أن نزن أن النص المكتوب يعتبر تمثيلاً دقيقاً للكلام فلسنا على عكس ما يتصور كثير من الناس نكتب كما نتكلم... وإن أقل الناس ثقافة يشعرون بمجرد وضع أيديهم على القلم بأنهم يستعملون لغة خاصة غير اللغة المتكلمة"².

إذن اللغة كمادة صوتية لا بد من مواجهتها في ظل ما توافر منها بخصائصها إذا تعلق الأمر بلغات الشعوب القديمة ولهجاتها المحلية، وعلى هذا كذلك أوضحت أرلات شومان³ ما يجب معالجته عند إشكاليات الموروث الشفوي حيث تساءلت: "على أي أساس يمكن للباحث أن يتعامل معه مدونا مكتوبا أم مسجلا سموعا؟ ثم ألا يُخشى أن تذهب كتابته وتسجيله ببعض عناصر المهمة التي يمكن أن تفيد في دراسته ؟ .

ولعل الأمر يصبح أكثر صعوبة عند دارس اللغة واللهجة على السواء إذ إنه يعمل على شكل هذه اللغة، ودقائقها المسموعة بتحديد معالمها وصفاتها مما يدعونا إلى القول إن علماء اللغة العرب القدامى قد أدركوا - ولحسن الحظ - هذا ، إذ أرفقوا جمعهم للغة والذي امتاز بالدقة والتحري بشيء من الوصف وتدوين الملاحظات على الفروق التي وجدوها بين اللهجات العربية آنذاك.

2.3.1 - الإشكالية نفسها في علم الفلكلور :

والجانب الثاني الذي يحتل فيه الموروث الشفاهي أهمية بالغة هو البعد الأدبي لهذا الموروث وقيمته الحضارية والتاريخية، أو ما يمكن تسميته المخزون "الدلالي والثقافي"

¹ . اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة، محمد العيد، ص 16.

² . اللغة، فندريس، ص 404.

³ . بلاغة المكتوب وبلاغة المنطوق - دراسة في تحول الخطاب البلاغي - ، نور الهدى باديس النويري ، مركز النشر الجامعي ، منوبة ، تونس ، 2005م ، ص 44 .

Sémantique et Culturelle له ، وإذا كانت الحقائق المستفادة لا تحصر في ملاحظات لغوية عند المهتمين باللغة، فإنها تمتد بالنسبة للمهتمين بثقافات الشعوب القديمة أو الفلكلور والأدب الشعبي إلى الغوص في الدلالات ، و بما أن "دراسة التراث اللغوي الشفوي يمكن أن تفتح آفاقا جديدة ومتعددة في وجه عدد من العلوم، وقد تعين كثيرا في فهم العديد من الألغاز اللغوية والتاريخية"¹ والحضارية والدينية على السواء، ولكن تدوين حقائق من الأهمية بمكان لابد أن يعتمد على مدونة صحيحة موثوق بها، يحصل اليقين بصحة تلقيها وصلابة الأداة التي حفظت بها، وإلا فنحن أمام ركام عظيم من الظن والتخمين والعشوائية في فهم حضارة الإنسان.

ولهذا أكد أحد كبار المهتمين بالثقافة الشفوية وهو بول زومتور ارتباط مفهوم الشفاهية في ذهن العديد من الدارسين بما هو مرتجل شعبي لا يقوم على تفكير وروية، ومن ثم سعوا إلى تهميش الثقافة الشفوية وردها إلى امتيازات غير قائمة على دراسات جدية² ذلك دائما لنفس الأسباب وهو أن الموروث الشفهي لا يمكن أن يكون قد وصل إلينا دقيقا الدقة التي نتوخاها، والمنقول الشفوي قابل للانتحال وله حضور سمعي فقط، وذلك أنه مجرد أصوات تتلاشى المجرى النطق بها أو التلفظ بها³.

وعلى ما يبدو فإن الإشكالية بين اللغويين وبين دراسي التراث واحدة، وهي قضية المصادقية، وثبوت هذا الكم الهائل من المخزون الشفاهي التاريخي، مما يجعلنا نتساءل بالفعل عن الآليات التي وصل إلينا بها هذا الموروث أو الطرق التقليدية الممتدة في تسجيله من جهة والحفاظ عليه من جهة أخرى، فإذا كان أحد الدارسين⁴ قد قرر بأن التراث يتم

¹ . مقال بعنوان: التراث اللغوي الشفوي بين الطعن والتمهيد، لعبد الرحيم العطوي ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ، ط1، 2005 ، ص 30.

² . بلاغة المنطوق وبلاغة المكتوب، نور الهدى باديس النويري ، ص 27 .

³ . النثر العربي القديم، من الشفاهية إلى الكتابية، محمد رجب النجار، ص 20.

⁴ . مقال: التراث الشفوي وإعادة بناء الهوية، الحاج بن مومن، ص 16.

حفظه عن طريق ما أسماهم بالودعاء وأمناء الثقافة الشفوية، فهذا فيه نظر لان هذا لا يتوافر في كل ما نقل من التراث الشفوي إلا إذا تعلق الأمر بمدونة اعتمد أصحابها على مقاييس صارمة جدا في سماعها وتسجيلها ونقلها خصوصا إذا كان الداعي إلى ذلك عقائدي، وهو ما ينطبق فعلا على علماء اللغة والنحو الأوائل العرب الذين تفتنوا في عهد مقدم إلى هذه القضية قبل وصفهم للغة القرآن وتأسيسهم للنحو العربي.

4.1 - اللغة الشفاهية التخاطبية المجتمعية :

1.4.1 - ضوابط المفهوم:

الحدث اللغوي الشفاهي الذي حفظ لنا من تاريخ الإنسانية نوعان: واحد متعلق بالمعرفة والخطاب النوعي، يعكس حالات رسمية كالآداب والمناظرات، حيث يكون الناطق في حال انقباض، وتوجس من الخطأ، أو يربط ذلك إلى شيء من " الإغراق في القول والتكلف والإجتلاب" كما يسمى ذلك الجاحظ (ت 255 هـ)¹.

وقد تكون الكتابة كأداة لحفظ التراث متناسبة مع هذا النوع من الخطاب، حتى وجد مصطلح "لغة الكتابة"².

ولكن الكتابة- ولحسن الحظ- فيما ورد إلينا من مؤلفات الأقدمين لم تعن بهذا المستوى فحسب، فلقد أثبتت الثقافات القديمة أنها قامت أيضا بـ " الاحتفاظ بالكتابة لاستعمالات أخرى غير أدبية"³، ونقصد بذلك ما جاء محكيا في مدونات عن أحداث تخاطبية في صميم الحياة الاجتماعية، وردت على ألسنة العوام والغوغاء في سياقات ساذجة من حياتهم، في الأسواق والأحياء والبيوت والبراري، لتسجل واقعة ليست ذات خطر في حينها، وإنما الوعي الإنساني

¹ . البيان والتبيين، (ج1/ص254).

² . سياأتي الحديث عن هذا المصطلح.

³ . إنسان الكلام، كلود حجاج، تر: رضوان ظاظا، دار الطباعة للنشر، بيروت، ط1 ، 2003 ، ص111.

بالتاريخ وبالألسن جعلها ذات أهمية، وهذا هو النوع الثاني للحدث الشفاهي وهو تسجيل وقائع لغوية شتى لأفراد المجتمع .

وفي الحالتين يمكن أن نتناول نماذج مدونة، وملاحظة رواسب الشفاهية من خلالها، وإن كانت تفتقد أهم خصائصها الصوتية، وعلى الرغم من أن الكلمات تتأسس في الكلام الشفاهي، إلا أن الكتابة تحبسها حبسا مؤبدا في حقل مرئي¹، فتوافينا ببعض تلك الخصائص.

أما النوع الأول فيمكن تسميته "خطابا رسميا" Discours Officiel أو أدبيا "Littéraire، أو "أدبا شفاهيا" Littérature Orale ، أو لنقل شفاهية رسمية، وهي محل نقاش ثقافي واسع²، لعل أكثر مسألة دار فيها الجدل إضافة إلى قيمته التاريخية، قضية القيمة الإبداعية حيث انقطعت الروابط بين هذا النص وبين سياقاته بخلاف الأدب المكتوب حيث تتلاحم لحظة الإبداع بلحظة الكتابية والتروي، ولو قدر للشفاهي منه أن يصل بكل محتوياته عندئذ يتجلى نظام الاتصال بين المبدع والمستمع من خلال اللقاء المباشر بينهما وجها لوجه، حيث يتحقق إنشاء الفعل الكلامي من خلال الأداء الشفاهي الحي بكل تراثه السيميوطيقي والدلالي والصوتي والحركي³، العناصر التي يغيب جلها في نسخته المكتوبة، وقد يطول الحديث في مشكلات هذا النوع من الإبداع⁴.

والنوع الثاني وهو الخطاب الشفاهي العفوي، وهو أقل نصيبا في الحفظ والكتابة، لأنه ورد في شكل مبسط من أشكال الحياة دون الثقافية أو الرسمية، بل هي اجتماعية خالصة، صادرة عن أي فرد في أي زمان ومكان لا تحسب حسابا للفكرة ولا للكلمة، وبالتالي تتناقض النوع الأول، ولم لا تكون هي الأصل مادامت وجدت بكثرة ضخمة في الواقع، وقلة معدودة

1 . الشفاهية والكتابية، والتر أونج ، ص 49.

2 . كالمشكلة الهوميرية"، وسيأتي الحديث عن ذلك.

3 . النثر العربي القديم، من الشفاهية إلى الكتابية، محمد رجب النجار، ص 18.

4 . ينظر إنسان الكلام، كلود حجاج، ص 109.

في الكتابة وهي كما أسلفنا تعارض الشفاهية الأدبية الرسمية الموجودة بنسبة أقل في الواقع، فاقت نظريتها في الكتابة.

والحاصل هو أنه ليست هذه التعارضية بالنسبة إلى الألسنة تعارضية تفصل بين نظامين يمثلان محتوى من المعنى هو نفسه وحسب، إذ تتضمن في الواقع اختلافا بين مستويين، أحدهما عفوي وأقل اصطلاحية، والآخر أكثر اعتبارا يتمتع بسلطة أكبر¹

يقول توفيق قريرة²: وبما أن الكلام سلوك اجتماعي فإنه يكون كأى سلوك آخر ذو وجهين، وجه عادي أو حر يتحدد بمقياس تواتر السلوك الملاحظ، ووجه رسمي أو قانوني يتحدد بأحكام معيارية، وبحضور عنصر من التفكير الواعي".

وهذان الشكلان السائدان للغة المتكلمة الشفاهية يمثلان حالة أشبه ما تكون حين وصفها أحد الدارسين بقوله: "إنني مع أي مقالة لغوية، أو مع أي خطبة وطنية أو اجتماعية أو سياسية، إنما أجد نفسي في مقام رسمي فصيح، في مقام غير يومي يفرض علينا استعمال الفصحى، فإذا انتقلت إلى الجهة المقابلة، إذا رأيت نفسي في سيارة عمومية أو كنت في جلسة منزلية، وكان الحديث حديثا شفهي الطابع يومي النفس لا يسوغ لي أبدا حديث فصيح موصول"³.

و قد يكون هذا المثال مبسطا لصورتي اللغة، و معينا في إيضاح هذين النوعين من الخطاب الشفاهي اللغوي، ونحن من أجل ضبط المفهوم الخاص لما نريد البحث فيه هو النوع الثاني المتمسم بالعفوية، والذي هو جزء من التركيب الاجتماعي لكل فئات الناس مهما

¹ . ينظر نفسه، ص 114.

² . عن مقال له بعنوان: مقارنة لسانية اجتماعية لظاهرة لحن الخاصة، حوليات الجامعة التونسية، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، العدد 44، 2000 م، ص 80.

³ . ينظر في مدار اللغة واللسان، 88 - 89.

كانت مستوياتهم، نورد أهم خصائص التخاطب العفوي الشفاهي ، والذي يلخص أنه يقوم على:

2.4.1 - الوظيفة التواصلية المحضة في الشفاهية المجتمعية :

إن لغة التخاطب الشفاهي العفوي تعد بلا شك قاعدة السلوك اللغوي والأصل الذي فطرت عليه العملية الكلامية، وهي كما أسلفنا ليست حكرًا على طبقة اجتماعية دون أخرى لأنها وسيلة أولى للتواصل والتفاهم بيني بني البشر، وهي بهذا تؤدي وظيفتها الأولى الركيزة وهي التواصل، ولذا بغض النظر عما ذكره دي سوسير من إقصاء هذا الاعتبار فإن التأكيد على تواصلية اللغة اعتبر ثورة نسبية على أفكاره، وقامت دراسات أثبتت ضرورة اعتماد "وظيفة التواصل" *Fonction de Communication* في الدراسة اللسانية، وخالصة ما أدت إليه هذه الدراسات هو اعتبار اللغة وسيلة للتعبير عن الأفكار والعواطف والرغبات وقد ذكر "هنري سويت" *Henry Sweet* أن اللغة هي التعبير عن الأفكار بواسطة الأصوات الكلامية، وكذلك "إدوارد سابير" *Edward Sapir* الذي عد اللغة وسيلة إنسانية لتوصيل الأفكار والانفعالات والرغبات¹.

ولا يمكننا أن نغفل عن الذكر رومان جاكسون الذي نبه إلى أن وظائف اللغة تبنى على أساس واحد وترجع إليه هو التبليغ والأخبار والتواصل والإفادة².

وبالتالي فإننا لما نتحدث عن التخاطب العفوي الشفاهي كأصل أول لأشكال اللغة الأخرى نربطه حتماً بالوظيفة التواصلية كأصل أول "لوظائف اللغة" *Les Fonctions du Langage* الأخرى يقول مصطفى غلفان: "إن أفراد المجتمع يتكلمون فيما بينهم، يسمعون ما يقوله لهم غيرهم، يتبادلون الأفكار والآراء، يعبرون عن مشاعرهم وأحاسيسهم بواسطة مجموعة من

¹ . ينظر اللغة والمجتمع، رأي ومنهج، محمود السعران، مطبعة الإسكندرية ، مصر ، ط2 ، 1963م ، ص 11.

² . ينظر مبادئ في اللسانيات، خولة طالب الإبراهيمي، ص 30.

الأصوات"¹، وهو هنا يشير بوضوح إلى الأحداث الكلامية الشفاهية الدائرة بين الناس في أحوالهم العادية حين يتشافهون بمراداتهم الطبيعية، ويصبح الكلام واللغة بينهم وسيلة المعاشرة الاجتماعية، ووسيلة التعبير والفهم²، أما إذا تناولنا أشكالاً أخرى من السلوك اللغوي فإن الوظائف التي يمكن أن تؤديها تتزايد وتتضاعف، كالشفاهية الأدبية، والفصحى الأدبية، واللغة المكتوبة، وغيرها مما لا يكون شفاهياً أو كان شفاهياً ولم يكن عفوياً أو الخطاب اللغوي المقصور على طبقة أو فئة معينة من الناس.

3.4.1 - العفوية والتلقائية في الشفاهية التواصلية :

إن استخدام اللغة داخل المنظومة الاجتماعية أو ما أسماه محمود السعّان استعمال اللغة في المخاطبات الاجتماعية التي لا تستهدف غاية³، وحتى التي تلبي بها الرغبات العامة والمطالب الفطرية باختلاف صنوفها وأشكالها إنما يتسم كذلك بالعفوية والتلقائية وهو عند كل مستخدم للخطاب اللغوي الاجتماعي الشفاهي هنا عبارة عن سلوكه اللغوي الحر الذي يسلكه في الفضاءات التي يشعر فيها بأنه غير مقيد بسلطة تفرض عليه نمطاً معلوماً من الكلام⁴، وقد بين جرجوري بأن التكلم التلقائي هو ما يقابل غير التلقائي، وفرعه إلى حديث ومحادثة، وذكر بأن التلقائي يتميز عن غيره بانتفاء عنصر الإعداد المسبق، وسماه "إيجليسون" Eaglison الكلام غير المتروي⁵، كما ذكر أحد الباحثين أنه يقوم على خصائص هي : أنه مألوف ، و غير تقليدي ، و غير قياسي ، و غير رسمي⁶ .

¹ . في اللسانيات العامة، مصطفى غلفان، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2010م، ص 14.

² . الأثروبولوجيا اللغوية، مها محمد فوزي نهاد، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1430هـ/ 2009م، ص 139.

³ . اللغة والمجتمع، رأي ومنهج، ص 19.

⁴ . مقال: مقارنة لسانية اجتماعية لظاهرة لحن الخاصة، حليات الجامعة التونسية، العدد 44 ، ص 80 .

⁵ . ينظر اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة، محمد العيد، ص93، 94 .

⁶ . ينظر :

إن لغة المحادثة التي تحدث بين الناس جميعهم والتي يلبن بها حاجاتهم اليومية تتميز بهذه التلقائية والعفوية ، تماشيا مع فطرة الإنسان في التعامل مع غيره في كل الأمكنة التي يتردد عليها، لا هو يطيل الفكر والتأمل قبل النطق ولا هو يراعي نظاما معيناً أو تنسيقا في وضع ألفاظه أو حتى انتقادها في بعض الأحيان، لأن ذلك الكلام كما قال أندري مارتيني¹ "نحن على اقتناع بأنه يحصل من تلقاء نفسه والدليل هو في أن كل الناس يتكلمون"، وإذا كان الاستخدام اللغوي على هذا الشكل غير مقصور على طبقة دون أخرى من الناس، فلا بد أن الألفاظ تصدر تباعا وبسرعة قد تقاس بأجزاء دقيقة جدا من الزمن، ومما يزيدنا تيقنا من تلقائيته أنه بصيغته الاجتماعية ليس بالضرورة أن يكون وسيلة للتفاهم وتوصيل الأفكار، كما ذكر محمود السّعران، بل قد يكون جزءا من السلوك الإنساني لا غير أو ضربا من العمل وليس أداة عاكسة للفكر، لو كان كذلك لاقتصر على طبقة دون أخرى، وإن كثيرا من صور استعمال اللغة فيما يسمى بالسلوك الجماعي لا نجد فيها نقلا للأفكار أو شيئا يمكن أن ينقل²، فيصير السلوك اللغوي شبيها بما يصدر عن الإنسان من حركة وتوظيف للحواس وغيرها.

و قد قام أحد الباحثين في الأوساط الجامعية في فرنسا³ برصد مجموعة من الخصائص العامة لتي تميز لغة التخاطب العفوي الشفاهي في الفرنسية المتكلمة ، و نص في بحثه على مجموعة من الظواهر التي ترجع إلى تلقائية الحدث التخاطبي العفوي منها : التوقيفات les pauses ، الكلمات غير التامة les mots incomplets ، المركبات les amalgamees ، التكرارات les répétitions ، التصحيحات les quocorrections ، الانطلاقات الخاطئة les fautx-départs ، الجمل غير التامة les incomplétudes ، تكرار

¹ . وظيفة الألسن وديناميتها، تر: نادر سراج، المنظمة العربية للنشر، بيروت، ط1 ، 2009م ، ص 171.

² . ينظر اللغة والمجتمع - رأي ومنهج - ، ص17، 18.

³ . ينظر :

- Contribution à l'analyse du langage oral spontané , par Mohamed-Zakaria kurdi , page 23 - 28 .

الصدارة l'anaphore الحذف أو الإضمحلال les ellipses ، الواصلات الكلامية embrayeurs و غير ذلك ، و هي صفات يمكن لنا ان نرصد بعضها فيما سجله لنا علماء العرب الأوائل مما سمعوه في مناسبات كثيرة عن العرب .

5.1 - لغة الكتابة ولغة الكلام :

1.5.1 - ثنائية الكتابة واللغة في النظر اللساني:

وحتى نتمكن من الوقوف أكثر على ميزة اللغة المتكلمة أو المنطوقة لابد أن نشير إلى يقابلها من أشكال اللغة أو ما يحل محلها، أو يؤدي بعض وظائفها وعلى رأس ذلك اللغة المكتوبة أو الكتابة، والتي تعد عند بعض اللغويين قسيمة اللغة الشفاهية، أو نظاما لغويا آخر يتميز عنها من جهة، ويظهر لنا قيمة المنطوقة من جهة أخرى، يقول سوسير: اللغة والكتابة نظامان متميزان من الإشارات والهدف الوحيد الذي يسوغ وجود الكتابة هو التعبير عن اللغة، ولكن الهدف لعلم اللغة ليس الصورة المكتوبة والصورة المنطوقة للكلمات بل يقتصر هذا الهدف على الأشكال المنطوقة، بيد أن الشكل المنطوق يرتبط ارتباطا وثيقا بالصورة المكتوبة حتى إن الصورة الأخيرة تغطي على الصورة الأولى¹.

وبهذا الطغيان - أو ما يمكن تسميته سوء التصور للغة في أكثر الأحيان على أنها الشكل المكتوب - وقع هذا التداخل والتماهي اللذان جعلتا الناس لا يفرقون بين الأصل والفرع، ولذا درج كثير من اللسانيين على إيضاح هذه المسألة، ومن ذلك ما ذكره بلومفيلد أن الشكل المكتوب ليس لغة، ولكنه طريق لتسجيل اللغة بواسطة إشارات ورموز مرئية²، ورأى "جان جاك روسو" Jean-Jacques Rousseau أن اللغات جعلت ليتكلم بها ولأن الكتابة لا تصلح إلا كمعين للعبارة³، ولقد نص كثير من اللغويين على أسبقية المنطوق، واستقلاله

¹ . علم اللغة العام، ص 42.

² . اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة، محمد العيد، ص 16.

³ . بلاغة المنطوق وبلاغة المكتوب، نور الهدى باديس النوبري، ص 38 .

بخصائصه التي لا يمكن أن تتوافر في المكتوب، ولأن اعتقاد العكس وبالتالي الجنوح إلى الشكل المكتوب - كما ذكر أندري مارتيني هو كبح للتعبير الحر وتأثير على عفوية التبادلات اللغوية اليومية كما ذكر¹ وبالتالي إخراج اللغة عن مفهومها العلمي والأصيل.

و قد أقر بالمــــ Palmer قائلاً : "إننا لا بد أن نعترف ... بأن شكل اللغة المنطوقة و الأغراض التي تستخدم فيها ، مختلف للغاية عن شكل اللغة المكتوبة و أغراضها ، إن التركيز على اللغة المكتوبة ضلل علماء النحو ، فقد عجزوا أن يروا أن اللغة المنطوقة تختلف عن اللغة المكتوبة ، و حاولوا بطريقة ضالة ان يصفوا اللغة المنطوقة بمصطلحات تناسب اللغة المكتوبة ، و كان هذا أكثر خداعا لعلماء الدلالة ."²

أما عن لغة الكتابة فقد أصبحت رغم كل ما سبق تمثل وجها آخر من وجوه تأدية الدلالات التي يمكن أن توصف بأنها أضيق حدودا من المنبثقة عن لغة الشفاهية، ولقد أشار إلى هذا الجاحظ قبل قرون بقوله: "وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد : أولها اللفظ ثم الإشارة ثم العقد ثم الخط ثم الحال التي تسمى نصبة"³، وذكر مزايا الكتابة أو الخط حين يقول "ولذلك قالوا القلم أحد اللسانيين... وقالوا التعلم أبقي أثرا واللسان أكثر هذرا"⁴ وهي إشارة واضحة منه أن فضل الكتابة لا يتوقف عندها بقدر ما هو فضل على اللسان المنطوق في بيان قدرتنا على حفظ الأقوال وتدوينها، لكنها لا يمكن أبدا أن تقوم مقامها لأنها يستحيل أن تصور ما يصاحب الأقوال والمشافهات من "تغيرات صوتية" Changements Vocales في الأداء ، أو "تنعيم" Intonation أو "سياق اجتماعي" Contexte social من وجهة نظر "تداولية" Pragmatique .

¹ . ينظر وظيفة الألسن وديناميتها، ص 169.

ولهذا قال سوسير: "الكلمة المكتوبة تنجح إلى إزاحة الكلمة المنطوقة في عقولنا" علم اللغة العام، ص 44.

² . علم الدلالة : إطار جديد ، تر : صبري ابراهيم السيد ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، مصر ، 1995 م ، ص 23 .

³ . البيان والبنين، (ج1/ص76).

⁴ . نفسه (ج1/ص79).

لهذا قدّم الجاحظ الإشارة على الخط وفسر ذلك بقوله "والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تتوب عن اللفظ وما تغني عن الخط"¹، وليس هذا عند الجاحظ فقط، وإنما يحتل الصراع بين اللغة المنطوقة وبين اللغة المكتوبة حيزاً كبيراً من دراسات اللغويين وغيرهم على السواء، باعتبار الأولى لغة العامة والحاجات الاجتماعية، والثانية لغة الخاصة حتى قصرها بعضهم على الغاية الأدبية وما شابهها²، ونسوا أن الكتابة قادرة كذلك على نقل لغة المشافهة مع الاحتفاظ ببعض مزايا الشفاهي بل كانت تعتبر في الماضي الوسيلة الوحيدة لذلك قبل التطور العلمي وظهور آلات التسجيل وتحميل الأصوات في العصر الحديث.

2.5.1 - مفاضلة بين الكتابي و الشفاهي - وجهات نظر لغوية - :

ولغة الكتابة لها ضوابط أو لنقل خصائص تجعلها في كل مرة مناقضة للمنطوق وقد حاول جاك بودي³ في كتابه من الشفاهية إلى الكتابية أن يرصد الفروق الجوهرية بين المكتوب والمنطوق وأن قصد بذلك الانتصار للشفوي على المكتوب، فأورد الثنائيات الآتية:

الشفوي	المكتوب	الشفوي	المكتوب
أول	ثان	مباشر	غير مباشر
طبيعي	منمق	تلقائي	منقح
شعبي	مدرسي	عفوي	مراقب
قديم	متحضر	متطور	ثابت
أصيل	دخيل	نغمي	مجرد

¹ . المصدر السابق (ج1/ص78).

² . سيأتي الحديث عن الجدلية الحاصلة بين المنطوق والمكتوب لاحقاً.

³ . ينظر بلاغة المنطوق وبلاغة المكتوب، نور الهدى باديس النويري، ص37 .

لقد بين لنا جاك بودي بوضوح فائق من خلال هاته الثنائيات الفروق الجوهرية بين لغة الكلام ولغة الكتابة، وهو إن كاد يريد هنا كما أسلفنا تقديم الشكل المنطوق على المكتوب لكننا لابد أن نشير هنا إلى أن المكتوب له فضل عظيم على المنطوق ، أقله الحفاظ عليه من الضياع والمشاركة ولو بنسبة معينة في إبقاءه عبر العصور، ودراسة الموروث اللغوي بشكل أدق من الاختصار على سماعه إذا تعلق الأمر بلغات قديمة، لذا كما قال سوسير "تبدو لنا الصورة الكتابية وكأنها شيء ثابت مستقر، وهي بذلك أنسب من الصوت لتفسير وحدة اللغة خلال العصور"¹، ونضيف قائلاً إن "أغلب الناس ينتبهون إلى الصور المرئية أكثر من تنبههم إلى الصور الصوتية وبسبب ذلك أن الانطباعات الأولى أوضح وأكثر ثباتاً"².

ويرى أندري مارتيني³ أن الكتابة تغير مسار النظر اللساني حيث نجد الباحث نفسه تتابعات أحرف يسهل تطابقها، وتجمع في كلمات تفصل بياضات بعضها عن بعض، وهنا - كما قال - فإن الرسالة ستمر، من دون شك بشكل أفضل، لأنه على الأقل سيبقى منها أحرف ذات شكل ظاهر نستطيع إيجادها دائماً في حالة التوقف خلال القراءة.

لقد كانت ولادة الصورة الكتابية للغة فتحة عظيمة بالنسبة للقديما، الذين كان دافعهم إلى اختراع الكتابة حرصهم على إبقاء أفكارهم مدة أطول من الزمان من جهة، وحرصهم أيضاً على نقل أفكارهم إلى أماكن أبعد من مواطنهم من جهة أخرى، ولا شك أن الكتابة كفيلة لتحقيق هذين الهدفين، بعكس الكلام المنطوق الذي يتلاشى عقب صدوره من فم صاحبه⁴.

¹ . علم اللغة العام، ص 43 .

² . نفسه، ص 44

³ . ينظر وظيفة الألسن وديناميتها، ص 168.

⁴ . في علم اللغة العام، عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 6 ، 1413هـ/ 1993م، ص 52.

ورغم مكانة الكتابة "لابد أن نضع في الحسبان أن عددا هائلا من لغات العالم اليوم لا تستعمل إلا في صورتها المنطوقة وتفتقر إلى الرموز الكتابية"¹، إضافة إلى أن اللغة في تطور مستمر أما الكتابة فتجنح نحو الاستقرار كما يقول سوسير، الذي يضيف أن التغيرات التي تقع في الأصوات اللغوية لمرور الزمن أو حين تداخل اللغات لا يمكن للكتابة أن تواكبها والكتابة عنده بهذا تطمس المعالم الحقيقية للغة فهي ليست رداء للغة بل شيء تنتكر به².

وليس الصراع بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة وليد اللحظة، ولا مقصورا على البحث اللغوي، بل هو قديم ومتواجد في أكثر من ميدان معرفي، "ولقد ظلت معظم البحوث والدراسات المتعلقة بالنظر في الشفاهية من ناحية أو الكتابة عند ناحية أخرى بحثا ترمي إلى محاولة المصالحة بينهما"³، خصوصا بعد أن ساد الاعتقاد كما أسلفنا أن اللغة هي الصورة المكتوبة المجموعة في مدونات اللغات البشرية⁴.

"وحتى الخمسينيات من هذا القرن كانت شكوى بعض اللغويين من إهمال للبحث الحقيقي الجاد في اللغة المنطوقة ما زالت موجودة، وقد قال "راندولف كوبرك" Randolph kuprek بعد مرور ما يقرب من ثلاثمائة سنة من العناية الأكاديمية باللغة الانجليزية : مازلنا نفتقر إلى وصف الانجليزية التي تتكلم بها، باعتبارها مقابلة للانجليزية التي نكتبها"⁵.

¹ . معرفة اللغة، جورج بول، تر: محمود فراج عبد الحافظ، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر ، ص 21.

² . ينظر علم اللغة العام، ص 46 ، 50.

³ . بلاغة المنطوق وبلاغة المكتوب، نور الهدى باديس النويري، ص 35 .

⁴ . قال عبد الجليل مرتاض: " غير أن اللغة المكتوبة مع ذلك لم تقض على اللغة المنطوقة، وظلت الاثنان متصارعتين دون أن تحتوي إحداهما الأخرى، وهكذا بقيت إحداهما طبيعية وشبه ثابتة في نسقها العام والمعتاد، واكتفت الأخرى بأن تكون اصطناعية "تحاول أن تتوّل إلى نظام ثابت شامل وقار " ، يراجع كتابه اللغة والتواصل اقتريبات لسانية للتواصلين الشفهي والكتابي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ص 91.

مع أن لنا تحفظا على وصفه التواصل الشفهي بأنه شبه ثابت خلافا لما أقره اللسانيون وعلى رأسهم سوسير بتغير اللغة الشفاهية عبر العصور أمام استقرار اللغة المكتوبة.

⁵ . اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة، محمد العيد، ص 13.

"وبالرغم من أن رائدا لغويا مثل "فيرث" Frith قد دعا اللغويين منذ أكثر من نصف قرن إلى دراسة المحادثة حيث إنها المفتاح إلى فهم أفضل ماهية اللغة ووظيفتها وإن الدراسة الجادة للخطاب المنطوق لم يسبق إليها اللغويون وإنما سبق إليها ونبه إلى أهميتها الاجتماعية علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا"¹

وإلى جانب هؤلاء كبار المفكرين في الفلسفة والثقافة والآداب الشعبية، ومن هؤلاء مثلا "جيرار جينيت" Gérard génet الذي "يرى أن الشفوي أقدر على الإيفاء بالمطلوب وإبلاغ المقصود وذلك واضح"²، ويمكن لنا أن نعتبره مثالا عن الصراع المقدم بين جمهور المثقفين والأدباء حول قضية الشفاهي والمكتوب، لكن قبل أن تعرض لبعض تلك المناقشات الفكرية والأدبية نود أن نبين جدواها في بحثنا اللغوي.

ومن ثم نقول إن الصراع بين المادة الشفاهية والمادة المكتوبة في مجال البحث اللغوي أفادت كثيرا من طروحات ومفاهيم المجالات الأخرى ، كالأدب- البحوث المتعلقة بالأدب الشعبي والفلكلور منه خاصة - "وعلم الاجتماع" Sociologie "والأنثروبولوجيا" Anthropologie كما تقدم، وكذا بعض الأعمال التاريخية والثقافية الفكرية بوجه عام .

ومادامت المادة أو المدونة واحدة مع اختلاف الهدف والمنهج فإننا لا نعدم أن نجد ملاحظات ذات قيمة لسانية خصوصا في مجال الأدب ، ولنلفت الانتباه إلى مسألة مهمة جدا في البحث ، وهي أن هؤلاء لم يكن هاجسهم الأكبر جدوى هذه المادة من الناحية المعرفية فهذا أمر لا يحتمل النقاش ، وإنما تركز أساسا على السبل التي حفظت بها هذه المادة من تلك العصور المدروسة ، وافتقارهم عنصر الأمانة في النقل والدقة في تخزينها ، و كان تساؤلهم الأكبر و الأهم هو : كيف الوصول إلى نسخة صادقة من ما نطقت به الشعوب القديمة ؟

¹ . نفسه ، ص 14.

² . بلاغة المنطوق وبلاغة المكتوب، نور الهدى باديس النويري، ص 38 .

هذا ما يجعلنا نعترض عليهم بالنسبة لثقافتنا العربية عموماً و موروثننا اللغوي خصوصاً ، كي نضع امام أعينهم أعمال النحاة العرب الأوائل ، وطرائقهم العبقريّة في جمع ما سمعوه من كلام العرب مشافهة ، و ما حددوه من الأطر الزمانية و المكانية لجمع المدونة الفصيحة السالمة من اللحن ، وما اشترطوه في أشكال التحمل والأداء والرواية والأسانيد ، الأمر الذي لم يتقطن الغرب إلى أهميته إلا مؤخراً .

6.1 - الكتابي والشفاهي في الثقافة والآداب - القيمة و المصادقية - :

1.6.1 - جدلية الكتابي والشفاهي في الفكر الحديث :

لا نستطيع القول أن هذه المسألة بهذا الشكل هو ما يعنينا في البحث، ولكننا نستفيد منها القيمة التوثيقية للكتابي والشفاهي في المعرفة، فالشفاهي في اللغة عند العرب محكوم بضوابط أخرى، فضلاً عن الفروق بين المفهومين في الثقافة والآداب من جهة، وفي ميدان اللغة من جهة أخرى.

أما في الثقافة والآداب فلقد أخذت هذه المسألة حيزاً واسعاً من التحليل والنقاش، خاصة في تاريخ الثقافات الشعبية المحلية، فقام علماء الإنسان وعلماء الاجتماع وعلماء النفس بأبحاث ميدانية في مجتمعات شفاهية، أما مؤرخو الثقافة فقد تزايد تنقيبهم فيما قبل التاريخ، أي في الوجود الإنساني السابق للكتابة التي جعلت تسجيل المنطوق أمراً ممكناً¹.

وكانت الكتابة ونشأتها وتأثيرها في الحضارة وتسجيلها التراث البشري محل اهتمام المنظرين وأعلام الفكر عبر التاريخ في جل الحضارات السالفة، وخاضوا في قضية فضل المكتوب وقدمه بعضهم على المنطوق، وفاضلوا بينهما، فقد ذكر ابن خلدون أنها - الكتابة

¹ . الشفاهية والكتابية، والتر أونج، ص41.

– ثاني رتبة من الدلالة اللغوية، وأنها صناعة شريفة إذ هي من خواص الإنسان التي تميزه عن الحيوان¹.

ومنذ العصر الكلاسيكي صرح كل من ب.دوفيجونير B. devagenére وك. دوريه C. duret ، أن المكتوب يسيطر على المنطوق كما يسيطر المبدأ الذكري على القسم الأنثوي من اللسان².

وتبلورت منذ القدم جدلية واضحة بين المكتوب والشفاهي في طروحات فكرية وفلسفية ولغوية، وبعد ظهور أفكار دي سوسير، التي درجت على دراسة الأنماط التقابلية الثنائية، وتبعاً لما يقتضيه الفكر البنيوي، حاول أن يبين أهمية اللغة المنطوقة في ظل واقع اللغة كمادة لا بد أن تخضع للملاحظة الصرف، ودرس ما يقال فعلاً، وبالرغم من أهمية المنطوق لديه فهو يعترف قائلاً: "ولكننا نتعلم اللغات عادة من خلال النصوص المكتوبة حتى في دراستنا لغتنا كثيراً ما تستخدم النصوص المكتوبة، وتزداد الحاجة إلى استخدام الأدلة المكتوبة عند دراسة اللغات البعيدة عنا، ولاسيما اللغات التي لم يعد أحد يتكلم بها (اللغات البائدة)³، وهو بهذا يشير بوضوح إلى اعتماد المنهج الفيلولوجي في دراسة اللغة على الإرث الكتابي.

وإن كان رأي دي سوسير أتى في إطار لساني، فلا بد من ذكره في هذا الموضوع، إذ يعد صاحبه كذلك واحداً من رواد الفكر الإنساني الحديث ، و ذلك بتأثير فكره البنيوي على العلوم الإنسانية جميعها فيما بعد .

¹ . المقدمة بن خلدون، تح : عبد السلام الشداوي ، بيت الفنون و العلوم و الآداب ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط 1 ، 2005 م ، (ج3/ص312).

² . إنسان الكلام، كلود حجاج، ص 92.

³ . علم اللغة العام، ص 42.

وتعود قضية أسبقية المكتوب على المنطوق من اللغة إلى الظهور مع اتضاح معالم الحداثة، وانتشار المفاهيم الثقافية الجديدة في أوروبا، حيث أشار "جاك دريدا" Jacques Derrida إلى أهمية الكتابة، فهو الذي صرح أن "الكتابة تحتوي اللغة بكل معنى الكلمة"¹، وعقد لذلك فصولاً في مناقشة قيمة الكتابة أمام الصوت، موظفاً في ذلك ما أمكنه من آراء الفلاسفة المشاهير، وإذا كان هذا فإن الكتابة لديه "وحدها صارت تشمل كل مدلول بشكل عام، والحق أنها كانت تشمله دائماً ومنذ البداية" كما يقول².

ولقد زاد من تعلق الكثيرين في "الآداب العالمية" Littératures Mondiales بالصيغة المكتوبة للأدب على حساب المحكي من أنواع الآداب القديمة ما اصطلح على تسميته في التراث الثقافي للشعوب "بالمشكلة الهوميرية" Question homérique والتي تقابلها قضية "الانتحال" Plagiat في الأدب العربي القديم.

"فهوميروس" Homer الذي يعد مجد التاريخ الشعري لليونان قد أثارت قصائده المسماة "بالإلياذة والأوديسة" L'iliade et l'odyssée جدلاً واسعاً بين أدباء أوروبا ومتقفيها، خصوصاً في القرن التاسع عشر، حيث حدث لديهم وعي عام أن تلك القصائد كانت تختلف عن الشعر اليوناني، وتوصل بعضهم إلى أن هوميروس لم يكن يستطيع الكتابة، وفي الحقيقة كان الإطار الموجه إلى قصائده مصحوباً بقلق وشعور بأنها كانت منحولة، رغم أن "روبرت وود" Robert Wood مثلاً اعترف أن هوميروس لم يكن كاتباً، ولكنه كان صاحب ذاكرة قوية، وأن هذه الذاكرة قامت بدور متميز في الثقافة الشفاهية³، فعدت بذلك المشكلة الهوميرية بين أشهر المسائل التي زهدت المؤرخين خصوصاً والمتقنين عموماً في الإرث الشفاهي للشعوب.

¹ . في علم الكتابة جاك دريدا، تر: أنور مغيث، منى طلبة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، ط 2، 2008 م، ص 66.

² . نفسه، الصفحة نفسها .

³ . ينظر الشفاهية والكتابية، والتر أنج، ص 13، 14، 15.

أما الانتحال في الشعر الجاهلي فقد وضع ديوان العرب في معرض الشك لأسباب قد يكون أقواها أنه لم يرفق بكتابة أو دليل مادي يعود إلى تلك الحقبة، ويثبت صحة ما يتناقله الناس والنقاد على السواء.

فقد حاول "د.ص. مارغليوث" D.S. Margoliouth أن يناقش مسألة الشعر الجاهلي من حيث إنه لا يوجد ولا بيت شعر واحد في نقوش الأضرحة والنقوش الجاهلية الوفيرة، وكذلك فإن القصائد كثيرا ما تشير إلى الكتابة، مما يتضمن أن قريشا كانت تعرف الكتابة، في حين يشير تقليد العرب إلى أن القصائد كانت منقولة شفويا، وإذا كانت حفظت بالكتابة فإن القرآن يتهم العرب الوثنيين بأنهم لم يملكوا لا الكتاب ولا الكتابة¹، فهي بهذا لا محالة منحولة.

إن النشاط الثقافي الشفاهي غير المصحوب بكتابة في التاريخ الإنساني، وحتى الذي كان من حظه أن يكتب من المؤكد أن يكون ضخما وهائلا بشكل مخيف، فهو لم يكن ليطلعنا على خصائص ملاحظات في اللغة ذاتها وحسب، وإنما كان سيفتح لنا مجالا أوسع للتعرف على طبيعة الفكر الإنساني منذ النشأة، وعلى كافة الأصعدة وألوان الحياة إذا تعلق الأمر بالتواصل الاجتماعي المحض، ومن هنا سندرك الخدمة الجبارة التي قدمها علماء اللغة في الحضارة العربية للإنسانية جمعاء لما تركوا المكتوب وفضلوا عليه الشفاهي الخالص الذي عدوه أصلا، ثم ما فتئ أن يصير مكتوبا بنفسه على أدق طرق الرواية والنقل.

2.6.1 - قيمة تدوين الموروث اللغوي الشفاهي :

وعلى الرغم مما قيل في الموازنة بين الشكل الكتابي للتواصل المعرفي وبين شكله الشفاهي، فإن قضية الشفاهي عادت لتورق المفكرين منذ قرون ماضية، بل واستعادت هيبتها نظرا لما تحتله من تعبير أكثر صدقا عن المجتمعات والأجيال الماضية.

¹ . النظم الشفوي في الشعر الجاهلي، حيمس مونرو، دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، الرياض، السعودية، ط 1 ، 1407هـ / 1987 م ، ص 20.

ومهما كان من أمر المكتوب الموروث من الماضي ، ووجوده في الفضاء المحسوس المشاهد، ومن كون لغة الكتابة اتسمت بالبقاء والانتشار ، فإن "الحقيقة الباقية حتى الآن أن لغة الحديث هي أهم وسائل الاتصال الإنساني وأوسعها انتشارا، ومتوسط ما ينتجه الإنسان من حديث أكثر بكثير مما ينتجه من كلام وإيماءات وإشارات"¹.

ولذا وجب العودة إلى مباحث الشفاهي المتسم بالواقعية، ما دام المكتوب لم ينقل الحقيقة كاملة لا عن اللغة ولا عن الفكر والثقافة للمجتمعات القديمة، وصار الخطاب الشفاهي جزءا هاما من ذاكرة الأجيال التي سماها والتر أونج "المجتمعات الشفاهية" التي لم تعرف الكتابة أو عرفتها ولكن بشكل نسبي، وأشار إلى أن ثقافتها الشفاهية "تصوغ كل معارفها وتتكلم عنها بشكل يجعلها وثيقة الصلة بالحياة الإنسانية"².

"فالتواصل الشفاهي، وهو وحده الطبيعي، هو الحامل الوحيد لكامل المعنى الأصلي، إنه متعدد الطبقات لا يحفظ أي نظام في الكتابة أثره، وإنما تظهره بجلاء ظاهرة أساسية واحدة: إنها أداة الصوت"³.

ذلك لأن لغة الخطاب مهما كان نوعها تكون حية بالأصوات حين النطق بها، وأثناء مواجهتها ستكشف لنا عن عورة المكتوب حين انكشاف الحقائق.

ولا تعد الشكوك في "الآداب الغربية" Les littératures occidentales على غرار أنصار المشكلة الهوميرية مثلا لتقدح في التاريخ الشفاهي للإنسانية، إذ قد تمكننا الذاكرة الجماعية من الوثوق بها نسبيا، وكذلك وسائل أخرى "كالقالب الصياغي" Modèle de rédaction أو

¹ . أسس علم اللغة، ماريو باي، ص 40.

² . الشفاهية والكتابية، والتر أونج، ص 86.

³ . إنسان الكلام، كلود حجاج، ص 109.

"تواتر الأشكال التعبيرية" Fréquence des Formes d'expression كما بين ميليمان باري Milman Parry و ألبرت لورد Albert Lord في الشعر اليوناني والآداب اليوغسلافية¹.

إن محاولة لإلغاء الموروث الشفاهي للشعوب هو بتر واضح لأحد أهم روافد الحضارة الإنسانية، فجزء منه لا يزال يتخبط بين ألسنة الناس، وجزء منه لا زال في الذاكرة، وجزء منه متواتر بالنقل، وجزء منه حفظ بالتدوين مع بقاء سمات الشفاهية واضحة فيه، وقد تمكننا دراسته بعمق من الانفتاح أكثر على معارف وظواهر كثيرة قد تغير نظرنا إلى كثير من المفاهيم التي توشك أن تصبح مسلمة في المعارف الإنسانية بوجه أخص.

ها هنا تعود الكتابة مرة أخرى لتفرض نفسها لا كآلية مناقضة للمنطوق، وإنما كوسيلة حفاظ وادخار من الدرجة الأولى، وذلك في نقل صورة أمينة عن لغة النطق والكلام التي كانت في زمن ما، وتسجيل ما دار على شفاه أفراد مجتمع دارس كالمجتمع العربي الأول الذي يجهل أكثر الناس حقيقة لغته الشفاهية اليومية، ببساطة لأن خصائصها الحقة تركها الناس اليوم، وهنا "يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار بأن الصيغة المكتوبة للغة تقوم بدور هام في تعطيل تيار التغير الذي يلحق لغة الكلام بسرعة"²، وهذا ما قدمه لنا اللغويون العرب حين جمعوا مدونتهم.

7.1 - اللغة الشفاهية اليومية في العربية القديمة : الواقع و المنجز

1.7.1 - الواقع اللغوي الشفاهي للعرب أدبي و يومي :

إن الموروث اللغوي الضخم الهائل الذي وصل إلينا، ودونه علماءنا الأوائل من النحاة واللغويين وأهل العربية على العموم ، يعد نخيرة عظيمة تحتاج إلى زمن طويل جدا حتى يحاط بها دراسة ودارية وتحليلا.

¹ . يراجع في هذا: الشفاهية والكتابية، والتر أونج، ص 19، وكذا ص 25.

و كذ : النظم الشفوي في الشعر الجاهلي، جيمس مونرو، ص 14.

² . أسس علم اللغة، ماريو باي، ص 61.

وعند الحديث عن هذا الموروث أو المخزون اللغوي والأدبي يتصرف أذهان أكثر الناس إلى الشعر والنثر ، من عيون ما قاله الشعراء والأدباء والخطباء العرب منذ الجاهلية حيث كانت فنون القول ذات سلطان واضح في الحياة الفكرية والثقافية لتلك الحقبة العربية.

يقول ابن فارس¹: "ذهب علمائنا أو أكثرهم إلى أن الذي انتهى إلينا من كلام العرب هو الأقل، ولو جاءنا جميع ما قالوه لجاءنا شعر وكلام كثير"، وهذا هو الأمر الذي ينبغي أن ينصرف إليه أذهاننا، وهو أن الذي ورد إلينا مما قالته العرب ليس مقصورا على الشعر والمنتقى من الخطب والوصايا، وإنما كذلك أحداث كلامية متفرقة ومقطعات كلام الأعراب وما سمع عن الفصحاء من حديث يومي ومحاورات ومخاطبات في مواقف جد بسيطة مختلفة.

وأن هذا الصنف الأخير هو أكثر بكثير في واقع اللغة، ولو دون العلماء أكثره لغلب على القسم الأدبي إن صح التعبير ولأوقفنا على حقائق أكثر في لغة العرب.

أما ما كان العرب يتشابهون به في جل أحوالهم ومعاشاتهم، في البيوت والأحياء والمجالس وغيرها فهي لهجاتهم المحلية التي يحصل لهم بها التفاهم، وهي غير اللغة الأدبية التي يرى الكثيرون أنها مشتركة بين القبائل وأنها كانت لغة قريش²، التي وافقها القرآن الكريم، يقول شوقي ضيف³: "على الرغم من شيوع لغة أدبية عامة في العصر الجاهلي، كانت هناك لهجات تميزت بها بعض القبائل، وظلت آثارها واضحة على ألسنتها إلى القرن الثاني للهجرة، ف سجلها اللغويون".

¹ . المزهري في العلوم اللغة وأنواعها، عناية: محمد أحمد جاد المولى بك، محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مكتبة دار التراث، القاهرة ، مصر ، ط 3 ، (ج1/ص66).

² . سيأتي بيان ذلك بالتفصيل في مبحث اللهجات.

³ . تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، ط 24 ، 1960م، ص121.

وحتى ما أسميناه اللغة الأدبية التي وظفها العرب في شعرهم ونثرهم كانت أداة في معاملات الأشراف وسادات القبائل خصوصا أثناء اجتماعهم في المواسم، وإن كان يوجد من يشكك في هذا الأمر، يقول محمود فهمي حجازي¹، "المتعارف عليه عند اللغويين العرب قديما واللغويين المحدثين حتى أواخر القرن التاسع عشر: أن لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم تمثلان العربية الفصحى، والمقصود أن هذه اللغة لم تكن مجرد لغة أدبية، بل كانت أيضا لغة التعامل الراقي ولغة التعامل بين أبناء القبائل المختلفة، وقد أثار "فولرز" Vollers المستشرق الألماني كثيرا من الشكوك حول كون هذه اللغة قد استخدمت في الحديث اليومي أو في التعامل الشفوي في الفترة التي ألف فيها الشعر الجاهلي".

2.7.1 - وعي العرب القدامى بالشفاهية اليومية :

وعلى هذا سنجد الحاجة ماسة إلى العودة لمباحث الفصحى واللهجات والفرق بين المفهومين، لأنه يفهم من كلام السابق أن العرب كانت تستخدم الفصحى العالية - كما يطلق عليها الزبيدي² في تاج العروس - ، تستخدمها في الشعر والخطب والتأدب بشكل عام، وتستخدمها كذلك في الخطاب اليومي الشفاهي إلى جانب لهجتها المحلية المعروفة، ولذا كان من الطبيعي أن يأخذ علماء النحو من كلام العرب الفصحاء ما سمعوه منهم وهم يتحدثون به في أبسط حواراتهم ، ولم يقتصر على الشعر والأمثال، وقد جاء في كتاب العين أن الخليل أنما "أراد أن تعرف به العرب في أشعارها وأمثالها ومخاطباتها"³، وقصد بالأخيرة ما يدور بينهم من فصيح الكلام في شؤونهم العامة، ومن ذلك ما ذكره ثعلب في مستهل فصيحة حيث قال: "هذا كتاب اختيار فصيح الكلام مما يجري في كلام الناس

¹ . علم اللغة العربية، ص234.

² . تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تر: حسين نصار، مطبعة حكومة الكويت،

1369هـ / 1969م، (ج6/ص298).

³ . كتاب العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، سلسلة المعاجم والفهارس (ج1/ص47).

وكتبهم¹، وهذا يعبر به العلماء القدامى كثيرا إذا أرادوا كلام العرب في سائر شؤونهم وأحاديثهم العفوية ونقصد قولهم يجري في السنة الناس وما إلى ذلك كقولهم دائر في كلام الناس وسائر².

وقد عبر الجاحظ عن هذا النوع من كلام العرب المأثور بدقة فائقة حيث قال: "هذا سوى ما رسمنا في كتابنا هذا من مقطعات كلام العرب الفصحاء، وجمل كلام الأعراب الخالص، وأهل اللسن من رجالات قريش والعرب"³، وهذا بطبيعة الحال غير الشعر والخطابة والوصايا وما أشبه ذلك، إنما هو تخاطب عفوي وأشتات كلام دار بين العرب فسمع ودون، وقد شرح ابن درستويه مدونة النحاة الأوائل بقوله: "وإنما سمعوا العرب تتكلم بذلك على طباعها وما في نفوسها من معانيها المختلفة، وعلى ما جرت به عاداتها وتعارفها"⁴.

ويرى بعض الباحثين تسمية هذا المستوى من الخطاب اللغوي بالعامية عند العرب القدامى، على أن هذا المفهوم يعترضه بعض الخلاف بين الدارسين، يقول عبد الرحمن حاج صالح: "إن العامية العربية - في أي بلد عربي كان - هي المستوى من التعبير الوحيد الذي يتخاطب به العرب عفويا في الحياة العامة، وقد كانت العربية الفصحى في القديم بهذه الصفة - انفرادها بلغة التخاطب المسترسل - وانشقت إلى لغة ثقافة، وإلى عامية كلغة تخاطب"⁵.

ومن ذلك فإن العرب القدامى لم يشذوا عن هذه القاعدة الاجتماعية، فقد كانت لديهم لغة فصيحة رفيعة، قالوا بها الشعر واستخدموها في فنون الخطابة والأمثال والوصايا والعهود

¹ . كتاب الفصيح، تح: عاطف مدكور، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص 260.

² . سنتحدث عن الصيغ الواردة في ذلك.

³ . البيان والتبيين، (ج2/ص7).

⁴ . المزهر (ج1/ص384).

⁵ . الفصحى وعاميتهما، لغة التخاطب بين التقريب والتعذيب، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2008، ص86.

والمواثيق ، وهي ذاتها التي نزل بها القرآن فأضفى عليها صيغة الإشتهار والانتشار ، ولغة دونها رفعة ، جرت على ألسنتهم في الحياة اليومية وفي شتى التعاملات ظهرت فيها ملامح لهجية ومظاهر عامية و سهولة أدائية ، تتناسب مع طبيعتها الاجتماعية الصرفة ، و تقاربت فيها اللهجات العربية و تصادمت ، بفعل المعاملات و الحاجات الاجتماعية و الأغراض اليومية ، وهي ما أسميناها لغة التخاطب العفوي الشفاهي العربي ، على أن هذه العامية أخذت شكلا آخر بعد قرون من اندثار العرب الموثوق بعربيتهم ، و أدّت إلى الابتعاد عن الفصاحة في شكلها الأدبي و التخاطبي ، بعد أن كانت أول ظهورها بطبيعة الحال أقرب إلى الفصحى¹.

8.1 - لغة التخاطب عند النحاة واللغويين القدامى:

1.8.1 - الصيغ المستعملة عندهم إشارة إلى الكلام اليومي:

إن هذا المستوى من الخطاب اللغوي رغم اتسامه بالعفوية والشفاهية قبل عصر التدوين ووضع علم النحو وعلوم العربية، فقد احتل مكانة عظيمة في جملة المدونات التي قام هؤلاء بجمعها وحصرها عن طريق المشافهة والسماع لفصحاء العرب قبل تدوينها، وعملوا على إثباتها إثباتا أميناً بكل ما فيها من سمات شفاهية، وهذا الجزء الهام من الموروث: "وإن كان قد دون في فترة متأخرة فقد ظل محافظاً على رواسب شفاهية قديمة تعود إلى ما قبل غلبة لغة الحجازية"²، أو لغة قريش بفعل مكانتها وكذلك نزول القرآن بلهجتها، ولذلك أوردوها كما

¹ . ينظر الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، محمد حسين آل ياسين ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت، لبنان ، ط1 ، 1400هـ / 1980م، ص 38

² . آثار المشافهة في أيام العرب، شرح نقائض الفرزدق وجرير "لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري، تر: أنثون أشلي بيفان، رسالة دكتوراه، من إعداد راضية طاووس، إشراف، محمد القاضي، مكتبة كلية الآداب والفنون والإنسانيات، جامعة منوبة، تونس، ص 80.

سمعوها بتلك الخصائص، على أنها فقدت كثيرا من سماتها وهذا طبيعي، "فلا نبحث عن نسخة شفاهية أصلية أمينة فذلك ضرب من الاستحالة"¹.

ولقد استخدم سيبويه في الكتاب كثيرا من التعبيرات إشارة إلى هذا النوع من كلام العرب فتارة يأتي بالصيغة المنقولة ثم يقول "وهو كثير في كلام العرب"²، أو "وهو أكثر في كلام العرب"³، أو في قوله "فهذا الغالب في كلام الناس"⁴، أو "في كلام العرب"⁵، وقد يقول كذلك "وهذا أكثر من أن أصفه لك في كلام العرب"⁶، وقوله "وهذا الباب لأنه جرى في كلام العرب"⁷، أو ينسب صيغة ما إلى قوله سمعناه أو يتكلم به "ناس من العرب كثير"⁸.

وهذه الطريقة التي تجعل سيبويه بجزم بحدوث تلك الصيغ في المسموع من كلام العرب المتناثر، وتحمله على القطع بوجودها في ألسنة الناس إنما هي نابعة من كون هؤلاء النحاة المؤسسين للنحو في تلك الطبقة قد عرفوا أن للعرب الفصحاء جانباً يعتمد عليه في تسجيل الكلام الفصيح غير ما اعتاده الناس من الشعر والكلام المتخير من فنون أقوالهم، وهو ما دار على ألسنة الفصحاء مما تلقفوه من أفواههم وهم يزاولون معاشهم، ويتخاطبون بينهم في أحوالهم الاجتماعية البسيطة بعفوية وتلقائية مطلقة.

وقد ورد عند غير سيبويه من أئمة اللغة والنحو كذلك إطلاقات أخرى أو مشابهة لما رأيناه، فنرى المبرّد يصرح بأن ما أسماه الاستعانة في الكلام ترد في كلام العرب مهما كانت

¹ . الكتاب: (ج1/ص335)، (ج2/ص347)، (ج3/ص246)،

² . نفسه (ج2/ص131)، (ج2/ص182)، (ج2/ص241).

³ . نفسه (ج2/ص49).

⁴ . نفسه (ج3/ص426).

⁵ . نفسه (ج2/ص100).

⁶ . نفسه (ج2/ص118).

⁷ . نفسه (ج3/ص346).

⁸ . نفسه (ج4/ص123).

مرتبتة ، إذ يقول ¹: "وأما ما ذكرناه من الاستعانة، فهو أن يدخل في الكلام ما لا حاجة بالمستمع إليه ليصح نظاماً ووزناً إن كان في شعر، أو ليتذكر به ما بعده إن كان في كلام منثور، كنحو ما تسمعه في كثير من كلام العامة" وما يسمع من كلام العامة هو ما يتحدثون به في كل مكان، وأي لحظة بشعور أو دون شعور أو حساب لما يقولون، ونرى مثل ذلك في قول ثعلب المذكور سالفاً في بداية فصيحته: ² "هذا كتاب اختيار فصيح الكلام مما يجري في كلام الناس وكتبهم"، وكذلك تسمية الجاحظ للمسموع من كلام العرب في مخاطبتهم العفوي الحاجي اليومي بأنه "مقطعات كلام العرب الفصحاء، وجمل كلام الأعراب الخالص وأهل اللسان من رجالات قريش والعرب" ³، وقد عرفت مؤلفاته بأنها تضم كثيراً من أحاديث العرب ، لكنها تفتقد ما اتسمت به مؤلفات النحاة من الضوابط الصارمة لقبول المدونة الفصيحة .

2.8.1 - إطلاقات وإصطلاحات عامة:

وقد وجدنا تسميات وإطلاقات كثيرة عند علماء اللغة العرب القدامى لمتن اللغة المنقول غير الشعر والخطب واللغة العالية، ومن أحسنها وأدلها على هذا المفهوم ما ذكره ابن جني حين قال ⁴: "فإذا كانوا قد عابوا بعض ما جاء به القدماء في غير الشعر بل في حال السعة وموقف الدعة كان ما يرد من المولدين في الشعر وهو موقف فسحة وعذر أولى بجواز مثله".

¹ . الكامل ، تح : محمد أحمد الدالي ، مؤسسة الرسالة ، ط3 ، 1418م ، (ج1/ص45) .
وقد أشار عبد الرحمن حاج صالح إلى أن لغة التخاطب تسمى العامية في التعبير الشفاهي عن الحاجات العادية اليومية، وأكد أن إطلاق لفظ العامة عند سيبويه ومعاصريه يعني بها الأغلبية من الناس بدون ازدياد.
ينظر الفصحى وعامياتها، لغة التخاطب بين التقريب والتهذيب، ص 80، وكذلك ص 86.

² . الفصيح ، ص 260 .

³ . البيان والتبيين ، (ج2/ص7) .

⁴ . الخصائص ، (ج1/ص328) .

فإنه أراد بقوله حال السعة وموقف الدعة سائر كلام العرب الجاري على ألسنتهم ،
والعربي وغيره إذا كان في حال تخاطب عفوي تواصل يبعيد عن مقام التأدب والحالات
الرسمية يكون كلامه بارتخاء وطلاقة وانس، خصوصا إذا لهج بلغة قبيلته، بين معارفه
وأقربائه في شؤونه اليومية، فتتحقق له هذه السعة والدعة من تحرره من قواعد الشعر،
والفصاحة العالية التي تحكمها نوع من الرقابة العامة، وسلطة القاعدة ، يقول توفيق قريرة :
"لكن المتكلم العربي لا يشعر بهذا السلطان القاعدي عندما ينجز لهجته اليومية فالقواعد في
هذه اللهجات موجودة، ولكن وعي المتكلم بها وعي حدسي ، وإنجازها لها إنجاز حدسي ليس
فيه من الضَّغَط ما في إنجاز العربية الفصحى"¹.

ومن الإطلاقات التي أريد بها مفهوم لغة التخاطب اليومي عند العرب ما أسماه الجاحظ
لغة النازلة حيث يقول : "وأهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ولذلك
تجد الاختلاف في ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر"²، وقصد بالنازلة عموم الناس
عند القبائل العربية دون الشعراء والخطباء وأهل السيادة والأشراف ، مع أن هؤلاء قد
يتخاطبون في لغتهم اليومية على النحو الذي يتخاطب به النازلة .

ولعلماء اللغة القدامى تعبيرات كثيرة في وصف لغة التخاطب كوصفها بالجريان على
الأسنة والأفواه بقولهم "والجـاري على أفواه العامة"³، أو وصفه بالاستعمال كقول
ابن قتيبة (ت 276 هـ) "باب تأويل كلام من كلام الناس مستعمل"⁴، وقول سيبويه: "الكثير
الاستعمال من الأسماء وغيرها الذي تتكلم به العامة"⁵، وقد قصد بذلك عندهم ما نقل عن

¹ . مقال بعنوان مقارنة لسانية اجتماعية لظاهرة لحن الخاصة، توفيق قريرة ، حوليات الجامعة التونسية، ص 44 إلى 82.

² . البيان والتبيين، (ج1/ص18).

³ . نفسه، (ج1/ص20).

⁴ . أدب الكاتب، تر: محمد الدالي، المؤسسة الرسالة، بيروت، ص 50.

⁵ . الكتاب، (ج4/ص235).

بعض الأعراب ومن يستشهد بكلامهم في حديثهم العادي، دون أن يتحقق له من التأنيق والذويوع ما تحقق¹ للخطابة والوصايا وغيرها.

9.1 - جمع اللغة والمشافهة : حقائق و جهود لسانية مبكرة

1.9.1 - اشتمال المدونة الفصاحية على الكلام اليومي:

وعلماء اللغة العرب الأوائل الذين أسسوا لعلم العربية ووضعوا علم النحو إنما جمعوا مدونتهم كما هو معروف من جهودهم الميدانية، وذلك بخروجهم إلى البوادي العربية لمشافهة العرب الفصحاء والأعراب الخالص الذين ظلوا على فطرتهم الفصاحية لما فسد اللسان العربي، وسمعوا كلامهم وما كانوا يتحادثون به فيما بينهم، حتى غلماهم ونساؤهم وأصحاب المهن والحرف والصنائع على اختلافها.

لكن ما يراد فهمه من هذا أنهم - أي اللغويين - إنما تحملوا عناء البحث والجمع لتحصيل هذا النوع من الخطاب اللغوي اليومي العربي الفصيح ، وهذا من وجهة نظر منطقية ، إذ إنهم لم يكونوا في حاجة إلى ذلك في الشعر وعيون الخطب ومستحسن الوصايا والأشكال النثرية الأخرى ، مما يدخل فيما اصطلح عليه باللغة الفصيحة العالية والأدبية ، فهذه اللغة كانت تحفظ وتتناقل بين القبائل وبعضها يكتب كما حدث للمعلقات .

فكان همّ النحاة العرب ما يسمعونه عن العرب فيما تتعاطاه من كلامها كما عبر عن ذلك ابن جنى²، و هذا بالطبع إضافة إلى ما تتنافس فيه من ضروب الأدب و عيون الشعر "ومن الطبيعي أن يكون اهتمام الدارسين الأوائل بالسماع عن العرب كبيراً لأن هؤلاء هم الذين تصدوا لجمع المادة اللغوية وتدوينها³"، وسماعها بطريق مباشر لغرض وصفها، أو تلقيها عن طريق الرواية ، "وهم بذلك لا يختلفون كثيراً عن المنهج الحديث الذي يعتمد

¹ . البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، عالم الكتاب، القاهرة، ط6 ، 1988م، ص 50.

² . ينظر الخصائص (ج1/ص248).

³ . الدراسات اللغوية عند العرب، محمد حسين آل ياسين، ص 341.

على الراوي اللغوي، ويعتمد على الكلام المنطوق دون المكتوب"¹ ، وكتا سيبيويه يرينا كيف أن القواعد العربية اعتمدت على الاستعمال اللغوي عند عرب البادية دون استثناء²

"وكانت الجزيرة العربية هي المنبع الأصل للغة الفصحى الصحيحة أيام كانت العربية ثابتة فيها، واللغة صافية سليمة ناصعة بعيدة عن شوائب العجمة، سليمة من انحراف الألسن حين كان العرب في جزيرتهم يتوارثون تقاليدهم ويتلقى بعضهم عن بعض لغة الآباء والأجداد التي يتكلمون بها على تعاقب الأجيال وكر الدهور"³ .

"وقد كان علماء النحو والبصريون بصورة خاصة يتحرون الصحة فيما يسمع من كلام العرب وإن كان جلّ ما أخذ عن طريق الفصحاء من أعراب البراري أو الصحاري"⁴ الذين شافهم وسمعوا منهم بالمواجهة ثم دونوا ما جمعوه في مصنفاتهم .

فسيبيويه مثلاً أثبت في الكتاب ما سمعه من كلام العرب في مثل الصيغ التي رأيناها، وكما يذكر شوقي ضيف:⁵ "كان موقفه من كلام العرب دائماً أن يسجل الصورة الشائعة على ألسنتهم في التعبير"، ولا يكون ذلك إلا في شتى مخاطباتهم وممارساتهم اللغوية اليومية، وما ألفوه من أشكال الكلام في حديث العامة منهم حيث تظهر الفوارق بين اللهجات مقارنة مع اللغة الفصيحة التي بدأت في بسط نفوذها مع مجيء الإسلام ونزول القرآن بلغة قريش كما

¹ . البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص 54.

² . العربية ، يوهان فك ص 60 .

وقد أورد تمام حسان رأياً فيه مغالطة كبيرة إذ قال: "ولأسباب تعود إلى المحافظة على القرآن عدل النحاة عن استنباط النحو من الكلام العادي ، فكان عليهم أن يلجئوا إلى لغة الأدب لأنها لغة القرآن والحديث والشعر".

ويظهر بعد هذا الطرح عن الصحة إذا اطلعنا فحسب على كتاب سيبيويه الذي ضم ما لا يعد ولا يحصى من كلام العرب الذي ليس شعراً ولا أدباً، ولا ندري كيف اندفع تمام حسان إلى هذا الرأي، ولا الخلفية التاريخية الحاملة له على إثباته.

يراجع كتابه: "الأصول – دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، عالم الكتب القاهرة، 1420م/ 2000م، ص 79 وكذلك ص 88.

³ . الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبيويه، خديجة الحديثي، مطبوعات جامعة الكويت، 1394هـ، 1974م، ص 133.

⁴ . نفسه، ص 148.

⁵ . المدارس النحوية، دار المعارف، مصر، ط7 ، 1968م، ص81.

ذهب إلى ذلك أغلب اللغويين، وقد أكد ابن فارس¹ على أن قريشا أفصح العرب السنة وأصفاهم لغة، وأن العرب إذا وفدت عليهم تخيروا من لغاتهم أحسنها ومن كلامهم أصفاه، فصارت لديهم تلك السليقة المنتقاة، ورغم ذلك هناك حقائق لا بد من ذكرها هاهنا، حيث تشير الاختلافات اللغوية بين القبائل إلى أن اللهجات العربية كانت ما تزال تحتفظ بعاداتها اللغوية الأولى، ولم تخضع لسلطان لهجة قريش التي فرضت سيطرتها فيما بعد على لغة التخاطب وصارت لغة العرب عامة²، وهذا يدعونا إلى القول أن لغة التخاطب التي دون بعضها في كتب النحو المتقدمة، وجمعت من أفواه العرب مشافهة وسماعاً، جاءت على ضربين :

أولاهما : عامة لا تختص بقبيلة دون أخرى، حيث نرى هؤلاء النحاة يثبتون في كتبهم عبارة: قالت العرب³، أو تقول العرب⁴، هكذا على صيغة التعميم دلالة على أن سنة العرب في كلامها أو أغلب كلامها على النحو الذي أوردوه، على أن الأغلب يقصد به المطرد في كلامها اطرادا يحصل معه القطع بالقاعدة المستفادة أو الحكم المصاحب لذلك المنقول⁵.

وثانيهما : أن تنسب اللغة الواردة إلى قبيلة بعينها على الخصوص، وهذا كذلك قد لا يبتعد عن المعنى الأول إذ إنهم اختاروا من القبائل أفصحها وأقربها إلى لغة قريش، كلغات القبائل التي نزل القرآن بها عند من قال بهذا القول، وهي لغات نص كثير من الصحابة وعلماء العرب والعارفين منهم بأيامهم وأنسابهم على فصاحتها كبنى سعد بن بكر، وثقيف،

¹ . ينظر صاحب في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، المكتبة السلفية، القاهرة، مصر، 1328هـ/ 1910م، ص 23.

² . الدراسات اللغوية عند العرب، محمد حسين آل ياسين، ص 364.

³ . ينظر الكتاب: (ج2/ص28)، (ج2/ص416)، (ج3/ص357)، (ج3/ص621).

وأنظر الأصول في النحو لابن السراج، تر: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 3، 1417هـ/ 1996م،

(ج1/ص376)، (ج2/ص264)، (ج2/ص312)، (ج2/ص372)، (ج3/ص316)، (ج3/ص327).

⁴ . ينظر الكتلب (ج3/ص508، 379، 371، 293، 156، 50) (ج4/ص100) ، والأصول (ج2/ص106)، (ج3/ص155).

⁵ . ينظر الشاهد وأصول النحو في كتاب سبويه، خديجة الحديثي، ص 92، 93، 94.

وهذيل، وتميم، ومضر كما ذكر ذلك ابن فارس¹، وهي لغات تلاقحت مع بعضها ومع أشهرها وهي لغة قريش، فتكونت منها لغة العرب الموحدة في التخاطب والتواصل حيث يتفاهم بها أكثر العرب في تلك الحقبة، يقول أحد الدارسين في هذا الصدد: "إن اللهجة التي فرضت سيطرتها وصارت لغة الأدب ولغة المحادثة إلى حد ما، إنما تمثل مزيجا موحدا من لهجات القبائل العربية²، مما يعطينا انطبعا واضحا عن طبيعة الكلام المجموع من العرب في مخاطباتها واتصالها الشفاهي فضلا عن الشعر والنثر.

2.9.1- نقل كلام العرب بلفظه المسموع : الضبط و التحري

وللعلماء العرب الأوائل مقاييس صارمة وضوابط محكمة لعملية الجمع قصد تحقيقها على أصح ما قالته العرب وما نطقت به حقيقة، لأنه قد ترد علينا إشكالية في هذه القضية لابد من الجواب عليها، كيف لنا أن نعرف بأن الذي جاء إلينا من كلام العرب كله قد نطقت به العرب على الحقيقة تماما كما ورد إلينا ؟

والملاحظ أن هذا الإشكال يشتمل على قضيتين هامتين أولاهما قضية ثبوت اللغة المنقولة وثانيهما كون ما ثبت فيها روي بلفظه مطابقا مما يدعونا إلى التأكد من أننا ندرس الخصائص الحقيقية والواقعية للغة العرب.

أما ثبوت اللغة المنقولة فقد اشترط علماء اللغة فيه الصحة بالتواتر قال ابن الأنباري³: "فأما التواتر فلغة القرآن وما تواتر من السنة وكلام العرب وهذا القسم دليل قطعي من أدلة النحو يفيد العلم"، وهم يقصدون بذلك نقل اللغة عن طريق الكثرة التي تبلغ حدا يحيل تواطؤها على الكذب⁴، وهذا أكثر ما وردت عليه اللغة.

¹ . الصاحبى، ص 28.

² . الدراسات اللغوية عند العرب، محمد حسين آل ياسين، ص 365.

³ . المزهر، للسيوطي، (ج1/ص113).

⁴ . نفسه (ج1/ص114).

وأما كلام العرب خصوصاً ما سمع عن الأفراد من العرب الفصحاء فأكثره جاء من طريق آحاد، وهذه اللغة تؤخذ سماعاً من الرواة الثقات ذوي الصدق والأمانة، ويتقى المظنون كما قال ابن فارس¹.

وقد فصل ابن الأنباري (ت 577 هـ)² ما يشترط في الخبر الآحاد من العدالة تماماً على الأوصاف المشروطة في نقل الحديث النبوي مما يجعل المادة اللغوية موثقاً بصحتها، أما رواية اللغة بلفظها المسموع فهو أوجب فيها وأولى من غيرها، لأنها إذا لم ترو على هذا النحو ذهبت الفائدة العلمية من نقلها وصار جمعها جهداً من غير طائل، إذ إن النحاة شددوا في هذا الأمر كون اللغة قائمة على دقائق في الأداء وتفاصيل صغيرة في النطق بالألفاظ والحركات، ومثال ذلك ما جاء عن الأصمعي (ت 216 هـ) قوله: "وقع بالإبل سواف وهو الهلاك والموت، وقال أبو عمر الشيباني سواف بفتح السين فأنكر قال أبو عمرو (ت 154 هـ): "هكذا سمعته"³، وكذلك ما أورده الزبيدي⁴ في مادة غلق قوله: الغلقة بالفتح وهو الأكثر كذا سمعه أبو حنيفة عن البكري، ويكسر كذا سمعه عن أعرابي من ربيعة، وذكر الأزهري (ت 370 هـ)⁵ عن أبي عبيد عن الأصمعي من أمثالهم: إن البِغاث بأرضنا يستتسر، قلنا: هكذا سمعناه من أبي الفضل البِغاث بكسر الباء، وقول سيبويه⁶ "ومما جاء في النصب أنا سمعنا من يوثق بعربيته يقول خلق الله الزرافة يديها أطول من رجلها"، وأمثلة

¹ .الصاحبي، ص 30.

² . ينظر لمع الأدلة في أصول النحو: تح سعيد الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية، سوريا، 1377هـ/ 1975م، ص 86.

³ . المخصص، لابن سيده (ج4/ص283).

⁴ . تاج العروس، تح: عبد الكريم العزباوي (ج26/ص258).

⁵ . تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري: تح: محمد عوض مرعب: دار إحياء التراث العربي، بيروت،

الطبعة الأولى، 2001م، (ج8/ص105).

⁶ . الكتاب، (ج1/ص155).

هذا النقل الحرفي عن العرب كثيرة عنده وعند الذين عاصروه أو سبقوه من القراء والنحاة واللغويين¹

وعلى هذا لا يكون لدينا أدنى شك في أن كلام العرب المعتاد اليومي ، وما نطقوا به أثناء تخاطبهم الشفاهي المسموع في جوابهم وتعاملاتهم قد نقل إلينا بنصه الحرفي وبأدق أشكاله النطقية والأدائية، بالرغم من أنه فقد كثيرا من صورته الصوتية وبعض ميزاته الشفاهية وهذا طبيعي، إلا أن علمائنا العرب قد أعقبوه بالوصف الذي اقترب كثيرا من التصوير المطلوب في المنهج الحديث للدراسات اللغوية.

10.1 - مصطلحات اللغويين المحدثين للغة الأدب ولغة التخاطب اليومي:

1.10.1 - الاصطلاحات القديمة بين الاعتماد و التطوير :

اهتم كثير من اللغويين العرب المحدثين في دراستهم برصد الفروق بين اللغة الأدبية واللغة الشفاهية التخاطبية، وذلك في دراساتهم حول الفصحى واللهجات والعاميات ليضعوا حدودا فاصلة بين مستويين اللغة، وقد أطلقوا أثناء ذلك على كل منهما إطلاقا عديدة ترجع أساسا إلى خاصية كل نوع من هذين المستويين في الجانب الاستعمالي للغة.

وقد ظهرت منذ القدم تسميات نص عليها بعض الباحثين وجدت عند أئمة اللغة فاعتمدها وارتضوها مصطلحا دالا على المفهوم، فقد نص عبد الرحمن حاج صالح² على أن الجاحظ أراد بقوله لغة النازلة من العرب لغة التخاطب ، مشيرا إلى قول الجاحظ: وأهل الأنصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ولذلك نجد الاختلاف في ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر³، ويقصد بالنازلة طبقة العوام من الناس لنزول أحوالهم ، وقد

¹ . نفسه (ج 1/ص293، 326، 405، 407)، (ج2/ص412)، (ج3/ص95، 229، 268، 343، 506، 548) ، (ج4/ص127، 134، 179، 375).

² . الفصحى وغاياتها، لغة التخاطب بين التقريب والتعذيب، ص8.

³ . البيان والتبيين، (ج1/ص18).

جاءت عند بعضهم بتسمية السليقية ، وأورد الزبيدي¹ : السليقية أي اللغة التي يسترسل فيها المتكلم على ساليقته من غير تعهد إعراب ولا تجنب لحن"، ولعله هنا أمدنا أيضا بتعريف دقيق للغة المتكلمة وقد تقدم لدينا من أن ابن جني أطلق على هذا النوع أي اللغة اليومية باللغة التي تكون في حال السعة وموقف الدعة².

أما عن المحدثين فقد أطلق بعض اللغويين ويكاد يكون إطلاقا مطردا على هذه الثنائية في الاستعمال اللغوي مصطلح "ازدواجية اللغة" Diglossie ، وهو مصطلح قد يرجع بالأساس إلى مفاهيم "فرجسون" Ferguson حول هذا الموضوع، والتي ربط فيما بين نوعي الخطاب اللغوي ووظائفهما هناك - بالنسبة إليه - أوضاع تحتم استخدام اللهجة العليا كاللهجة العربية الفصحى في مثال عن العربية، بينها هناك بعض الأوضاع التي يكون استخدام اللهجة الدنيا كاللهجة المصرية المحدثثة ضرورة حتمية³.

و الازدواجية كما يقول ديفيد كريستال David cristal تشير إلى استعمال لهجتين في المجتمع الواحد ، و لكل منهما استعمالاتها الخاصة ، و إذا كانت إحداها تسمى الفصحى

¹ . تاج العروس، تح: مصطفى حجازي، (ج25/ص460).

ويطلق عليها الحاج صالح، لغة التخاطب المسترسل، ينظر الفصحى وعامياتها ص 86 .

² . الخصائص، (ج1/ص322).

³ . ينظر ازدواجية اللغة - النظرية والتطبيق، إبراهيم صالح الفلاي، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، الطبعة الأولى،

1417هـ، 1996م، ص 22.

هناك بعض خلط في المفاهيم وقع فيما يخص مصطلحي ازدواجية اللغة Diglossie ، و ثنائية اللغة le Bilinguisme فبينما أشار فرجسون إلى المعنى المذكور أعلاه ، أثبت فيشمن بعده أن الازدواجية تخص الجانب الاجتماعي للاستخدام اللغوي سواء تعلق الأمر بلغة أو أكثر ، أما الثنائية فخاصة بالفرد و قدراته على التصرف اللغوي و استيعاب أكثر من لغة أما عند الدارسين العرب فأثبت اميل بديع يعقوب أن كثيرا من اللغويين يخلطون بين المفهومين ، ليعكس الأمر تماما و يجعل الازدواجية le Bilinguisme على حد قوله وجود لغتين مختلفتين عند فرد ما ، و أما استعمال اللغة الواحدة على شكلين مختلفين فهو الثنائية اللغوية .

- ينظر ازدواجية اللغة ص 87 ، و فقه اللغة العربية و خصائصها ، إميل بديع يعقوب ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1982 م ، ص 145 - 146 ، و ينظر كذلك : الازدواج اللغوي في اللغة العربية ، عبد الرحمن بن محمد القعود ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض ، السعودية ، ط1 ، 1417 هـ / 1997 م ، ص 11 - 16 .

فإن الثانية تسمى العامية ، و يجري تعلم الأولى في المدارس و الأدب الجاد أما الأخرى فتعتبر غير رسمية ، لاستخدامها في الحديث العام اليومي ، و أول من أطلق عليها Diglossie العالم الفرنسي وليم مارسيه Wilyam marsset و عرفها بقوله هي التنافس بين لغة أدبية مكتوبة ، و لغة عامية شائعة للحديث ¹ .

ومن الذين أطلقوا عليه ازدواجية اللغة "بيار أشار" Pierre Achard ² حيث يقابل بين استعمال اللغة الفصحى واستعمال اللغة العامية، حيث يظهر الفرق واضحا بين مستوى رفيع لا يستخدم في أي قطاع داخل الجماعة كأداة للمحادثة العادية وبين ما يستخدم لهذه الأخيرة ، وأطلق المستشرق "ولفديتريش فيشر" Wolfdietrich Fisher ازدواجية اللغة شارحا ذلك باستخدام العربية الفصحى الحديثة بوجه عام في التعبير الكتابي وأسلوب الكلام الرسمي وعلى النقيض من ذلك تستخدم في الموقف اليومي غير الرسمي (لغة الحديث) كما قال ³.

2.10.1 - اصطلاحات حديثة مختلفة :

أما عن المصطلحات الأخرى فكثيرة جدا، لكنها تصب في مفهوم واحد، ونجد منها ما يطلق على أحد النوعين، ونجد كذلك ما يطلق عليها في شكل ثنائية قائمة على السلب والإيجاب، فمن الشكل الأول إطلاقهم على اللغة الفصيحة مصطلح "اللغة القومية" Langue nationale كما ذكر محمود السعران ⁴ ووصفها بأنها لغة التعليم في المدارس وهي اللغة الرسمية في المخاطبات الحكومية وفي المحاكم وفي سائر الأمور الرسمية.

¹ . ينظر علم اللسان العربي عبد الكريم مجاهد ، دار أسامة للنشر و التوزيع ، عمان،الأردن ، 2009 م ، ص 195 ، 196 .

² . ينظر سوسيولوجيا اللغة، بيار أشار، تر: عبد الوهاب تزو، منشورات عويدات، بيروت، لبنان ، ط 1 ، 1996م ، ص 47 ، 48.

³ . دراسات في العربية، وولفديتريش فيشر، تر: سعيد حسن بحري، مكتبة الآداب القاهرة ، مصر ، ط 1 ، 1426م/2005م، ص 145.

⁴ . اللغة والمجتمع، رأي ومنهج، ص 71.

وممن نجد لديهم كما من المصطلحات لهذه اللغة علي عبد الواحد وافي الذي سماها "لغة الدولة" *Langue d'état* ، واللغة القومية ، واللغة الفصحى ، ولغة الكتابة ، ووصفها بأنها تصدر بها المكاتبات الرسمية، وتستخدم في مختلف نواحي الوعظ والخطابة وغير ذلك¹.

ويسميتها ماريو باي² اللغة الأدبية ، واللغة الوطنية ، مع أنه يرى فرقا طفيفا بين المفهومين، كما أطلق "يوهان فك" Johann Fuck ما أسماه عربية الدولة على اللغة الرسمية السائدة في أوائل العصر العباسي³.

ونرى هذه التسميات لا تتوقف عند كونها مصطلحا وإنما ربطت بطبيعة هذا المستوى الفصيح واستعمالاته أو وظائفه في حياة الناس، وهي مواقف تتسم بالجدية والصرامة والرفعة، لذا لا بد أن يكون الخطاب فيها قائما على ملكة الانتقاء والحذر من الابتذال أو حتى سوء النطق وتحريف مسار الكلمة، لذلك نرى عبد الرحمن حاج صالح يطلق على اللغة الفصحى اسم "اللغة الرسمية مصطلح المستوى المنقبض والمرتل"⁴، وقد أراد بالمنقبض : الحذر الشديد الذي يكون في الناطق بالفصاحة توجسا من الخطأ، و أراد بالمرتل : تشبيها له بما هو موجود عند علماء القراءات من تحقيق مخارج الحروف وإشباعها في قراءة القرآن.

¹ . ينظر اللغة والمجتمع، ص 125.

² . أسس علم اللغة، ص 68.

³ . العربية، دراسات في اللغة واللهجات الأساليب، يوهان فك، تر: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي ، مصر، 1400هـ/ 1980م، ص 59.

⁴ . الفصحى وعامياتها، ص 88، وكذلك، ص 91 ،

و يعرفه الحاج صالح بأنه : " ذلك الأداء الذي يتمسك به في الخطب و المحاضرات في المحافل ، و كل مقام ذي حرمة ، و غالبا ما تجده على المكتوب ، و به يجمع التراث و يحفظ من الاندثار "

- ينظر مقاله بعنوان : إعادة الاعتبار للغة العربية في المجتمع العربي ، مجلة المجلس الأعلى للغة العربية ، 2009 م، عدد خاص ، ص 66 .

أما لغة الشفاهة اليومية ، وهو النوع الثاني فقد مرت بنا تسميات كثيرة له كاللغة المتكلمة ولغة المحادثة والتحدث، لكن بعض اللغويين وضعوا لها مصطلحات أخرى قريبة ، من ذلك إطلاق تمام حسان ما أسماه "الكلام اليومي" Discours quotidien في البيت والسوق والمحادثة العابرة، وكذلك "الكلام العادي" ¹ Discours ordinaire على هذا المستوى من اللغة، وأطلق عليها عبد الرحمن حاج صالح ² وهو من أكثر الداعين إلى دراسة هذا النوع من الخطاب وإلى الاهتمام به - أطلق عليها عدة تسميات منها لغة التخاطب اليومي، ولغة التخاطب العادية، والعامية بمفهوم أخص ³ ، وكذلك لغة التخاطب غير المتكلف، و لغة الأُنس وغير ذلك ⁴ .

أما الإطلاقات التي جاءت على شكل ثنائية قائمة على التضاد فكثيرة، مثلا إطلاق فرجسون الذي ذكر ما أسماه "الشكل اللغوي الأعلى" Forme linguistique suprême على الفصحى "والشكل اللغوي الأدنى" Forme linguistique Inferieure على ما دونها من استعمال لغوي ⁵.

¹ . الأصول، ص 79، وكذلك ص 88.

² . الفصحى وعامياتها، ص 80 إلى ص 95.

³ . يقول عبد الرزاق عبيد: "أما العرب في جاهليتها و صدر إسلامها فللفصاحة معنى آخر لا يمت بأي صلة للغة ، و خلافا لما قد يعتقده بعض الناس ، فقد كان المستوى الفصيح المشار إليه هو عامية ذلك العصر ، فكان وسيلة الصبي الغر ، و العجوز الدردبيس ، و أداة الشاعر الكافر ، و الخطيب المفلق ، و الرعاع و عامة الناس ، و غاية العقلاء و الحكماء ، و حتى المجانين و المعتوهين " ، يراجع : الفصحى و عامياتها ، ص 318 ، 319 .

⁴ . يقول الحاج صالح : " فكلما كان المقام مقام أنس ، كان المتكلم إلى حذف ما هو غني عنه لإبلاغ مراده أميـل و أكثر ارتياحا ، و هذا هو بالذات ما يمنح اللغة حيويـتها ، و قد كانت الفصحى التي دونها اللغويون العرب تتصف بهذه الصفة "

- بحوث و دراسات في اللسانيات العربية ، موفم للنشر ، الجزائر ، 2007م ، (ج1/ص68) .

⁵ . ازدواجية اللغة، إبراهيم صالح الفلاي ، ص 19.

وذكر توفيق قريرة¹ ما أسماه الجبر اللغوي الاجتماعي على الحالة التي يوجه فيها المتكلم في اللغة حيث يخضع إلى جملة من القواعد والصيغ القانونية المستمدة من سنة الكلام ومن قواعد اللسان، وأطلق عبارة "السلوك اللغوي الحر" Comportement Linguistique Libre، يقصد به لغة الإنسان في الفضاءات التي يشعر فيها بأنه غير مقيد بسلطة تفرض عليه نمطا معلوما من الكلام.

هذا يضاف إلى ما ذكرنا سافا من قولهم: اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة رغم عدم دقة هذا الأخير².

¹ . ينظر مقارنة لسانية اجتماعية لظاهرة لحن الخاصة، حوليات الجامعة التونسية ، العدد 44 ، ص 80 ، وقد ذكر الباحث إطلاقا آخر أقرب إلى المنهج الفلسفي وهو الأنا الأعلى اللغوي يقصد به اللغة الفصيحة.

² . حيث إن اللغة المنطوقة تستطيع أن تكون كذلك أداء للغة المكتوبة في مهارات القراءة كما هو معروف في علم تعليم اللغات ، ضمن المنهج التركيبي البنوي ، ينظر اللغات الأجنبية نايف خرما و علي حجاج ، منشورات عالم المعرفة ، الكويت ، ط 1988 ، ص 175 ، 176 .

2 - الفصل الثاني

قضايا لغة الفصاحة التخاطبية اليومية

في الدراسات اللغوية العربية

" وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلمون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر، وأكثر وهم له أقدر وعليه أقهر، وكل واحد في نفسه أنطق "

أبو عثمان الجاحظ

" وكيف تصرف الحال فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ "

أبو الفتح عثمان بن جني

" كانت هناك لغة عربية مشتركة تكونت على مر الزمن بطريقة لا سبيل لنا الآن إلى تبينها ، وهذه اللغة المشتركة لا تنسب إلى قبيلة بذاتها لكنها تنسب إلى العرب جميعا "

عبد الرأجي

" فالفصحى لكونها لغة العرب جميعا ، تم نموها في المجتمع العربي في عمومها ، لا في قبيلة بعينها ، و تقبلت في نموها عناصر من جميع اللهجات ، حتى بدت قريبة إلى كل لهجة "

تمام حسان

2 - قضايا فصحي التخاطب العفوي في الدرس اللغوي العربي القديم و الحديث :

1.2- مفاهيم الفصحى الأدبية و اللهجة و العامية في الشفاهية :

1.1.2- فرضية الفصحى الأدبية المشتركة الموحدة:

من المقرر في دراسات تاريخ العربية أن العرب قبل مجيء الإسلام بفترة غير وجيزة تكونت بينهم لغة عربية موحدة بفعل عوامل كثيرة، وظهرت في شعرهم وأدبهم بشكل واسع جداً، وكذلك فيما وصل إلينا من مخاطباتهم وكلامهم مع اختلاف بين المستويين .
فلغة الفصاحة العالية التي كانت أداة للشعر والخطب والمواثيق وما إلى ذلك لم تكن أبداً نفسها فيما تخاطبت به العرب في تعاملاتها ومسامراتها، فما هي هذه الفصحى الأدبية وما خصائصها، وما علاقتها ببحث الشفاهية العربية على العموم ، والشفاهية التخاطبية العفوية على وجه أخص؟ .

الفصحى الأدبية هي العربية الكاملة نطقاً وأداءً ، وهي المعيارية في كل مستوياتها صوتية كانت أم صرفية أم إفرادية أم نحوية أم بلاغية ، والتي عد الموروث منها عن العرب مثلاً يحتذى به في علوم العربية جميعها، ولذلك أيضاً اختلف العلماء في تعريفها بحسب فنونهم بين النحاة واللغويين والبلاغيين وغيرهم، وتقوم على معايير هي:

1.1.1.2 - المعيار الصوتي la norme phonétique :

فعلى صعيد أصوات اللغة نص العلماء الأوائل على أن النطق الصحيح للحروف وصفاء وصولها إلى الأسماع من مستلزمات الفصاحة، خصوصاً في تلاوة القرآن وإلقاء الخطب وإنشاد الشعر، ولذلك ابتدأ ابن سنان الخفاجي (ت 466 هـ) كلامه عن الفصاحة وأسرارها بالحديث عن الأصوات ومخارجها قائلاً: "ونحن نذكر قبل الكلام في معنى الفصاحة نبذاً من أحكام الأصوات والتنبية على حقيقتها، ثم نذكر تقطعها على وجه يكون حروفاً متميزة، ونشير إلى طرق من أحوال الحروف في مخارجها"¹، وصرح الجاحظ في حديثه عن واصل

¹. سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1402هـ/1982م ، ص 14.

بن عطاء أن البيان يحتاج تمام الآلة وإحكام الصنعة ، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق وتكميل الحروف، وأنه أسقط الرائ من كلامه من أجل الحاجة إلى حسن البيان وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة¹ في خطبه المشهورة ، وذكر قدامة بن جعفر (ت 337 هـ)² أن من نعوت لفظ الشعر "أن يكون سمحا، سهل مخارج الحروف من موضعها عليه رونق الفصاحة"، وذلك أن الصوت أو الحرف -بتعبير أدق- إذا خرج من موضعه استلذته الأسماع ، ولم تكن قريش أفصح العرب إلا لأنها كانت تختار من الكلام ما كان على هذا، حيث يقول أبو نصر الفارابي (ت 339 هـ) : "كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعا"³ ، وهكذا كانت العرب في عهد الفصاحة أقدر الناس على تحقيق أصوات العربية .

ويقصد من هذا أن يكون نطق الحروف سليما واضحا في الأسماع من غير تكلف يخرجها عن طبيعته ، أو عيوب كلام تحط من فصاحته ، مع حسن التقطيع والتأليف كما ذكر الجاحظ مشيرا إلى أهمية الاعتناء بهيئة الصوت قائلا : "والصوت هو آلة اللفظ ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منثورا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف"⁴.

أ - مخارج الحروف العربية :

وقد نص علماء العربية والدارسون المحدثون على مخارج حروف العربية ، وصفاتها التي تكون عليها، فتناولها ابن سينا في كتابه أسباب حدوث الحروف حرفا حرفا⁵ ، وابن جني في

¹. ينظر البيان والتبيين (ج1/ص 14، 15).

². نقد الشعر، تح: عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 74.

³. المزهري للسيوطي (ج1/ص 211).

⁴. البيان والتبيين (ج1/ص 79).

⁵. ينظر أسباب حدوث الحروف ، تح : محمد حسان الطيان، يحي مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، سوريا ، ص 72-85.

كتابه سر صناعة الإعراب¹، وابن سنان الخفاجي في كتابه سر الفصاحة²، وهاته الكتب أشهر مصادر تكلمت عن مخارج حروف العربية، وصفاتها حيث تحدث أصحابها بطرق علمية فائقة عن الأعضاء المسؤولة عن إنتاج الحروف، وكيفية خروج الصوت اللغوي في أداء العربية، زيادة إلى إشارات نجدها في التراث اللغوي العربي عند النحاة كالخليل بن أحمد وسيبويه، والمتكلمين وعلى رأسهم إخوان الصفا الذين أحاطوا بالمعلومات الأساسية للصوت، وأشاروا إلى الأثر السّمي للصوت وعرفوا الوسط الناقل، ولهم ملاحظات نافعة في سعة الموجة³، وكذلك ما تتناثر عند القراء وعلماء القراءات من اهتمام بالغ بدراسة الأصوات وبيان المخارج والصفات سعياً إلى الأداء الصحيح السليم في تلاوة القرآن الكريم⁴.

يقول كمال بشر: "وللعلماء العرب في القديم -لغويين وغير لغويين- إشارات وأفكار تنبئ بوضوح عن إدراكهم لجوانب الأصوات النطقية والأكوستيكية والسمعية جميعاً... يظهر تركيزهم على الجانب النطقي للأصوات من أعمالهم التي حفلت بمعالجة أصوات لغتهم، وإخضاعها للتطبيق والتحليل، اعتماداً على خواصها النطقية، بالإشارة إلى مخارجها وأحيازها وجهرها وهمسها، وكيفيات خروجها من منافذها في جهاز النطق"⁵.

ويقول خليل إبراهيم عطية⁶: "قد أدرك النحاة العرب قصور فهم نحو العربية وصرفها ما لم يدرسوا أصواتها، فكانت عنايتهم بها شديدة اقتضت منهم اكتناه مخارجها وجهازها المصوت وصفاتها العامة والخاصة وقوانينها"، وكذلك يقول منصور بن محمد الغامدي⁷: "ولقد اهتم اهتم متحدثو العربية بلغتهم، فحافظوا على خصائصها الدلالية والنحوية والصوتية، وبلغ هذا

¹. ينظر سر صناعة الإعراب، تح: حسن هندواي، دار القلم، دمشق، سوريا، 1405هـ/1985م، ص 46-48.

². ينظر سر الفصاحة، ص 29-31.

³. ينظر في البحث الصوتي عند العرب، خليل إبراهيم عطية، دار الجاحظ للنشر، بغداد، العراق، 1983م، ص 7.

⁴. ينظر الصوتيات العربية، منصور بن محمد الغامدي، مكتبة الملك فهد، الرياض، السعودية، ط1، 1421هـ/2001م، ص 83-84.

⁵. علم الأصوات، كمال بشر، ص 122.

⁶. في البحث الصوتي عند العرب، ص 4.

⁷. الصوتيات العربية، ص 83.

الاهتمام ذروته مع ظهور الرسالة المحمدية ونزول القرآن الكريم، فوضعت دراسات تفصيلية عن أصوات اللغة العربية بعد أربعة قرون من ظهورها، أدت هذه الدراسات إلى حفظ السمات الرئيسية لأصواتها، رغم ما اعترى أصوات العربية من تغيرات تتجلى في الأصوات القائمة في اللهجات العربية الآن، إلا أننا ما نزال نملك ما كتب عن الأصوات العربية قبل أكثر من ألف ومائتي سنة".

وكثير من الدارسين يقرون بالعملية الوصفية التي قام بها العرب القدامى لأصوات العربية، وقد كان أسمى أهدافهم في ذلك نقل الصورة المثلى للآداء اللغوي ومن ثم تحقيق الصحة في نطقها على سنن العرب وصحة النطق بآي القرآن كذلك، ولهذا من الخطأ الاعتقاد أن النحو هو الجانب الوحيد في التراث الذي يعد وسيلة لحفظ اللغة العربية إذ إنه من غير المعقول أن يقيم الناطق للعربية نحوها، دون صحة النطق بأصواتها وأبنيتهما أو الجهل بأساليبها ودلالاتها وأغراضها.

وأكثر ما كانت هذه الجوانب تراعى في نطق العربية ذات المستوى الراقى ونقص ذلك الأدبية، وفي قراءة النص القرآني وإلقاء الخطب و إنشاد الشعر وما إلى ذلك، فنجد الذي يتعامل مع هذا المستوى خصوصاً من المتأخرين يجهد نفسه، ويضعها في حال انقباض يريد بذلك الأداء الصحيح في نطق ما يقرؤه ويتفوه به، ولذلك صارت الحاجة أمس إلى الإلمام بمخارج الحروف العربية لإعطائها حقها ومستحقها، ونجد ذلك مثلاً في تلاوة القرآن بالتحقيق دون الحذر والتدوير¹.

ومخارج الحروف العربية التي نصت عليها الأبحاث الصوتية العربية على مدى تاريخ البحث الصوتي عند العرب وقع فيها بعض الخلاف، وعلماء اللغة وغيرهم "اختلفوا في عدة

¹. قال الإمام ابن الجزري: "فإن كلام الله تعالى يقرأ بالتحقيق و بالحذر وبالتدوير" وقال : التحقيق "وهو عندهم إعطاء كل حرف حقه من إشباع المد وتحقيق الهمزة وإتمام الحركات"، أما الحذر فوصفه بأنه "عبارة عن إدراج القراءة وسرعتها وتخفيفها بالقصر والتسكين والاختلاس والبدل والإدغام الكبير وتخفيف الهمز ونحو ذلك" ثم قال "وأما التدوير فهو عبارة عن التوسط بين المقامين".

- يراجع النشر في القراءات العشر، تح: محمد علي الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 205، 207.

مخارج الأصوات التي أطلقوا عليها لقب مخارج الحروف، فقال بعضهم إنها أربعة عشر وقال بعضهم الآخر إنها ستة عشر، وقال جمهور القراء وجمهور النحويين إنها سبعة عشر مخرجا، مجموعة في عشرة ألقاب¹، وهي كالآتي²:

- 1 - الأصوات الجوفية أو الهوائية: وهي أحرف اللين كما سماها القدماء، تخرج من الجوف، ولا تقع في مدرجة من مدارج اللسان أو الحلق أو اللهاة.
- 2 - الأصوات الحلقية: وهي ثلاثة أقسام:
 - أ - الصادرة من أقصى الحلق: وهي الهمزة والمهاء.
 - ب - الصادرة من وسط الحلق: وهي العين والواو والحاء.
 - ت - الصادرة من أدنى الحلق: وهي الغين والحاء.
- 3 - الأصوات اللهوية: وهما القاف الصادر من أقصى اللسان من منبت اللهاة، والكاف الصادر من أسفل اللسان بعد مخرج القاف بقليل ومما يليه من الحنك الأعلى.
- 4 - الأصوات الشجرية: وهي الجيم والشين والياء غير المدية، وهي تخرج من شجر الفم أي من مخرج الفم، ويحدده سيبويه بأنه وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى. وأضاف إليها الخليل صوت الضاد.
- 5 - الأصوات الذلقية: وتسمى كذلك الذلقية لخروجها من ذلق اللسان أي من طرفيه، وهي ثلاثة: النون واللام والراء، وتصنف كالآتي:
 - أ - مخرج النون المظهرة من حافة اللسان، من أدناها إلى منتهى طرف اللسان، ما بينهما وبين ما يليها من الحنك الأعلى، وما فوق الثنايا.
 - ب - مخرج الراء من مخرج النون، غير أنه أدخل في ظهر اللسان قليلا، لانحرافه إلى اللام.

¹. علم الأصوات اللغوية، عصام نور الدين، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان ، ط1، 1992م، ص 209.

². ينظر كتاب سيبويه (ج4/ ص431-434) ، و علم الأصوات اللغوية ، ص 209-216.

ت -مخرج اللام ما دون طرف اللسان، ما يقرب من رأسه من جانب ظهره إلى منتهاه.

6 +الأصوات النطعية: سميت نطعية لأنها تخرج من نطع الغار الأعلى، من سقف غار الحنك الأعلى، وهي: الطاء والتاء، والدال.

7 +الأصوات الأسلية: وسميت كذلك لأن مبدأها من أسلة اللسان، وهي مستدق طرف اللسان، وهي: الصاد، والسين، والزاي.

8 +الأصوات اللثوية: ومبدؤها اللثة، وهي: الطاء والذال والتاء.

9 +الأصوات الشفوية أو الشفهية: ومبدؤها الشفة، وهي: الفاء والباء والميم.

10 +الأصوات الخيشومية: وهي النون الخفيفة الساكنة مع التنوين.

ب - صفات مخارج الحروف العربية¹: ومنها صفات عامة، وهي:

1 -الجهر والهمس: المجهور هو الذي تصحبه ذبذبة الوترين، والمهموس ما لا تصحبه تلك الذبذبة، وعرف سيبويه المجهور بأنه حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النفس أن يجري معه، حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت والمهموس عنده ما أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه.

2 -الشدة والرخاوة: الصوت الشديد يحدث عن طريق التقاء عضو بآخر التقاء فجائيا وعند انفصالهما يحدث الصوت، والرخو يكون الالتقاء فيه غير شديد مما يسمح بمرور صوت احتكاكي، وعرف سيبويه الشديد بأنه الذي يمنع الصوت أن يجري فيه، وهو الهمزة والقاف والكاف والجيم والطاء والتاء والدال والباء، أشار إلى الحروف الرخوة وهي: الهاء والحاء والغين والخاء والشين والصاد والضاد والزاي والسين والطاء والتاء والذال والفاء.

3 +الأصوات الصامتة وأصوات اللين: وقد قسم المحدثون الأصوات قسمين رئيسيين:

¹. ينظر كتاب سيبويه (ج4/ص434-436) ، و ينظر كذلك في البحث الصوتي عند العرب، ص 40-61 .
ارتأينا عرض هذه المعلومات الصوتية بهذا الإيجاز نظرا لضيق المقام عن ذكر الاختلافات في الرؤى، والتباينات في الاصطلاح، وقمنا بتلخيص لأهم المفاهيم انتقاء من بعض المراجع حسب السهولة والتبسيط الوارد فيها، تحاشيا للدخول في تفاصيل تخرج بنا عن المقصد الأساسي لذكر السمات الصوتية للغة العربية في أسمى أشكالها الأدائية والنطقية.

الصامتة أو الساكنة وهي جل أصوات العربية، ما عدا الألف والواو والنون (التي يمد بها الصوت) وتسمى أصوات لين طويلة، والفتحة والضمة والكسرة وتدعى أصوات المد القصيرة أو الحركات.

وأما الصفات الخاصة فهي¹:

- 1 - **الذلاقة والإصمات**: والذلاقة يندرج تحته الشفوي: الفاء والباء والميم، والذولقي: الراء والنون واللام، والإصمات صفة لباقي أصوات العربية، وهي حروف لا تتفرد بنفسها في بناء كلمة أكثر من ثلاثة أحرف حتى يكون معها غيرها من الحروف المذلفة.
- 2 - **الإطباق**: وهو من صفات الصاد والضاد والطاء والظاء والراء واللام والقاف ويقصد به اتخاذ اللسان شكلا مقعرا عند النطق بهذه الأصوات.
- 3 - **التفشي**: صفة خاصة بصوت الشين، الذي يظهر فيه انتشار اللسان على الحنك، فيتكون في وسطه شيء كالقناة يتسرب النفس منها ويتوزع في جنبات الفم.
- 4 - **الاستعلاء والاستفال**: الأصوات التي يرفع معها مؤخرة اللسان هي حروف استعلاء وهي الخاء والغين والقاف والضاد والطاء والصاد والظاء وما عداها مستقالة ومنخفضة.
- 5 - **الصفير**: وهي صفة الصاد والزاي والسين، لأن صوتها كالصفير تخرج من بين الثنايا وطرف اللسان فينحصر الصوت هناك ويصفر به.
- 6 - **القلقلة**: وهي حروف يحتاج معها إلى قلقلّة اللسان ، وتحريكه عن موضعه حتى يخرج صوتها فتسمع وهي: القاف والجيم والطاء والذال والباء.
- 7 - **الانحراف**: وهو صفة اللام، سمي كذلك لانحراف اللسان معه، ومنهم من يزيد إليه حرف الراء.
- 8 - **التكرار**: وهو صفة الراء، ويراد بالتكرير ملاحظة الضربات المتلاحقة التي تصحب نطق الراء.

¹. علم الأصوات اللغوية ، عصام نور الدين، ص 217.

- 9 - **الهاوي**: صفة الألف، لأنه كما قال سيبويه: "حرف اتسع لهواء الصوت مخرجه أشد من اتساع مخرج الياء والواو"، وسمي هاويا كونه أعلى مراتب الانطلاق في أصوات اللين.
- 10 - **الصوت المهتوت**: صفة الهمزة، والهت: عصر الصوت، وهو إطلاق الخليل.
- 11 - **الاستطالة**: صفة الضاد، وسمي كذلك لامتداده من أول حافة اللسان إلى مخرج اللام، لما فيه من قوة وجهر وإطباق واستعلاء حتى استطال مخرجه.

هذه مخارج حروف العربية وصفاتها، والتي توصل إليها علماء العرب في القديم عن طريق التدقيق، وصادقت عليها البحوث الحديثة مع شيء من التفصيل أو التأثير بالدرس الصوتي الغربي، ولم ينص عليها لغويو العرب ونحاتهم وعلماء القراءات منهم إلا بعد عملية وصف دقيق للغتهم، وملاحظات واستقراء دلت عليها مؤلفاتهم في ذلك، وهي بالطبع سمة اللغة العربية في أكمل أشكالها النطقية، ما لم يعترضها ما يبتعد بها عن ذلك كالعجمة أو عيوب الكلام وغير ذلك.

ولذلك نص العلماء على فصاحة قریش وصفاء لغتها، وخلوصها من بعض ما كانت تتخبط فيه اللهجات الأخرى، وقد اشتهر عن الإمام ثعلب (ت 291 هـ) ¹ قوله: "ارتفعت قریش في الفصاحة عن عننة تميم، وتلتة بهراء، وكسكة ربعة، وكشكشة هوازان، وتضع قيس، وعجرفية ضبة"، ولذلك كان نطقهم للعربية مخصوصا بالصفاء والنقاء وحسن الموقع في السمع، ولكن ينبغي التنبيه هاهنا إلى أن قریشا اشتهرت بين العرب بتخفيف الهمز في كلامها، وهذا نص عليه جمهور اللغويين العرب.

¹. خزانة الأدب للخطيب البغدادي، تح: محمد نبيل طريفي وإميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1998 م، (ج1/ص250)، وكذلك الخصائص (ج2/ص11)، والمزهر (ج1/ص211). هذا فضلا عن ظاهرة اللحن التي ظهرت فيما بعد، حيث يقول حسين نصار عنها: "و نستطيع أن نصنفه في ثلاثة أنواع: لحن في مخارج الحروف، و لحن في تركيب الجمل، و لحن في الإعراب، و قد وجد لحن مخارج الحروف في الجاهلية بين الرقيق من الزوج الذين كانوا يسمون أغربة العرب، و بين بعض الصحابة مثل بلال الحبشي و سلمان الفارسي و صهيب الرومي ...، ثم انتشر بعد الاسلام بين شعوب الأمم المغلوبة، لعدم قدرتهم على إخراج بعض الحروف العربية من مخارجها الصحيحة ... و لكن هذا اللحن لم يقتصر على الأجانب بل تسرب إلى ألسنة بعض العرب" - يراجع المعجم العربي نشأته و تطوره، دار مصر للطباعة و النشر، القاهرة، مصر، 1956 م، (ج1/ص23).

2.1.1.2 - المعيار الصرفي la norme morphologique :

أما عن المستوى التصريفي للفصحى بمعناها الراقي والأمثل، فهو أن تكون ألفاظها ومبانيها موافقة لما تكلمت به العرب وما سمع منها، وقد وصفه ابن جني بقوله: "وهذا القبيل من العلم أعني التصريف، يحتاج إليه جميع أهل العربية أتم حاجة، وبهم إليه أشد فاقة، لأنه ميزان العربية، وبه تعرف أصول كلام العرب من الزوائد الداخلة عليه"¹، ومن ثم فإن الفصاحة العالية تقتضي أن يكون أداء العربية موافقا لما نطقت به العرب من الأوزان والأقيسة، ومباني الأسماء والأفعال دون حياد عنها.

وفي هذا الموضع لا أدل على ذلك من حادثة ابن جني مع الأعرابي أبي عبد الله الشجري حين قال: "وسألته يوما فقلت له: كيف تجمع دكانا فقال دكاكين، قلت فسرحانا قال سراحين، قلت فقرطانا قال قراطين، قلت فعثمان قال عثمانون، فقلت له هلا قلت أيضا عثمانين، قال: أيش عثمانين، رأيت إنسانا يتكلم بما ليس في لغته والله لا أقولها أبدا"²، وهذه الحادثة بينت لنا أن العرب كانت ترى أن من تمام الفصاحة جمع الأسماء على الأوزان المطبوعة عليها ألسنتهم، ولم يتوقف إنكارهم لفساد العربية على انحراف حركات الإعراب، وإذا كان هذا الأعرابي قد رفض الخروج عن سمت العرب في جلسة استظراف، فكيف يقبلها من خطيب أو شاعر؟

ولذلك وصف أبو حيان الأندلسي (ت 745 هـ) علم التصريف بأنه "أشرف شطري اللسان العربي، وأجمل ذخيرة"³، وذلك لأنه لا تكمل الفصاحة العربية والسلامة اللغوية فيها إلا بمراعاة قواعدها التصريفية، وتشكيل الكلم العربي وفق الأبنية المتعارف عليها بين العرب، هذه الأبنية التي وقف عليها اللغويون العرب وأحصوها كما أحصوا ما ليس منها.

¹. المنصف، تح: إبراهيم مصطفى، عبد الله الأمين، إدارة إحياء التراث القديم، مصر، ط 1، 1373هـ/1954م، (ج1/ص34)

². الخصائص (ج1/ص242).

³. المبدع في التصريف، تح: عبد الحميد سيد الطلب، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الصفاة، الكويت، ط 1، 1402هـ/1982م، ص 45.

3.1.1.2 - المعيار النحوي la norme grammatical :

وعلى صعيد المستوى النحوي ، فإن الفصحى الراقية تتميز عن غيرها بحركات الإعراب ، سلامة نحوية وتحقيقا أدائيا ، والذي يروم الكلام بالعربية على طريقة الفصحاء من العرب فليس له إلا أن يراعي ما راعته في أواخر الكلم ولا يحيد عن ذلك ، ومن ذلك تدرك بعد النظر الذي كان عليه ابن جني حين لفت أنظار النحويين المحدثين وغيرهم إلى عبقرية الحد الذي وضعه للنحو ، إذ قال: "هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقيق والتكسير والإضافة والنسب وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم وإن شذ بعضهم عنها رد به إليها"¹ وإن كان هذا التعريف شمل التصريف أيضا إلا أنه يستحق النظر والتدقيق فيما يخص الإعراب .

وما يفهم من تعريفه للنحو أول وهلة هو ما ذكره ابن خلدون (ت 808 هـ) ، فقد أكد أن ملكة اللسان العربي تحصل بالسماع ومخالطة الفصحاء لا بالقواعد والقوانين ، حيث يقول: "فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله ، وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم... ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد من كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ، ويكون كأحدهم"².

ونجد أن ابن خلدون تقطن إلى أن الفصاحة لا تحصل بعلم القواعد والمقاييس بقدر ما تحصل بالسير على سنن العرب من السماع والدربة على ذلك إذ يقول: "والسبب في ذلك أن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة ، فهو علم بكيفية لا نفس كيفية ، فليست نفس الملكة ، وإنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علما ولا

¹. الخصائص (ج1/ص 34).

². المقدمة (ج3/ص 250).

يحكمها عملاً¹، والمفهوم من كلامه أن العرب الفصحاء أتقن للعربية دون حاجة إلى العلم بها والإحاطة بقوانينها لذا كان أعرابهم ينكرون زيغ الإعراب وكلام النحاة.

فنحو العربية وإعرابها خاصية العرب، وقد نبه إلى ذلك ابن فارس² بقوله: "من العلوم الجليلة التي خصت بها العرب الإعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما ميز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت، ولا تعجب من استفهام، ولا صدر من مصدر، ولا نعت من تأكيد".

ولقد كانت عوامل أدت إلى نشوء النحو، كفساد اللسان العربي، والخوف على انحراف الألسنة في قراءة القرآن، وبالتالي تكفل النحاة بوصف العربية الفصيحة عبر مدونة منتقاة بحرص بالغ، وأثبتوا طرائق العرب في كلامها، وأبلوا في ذلك بلاء كان وراءه الوازع الديني من الدرجة الأولى، جعل المستشرقين يعجبون بهذا التفاني في خدمة اللغة، يقول يوهان فك:
"ولقد تكفلت القواعد التي وضعها النحاة العرب في جهد لا يعرف الكلل، وتضحية جديرة بالإعجاب، بعرض اللغة الفصحى وتصويرها في جميع مظاهرها، من ناحية الأصوات، والصيغ، وتركيب الجمل ومعاني المفردات على صورة محيطية شاملة، بحيث بلغت القواعد الأساسية عندهم مستوى من الكمال لا يسمح بزيادة لمستزيد، ولا تزال القواعد الأساسية المذكورة تعد اللغة العربية لغة متصرفة لمعنى الكلمة، محافظة على نهايات الإعراب والتصرفات المختلفة" ليضيف قائلاً: "لقد احتفظت العربية الفصحى، في ظاهرة التصرف الإعرابي، بسمة من أقدم السمات اللغوية التي فقدتها جميع اللغات السامية"³.

4.1.1.2 - المعيار الإفرادي (المعجمي) : la norme lexicale

و من ناحية المستوى الإفرادي فإن الفصاحة العربية الماثلة في أشعار العرب ونثرهم، تعرف كذلك وتتميز بمفرداتها وغريبها وألفاظها المجموعة في الجهود المعجمية التي قام بها

¹. نفسه (ج3/ص 261).

². الصاحبي، ص 42.

³. العربية، يوهان فك، ص 14، 15.

لغويو العرب بدءا من الخليل بن أحمد إلى الأعمال التي تلتها باختلاف مدارسها ومناهجها في جمع لغة العرب وتبويبها وترتيبها.

ومن أجل الحفاظ على العربية الفصحى الأدبية التي ضمتها أشعار العرب وتراثهم الأدبي، ثم نزل بها القرآن بعد ذلك : عمل العلماء الأوائل على جمع اللغة وتدوين الفصح من الكلمات العربية بمعانيها فنشأت الحركة المعجمية العربية، ولقد لخص حسين نصار¹ أسباب ظهور المعجم وجمع اللغة في الظروف التي أحاطت بالعربية قبيل الإسلام إلى بداية التأليف، فهو يذكر أن اللغة العربية ارتقت في أواخر العصر الجاهلي، وتطورت لهجاتها، ونشأت لهجة أدبية راقية من هذه اللهجات جميعا، وينظم بها الشعراء، ويخطب الخطباء، وحين انتشرت اعتبرت اللغة الفصحى، وما عداها غير فصيح، ولما أحس العرب بجمال لغتهم، وحاولوا التفوق فيها، عملوا على ترسيخها في أبنائهم والعناية بها، واستمروا على ذلك إلى ما بعد انتشار الإسلام، واهتموا بها وبتتقيتها من شوائب اللحن، وكان السبب المباشر لظهور الدراسات اللغوية ارتباطها بالدراسات الدينية فنشأت حركة ترمي إلى توضيح آيات القرآن، وإدراك غريبه ومشكله ثم العناية بغريب الحديث، ونشأت ظاهرة التدوين العلمي، وتأسست معظم العلوم العربية، ومنها حركة المعاجم العربية، بعد أن كانت في شكل رسائل لغوية صغيرة موضوعاتية.

هكذا بدأ العمل المعجمي عند العرب، وهو كما نرى لا يخرج عن جهود العرب في الحفاظ على الفصاحة ورصيد اللغة من الألفاظ والغريب الذي جاء على لسان العرب، وما يؤكد لنا هذا هو بدوهم في وضع تلك الرسائل المصنفة والمبوبة موضوعاتيا، فبعد جمعهم اللغة وسماعها من الفصحاء بدأ التأليف ، فألف أبو زيد الأنصاري كتابا في المطر وآخر في اللبن، وألف الأصمعي كتابا عدة منها كتاب النحل والعسل ، وألف ابن الأعرابي كتابا في الذباب وألف النضر بن شميل كتابا في خلق الفرس إضافة إلى مؤلفات متأخرة عنها تابعتها

¹. ينظر المعجم العربي، نشأته وتطوره ، (ج1/ ص 15-36).

في المنهج كالألفاظ الكتابية للهمذاني وفقه اللغة للثعالبي والمخصص لابن سيده ، وظهر في القرن الثاني الهجري كتاب العين للخليل كأول معجم مرتب ، ثم من بعده أعمال معجمية كالبارع للقالبي والتعذيب للأزهري والجمهرة لابن دريد والصاحح للجوهري¹.

وفائدة جمع اللغة هي معرفة فصيح ما نطقت به العرب، وضمنتها أشعارها وكلامها وخطبها وأمثالها، وما حواه القرآن الكريم من الغريب والأساليب التي لا يفقهها إلا العرب الفصحاء الذين نزل بلغتهم وخاطبهم بها، تلك اللغة الفصيحة التي تعارفوا على رقيها ونصاعتها.

5.1.1.2 - المعيار البلاغي la norme rhétorique :

وهناك مستوى آخر بلغ الذروة في تمييز الفصحى الأدبية عن غيرها بوضع أسسها العامة وشرائطها وهو المستوى البلاغي، وذلك فيما نص عليه البلاغيون من شروط الفصاحة وأدوات البلاغة العربية، إذ كان تعريفهم لها وإحصائهم لشروطها شموليا، وتحدثوا عن فصاحة الكلمة وفصاحة الكلام، وفصاحة المتكلم، أما عن فصاحة المفرد فهي عندهم خلوصة من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس²، وبذلك فقد أشاروا إلى مراعاة الجانب الصوتي والمعجمي والنحوي والصرفي، ولا يكون اللفظ عندهم فصيحاً ما لم يكن على هذه المقاييس -أو بعبارة أدق-: المعايير، و قال الخطيب القزويني (ت 739 هـ) : "ثم علامة كون الكلمة فصيحة أن يكون استعمال العرب الموثوق لعربيتهم لها كثيراً أو أكثر من استعمالهم ما بمعناها"³، وتحدث البلاغيون كذلك عن فصاحة الكلام، حيث يضيف القزويني قائلاً: "وأما فصاحة الكلام فهي خلوصة من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد مع

¹. ينظر المعاجم العربية، مدارسها ومناهجها، عبد الحميد محمد أبو سكين، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، شبرا، مصر، ط2، 1402هـ/1981م، ص 20، 21.

². الكليات للكفوي تح : عدنان الدرويش و محمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، 1419هـ/1998 م ، ص 349 ، و كذلك التعريفات للجرجاني ص 214 ، و المزهري للسيوطي (ج 1/ص 185) ، و خزنة الأدب للبغدادي (ج2/ص 414) ، و تاج العروس للزبيدي (ج1/ص 20).

³. الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، تح : بهيج غزاوي ، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، 1419هـ/1998م، ص 9.

فصاحتها"¹ ومنهم من زاد على ذلك تحاشي التكرار، إذ يقول ابن سنان الخفاجي: "وما أعرف شيئاً يقبح في الفصاحة ويغض من طلاوتها أظهر من التكرار"²، وأجل من بهر التابعين له في قضية فصاحة الكلام عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) لما رفض أن تكون الفصاحة صفة للفظ مستقلاً وشرح في تأليفه مفهوم نظم الكلام إذ يقول: "إنها خصوصية في نظم الكلم، وضم بعضها إلى بعض على طرق مخصوصة أو على وجه تظهر بها الفائدة"³، وقوله: "إن الفصاحة لا تظهر من أفراد الكلمات، وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة"⁴، وللبلاغيين آراء ومذاهب في الفصاحة العربية تأملوها في ما بين أيديهم من منظوم العرب ومنثورهم.

وتحدثوا كذلك عن فصاحة المتكلم وعرفوها "بأنها ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح"⁵، والإبانة عن تلك القدرة ببعض الأساليب المخصوصة كالاغتراف في الشعر عند ابن جني⁶، أو أن يأتي الناظم أو الناثر بلفظة فصيحة من كلام العرب العرياء تنتزل من الكلام منزلة الفرائد كما ذكر الخطيب البغدادي (ت 1093 هـ)⁷، أو ما إلى ذلك.

كل هذه الأوصاف تحدث عنها البلاغيون في شرائط الفصاحة وعلاماتها فضلاً عن حديثهم في مراتب البلاغة والفرق بين الفصاحة والبلاغة، وتلك الأوصاف هي التي استنتجوها من استقراء كلام العرب الفصحاء في مدوناتهم الأدبية لا في عموم كلامهم، ذلك لأن شعر العرب وعيون خطبهم - ثم القرآن الكريم الذي فاق كل ذلك إعجازاً - كانت نماذج

¹. نفسه ص 9، والكليات للكفوي ص 350.

². سر الفصاحة، ص 106.

³. دلائل الإعجاز، تح: محمد التونجي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط1، 1995 م ص 48.

⁴. نفسه، ص 294.

⁵. الكليات ص 351، والإيضاح ص 12.

⁶. الخصائص (ج1/ص 341).

⁷. خزانة الأدب (ج2/ص 297).

مثلى في تمييز الفصاحة العالية حيث تتظافر كل المستويات السالفة الذكر في أرقى صورها وأكمل أشكالها.

وعلى أساس المعايير السالفة الذكر فإن الحديث عن الفصحى الأدبية التي تعارف عليها العرب في مبحث الشفاهية يتلخص في نقطتين هامتين:

6.1.1.2 - الصفة الشفاهية للفصحى الأدبية :

عرفنا من قبل أن الأدب الإنساني عموماً والعربي على وجه الخصوص اتسم في فترة سابقة من مراحل تطوره بالشفاهية ، والاقتصار على تداوله مسموعاً كإنشاد الشعر في الأسواق والمحافل وإلقاء الخطب، وذلك إلى بداية تسجيله وتدوينه عن طريق رواة وحافظيه، وصارت الكتابة إذ ذاك سمة خاصة به بعد أطراح ما عداه من الموروث الشفاهي العام، إذ لم يكن بمقدور العرب أثناء انطلاق حملة التدوين أن يسجلوا كل ما سمعوه، حتى إن تعلق الأمر بالشعر والنثر ما لم يكن برواية موثوقة وشاعر أو أديب معروف.

هذا، إذا استثنينا بعض الروايات التي تتحدث مثلاً عن كتابة المعلقات، إذ نقل غير واحد¹ ممن ألف في أدب العرب أنها كانت "تسمى المذهبات، وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر، فكتبت في القباطي بماء الذهب وعلقت على الكعبة"، وقد أنكر ذلك عدد من المستشرقين على رأسهم نولدكه والفرنسي كليمان هيوار²، وتقدم لدينا ما ذكره مارغليوث وطه حسين في مسألة انتحال الشعر الجاهلي، ولو كان الشعر الجاهلي أدباً مكتوباً أغلق الباب دون من يدعي عدم مصداقيته أو ثبوته التاريخي.

والعرب في ذلك الزمن لم يكونوا أهل كتابة ولم تكن من صنائعهم، وقد وافق شوقي ضيف القائلين بعدم صحة كتابة المعلقات قائلاً: "لم يعرف عرب الجاهلية - كما مر بنا - سوى أدب

¹. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، دمشق، سوريا، ط 5، 1401هـ/1981م (ج1/ص 96)، وكذلك خزانة الأدب (ج1/ص 137)، والمزهر (ج2/ص 480).

². الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1412هـ/1992م، ص 273.

الكلمة المسموعة من الشعر والخطابة" ¹ وذكر أنه إلى غاية العصر العباسي بعد رقي الشعر، هنالك فقط "كانت الكلمة المكتوبة أساس الأدب بفرعيه من النثر والشعر" ²، ومع ذلك ظلت التقاليد الشفاهية في عهد الكتابة باقية، و "كلمات العربية المسموعة تضطرم في عصور الكلمة المقروءة وتزداد تلظيا واشتعالا على لسان الشعراء والكتاب الذين أحسوا في عمق أنه ينبغي ألا يهملوا الأسماع أي إهمال" ³، ويوضح هذا الرأي كيف كان العرب يتعاملون مع أدبهم خصوصا الشعر، فلم يكن لهم سوى الحفظ والرواية والتداول بالشفاه، و "لو أن الكتابة كانت فاشية فيهم ما عدلوا إليها ولا استغنوا بها عن الحفظ" كما قال الراجعي ⁴، لانهم كانوا يتباهون بالارتجال واستحضار المعاني على البديهة، والنطق بها على الطبيعة، لذلك نجد الجاحظ يصفهم بقوله: "وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليس هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخطام، أو حين يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة أو المناقلة، أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالا، وتنتال عليه الألفاظ انثيالا، ثم لا يقيده على نفسه" ⁵.

بل ويزعم المستشرق جيمس مونرو ⁶ "أن التقليد الشفوي لشعر الجاهلية لم يخدم، فلا يزال هذا التقليد جاريا في جزيرة العرب، على الرغم من مضي خمسة عشر قرنا من عصر امرئ القيس" ودليله في ذلك أن شعراء الجزيرة العربية مع جهلهم وبدائيتهم لهم لغة قريبة من اللغة

¹. في التراث والشعر واللغة، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، 1987م، ص 264.

². نفس المرجع السابق و الصفحة .

³. نفسه، ص 265.

⁴. تاريخ آداب العرب، راجعه و ضبطه : عبد الله المنشاوي و مهدي البقيري، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر،

ط2، 1369هـ، 1940م (ج1/ص 232).

⁵. البيان والتبيين (ج3/ص 28).

⁶. النظم الشفوي في الشعر الجاهلي، ص 32.

الأدبية أو اللغة الشعرية القديمة¹، وهي نفسها مفاهيم باري ولورد في تواتر القوالب الصياغية الكفيلة بإلغاء فكرة الانتحال وإعادة الاعتبار للموروث الأدبي الشفاهي القديم.

إذن فالفصحى الأدبية المشتركة التي ورثها العرب عبر الأزمان - ويتعاملون بها في الرسميات رغم ما أصابها من تغيير - كان منشؤها شفاهيا غير مكتوب، و إذا ثبت هذا فإن العرب كانت تؤدي لغتها و تنطق بها على أكمل وجوه النطق صوتا و أفرادا و نحوا و صرفا و بلاغة دون شعور بها، و إنما عن طبع و سجية ، لكن بالرغم من ذلك تميزت لغتهم الأدبية عن شفاهية تخاطباتهم بخصائص راقية .

7.1.1.2 - هل استعملت الفصحى الموحدة في التخاطب اليومي عند العرب ؟

في الحديث عن الفصحى التي كانت في عصر الفصاحة أو ما يسمى عصور الاحتجاج سيجد الباحث نفسه أمام كم هائل من الآراء حول حقيقة الفصحى المعروفة وكيف تكونت وكيف كانت، وهل هي الفصحى التي تأدب بها العرب فحسب أم هي التي تأدبوا بها وتخاطبوا في آن واحد، ونجد وجهات النظر مترامية هنا وهناك بين دارسي تاريخ العربية، وبين دارسي الأدب الجاهلي، واللغويين من جهة ثالثة الذين يشتغلون على فقه اللغة خاصة، ومن جهة رابعة المستشرقين المهتمين بالتراث العربي.

ومن الصعب بمكان ، ترجيح الآراء أو الجمع بينها لكثرتها ولتناقضها في بعض الأحيان، بين مشكك في أصل العربية ، وبين مثبت لاكتمال معالمها على هيئة معينة وبين متسائل عن طبيعة الفصحى الأدبية و بما تخاطبت به العرب في الواقع، وبين رابط بين الفصحى واللهجات و فاصل بينهما، نستعرض بعضا من تلك الآراء :

فهذا طه حسين يرى أن الأدب الجاهلي "بعيد كل البعد أن يمثل اللغة العربية في العصر الذي يزعم الرواة أنه قيل فيه"²، وأن تحديد معنى اللغة العربية الفصحى ابتعد عن المنهج الصحيح، و"أن على الذين يريدون أن يحددوا المعنى الذي يدل عليه لفظ اللغة العربية

¹. ينظر نفسه، ص 33.

². في الأدب الجاهلي، مطبعة فاروق، القاهرة، مصر، ط3، 1352هـ/1933م، ص 79.

الفصحى أن يعتمدوا في هذا التحديد على الموطن الجغرافي لا على الأنساب والأساطير" ¹، وكذلك من التفكير العلمي عنده درء الزعم بتلاقح اللهجات، وترك الأخبار المشتعلة على الخليط الذي ينصهر في الواحد، بسبب ما أسماه "نظرية العزلة العربية" ²، وكذلك القول أن القرآن فرض على العرب "لغة واحدة ولهجات متقاربة لأننا على حد قوله "لا نرى شيئاً من ذلك في الشعر العربي الجاهلي" ³.

ويرى رمضان عبد التواب بأن "الشعر القديم كان ينظم باللغة المشتركة، ولكنه كان ينتقل في جميع أنحاء الجزيرة العربية، على ألسنة الناس حتى العامة منهم" ⁴، و"أن اللغة العربية المشتركة تتصف بأنها لغة فوق مستوى العامة من العرب وأنها لغة الآثار الأدبية، وأنها لغة منسجمة موحدة خالية من الخواص المحلية ولذلك لا يصح مطلقاً أن نقول عنها إنها لغة سليقة لكل العرب" ⁵، و"أن الإعراب صفة من صفات اللغة العربية المشتركة، والذي يخطئ في هذه اللغة، وفي بعض خصائصها، لا تكون له لغة سليقة" ⁶ كما ذكر، وهو يمثل بظاهرة الإقواء التي كانت تقع لبعض شعراء الجاهلية.

و يرى علي عبد الواحد وافي ⁷ "أن اللهجات العربية أتيح لها فرص كثيرة للاحتكاك ... فاشتبكت من جراء ذلك بعضها مع بعض في صراع لغوي كتب فيه النصر للهجة قريش ، فطغت على جميع اللهجات الأخرى في المحادثة ، و استأثرت بميادين الأدب شعرها و خطابتها و نثرها في مختلف القبائل " ، و يضيف " أنه في الصراع بين اللهجات لا تخرج اللغة المنتصرة سليمة ، لأن طول احتكاكها باللغات الأخرى ، و شدة كفاحها معها و ما

¹. نفسه، ص 91.

². نفسه، ص 93.

³. نفسه، الصفحة نفسها.

⁴. فصول في فقه العربية، مكتبة الخانجي للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة ، مصر ، ط6 ، 1420 هـ / 1999 م ، ص 87.

⁵. نفسه، ص 91.

⁶. نفسه، ص 94.

⁷. فقه اللغة ، دار نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة ، مصر ، ط3 ، 2004م ، ص 81 .

تبدية اللغات المقهورة من مقاومة ، يترك في اللغة الغالبة آثارا كثيرة من اللغات المغلوبة في نواحي الأصوات و القواعد و الأساليب ، فاللغة الغالبة في العادة تعتمد إلى خصمها المقهور فتمتص منه ما تحتاج إليه ، و تستلبه ما يعوزها قبل أن تجهز عليه " ¹ليعود و يؤكد مرة ثانية "أن لهجة قريش طغت على السنة جميع القبائل في المحادثة نفسها " ²

ويرى عبده الراجحي أن "الآراء التي تذهب إلى أن لهجة قريش هي اللغة المشتركة الفصحى لا تقوم على أساس لغوي علمي صحيح" ³، وأنا لا نملك نصوصا تظهر أن "لهجة لهجة قريش استطاعت أن تسود غيرها من اللهجات، وأن تفرض نفسها لغة نموذجية مشتركة يصطنعها الشعراء في شعرهم والخطباء في خطبهم" ⁴، والرأي الصحيح عنده هو ما كان على حد قوله: "موافقا لطبيعة التطور اللغوي، وهو أن شبه الجزيرة العربية كانت بها لهجات كثيرة مختلفة تنتسب كل منها إلى أصحابها، وإلى جانب هذه اللهجات كانت هناك لغة عربية مشتركة تكونت على مر الزمن... هي التي كان الأدباء يصطنعونها في فنهم القولي، ونحن لا نستطيع أن نتصور أنهم كانوا يتحدثون في بيعهم وشرائهم وهزلهم باللغة ذاتها التي ينظمون بها شعرهم أو يصنعون فيها خطبهم" ⁵.

ويرى شوقي ضيف أنه "ليس من السهل تحديد الزمن الذي اتخذت فيه لغتنا العربية شكلها النهائي الذي تصوره الفصحى الجاهلية، وهو شكل كامل النضج سواء من حيث الإعراب والتصريف والاشتقاق" ⁶، وأنه مع أوائل القرن السادس الميلادي "تقاربت لهجات القبائل، وأصبحت هناك لغة أدبية عامة هي الفصحى، ينظم بها شعراء العرب جميعا شعرهم" ⁷، ونجده بعد حديث عن اللهجات يقر في رده على بعض المستشرقين أن الفصحى هي لهجة

¹ . نفسه ص 91 .

² . نفسه ص 97 .

³ . فقه اللغة في الكتب العربية، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، 1392 هـ / 1972 م ، ص 119 .

⁴ . نفسه ص 119 .

⁵ . نفس المرجع السابق ، ص 120 .

⁶ . العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة ، مصر ، ط24، 1960م، ص 117 .

⁷ . نفسه، ص 120 .

قريش وأن شيوخها بين العرب كان لأسباب سياسية أو روحية أو حضارية، فاتخذت أداة للأدب بينما ظلت وحداتها الصغيرة تتحدث في حياتها بلغاتها المحلية، وما تزال اللغة الأدبية في الذبوع، حتى تظفر بتلك اللغات المحلية التي تستخدم في الحياة اليومية العملية¹. أما عن المستشرقين فيرى كارل بروكلمان² أن العرب قبل الإسلام لم يخلدوا لغتهم على الحجارة، وازدهر لديهم الشعر خصوصا عند عرب وسط الحجاز ونجد، واستخدموا لغة مشتركة سماها اللغة الشعرية التي لم تقيد بالكتابة، وامتازت بوفرة الصيغ والمفردات لأنها التهمت كل اللهجات المختلفة المحيطة بها، تلك اللهجات التي لا نعرف عليها إلا القليل ما عدا لهجة مكة التي نزل بها القرآن، ثم انتشرت، وأصبحت هي اللغة الأدبية المشتركة، ولم تتوان لغات القبائل عن اكتساب قواعد جديدة دائما في الحياة اليومية في ظل محاولتهم التكلم بالفصحى.

ويرى وولفديتريش فيشر³ "أن الشعر القديم هو الميراث الثقافي المشترك للقبائل العربية الشمالية،... وبالنظر إلى عدد القبائل المشاركة فيه والمحيط الزمني الممتد لثلاثة قرون دام خلالها نشوء النصوص المروية، فقد وقعت -برغم فروق في التفاصيل- الوحدة اللغوية الكبيرة نسبيا للشعر العربي القديم، وتجعل البحوث الحديثة محقة تأليف القصائد الحادث شفويا، في العادة ونقلها الشفوي من قبيلة إلى قبيلة ومن جيل إلى جيل مسؤولا عن نشوء بنية متجاوزة لهجات القبائل".

ويرى ولنفسون⁴ "أن اللغة العربية الباقية هي مزيج من لهجات مختلفة بعضها من شمال الجزيرة وهو الأغلب، وبعضها من جنوب البلاد، اختلطت كلها بعضها ببعض حتى صارت لغة واحدة، وكانت اللهجات القديمة مختلفة في كثير من مادتها اللغوية ولاسيما في كيفية

¹. نفسه، ص 133.

². ينظر كتابه فقه اللغات السامية، تر: رمضان عبد التواب، مطبوعات جامعة الرياض، السعودية، 1397هـ/1977م، ص 29-30.

³. دراسات في العربية، ص 113.

⁴. تاريخ اللغات السامية، إسرائيل ولنفسون، مطبعة الاعتماد، مصر، ط1، 1348هـ/1929م، ص 166.

نطق الكلمات المشتركة، فلما اجتمعت هذه اللهجات وامتزجت وصارت لغة واحدة بدت فيها بعض الكلمات في مظاهر مختلفة وصيغ متباينة".

و يرى نهاد الموسى¹ "أن العربية الفصحى أقيمت على ائتلاف عريض من اللهجات التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية، واللهجات العربية القديمة بما أن هي لسان التخاطب اليومي قد مضت في طريق التطور بفضل عوامل لغوية واجتماعية وزمنية متشابكة، ولقيت العلاقة بين تلك اللهجات المتطورة وأصولها التاريخية التي قامت عليها صفة العربية ظاهرة على مستويات شتى، حتى ليخال كل ناطق بلهجته المحكية اليوم أنها أقرب اللهجات إلى العربية الفصحى".

ويرى² أن العربية الفصحى كانت لغة منطوقة، وأن إحياء ما في قواعدها من رخص الحذف والاجتزاء واعتبار موقف الخطاب يقدم لنا نموذجا فصيحاً للخطاب الشفوي يتصف بالتلقائية، وينأى عن التكلف ولا ينأى عن أصله الفصيح".

و يرى عبد الكريم مجاهد³ " أن الذي حصل للغة المشتركة هو عملية تخلص أو استبعاد الصفات المذمومة للهجات ، و بعبارة أخرى أن اللغة المشتركة هي اللغة النقية الخالية من شوائب اللهجات التي ألّفت منها ، و كان يعرفها الجميع " .

وإن النظر في هذه الآراء المختارة على اختلافها واختلاف حججها وتحليلاتها يفضي بنا إلى القول قطعا بوجود العربية الفصحى الموحدة قبيل مجيء الإسلام إلى انتهاء عصور الفصحاة، وإن كانت أكثر ما وجدت في الشعر والنثر أو في المستوى الأدبي بتعبير آخر، فإنها بسطت سلطانها على العادات التواصلية بين العرب، وبقيت فيها رواسب اللهجات القديمة التي انصهرت فيها، و التي تقاربت و تصادمت فزالت بذلك أكثر فروقها مع الزمن ، و انها بدأت و استقرت في الشعر و النثر ثم امتدت إلى التخاطب ، و هذا ما يمليه منطق

¹ . الفصحى وعامياتها، ص 44.

² . نفسه ، ص 46.

³ . علم اللسان العربي ص 196 .

التطور اللغوي ، ولذلك فالفصحى المشتركة بين العرب والباقية إلى اليوم مع تدني مستواها بفعل المتغيرات هي التي كانت لغة الأدب ولغة التخاطب خصوصا بنزول القرآن الذي رسم اعتمادها، وظهور التدوين وحركات جمع اللغة .

2.1.2- اللهجات:

ينحصر حديثنا عن اللهجات العربية في مسألتين:

الأولى: أن اللهجات هي الأصل في فيما كان العرب يتشابهون به.

الثانية: اللغة الموحدة الفصحى تشمل في مستواها التخاطبي على خصائص لهجية .

واللهجات مبحث عني به الدارسون في الحديث، وتناثرت عنه ملاحظات كثيرة في كتب القدماء تحت مصطلح لغات العرب، يقول إبراهيم أنيس¹: "اللهجة في الاصطلاح العلمي الحديث هي مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة"، وكذلك عن اللهجات يقول أحد الباحثين: "ويعرفها المحدثون بأنها الصفات أو الخصائص التي تتميز بها بيئة ما في طريقة أداء اللغة أو النطق"²، ويقول محمد أحمد خاطر عنها أنها "لسان فريق من الناس مراعى فيه قيود صوتية خاصة تلاحظ عند الأداء"³، على أن كلمة قيود أميل إلى المفهوم المعياري، فتكون كلمة صفات أنسب منها، ويضيف أسعد النادري⁴ قائلا: "والصفات اللغوية المقصودة في هذا التعريف هي في أكثر الأحيان صفات صوتية... فإذا تفشت هذه الصفات في بيئة جغرافية معينة، وسمت لهجة أهل هذه البيئة بما يميزها عن سواها من لهجات البيئات المجاورة".

يقول إبراهيم أنيس: "وقد كان القدماء من علماء العربية يعبرون عما نسميه اليوم باللهجة بكلمة "اللغة حيناً وباللحن حيناً آخر"⁵، ويقصد بهذا أن العلماء الأوائل أطلقوا على اللهجات

¹. في اللهجات العربية، ص 15.

². فقه اللغة، محمد بن إبراهيم الحمد، دار بن خزيمة، الرياض ، السعودية ، ط 1 ، 1426هـ/2005م ، ص 79.

³. في اللهجات العربية، محمد أحمد خاطر، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، مصر ، 1979م، ص 39.

⁴. فقه اللغة مناهله ومسائله، محمد أسعد النادري، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان ، 1430هـ/2009م، ص 14.

⁵. في اللهجات العربية، ص 15.

مصطلح لغات العرب، وقد روي عن الأخفش قوله: "اختلاف لغات العرب إنما جاء من قبل أن أول ما وضع منها وضع على خلاف، وإن كان كله مسوقاً على صحة وقياس، ثم أحدثوا من بعد أشياء كثيرة للحاجة إليها"¹ وأضاف ابن جني في موضع آخر: "وكيف تصرفت الحال فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ"²، وقد أفرد ابن فارس باباً سماه: باب القول في اختلاف لغة العرب³ وذكر أوجها منها، وهم يقصدون بذلك اللهجات الفصيحة المشتهرة بينهم.

وما كانت تتخاطب به العرب إلى عهد قريب من نزول القرآن وقبل السطوة الكاملة للهجة قریش، هي تلك اللهجات، خصوصاً في أبسط حوائجها التواصلية، فالعربي بين أفراد عشيرته وأهله لم تكن وسيلته في التشافه العفوي سوى لهجته التي نشأ عليها ويقع بها التفاهم في ذلك الوسط الصغير، في الوقت الذي كانت اللغة الأدبية حكراً على الخاصة من العرب، يقول إبراهيم أنيس: "أما لغة الكلام وأحاديث الناس في شؤونهم العامة، وأداة التخاطب بينهم في التفاهم من القول، فقد اتخذ صورة خاصة في كل بيئة من البيئات العربية، فالناس في أغانيهم وفي أسواقهم، وبين المرء وأهله، وفي الحديث إلى أطفالهم وأجيالهم الناشئة قد اصطنعوا لهجات متباينة"⁴.

ويمكن القول إن استعمال اللغة على هذا المنحى البسيط في الأمور اليومية هو سبب رئيسي في ترسيم معالم اللهجات العربية، وقد أوماً الرافعي إلى هذا بقوله: "فلما تفرقت القبائل أخذت اللهجات تتنوع، والعرب إنما تهجم طبائعهم على حقائق الكلام، وبذلك لا بد أن تكون قد تعددت طرق الوضع في اللغة بطول المدة، واتساع الاستعمال وتقليب الكلام"⁵، وهذا شيء طبيعي إذا تفرسنا في الأسباب التي أدت إلى ظهور تلك اللهجات والتي ذكرها كثير

¹. الخصائص (ج2/ص 29)، و المزهر (ج1/ص 55).

². الخصائص (ج2/ص 12).

³. ينظر صاحب، ص 19.

⁴. في اللهجات العربية، ص 25.

⁵. تاريخ آداب العرب (ج1/ص 77).

من الدارسين ومن أهم تلك العوامل ¹ : انقسام المتكلمين إلى جماعات، في بيئة واحدة، مع ممارسة ضرب واحد من النشاطات كالزراعة والرعي أو الصيد، مع اختلاف تلك البيئات، ومناخاتها، واختلاف وجوه النشاط الإنساني كالعادات والتقاليد، وبالتالي إذا انقلبت تلك الظروف، ووجدت عوامل الاحتكاك بين القبائل ، واتسع التبادل الاقتصادي بينها فضلا عن الأحلاف والتكتلات في الحروب، ستعود لغاتها إلى التوحد، وما هي إلا ظروف لظهور اللغة المشتركة فيما بعد، وهو فعلا ما حدث وكما يقول رمضان عبد التواب ²: "وهذا يعني أنه قد جدت عوامل مختلفة، حملت أهل هذه اللهجات على التقارب والاختلاط، فأدى ذلك إلى نشأة اللغة المشتركة، التي يتفاهم بها الناس جميعا"، وهي نفسها التي عرفت مستويين من الاستعمال: أحدهما أدبي، والثاني تخاطبي.

ولا شك في أن العربية التي نشأت عن تصادم اللهجات، أو الباقية وهي العربية الفصحى التي نستعملها اليوم في كتاباتنا وخطبنا كما يذكر اميل بديع يعقوب ³ كانت منتشرة قبل الإسلام وعلى حد قوله -دون أن تكون لغة تخاطب للناس في حياتهم العامة- وهذا طرح غير مؤسس، إذ كيف للغة نشأت عن طريق الاختلاط في التعامل اليومي، أن تبقى في لغة الشعر والنثر عند العرب دون الكلام اليومي؟

ولعلنا أيضا نبحث عن السبب الذي أدى بإبراهيم أنيس ⁴ أن يقول: "وتلك اللغة الأدبية التي خطب بها الخطباء، وشعر بها الشعراء، ونزل بها القرآن الكريم لم تكن لغة تخاطب للناس في حياتهم العامة" ثم يضيف قائلا: "أما لغة التخاطب فهي تلك التي يمكن أن يقال إن الناس كانوا يتكلمونها بالسليقة، ويؤدون بها التافه من شؤونهم، لا يعمدون إليها عن قصد ولا يتخيرون ألفاظها، بل يكتفون منها بتأدية الأغراض العامة في الحياة العادية".

¹. ينظر في اللهجات العربية، محمد أحمد خاطر، ص 69-70.

². فصول في فقه اللغة، ص 78.

³. فقه اللغة العربية وخصائصها، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1982 م ، ص 120.

⁴. في اللهجات العربية، ص 38.

و المقصود من هذا هو أن نسأل أصحاب هذا الطرح عن لغة موحدة ، أثبتوا انها نشأت في ظروف اجتماعية خالصة ، وظهرت في أحضان المعاملات اليومية بين القبائل ، ثم راحوا يقصرونها على الأدب دون التخاطب ، و نسوا او تناسوا أن المنطق اللغوي و إن سلم بحدوث ذلك ، فإن التطور اللغوي سيجعلها تلتهم اللغات المحلية عاجلا او آجلا ، و القول باقتصارها على لغة الأدب و أن العرب لم يتكلموا بها في تخاطبهم اليومي لأنها لا تتصف بما تتصف به لغة التخاطب هو في الواقع وهم خطير كما وصفه الحاج صالح ¹ .

و على هذا نفهم جليا أن المسألة لا تعدو أن تكون اصطلاحية لا غير : فالفصحى الموحدة أو المشتركة هي نتاج لاجتماع العرب وتقاربهم ، والفصحى الأدبية هي أرقى أشكال الفصحى الموحدة ، والتي لم تكن في متناول جميع العرب ، والفصحى التخاطبية هي التي علقت على أفواه العرب بعد تقاربهم وزوال الفروق كاللهجات خصوصا بعد مجيء الإسلام .

وهذه هي النقطة الثانية التي تشدنا في قضية اللهجات، وهي أنها بقيت عالقة ببعض ظواهرها وخصائصها في العربية الفصحى الموحدة ، وفي مستواها التخاطبي أكثر من المستوى الأدبي ، ونفهم هنا من كلام علي عبد الواحد وافي حين أثار قضية تكون الفصحى بعد غلبة لهجة قریش، وأن هذه الأخيرة ازدهرت وتطورت بعد تراجع اللهجات أمامها إذ يقول: "فمن المقرر في قوانين اللغات، أن اللغة المنتصرة لا تخرج سليمة من صراعها، بل إن طول احتكاكها باللغات الأخرى وشدة كفاحها معها وما تبديه بعض اللغات المقهورة من مقاومة، كل ذلك وما إليه يترك في اللغة الغالبة آثارا كثيرة من اللغات المغلوبة في نواحي الأصوات والقواعد والأساليب، وينقل إليها كثيرا من مفرداتها، ويبدو هذا التأثير بأوضح صورة في النواحي التي تعوز اللغة الغالبة فاللغة الغالبة تعتمد إلى خصمها المقهور فتمتص منه ما تحتاج إليه، وتستلبه ما يعوزها قبل أن تجهز عليه"².

¹ . الفصحى و عامياتها ، ص 90 .

² . فقه اللغة، علي عبد الواحد وافي، ص 91.

فلا غرابة إذن أن تتطور لهجة قريش أكثر من غيرها من لهجات العرب، آخذة من جميع هذه اللهجات ما أعجبها، وفق مقاييس الفصاحة والتذوق، متحولة شيئا فشيئا إلى لغة جامعة موحدة¹ ولذلك فبعض الظواهر اللغوية كالاشتراك والتضاد والترادف والإبدال، وغيرها يمكن أن يرد كثير منها إلى اختلاف اللهجات العربية².

ومن غير المنطقي أن تترك اللهجات مكانها للغة الموحدة، ثم تقتصر هذه الأخيرة على الجانب الأدبي دون التخاطبي، لذلك أقر بروكلمان³ أن لغات القبائل لم تتوان عن اكتساب قواعد جديدة دائما في الحياة اليومية في ظل محاولتهم التكلم بالفصحى، ولكنها تظل في تراجع، وما تزال اللغة الأدبية في الذيوع، حتى تظهر بتلك اللغات المحلية التي تستخدم في الحياة اليومية العملية⁴، و صرح تمام حسان قائلا : " فالفصحى لكونه — لغة العرب جميعا ، تم نموها في المجتمع العربي في عمومها ، لا في قبيلة بعينها ، و تقبلت في نموها عناصر من جميع اللهجات ، حتى بدت قريبة إلى كل لهجة " ⁵ .

وعلى هذا الأساس فإن دراسة الفصحى التخاطبية العربية في خصائصها ليست دراسة لهجية بالمفهوم الاصطلاحي⁶ ، أو تسليطا للضوء على لهجة بعينها، لأن ذلك يقتضي دراستها مستقلة وإنما هي دراسة لمستوى متقدم جدا من العربية تمازجت فيه هذه اللهجات

¹ . فقه اللغة مناهله ومسائله، محمد أسعد النادري، ص 142.

² . فقه اللغة، محمد بن إبراهيم الحمد، ص 95.

³ . ينظر فقه اللغات السامية، ص 30.

⁴ . العصر الجاهلي، شوقي ضيف، ص 133.

⁵ . اللغة العربية بين المعيارية والوصفية ، ص 67 .

⁶ . و نقصد بذلك أن بعض ما يعد الدارسون خصائص لهجية أو معايير في بعض لغات العرب ، إنما وردت على السنة من وصفهم القدامى بأنهم أفصح العرب ، كقبيلة تميم المعروفة بالعننة ، و طيء المعروفة بالقطعة ، و حمير المعروفة بالطمطممانية ، و قد تكلم بها أفصح العرب و هو النبي صلى الله عليه و سلم في قوله : " ليس امبر امصيام في امسفر " و لو كان ذلك من غير ما اعتادت العرب عليه أو معدودا شرخا للفصاحة لما ورد به الحديث .

- ينظر في هذا الحديث : تاج العروس مادة أن م (ج 31/ص 253) ، و تهذيب اللغة مادة أم م (ج 15/ص 448) ، و اللسان باب الرء فصل الباء (ج 4/ص 51) ، و شرح الشافية (ج 3/ص 216) .

وتداخلت ووصلت إلينا في صورة موحدة هي العربية الفصحى ، ولذا فلا غرابة أن نجد آثارا لهجية من هنا وهناك، وهذه الآثار لا نتصور أبدا أن تكون لهجة مغمورة أو لهجات مشتملة على عيوب مثل التي تحدث عنها العلماء الأوائل¹، وكذلك ليست مختصة بلهجة قريش إذ أن بعض خصائص اللهجة القرشية تركت مكانها لخصائص أخرى².

3.1.2 - العامية:

يعتبر مصطلح العامية أدلّ مصطلح و أنسب إطلاق على اللغة الشفاهية العفوية إذا نظرنا إلى تعريفاته عند الدارسين، وهو مصطلح لم يستخدم عند القدماء شأنه شأن مصطلح اللهجات، على أننا لا بد أن نحدد أطرا منهجية لاستخدامه لما أصبح له من دلالة الوضاعة والاستهجان عند أكثر الدارسين.

ويثير الباحثون مسألة العامية ضمن ما عرف لدى البعض منهم بازدواجية اللغة وعند البعض الآخر بثنائية اللغة³، على أن الأكثرين يفضل استخدام الأخير في المقابلة بين الفصحى والعامية.

وقد تحدث علي عبد الواحد وافي عن ما أسماه لغة الكتابة أو لغة الآداب، وقابلها بالعامية قائلا: "ونقصد بلغة الحديث اللغة العامية التي نستخدمها في شؤوننا العادية ويجري بها حديثنا اليومي"⁴، وعرفت كذلك بقولهم: "أما لغة الحديث أو العامية فهي اللغة التي تستخدم في الشؤون العادية ويجري بها الحديث اليومي"⁵، ويذكر إميل بديع يعقوب أن العامية كمصطلح يتخذ أسماء عند بعض اللغويين المحدثين منها: الشكل اللغوي الدارج، واللهجة الشائعة، واللغة المحكية، واللهجة العربية العامة، واللهجة الدارجة، واللهجة العامية،

¹. العيوب اللهجية كالكسكة والكشكشة والتضع.

². تسهيل الهمز عند قريش الذي أزاله تحقيق الهمز على لغة تميم.

³. أشرنا سابقا إلى الاختلاف الحادث في توظيف هذين المصطلحين ودلالاتهما.

⁴. فقه اللغة، ص 119.

⁵. تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، نفوسة زكرياء سعيد، دار نشر الثقافة بالإسكندرية، مصر، ط1،

1383هـ/1964م ص 3، وكذلك فقه اللغة العربية وخصائصها لإميل بديع يعقوب، ص 144.

والعربية العامية، واللغة الدارجة، والكلام الدارج، والكلام العامي، ولغة الشعب¹، ويفضل الطيب البكوش الدارجة على العامية، لما تتضمنه الكلمة الأخيرة من دلالة طبقية، وصفات تحقيرية استهجانية، لا تليق بالبحث العلمي المجرد²، كما أسلفنا الإشارة. وهناك تعريف نجده أكثر تفصيلاً قدمه أسعد النادري للعامية فهو يقول: "هي لغة الحديث اليومي، والتي يستخدمها العامة والخاصة على حد سواء، في شؤون حياتهم العادية، في البيت والشارع والسوق والمقهى وحتى في حرم الجامعات"³، وهو تعريف يتناسب مع الوضع الحالي للغة العامية اليوم.

ولكن الذي يهمنا هنا، هل يتطابق مفهوم العامية هذا على اللغة الشفاهية العفوية العربية في عصر الاحتجاج، وبالتوجيه الذي أراده المحدثون، وبالتالي فهل نحن بصدد دراسة العامية العربية في عصر الفصاحة؟ وإذا كانت العامية مأخوذة من العوام والعامة فهل هذه الفئة في عصر الفصاحة العربية يمكن أن تتساوى مع العوام في كل عصر إلى يومنا هذا؟ إن الجواب على هذين الطرحين يتلخص في قضيتين:

- المقارنة بين المفهوم العام للشفاهية التخاطبية والمفهوم الخاص للعامية.

- ماذا قصد اللغويون العرب الأوائل بقولهم العامة والعوام.

أما بالنسبة للقضية الأولى فقد سبق وأن أشرنا إلى مفهوم لغة التخاطب أو لغة الشفاهية المتكلمة أو المنطوقة بعدد من التعريفات كان من أهمها أنها "الكلام التلقائي المصوغ صياغة حرة في مواقف تبليغية طبيعية"⁴ وهو تعريف شائك شونتال، وأيضاً تعريف جريجوري شرياتوف لغة المخاطبة بقوله: "هي وسيلة أساسية لاتصال السكان الشفاهي في

¹. فقه اللغة العربية وخصائصها، ص 144-145.

². فقه اللغة مناهله ومسائله، محمد أسعد النادري، ص 347.

³. نفسه، الصفحة نفسها.

⁴. اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة، محمد العيد، ص 61.

حياتهم اليومية في البيت، في السوق، في الشارع،...¹، وتعريف إبراهيم أنيس لغة التخاطب بأنها "التي إذا استعملها الناس يؤدون بها التافه من شؤونهم لا يعتمدون إليها عن قصد ولا يتخبرون ألفاظها، بل يكتفون منها بتأدية الأعراض العامة في الحياة العادية"²، وتعريف أحمد الهاشمي بأنها "حديث يدور بين بعض الناس وبعض في إصلاح شؤون المعيشة واجتلاب ضروب المصالح والمنافع"³، وما يمكن أن يلاحظ في هذه التعاريف أنها على إطلاقها صالحة لتقديم ظاهرة لغوية عرفها الإنسان منذ بداية استخدامه للغة.

أما مفهوم العامية عند الدارسين فهو يتطابق بنسبة كبيرة مع ما سبق تطابقاً قد يجعل الدارس يميل ميلاً كبيراً إلى عدم وجود فرق يظهر أول لحظة بين هذه المفاهيم ومفهوم العامية، بينما في الحقيقة هناك ملحوظة لا بد من الوقوف عندها.

وهو أن مفهوم العامية ارتبط أول مرة في ذهن الدارسين لتاريخ اللغة العربية بظهور العجمة واللحن في العربية واستمر معها متسايراً مع تدني مستوى اللغة عند الشعوب العربية في الاستعمال العام.

نلاحظ هذا مثلاً في قول أسعد النادري: "ويبدو أن العامية بدأت تظهر في العالم العربي، في عصر الفتوحات الإسلامية بعد اختلاط العرب الأعاجم، وتغشي اللحن بين الناس غير أنها لم تتميز تميزاً واضحاً إلا بعد زمن يصعب تحديده على وجه الدقة"⁴، وكذيل يقر إميل بديع يعقوب "أن ثنائية الفصحى والعامية التي عناها في بحثه نشأت منذ نشوء العامية نفسها، أي في عصر الفتوحات الإسلامية الأولى بعد اختلاط العرب بالأعاجم"⁵، وهذا مرده إلى ارتباطها بمفهوم العوام والعامية الذين يغلب عليهم الخطأ والكلام الحر دون قيد.

¹. خصائص لغة المخاطبة بين الفصحى والعامية، مجلة مجمع اللغة العربية المصري، ع: 1983/35، ص 205.

². في اللهجات العربية، ص 38.

³. جواهر الأدب، ص 429.

⁴. فقه اللغة مناهله ومسائله، ص 348.

⁵. فقه اللغة العربية وخصائصها، ص 147.

وقد يرجع هذا أيضا إلى أسباب تاريخية في الدراسات العربية، أن من ألف في بيان اللحن الذي كان يقع فيه الناس ابتداء من القرن الثاني الهجري، ربطه بكلمة العامة، وكان هدفهم أن يدونوا ما كانت تغلط فيه العامة في أيامهم، وأهم من عرض للحديث عن تلك المؤلفات رمضان عبد التواب، ولكنه بعد الحديث عن أسباب تأليف هؤلاء للحن العامة نجده يقول:

"وليس المقصود من العامة هنا الدهماء وخشارة الناس، فما كان يهم اللغويين من أمرهم شيء، وإنما المقصود بهم عند هؤلاء هم المثقفون الذين تتسرب لغة التخاطب والحياة اليومية إلى لغتهم الفصحى في كتاباتهم"¹، وعلى هذا فالعامة عندهم غير العامة اليوم، والعامة عندهم في الفصاحة غير العامة في الجاهلية وصدر الإسلام. فلا يمكن أن نتصور أن كتاب لحن العوام للكسائي (ت 189 هـ) أو ما تلحن فيه العامة للفراء (ت 207 هـ) أو أبي عبيدة (ت 208 هـ) أو الأصمعي والكتب التي جاءت من بعد²، قد ألفت في كلام العامة من أهل الفصاحة ! .

فمفهوم الشفاهية العفوية في التخاطب أعم وأشمل من مفهوم العامية عند الدارسين المحدثين، هذا إن نظرنا كذلك إلى مفهوم كلمة العامة عند القدماء والتي لم يكن يقصد بها بالضرورة طبقة الأميين والغوغاء من المجتمع العربي، فإضافة إلى ما قاله رمضان عبد التواب في تفسير كلمة العوام عند هؤلاء، فقد قال عبد الرحمان حاج صالح: "ويلاحظ أن العامة عند سيبويه ومعاصريه يعني بها الأغلبية من الناس بدون ازدراء، وكذلك الإمام الشافعي فإنه لا يريد من العامة في عبارته عامة عن عامة إلا الكثرة من الناس"، وهو محق إلى أبعد الحدود، لأننا نجد الخليل بن أحمد يرجع إلى كلام العامة في معجمه دون إشعار بتخطئته حيث يقول: "والفصيح في كلام العامة المعرب"³.

¹. لحن العامة والتطور اللغوي، رمضان عبد التواب، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر، ط 2، 2000م، ص 70.

². ينظر قائمة بهذه الكتب في المرجع السابق، ص 72.

³. العين (ج 2/ص 131)، وتهذيب اللغة (ج 4/ص 148)، ولسان العرب (ج 5/ص 3430)، وتاج العروس (ج 1/ص 1699) مادة: ف.ص.ح

ومن هذا فإذا قصد بالعامية في عصر الفصاحة كلام العرب في أبسط حوائجهم وفي مخاطباتهم الشفاهية العفوية دون تمييز فهذا مقبول ، لأن العامية ستصير وصفا للغة المتكلمة ومستواها الاستعمالي دون النظر إلى طبقة قائلها، فيكون استخدامها على هذا النحو محفوفا بخطر سوء الفهم كذلك، وهو أن يفهم منه الكلام الملحون، ولقد أوضح عبد الرحمان حاج صالح هذه النقطة بقوله : " أما فبما يخص العاميات العربية فإن القدماء من العلماء وغيرهم كانوا لا يسمون اللغة الملحونة عامية، واستعمل الجاحظ عبارة الكلام الملحون لعامية زمانه، فهذه أقدم تسمية للعامية، مع استعماله لكلمة العامي وصفا للفظ الذي يأتي على السنة من سميهم العامة"¹.

ولا نجد أنفسنا مغالطين إذا أطلقنا مصطلح العامية على لغة التخاطب اليومي في عصر الفصاحة إذا قصدنا من ذلك كثرة المتكلمين، فإن عصر الفصاحة خصوصا ما قبل الإسلام لم يكن فيه لحن وتميز أهله كلهم بالفصاحة، ولهذا نجد عبد الرزاق عبيد يقول: "أما العرب في جاهليتها وصدر إسلامها، فللفصاحة معنى آخر لديها لا يمت بأي صلة للغة، وخلافا لما قد يعتقده بعض الناس فقد كان المستوى الفصيح المشار إليه هو عامية ذلك العصر، فكان وسيلة الصبي الغر، والعجوز الدردبيس، وأداة الشاعر الكافر، والخطيب المفلق، والرعاع وعامة الناس، وغاية العقلاء والحكماء، وحتى المجانين والمعتهوين"².

2.2- واقع فصحي التخاطب العربي العفوي :

1.2.2 - عودة إلى فكرة تقارب اللهجات و نشوء لغة تخاطب عامة :

إن العرب فيما وصل إلينا من جاهليتهم في آخر عهدها، ومع مجيء الإسلام كانت قد نشأت بينهم لغة تخاطب وتفاهم مشتركة، وهذا بفعل عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية

¹. الفصحى وعامياتها، ص 85.

². نفسه، ص 318.

وعقائدية، وهي لغة اقترنت كثيرا من الفصحى الأدبية السابقة لها في الظهور و التي كان الشعر والخطابة ينشئان على أساسها ¹.

ولذلك فهي فصيحة لأسباب كثيرة نص عليها اللغويون في القديم والحديث، وعلى رأسها أنها تشكلت من قاعدة هي لهجة قريش مركز التقاء القبائل العربية، واشتملت على صفات لهجية أخرى من أفصح ما نطقت به القبائل الأخرى، وقد ذكر ابن فارس كيف "كانت وفود العرب من حجاجها يفدون إلى مكة للحج ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم، وكانت قريش تعلمهم مناسكهم وتحكم بينهم"²، ثم ذكر أنهم "إذا أُنْتَهَم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائهم وسلاتقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب"³، وهذا إضافة إلى لهجة قريش كانت آنذاك نموذجا راقيا عند العرب لأنها جانبت عيوباً لهجية كانت في القبائل، لذلك ذكر علماء اللغة أن قريشا ارتفعت في الفصاحة عن عننة تميم، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضعج قيس، وعجرفية ضبة، وتلتلة بصرى⁴، ومن الممكن أن قريشا مع فصاحتها تخيرت من كلام قبائل معروفة أيضا بالفصاحة، "واللغات السبع المشهورة بالفصاحة في العرب العرباء هي لغة قريش وهذيل وهوازن واليمن، وطيء، وثقيف، وبني تميم"⁵.

ونرى كثير من اللغويين في القديم والحديث يرجحون خضوع اللهجات العربية لسلطان لهجة قريش، وساد الاعتقاد أن ذلك كانت تحركه عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية، ثم دحرها طوفان العامل الديني الذي قوي بمجيء الإسلام، فتأكدت رفعة قريش بين العرب، وأن الله سبحانه وتعالى اختارها، وشرفت العرب بها وبمخالطتها، قال الجاحظ: "وذكر الله لنبيه

¹. ينظر السماع اللغوي العلمي عند العرب و مفهوم الفصاحة ، عبد الرحمن حاج صالح ، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية ، 2007 م ، ص 162 .

². الصاحبى، ص 23.

³. المرجع السابق ، الصفحة نفسها.

⁴. ينظر الخصائص (ج2/ص 11)، والمزهر (ج1/ص 167).

⁵. الكليات للكفوي، ، ص 1276.

حال قريش في بلاغة المنطق ورجاحة الأحلام وصحة العقول، وذكر العرب وما فيها من الذهاء والنكراء والمكر ومن بلاغة الألسنة¹.

تلك المخالطة والاحتكاك بين قريش والقبائل الأخرى، لابد أنها أفرزت لغة تواصل مشتركة تكلمت بها كل العرب، واتخذتها لغة تخاطب وتفاهم يعتقد أنها العربية التي درج العرب على التفاهم بها إلى اليوم، رغم أن هذه المسألة هي محل خلاف علمي واسع بين اللغويين المحدثين.

فقد رأى علي عبد الواحد وافي أن قوانين التغلب اللغوي كانت مهيئة لتغلب لهجة قريش، وذلك على شكلين أولهما أن منطقة قريش كانت ذات نفوذ، وثانيهما أنها تفوقت في ثقافتها وحضارتها ومقومات لغتها وأدبها، وهذان الشكلا جعلتا لهجة قريش تشيع بين العرب². وأورد رمضان عبد التواب³ آراء لعدد من المستشرقين منهم نودلر Noldeke الذي يرى أن الفصحى تمثلها كل اللهجات وأن الفروق بينها كانت صغيرة، ويرى جويدي Guidi أن العربية الفصحى خليط من لهجات نجد وما جاورها، وأما نالينو Nallino يرى أنها نشأت بفعل امزاج عاميات قبائل معد، وير فولرز Vollers فيرى أن الفصحى اعتمدت على لغة البدو في نجد واليمامة، كما يرى بروكلمان Brockelmann ومثله فتششتاين Wetzstein أن العربية الفصحى التي نعرفها لم تكن لغة كلام أبدا.

وذكر رمضان عبد التواب في الأخير أن هناك اتفاقا عند الدارسين العرب أن العربية الفصحى هي لغة البدو، وقد وصلت إلينا في صورة أدبية حيناً، وصورة شعبية حيناً آخر، وقد نشأت هذه اللغة المشتركة، ونمت وازدهرت قبل مجيء الإسلام، وأورد رأي إبراهيم أنيس

¹. البيان والتبيين (ج1/ص 8).

². ينظر فقه اللغة، ص 88-89.

³. ينظر كتابه فصول في فقه العربية، ص 76-77.

في تغلب لهجة على اللهجات الأخرى بفعل ظروف معينة، دون أن يحددها وعلق على ذلك بأنه أدى إلى نشأة اللغة المشتركة التي يتفاهم بها الناس جميعاً¹.

ويرى فيشر² أنه إلى "زمن النبي محمد صلى الله عليه وسلم أظهرت عربية الشعر ولغة الحياة اليومية بغض النظر عن الفروق اللهجية نمطا عربيا قديما واحدا، أي أن الأعراب وأهل الحاضرة في الحجاز تحدثوا عربية قديمة حافظت على الإعراب بكامل وظائفه". ورأى يوهان فك³ أن لهجات القبائل البدوية بالجزيرة العربية لم تكن بعيدة الاختلاف من الوجهة اللغوية بحيث لا يمكن التفاهم، حتى بين القبائل المتباعدة بعضها عن بعض في السكنى والجوار، إذ أن أغلب الفروق -فيما يظهر- كانت في الأصوات، والأبنية، والمعاني، أو على الأقل هذه هي الفروق التي لفتت أنظار اللغويين العرب، وأن الخصائص اللهجية صقلت إلى حد بعيد في عهد الفتوحات، وأن سياسة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قامت بقسط لا يستهان به في سبيل توحيد اللغة، وإنشاء لسان مشترك بين قبائل البدو جميعاً.

ويقول إميل بديع يعقوب : "أغلب الظن أن العرب عرفوا هذه الثنائية في اللغة منذ العصر الجاهلي، إذ كانت لكل قبيلة لهجتها أو لغتها الخاصة بها، كما كان إلى جانب هذه اللهجات جميعا لغة مشتركة جامعة، استمدت خصائصها من لهجات وسط شبه الجزيرة وشرقيها، متولدة بتأثير التجارة والحج والظعن"⁴.

ويرى تمام حسان⁵ أن القول بتغلب لهجة قريش دعوى غير مؤسسة لتعارضها مع مسلمة عدة، منها أن القرآن الكريم نزل بلسان العرب جميعا، وأن قراءاته اشتملت على ظواهر لغوية لم تكن في لهجة قريش، وأن لهجتها لو كانت هي الغالبة لكانت العربية

¹. ينظر المرجع السابق، ص 78.

². دراسات في العربية، ص 220.

³. ينظر العربية، يوهان فك، ص 18-19.

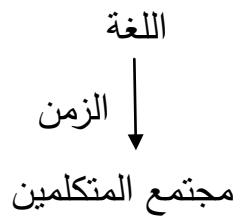
⁴. فقه اللغة العربية وخصائصها، ص 146.

⁵. الأصول، ص 72.

الواصلة إلينا تسهل الهمز ولا تحققه كما كانت تفعل قريش، وأن ما ورد إلينا من الموروث الشعري والأدبي ليس مقصورا على قريش، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم لو رآها أفصح العرب لما خاطب أبناء القبائل بلهجات قبائلهم، وأن النحاة كذلك لم يقصروا الأخذ عن قريش، وأخيرا أن الذين ادعوا تغلب لهجة قريش لا يقدمون سندا تاريخيا واحدا يدعم دعواهم. ومهما كان من أمر، فإن العرب في جاهليتهم وبداية الإسلام تواصلوا واحتكوا ببعضهم، هذا لا شك فيه، وما دام الأمر كذلك فهو دليل على أنهم كانت لهم ذخيرة لغوية ذات قواسم مشتركة وذلك لضرورة الاتصال والتفاهم، وهذا ملاحظ حتى في مجتمعنا الذي نعيش فيه، فرغم اختلاف اللهجات المحلية للمناطق الموجودة عبر التراب الوطني فإن الجزائري مهما كانت ولايته أو عشيرته يتكلم مع الناس باللغة التي يتفاهم بها مواطنوه في كل مكان، فكيف إذا كانت الفروق طفيفة جدا كما هو الحال بالنسبة للهجات العرب القدامى، وهذا الجانب تفسره عملية التخاطب الحادثة بين أفراد المجتمع والتي تخلق شكلا لغويا جديدا ناتجا عن الاستعمال الفعلي للوضع الأول، ويمكن لنا أن نمثله كما يلي:

الوضع Le code ← استعمال Utilisation ← شكل جديد Nouvelle forme

أو الاعتماد على الشكل البياني الذي رسمه دي سوسير في هذا المفهوم ، لأجل إظهار التأثيرات التي يحدثها مجتمع المتكلمين في اللغة عبر الزمن و بشكل بطيء و دون أدنى شعور منهم بهذا التغيير¹ :



ولهذا وعلى المفهوم اللساني المتضمن شرائط التواصل والذي أوضحها جاكسون²، فإننا لا يمكن أن نتصور عربيا يخاطب الناس في الجاهلية السابقة للإسلام أو بعدها بالعربية

¹. علم اللغة العام ، ص 96 ، و عقب سوسير على الشكل بقوله : فاللغة لم تعد حرة ، لأن الزمن يسمح للقوى الاجتماعية العاملة أن تعمل عملها " .

². أساسيات اللغة، رومان جاكسون، ص 53-54.

القديمة التي ظهرت أول مرة وإلا تعطلت الوظيفة التواصلية ، و توقف التفاهم الذي هو أساس السلوك اللغوي، وذلك مثل الحادثة التي أوردها أبو علي القالي (ت 356 هـ) في أماليه¹، أن أعرابيا وقف بالمسجد الحرام، وتكلم بما لا يفهم من الغريب والقول فلما فرغ مضى إليه أبو زيد فأعطاه دينارا وكتب كلامه، واستفسره فيما لم يعرفه من كلامه. ولهذا بين يوهان فك² أن لغة العرب بفعل الاستعمال جنحت نحو أبسط وسائل التعبير اللغوي، فبسطت المحصول الصوتي، وصوغ القوالب اللغوية، ونظام تركيب الجملة، ومحيط المفردات، وتنازلت عن التصرف الإعرابي وغير ذلك.

وكذلك يؤيده قول فرديناند دي سوسير بأن "اللغة وإن كانت نظاما ثابتا فذلك لأنها لم تصبح ملكا لواضعها، وذلك بعد أن صارت قارة في عرف مجتمعي، فليس باستطاعة أي فرد - وإن أراد ذلك- أن يغير على أي نحو الاختيار الذي اتفق عليه، ثم إن المجتمع نفسه لا يمكن أن يفرض سيطرته حتى على كلمة واحدة، فالكلمة مرتبطة باللغة المستخدمة"³. لكنه بعد ذلك أقر بأن اللغة تتغير وتتطور، "تحت تأثير جميع القوى التي يمكن أن تؤثر في الأصوات أو المعاني، فالتطور أمر لا مناص منه، ولا توجد لغة واحدة في العالم تقاومه فما أن تمضي فترة من الزمن حتى تدون بعض التغييرات الواضحة"⁴، والشيء الذي يغير اللغة هي قوى خارجية تحيط بالاستعمال والظروف المؤثرة فيه بحد ذاته .

ويمكن لنا اعتبار العربية الموحدة قبيل الإسلام وبعد مجيئه صورة من صور التغير اللغوي، وهو كما نلاحظ ليس تغيرا مفاجئا، أو مسخا لجوهر العربية، وإنما هو ظهور لغة تفاهم محافظة على القاعدة العريضة لعربية المنشأ، ظهرت فيه صور جديدة من الأداء الصوتي، وذهاب بعض اللغة وظهور بديل إما في الحقائق الوضعية أو الشرعية أو العرفية، وزوال الخصائص اللهجية في الحواضر العربية.

¹. الأمالي، لأبي علي القالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1398هـ/1978م، (ج1/ص 113).

². ينظر العربية، يوهان فك، ص 20.

³. علم اللغة العام، ص 90.

⁴. نفس المرجع ، ص 94.

ولذلك فاللغة المشتركة للعرب ليست وضعا جديدا وإنما هي شكل جديد لوضع أكيد أنه تغير هو كذلك ، وأكبر دليل على ذلك حالة العربية في كل جيل وصولا إلى جيلنا، وقد شرح محمود السعمران بدقة وتفصيل أسباب ظهور اللغات المشتركة والتي يسميها كذلك العامة¹. واللغة العامة التي سادت المجتمع العربي الأول استقرت في الشعر والخطابة²، وبعد ذلك بفترة و بصفة أوسع في التخاطب الشفاهي الدائر بين الأفراد، وازداد توحيدها بعد مجيء الإسلام، وهذه اللغة التخاطبية العفوية إنما كانت محكومة عندهم بضابط الفصاحة والسليقية، والطلاقة والاسترسال، إلى حين ظهور اللحن. وبهذه اللغة المشتركة كانت تحدث المخاطبات بين سائر العرب، في أحياءها وتعاملاتها، وفي تواصلها مع بعضها سواء أكان تواصلًا ثقافيًا أدبيًا، أم تواصلًا اجتماعيًا في الحياة اليومية، وعلى ذلك استقرت العربية الفصحى مدة من الزمن في عصر الفصاحة وقبل اختلاط العرب بالأعاجم والذي أفرز تحولًا آخر قضى على الفصاحة بعد أن بلغت أزهى أشكالها.

و القول بأن الفصحى كانت مقصورة على الشعر و النثر أو فئة المثقفين من العرب في ذلك الزمن هي فكرة تحتاج إلى إقامة الدليل التاريخي ، و من وجهة نظر موضوعية فإن الذي ظل عبد الرحمن حاج صالح يؤكد في بحوثه و مقالاته أقرب إلى المنطق العلمي ، نقصد بذلك رفضه التام لفكرة اقتصار مفهوم الفصحى على اللغة الأدبية ، و هو محق إلى أبعد الحدود حين قال : " و الحق أن هذه الفكرة غريبة عن العرب و لم يشر إليها أي مؤلف عربي في القديم " ³ ، و عزا ذلك إلى وقوع المستشرقين في ما يمكن تسميته قياس باطل

¹. اللغة والمجتمع، رأي ومنهج، ص 170 إلى 176.

². وأكبر دليل على ذلك أن الموروث الشعري الذي وصل إلينا مع كونه ينسب إلى شعراء من قبائل مختلفة ومتباعدة لا تظهر فيه الفوارق اللهجية أو الاختلافات الإقليمية بين قبائل شبه الجزيرة العربية.

³. السماع اللغوي العلمي عند العرب و مفهوم الفصاحة ، ص 147 .

أو حمل لما حصل للغة اليونانية على اللغة العربية¹ ، و المدهش متابعة اللغويين العرب لهم في ذلك و التسليم به ، و الذهاب إلى حد تأويل بعض الروايات أو تجاهلها² .

و لقد ناقش أحد الدارسين هذه المسألة بعلمية و موضوعية إلى حد كبير ، و قد استعرض مختار الغوث في بحث عن لغة قريش ، جميع الآراء بالتفصيل حول محاولة الكثيرين فصل اللغة المثالية عن لغة التخاطب اليومية ، و ادعاء أن هناك لغة مشتركة مقتصرة على الممارسة الأدبية و مقامات الجد ، هي غير مستوى ما تخاطبت به العرب ، و هو أمر لا يرد به القول عند المتقدمين ، و لا أشار من دونوا العربية إلى هذا الفارق المزعوم بين لغة التأدب و لغة التخاطب ، و استدل الغوث أن بعض الشعراء كان ينظم الشعر و تظهر فيه خصائص لهجته دون أن يتصنع لغة مثالية لشعره و ساق على ذكر الكثير من الشواهد ، و استدل بورود مريات فصيحة في مستويات تخاطبية تحكي كلام فئات من عوام الناس سيقنت للاستشهاد ، و استدل كذلك على ما نقل عن الأعراب من صعوبة انتقال لغتهم و عدولهم عن لهجتهم مما ينفي وجود اللغة المثالية .

و ساق هذا الباحث رواية أن أبا عبيدة و أصحابه زاروا أم الهيثم الأعرابية من علة المت بها ، فسألوها عن حالها ، فوصفت لهم علتها بكلام غريب ، فقالوا لها يا أم الهيثم ، أي شيء تقولين ؟ ، فقالت : أوللناس كلامان ؟ ما كلمتكم إلا الكلام العربي الفصيح ، و هي رواية كما نرى تنفي وجود عربيتين مختلفتين زمن الفصاحة³ .

¹ . ينظر نفسه ص 148 ، و تفصيل الرد على القول باللغة المشتركة الأدبية ص 151 - 199 .

² . يورد إبراهيم انيس بيتين من الشعر للفرزدق و الأخطل يسقطان فيهما نون اللذان و اللتان جريا على لغة ربيعة و قبيلة بلحارث من اليمن ، ثم يتعجب من ورود هذه الخصائص اللهجية فيما أسماه باللغة النموذجية الأدبية ، و ذهب إلى حد القول أن هذا الشعر ما كان ليرد على هذه الصورة ! ! ، في حين أن البيتين من الأدلة الكثيرة على تعلق بعض الخصائص اللهجية في السنة العرب بعد تقارب لهجاتهم .

ينظر كتابه في اللهجات العربية ص 117 ، 118 .

³ . ينظر لغة قريش ، مختار الغوث ، دار المعراج الدولية للنشر ——— الرِّي ——— اض ، السعودية ، ط 1 ، (1418 هـ / 1997 م) ، ص 304 - 315 .

الحقيقة العلمية ، و ما يمكن ان نميل إليه بعد الاطلاع على كافة تلك المناقشات تقضي بنا إلى القول بالملاحظات الآتية :

1 - إن علماء العرب القدامى الأولين لم يفرقوا بين فصحي الأدب و فصحي التخاطب ، و ليس في ما وصلنا منهم شيء من ذلك .

1 - إن المحدثين من المستشرقين و من عاصرهم أو تابعهم من اللغويين العرب يفتقدون الحجة العلمية في تحليل هذه المسألة و مناقشتها ، و ما أوردوا فيها مرد أكثره التخمين أو التعصب .

2 - إن المسألة إذا نظر إليها من جانب ما يقتضيه البحث اللساني ، فإننا نجد انفسنا نميل إلى طرح عبد الرحمن حاج صالح و مختار الغوث ، بأن فصاحة العرب واحدة سواء في الأدب أو في التخاطب ، و لا يمكننا القول بأفضلية الأولى على الثانية دون دليل علمي ، فأقصى ما يمكن إثباته علميا ، وهو اختلاف في الأداء راجع إلى طبيعة المقام .

4 - أن نؤسس لذلك بعدا اصطلاحيا و مفهوميا : أما الاصطلاح فنقول إن هناك ما يمكن أن يصطلح عليه **العربية الفصيحة الموحدة** ، نشأت بفعل تقارب اللهجات بعد المتغيرات العميقة في جزيرة العرب ، و هو أمر دلت عليه القوانين العلمية للتطور اللغوي ، و هذه العربية عند القدامى واحدة في الأدب أو في التخاطب مع اختلاف في بعض الصفات التي يمكن ان تفسرها لنا مفاهيم الاستعمال اللغوي ، و أما المفهوم فيبتدئ من خلال قولنا إنها العربية التي نشأت بفعل تفتح العرب على بعضهم قبيل الاسلام و أثناء مجيئه و قبل فشو الفساد او اللحن و التي ظهرت من خلال ما روي لنا عن العرب بجميع أشكاله .

2.2.2- فصاحة العرب في خطابهم العفوي :

إن العرب الذين نص النحاة على فصاحتهم كانوا على العموم فصحاء ينطقون بالعربية الخالصة أثناء ما اصطلاح عليه بعصر الفصاحة، اللهم إلا ما ورد عن بعض الأحداث

النادرة، والتي أرخت لإرهاصات ظهور اللحن واعوجاج الفطرة الفصاحية لديهم¹، وهي حالات قليلة لا تقدح في فصاحة أهل ذلك الزمان، وإلا لما تأخر ظهور النحو عن ذلك. و من الخطأ الاعتقاد أن الفصاحة العربية آنذاك كانت مقصورة على الشعر والنثر أو اللغة الأدبية، وإنما كان العرب فصحاء في أبسط سلوكياتهم اللغوية مع الفروق المعلومة بين لغة التخاطب الشفاهية واللغة الأدبية²، لأن العرب كانوا أهل فصاحة بالسليقة والسجية والفطرة، وقد علل ذلك ابن جني بقوله: "لأن الله سبحانه إنما هداهم لذلك ووفقهم عليه، لأن في طباعهم قبولاً له، وانطواء على صحة الوضع فيه، لأنهم مع ما قدمناه من ذكر كونهم عليه في أول الكتاب من لطف الحس وصفاءه، ونصاعة جوهر الفكر ونقاءه، لم يؤتوا هذه اللغة الشريفة المنقادة الكريمة، إلا ونفوسهم قابلة لها، محسة لقوة الصنعة فيها"³، ولذلك قال البغدادي⁴: "العرب مطبوعون غير متعلمين، وجفاة لا يعرفون الكتاب بل يقولون بالسليقة".

والسليقة العربية هي كون الناطق بهذه اللغة يتصرف فيها بحسب ما نشأ عليه من السلامة الأدائية، وتكون منطلقاً له في التعامل مع ما يجد من غيره في سلوكه اللغوي، وكذا قبول أو رفض ما يرد عليه، وذكر ابن سيده⁵ قوله: "سليقي للرجل يكون من أهل السليقة، وهو الذي يتكلم بأصل طبعه ولغته، ويقرأ القرآن كذلك، وأظنه من الأعراب الذين يقرؤون على سنة ما يقرؤه القراء وعلى طبع القراء، ويقرأ على طبع لغته".

وكان الأصل فيما يتكلمون به شفاهة وتخاطبا أن يكون فصيحاً مبيناً سليماً معرباً شأنه شأن الخطابة والشعر، فإذا كان هذا لديهم عن طبع وسليقة فهو أكثر تأكيداً في كلامهم العادي مع كونهم أميين لا يقرؤون ولا يكتبون، وإن كان هذا الأمر يثير شكاً من جهة علمية

¹. وقد نص عليها غير واحد من أئمة اللغة فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يلحن في كلامه فقال : أرشدوا أخاكم فإنه قد ظل، و روي أيضاً أن أحد ولادة عمر رضي الله تعالى عنه كتب إليه كتاباً لحن فيه، فكتب إليه عمر: أن قنع كاتبك سوطاً وغير ذلك، ينظر الخصائص (ج2/ص 8).

². السماع اللغوي العلمي عند العرب و مفهوم الفصاحة ، ص 189 .

³. نفسه (ج1/ص 239).

⁴. خزانة الأدب، (ج11/ص 344).

⁵. المخصص (ج4/ص 162).

فقد أزاله ابن جني بقوله: "فإن قلت: ومن أين يعلم أن العرب قد راعت هذا الأمر، واستشفته وعنيت بأحواله، وتتبعته حتى تحامت هذه المواضع التحامي الذي نسبته إليها وزعمته مراداً إليها، وما أنكرت أن يكون القوم أجفى طباعاً وأيبس طيناً من أن يصلوا من النظر إلى هذا القدر اللطيف الدقيق الذي لا يصح لذي الرقة والدقة منا أن يتصوره إلا بعد أن توضح له أنحاءه بل أن تشرح له أعضاؤه، قيل له: هيهات ! ما أبعدك عن تصور أحوالهم، وبعد أغراضهم، ولطف أسرارهم حتى كأنك لم ترهم، وقد ضايقوا أنفسهم، وخففوا عن ألسنتهم بأن اختلسوا الحركات اختلاسا، وأخفوها فلم يمكنوها في أماكن كثيرة ولم يشبعوها"¹.

وقد ذكر الجاحظ² في وصفهم قوله: "وكل شيء للعرب فإنما هو بديهية وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إحالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام"، ثم يقول³: "وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلمون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر، وأكثر وهم له أقدر وعليه أقهر، وكل واحد في نفسه أنطق".

وقال ابن درستويه (ت 347 هـ) عن اللغويين والنحويين الذين جمعوا اللغة من أفواه العرب: "وإنما سمعوا العرب تتكلم بذلك على طباعها، وما في نفوسها من معانيها المختلفة، وعلى ما جرت به عادتها وتعارفها"⁴.

وذكر الأزهري في مقدمة كتابه مبينا مصادر مادته، وكيف جمع ما جمعه في معجمه ما يلي: "وكنت امتحنت بالإسار سنة عارضت القرامطة الحاج بالهبير، وكان القوم الذين وقعت في سهمهم عربا عامتهم من هوازن، واختلط بهم أصرام من تميم وأسد... يتكلمون بطباعهم البدوية، وقرائحهم التي اعتادوها، ولا يكاد يقع في منطقهم لحن أو خطأ فاحش... واستفدت

¹. الخصائص (ج1/ص 72).

². البيان والتبيين (ج3/ص 28).

³. نفسه، الصفحة نفسها.

⁴. المزهر للسيوطي (ج1/ص 303).

من مخاطباتهم ومحاوره بعضهم بعضا ألفاظا جمّة ونوادير كثيرة، أوقعت أكثرها في مواقعها من الكتاب¹.

وكثير مما نص عليه العلماء يدل على أن العرب الفصحاء تعاملوا بهذه الفصاحة في حياتهم العامة ولم يقصروها على مناسبة معينة أو مقام مقصود، ذلك أنهم سمعوها وألفوها وشبوا عليها، وهذا ابن جني يقول: "وليس أحد من العرب الفصحاء إلا يقول: إنه يحكي كلام أبيه وسلفه، يتوارثونه آخرا عن أول، وتابع عن متبع، وليس كذلك أهل الحضر، لانهم يتظاهرون بينهم أنهم قد تركوا وخالفوا كلام من ينتسب إلى اللغة العربية الفصيحة، غير أن كلام الحضر، مضاه لكلام فصحاء العرب في حروفهم وتأليفهم، إلا أنهم أخلوا بأشياء من إعراب الكلام الفصيح"².

وفي شأن من تؤخذ عنه اللغة كذلك يقول ابن سنان الخفاجي³: "ولو فرضنا اليوم أن في بعض الصحاري النائية عن العمارة قوما على عادة المتقدمين في البدو وترك الإمام بأهل المدر، متمسكين بطبعهم وجارين على سجيّتهم كان على هذا الغرض قولهم حجة، وإتباعهم واجبا".

ونلاحظ كذلك أبا البقاء الكفوي (ت 1094 هـ) يدافع عن فكرة أصالة الفصاحة والسلامة اللغوية في ما نطقت به العرب على الوجه المنصوص عليه في النحو، وذلك يعني أن الإعراب هو ظاهرة كانت العرب تتعامل به فيما كل ما تنطقه وتتكلم به، حيث نجده يقول⁴: "فإن قيل: الكلام المنطوق الذي تعرف الآن بيننا، هل العرب كانت نطقت به زمانا غير معرب ثم أدخلت عليه الإعراب، أم هكذا انطلقت به في أول تبلبل ألسنتها قلنا: بل هكذا نطقت به في أول وهلة".

¹. ينظر تهذيب اللغة (ج1/ص7).

². الخصائص (ج2/ص29).

³. سر الفصاحة، ص 131.

⁴. الكليات، ص 203.

وكذلك ليس أدل على كون الفصاحة سلوكا مستقرا عند العرب في جميع أحوالهم من إنكارهم لظاهرة اللحن وردهم لها من غير تعلم أو تلقين، وإنكارهم كذلك لما رأوه زيغا من كلام النحاة وأقوالهم، وقد ذكر ابن سيده¹ مثالا حيث قال: "سألت بعض فصحاء العرب عن تأنيث الإبط فأنكره أشد الإنكار، فقلت حكى لنا أن بعض العرب قال: رفع السوط حتى برقت إبطه، فقال ليس هذا من العربية، إنما هو حتى وضع إبطه".

وذكر ابن جني كثيرا من هذا القبيل حيث قال²: "الأعرابي الفصيح إذا عدل به عن لغته الفصيحة إلى أخرى سقيمة عافها ولم يهأبأ بها، سألت مرة الشجري أبا عبد الله ومعه ابن عم له دونه في فصاحته، وكان اسمه غصنا، فقلت لهما: كيف تحقران حمراء؟ فقالا: حميراء، قلت: فسوداء؟ قالا: سويداء، وواليت من ذلك أحرفا وهما يجيئان بالصواب، ثم دسست في ذلك علباء، فقال غصن: عليباء، وتبعه الشجري، فلما هم بفتح الباء تراجع كالمذعور، ثم قال: آه، عليبي، ورام الضمة في الياء، فكانت تلك عادة له، إلا أنهم أشد استتكارا لزيغ الإعراب منهم لخلاف اللغة".

وذكر ابن جني عن الشجري قوله: "فقلت له: كيف تقول: ضربت أخوك؟ فقال: ضربت أخاك، فأدرته على الرفع فأبى، وقال لا أقول أخوك أبدا، فقلت فكيف تقول: ضربني أخوك، فرفع، فقلت: ألسنت زعمت أنك لا تقول أخوك أبدا؟ فقال: أيش هذا، اختلفت جهتا الكلام، فهل هذا إلا أدل شيء على تأملهم مواقع الكلام، وإعطائهم إياه في كل موضع حقه، وحصته من الإعراب عن ميزة، وعلى بصيرة، وأنه ليس استرسالا ولا ترجحا"³.

وقال كذلك: "وسألته يوما فقلت له: كيف تجمع دكانا؟ فقال: دكاكين، قلت: فسرحانا؟ قال: سراحين، قلت: فقرطانا؟ قال: قراطين، قلت: فعثمان؟ قال: عثمانون، فقلت له: هلا

¹. المخصص (ج1/ص 135).

². الخصائص (ج2/ص 26).

³. نفسه ، (ج1/ص 76).

قلت أيضا عثامين، قال: أيش عثامين أرأيت إنسانا يتكلم بما ليس من لغته، والله لا أقولها أبدا¹.

ويفسر لنا هذا الرفض من هذا الأعرابي اقتناعهم عن الخروج عن الفصاحة أو قبول الصيغ غير الفصيحة ولو في أبسط حالات الحديث بالعربية، ومن هذا فلا يكون ذلك منهم لا في الشعر والخطابة والتأدب بشكل عام، ولا في الحديث اليومي العادي لانهم يصدرن عن طبع وسليقة وسجية، وإذا حدث ذلك من أحدهم رده إلى الصواب وأنكروا عليه ما جاء به، وقد أشار إلى ذلك ابن جني حيث قال²: "وحدثني المتنبى شاعرنا وما عرفته إلا صادقاً قال: كنت عند منصرفي من مصر في جماعة من العرب، واحد يتحدث فذكر في كلامه فلاة واسعة فقال: يحير فيها الطرف وآخر منهم يلقيه سرا من الجماعة بينه وبينه فيقول له: يحار يحار، أفلا ترى إلى هداية بعضهم لبعض، وتنبهه إياه على الصواب".

وسواء على عرب القرون الهجرية الأولى أكانوا ينطقون عن طبع وسليقة أم يحسون مواضع كلامهم ويدركون مواقعها، فإنهم كانوا ذوي فصاحة واستقامة لغة في جل أحوالهم، وفي سائر ما يلفظونه، في أبسط حالاتهم الكلامية فضلا عن غيرها، ولذا كان الكلام في الإعراب وأحاديث النحاة من جملة ما أنكروه وردته طباعهم، ومما جاء في ذلك ما أورده أبو حيان التوحيدي (ت 400 هـ)³ إذ قال: "ووقف أعرابي على مجلس الأخفش فسمع كلام أهله في النحو، وما يدخل معه، فحار وعجب، وأطرق ووسوس فقال له الأخفش ما تسمع يا أبا العرب؟ قال: أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا ما ليس من كلامنا"، فكيف إذا تعلق الأمر بعرب الجاهلية، وبداية الإسلام قبل اختلاطهم بالعجم، ولهذا قال الرافعي⁴: "نقطع بأن اللحن لم يكن في الجاهلية البتة، وكل ما كان في بعض القبائل من خور الطباع وانحراف

¹. المصدر السابق، (ج1/ص242).

². نفسه (ج1/ص239).

³. الإمتاع والمؤانسة، تح: محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1424هـ/2003م، ص 305.

⁴. تاريخ آداب العرب، ص 203.

الألسنة فإنما هو لغات لا أكثر"، و هو معنى قول الزبيدي : "ولم تزل العرب تنطق على سجيته في صدر إسلامها وماضي جاهليتها"¹.

وعلى هذا فاللغة الشفاهية التي تداولها العرب فيما بينهم كانت تحاكي لغة شعرهم وخطاباتهم ومقاماتهم الرفيعة، ومن وجهة نظر منهجية فإن الذي قد يذهب غير هذا المذهب مطالب بالدليل التاريخي على ما قال، ولم تكن اللغة العفوية العربية القديمة تكسر الفصاحة حتى وإن اختلفت عن لغة الشعر والأدب، ولم تكن خصائصها التي نص عليها العلماء تعد خروجاً عن السلامة اللغوية كاعتبار اختلاس الحركات مثلاً لحناً، والواقع هو اختلاف المفهومين اختلافاً جوهرياً.

3.2.2 - بين الفصاحة التلقائية والحن:

إن العرب في عهد الفصاحة كانوا يتكلمون العربية بتلقائية وعفوية سليمة فصيحة صحيحة معربة، إلا أن تلك التلقائية في التناول الشفاهي اليومي للغة لديهم جعلها تشتمل على بعض الصفات الأخرى من ظواهر الاستخفاف والحذف والاختلاس وغيرها²، و مما سمع عنهم من الترخيم والإمالة في درج الكلام السريع أثناء التعايش المجتمعي. وهذه الظواهر إنما هي من صميم الفصحى العربية الشفاهية، وليست اعوجاجاً في الأداء ولا قصوراً في الملكة اللسانية، على خلاف الحن الذي هو بداية الفساد الفعلي للفصاحة العربية إلى جانب الإخلال ببعض الصفات الصوتية والتركيبية والصرفية للعربية بعد مجيء الإسلام.

إذن فالعرب الفصحاء لم يلحنوا ولم تقسد لغتهم وإنما خففوا عن ألسنتهم بأن اختلسوا الحركات اختلاسا، وأخفوها فلم يمكنوها في أماكن كثيرة ولم يشبعوها كما قال ابن جني³، ولم يكن ذلك عجزاً منهم أو عيباً، وقد ذكر إبراهيم أنيس رأياً في الموضوع حيث قال: "فلم تكن

¹. طبقات النحويين، واللغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، 1974م، ص 11.

². وهي الخصائص التي سنفصل البحث فيها لاحقاً.

³. ينظر الخصائص (ج1/ص 28).

لهجات الكلام عند القبائل تلتزم الإعراب على الصورة التي رويت لنا في كتب النحاة، وإنما التزم الإعراب على تلك الصورة في اللغة الأدبية التي نزل بها القرآن ونظم بها الشعر"¹، وعدم الالتزام هنا يقصد به الاختلاس وعدم الإشباع على نفس ما عناه ابن جني.

والحقيقة المعروفة هي أن معايير الكلام عندهم كانت قائمة بصدورهم، "ولم تكن العرب في جاهليتهم وفي جزيرتهم بحاجة إلى من يلقنهم أصول لغتهم وقواعدها، لأنهم كانوا يتكلمون بما عليه عليهم سليقتهم وطبيعتهم وبيئتهم ومحيطهم، فينطقون بها على السبيل القويمة التي ينطق بها أهلهم ورجال عشيرتهم، ولم يكونوا يأخذونها بتعليم معلم ولا توجيه مرشد، فقد نشأوا وشبوا وهم لا يعرفون إلا العربية التي ينطقون بها، ويديرون بها أعمالهم ويصرفون عن طريقها أمور حياتهم"².

ويفسر صلاح رواي³ هذه المسألة بشكل أعمق حيث يقول: "وكان العربي في هذه البيئة النقية، ينطق اللغة العربية الفصحى بسليقته، ويتعامل بها مع بني جلدته بفطرته التي جبل عليها دون تكلف أو تعمل، حيث كان الطفل يشب في هذه البيئة العربية الخالصة، فيسمع لغة سليمة، خالية من الأخطاء فلا يكون من العسير عليه أن ينطقها كما سمعها، وأن يعبر بها عن خواطره ومشاعره وشؤون حياته في سهولة ويسر".

ولذلك فإنهم يتكلمون ما نعهده اليوم الصورة المثلى للعربية بطلاقة واسترسال، وتلقائية وعفوية، بل كانوا إلى عهد غير بعيد يعدون الحرص على الأداء الجيد وإشباع الحركات من التشادق والتقدير، ما أدى بالجاحظ بعد ذلك إلى أن يقول⁴: "ثم اعلم أن أقبح اللحن لحن أصحاب التقعير والتعقيب والشديق والتعطيط والجهورة والتفخيم"، وقال ابن قتيبة (ت 276 هـ): "ويستحب له أن يدع في كلامه التقعير والتعقيب" ثم ذكر أمثلة من

¹. في اللهجات العربية، ص 84.

². الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه خديجة الحديثي، ص 7.

³. النحو العربي، نشأته وتطوره، مدارسه، رجاله، صلاح راوي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر،

2003م، ص 7.

⁴. البيان والتبيين (ج1/ص 91).

ذلك وعقب عليها بقوله: "هذا وأشباهه كان يستثقل والأدب غرض والزمان زمان وأهله يتحلون فيه بالفصاحة" ثم قال: "ونستحب له -إن استطاع- أن يعدل بكلامه عن الجهة التي تلزمه مستثقل الإعراب ليسلم من اللحن وقباحة التعكير"¹.

وذكر الرافعي أن المبالغة في النطق والتكلف صارت شبهة في زمن جمع اللغة حيث تهافت الأعراب على الحاضرة للكسب، وأراد النحاة تقليدهم و"كانوا يبالغون في التعكير والتعقيب والتشديق والتمطيط والجهورة والتفخيم يريدون بذلك أن يتبادوا في الحضريين ليكونوا أعرابهم، فكانت هذه الأعرابية الكاذبة تمثيلا مضحكا عند العامة، وثقيلًا مبغضا عند العلماء"².

هكذا كانت الفصاحة على غير الصورة التي يعتقدها كثير من الناس اليوم، فلم تكن أبدا سلوكا إنسانيا متشددا يفرض على صاحبه التكلف والتصنع، ولا تبحر في القواعد النحوية، إنما كانت صفة راسخة يمارسها العربي ببساطة واسترخاء، وكما قال ابن الأثير (ت 637 هـ) : "ومع هذا فينبغي لك أن تعلم أن الجاهل بالنحو لا يقدر في فصاحة ولا بلاغة، ولكنه يقدر في الجاهل به نفسه"³.

وبالتالي فإن التلقائية التي نشأ عليها العربي في ممارسة لغته أعلى شأنًا من تعلم النحو وتلقيه، لأن النحو نشأ أساسا كما قال ابن جني "ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها، وإن لم يكن منهم، وإذ شذ بعضهم عنها رد به إليها"⁴، أما العرب الخالص من الفصحاء فإنهم كما قال سيبويه "لا تطاوعهم ألسنتهم في اللحن"⁵.

¹. أدب الكاتب، ص 16-17.

². تاريخ آداب العرب، للرافعي (ج1/ص 208).

³. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1995م، (ج1/ص 37).

⁴. الخصائص (ج1/ص 24).

⁵. خزانة الأدب، للبغداد (ج10/ص 338).

أما اللحن فهو فساد الفصاحة وذهاب العربية الخالصة، فلم تكن عند عرب الجاهلية وقرون الفصاحة إلا نادرا، ثم انتشر بعد ذلك في الجزيرة العربية بفعل استيطان الأعاجم لها، وصار من الظواهر المعتادة في الحياة العامة، قال ابن فارس¹: "قد كان الناس قديما يجتنبون اللحن اجتنابهم بعض الذنوب، فأما الآن فقد تجوزوا حتى أن المحدث يحدث فيلحن، والفقيه يؤلف فيلحن".

وهذا قد أصاب اللغة العربية بمستوييها الشفاهي العفوي وكذلك الأدبي، ومن المؤكد أن المستوى الأول أثر تعرضا لظاهرة اللحن نظرا لتقلب الألسنة عليه ودورانه على الأفواه، حتى غدا ذلك من العوائد والأعراف، وصار أهل العلم يخاطبون العامة بما ألفوه من اللحن، قال ابن فارس معللا ذلك "لأن الناس لم يزلوا يلحنون ويتلاحنون فيما يخاطب بعضهم بعضا انقاء للخروج عن عادة العامة، فلا يعيب ذلك من ينصفهم من الخاصة"²، بينما كانت كما يذكر أحمد الهاشمي لغة التخاطب بين الخاصة من العرب العربية الفصيحة الخالية من اللحن، وكانت لغة العامة والسوقة مشوبة بشيء من اللحن³، وإذا نظرنا إلى طبيعة الأخطاء التي تنسب إلى المثقفين في القرن الثاني لاحظنا أنها تتناول الخلط بين الحالات الإعرابية، وهي أمثلة نادرة تعكس أمرا مأخوذا من لغة الحديث اليومي، لا لغة الكتابة كما ذكر محمود فهمي حجازي⁴.

3.2- الميزات العامة للعربية الشفاهية العفوية :

1.3.2- ارتباطها بالحياة اليومية:

وفصحى التخاطب العفوي الشفاهي عند العرب قبل الإسلام وبعده حملت كل خصائص اللغة الشفاهية التواصلية التي ذكرناها، وأولها أنها كانت جزءا لا يتجزأ من حياة العرب في اتصال القبائل بعضها ببعض، وفي مخاطباتها ومسامراتها وأحاديثها ومجالسها ونواديها، وقد

¹. الصاحبى، ص 32.

². نفسه، ص 31.

³. جواهر الأدب، ص 559.

⁴. ينظر علم اللغة العربية، ص 252.

قرر علماء اللغة أن القرآن إنما أنزل بلغة العرب، والمراد "أنه منزل بلسان لا يخفى معناه على أحد من العرب، ولم يستعمل فيه لغة لم يتكلم بها العرب فيصعب عليهم مثله"¹، فخطبهم بما تعودت ألسنتهم التقلب فيه، وإنما كان إعجازه من جهة نظمه وأخباره وعلومه، ولذلك كما ذكر الجرجاني² أعجزهم فيما كان أغلب عليهم، وفيما كانوا يتباهون به، وكانت عوامهم تعظم به خواصهم، وهو التصرف في فنون القول والبيان، وليس أحد ينكر ما كانت العربية تحتله عند العرب من مكانة وقدر.

والعربية الفصيحة إذ ذاك كانت أساس التواصل الاجتماعي في سائر شؤونهم وسيلة تبادل وتفاهم، وكانوا كما وصفهم التوحيدي³ "من جميع متصرفهم واختلاف أحوالهم لا يعرفون إلا التساؤل بالبيان والعقل، والتباهي بالصواب والأدب".

وإذا كانت العرب قد عرفت لغة مشتركة قبل ظهور الإسلام واستمرت بعد ذلك، فمن المجحف الاعتقاد بأنها اقتصررت على الاستعمال الأدبي (الشعري والخطابي)، وهذا لأنهم كانوا يختلطون بعضهم ببعض في العلاقات بين القبائل والأحلاف التي قامت، والتجارة والمبادلات، والحل والترحال، وعلى وجه أخص في مكة أثناء المواسم حيث كانت وفود العرب كافة تبعث بقوافلها للحج والتجارة، ولذا فالفصاحة تجلت في المجتمع العربي الأول على شكلين، أولهما : الفصحى المشتركة بين القبائل والتي هي صفوة اللسان العربي، وثانيهما لهجات القبائل الفصيحة التي نص العلماء على فصاحتها وهي: قريش، وهذيل، وهوازن، واليمن وطيء وثقيف، وبني تميم⁴ والتي يعتقد أن القرآن نزل بألسنتها.

وبفعل الاحتكاك بين قريش وسائر القبائل الوافدة، ودخولها معهم في ضروب من التعامل اليومي كخدمة الحجيج والتجارة وإكرام السادات والأشراف، وتبادل الأخبار والأحاديث، ارتقت الفصاحة العربية إذا أضفنا إلى ذلك سلوك التباهي والتفاضل الذي كان بينهم، قال الفراء:

¹. الكليات للكفوي، ص 1148.

². دلائل الإعجاز، ص 343.

³. البصائر والنخائر، تح : وداد القاضي، دار صادر، بيروت، لبنان، ط4، 1419هـ/1999م، (ج7/ص 196).

⁴. الكليات للكفوي، ص 1276.

"كانت العرب تحضر الموسم في كل عام ويحج البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات العرب فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به فصاروا أفصح العرب"¹، والرسول صلى الله عليه وسلم كان أفصح العرب على الإطلاق وتكلم على الضريين اللذين ذكرناهما، والمقصود أنه تكلم بأفصح اللغات وأرقاها، وتكلم كذلك بلغات القبائل الوافدة عليه، قال البغدادي: "ونعلم قطعاً من غير شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفصح العرب فلم يكن يتكلم إلا بأفصح اللغات وأحسن التراكيب وأشهرها وأجزلها، وإذا تكلم بلغة غير لغته فإنما يتكلم بذلك مع أهل تلك اللغة"².

فالعرب بذلك تفوهت في حياتها اليومية بفصاحة، واتخذتها وسيلة تفاهم في سائر شؤونها، في ضروب معاشها وصنوف نشاطاتها، وكانت صادرة عن أشرافها وما دونهم، وعن النساء والغلمان يعقل بعضهم عن بعض، كما تفهم القبائل بعضها عن بعض ويرى رمضان عبد التواب³ أن أهل مكة كانوا يختلطون بالوافدين فيسمعون منهم كما يسمع منهم هؤلاء، وهناك نبتت البذرة الأولى للغة المشتركة بين هؤلاء القبائل جميعاً، ونمت وازدهرت بتوالي وفود القبائل إلى هذه الأسواق، وقد حملت هذه الوفود تلك اللغة المشتركة إلى مواطن قبائلها، فانتشرت بين أنحاء الجزيرة العربية.

ويرى عبد الواحد وافي⁴ أن احتكاك اللهجات بفضل التجارة وتبادل المنافع والمجاورة والتنقل والتجمع في الحج والأسواق والحروب أفرز صراعاً انتصرت فيه لهجة قريش فطغت على جميع اللهجات في المحادثة.

وهذه الظروف المعيشية اليومية التي فرضت على العرب الانفتاح على بعضهم البعض، والاتصال أثناء مزاوله الحياة والمعيشة هي التي جعلت العربية الفصحى تبسط نفوذها على لغة التخاطب بعد أن بسطته على لغة الشعر والخطابة، فتحدث المبادلات اللغوية يومياً بين

¹. الزهر للسيوطي (ج1/ص 221).

². خزانة الأدب (ج1/ص 34).

³. ينظر فصول في فقه اللغة، ص 79.

⁴. ينظر فقه اللغة، ص 87.

قبائل العرب، ولقد أشار إلى ذلك ابن جني¹ في قوله: "فقد علمت بهذا أن صاحب لغة قد راعى لغة غيره وذلك لأن العرب وإن كانوا كثيرا منتشرين، وخلقا عظيما في أرض الله غير متحجرين ولا متضاغطين، فإنهم بتجاورهم وتلاقيهم وتزاورهم يجرون مجرى الجماعة في دار واحدة فبعضهم يلاحظ صاحبه ويراعي أمر لغته كما يراعي ذلك من مهم أمره". وعلى هذا فالفصحى التخاطبية في الأمور اليومية كانت سلوكا عربيا يتماشى مع الحاجة اليومية من جهة، ويختلف عنه في الخطاب النوعي في الشعر والخطابة على أننا لا نستطيع الجزم بأن العرب قاطبة نطقت به² فذلك موضع خلاف عميق بين الدارسين لتاريخ نشوء الفصحى واللهجات.

2.3.2- الاقتصاد اللغوي في الشفاهية التخاطبية العربية³ :

لقد نص العلماء العرب ممن درسوا التراث اللغوي العربي أن العربي القديم وهو يستخدم لغته يميل إلى الاقتصاد وطلب الخفة في الأداء ، وسلوك أيسر الطرق من أجل تأدية ما يريد من ممارسته للغة العربية اليومية، وهذه ظاهرة أكد اللغويون في العصر الحديث أنها تحدث في كل لغات العالم دون استثناء كونها ضرورة بشرية، وهو مفهوم شرحه إبراهيم أنيس بقوله: "تنادي هذه النظرية بأن الإنسان في نطقه لأصوات لغته، يميل إلى الاقتصاد في المجهود العضلي وتلمس أسهل السبل مع الوصول إلى ما يهدف إليه، من إبراز المعاني وإيصالها إلى المتحدثين معه، فهو لهذا يميل إلى استبدال السهل من أصوات لغته بالصعب الشاق الذي يحتاج إلى مجهود عضلي أكبر، ومثل الإنسان في هذا، مثله في كل الظواهر الاجتماعية يحاول عادة الوصول إلى غرضه عن أقصر الطرق كلما أمكن ذلك"⁴، ونحن

¹. الخصائص (ج2/ص 16).

². على سبيل المثال يرجح رمضان عبد التواب أن اللغة المشتركة كانت لغة الخاصة وأنها فوق مستوى العامة، وقصرها على الآثار الأدبية، ينظر فصول في فقه اللغة، ص 79-80.

³. سنعود بشيء من التفصيل إلى مفاهيم ارتباط اللغة اليومية عند العرب في عصر الفصاحة بالاقتصاد اللغوي .

⁴. الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة نهضة مصر، ص 166.

نضيف إلى ما قال أنها تظهر بشكل أفضل في اللغة الشفاهية المنطوقة في حين لا تقتصر على الجانب الصوتي.

ويبين في موضع آخر¹ بشكل أشمل كيفية نزوع البدو العرب في لهجاتهم إليها، ويشرح مظاهرها بقوله: "ويعد هذا أيضا من الاقتصاد في الجهد العضلي، وإن شئت فسمه كسلا، ولكنه على كل حال يحقق الغرض بين المتكلم والسامع، ولا تخل بهدف الكلام وهو الفهم، فقد ينطق البدوي دون تمهل في نطقه ودون انتظار لنهاية الكلمات، فتصدر عنه الكلمات مبتورة الآخر، وهو لا يحفل بهذا لأن كل ما يرمي إليه هو إفهام السامع، وقد وصل إلى غرضه مع اقتصاد في الجهد، وبطريقة أيسر وأسرع".

ويقول فخر الدين قباوة: "وقد كان العربي في التواصل والخطاب، على وعي للمرامي الاقتصادية، ينزع إليها، ويدرك وظائفها الواقعية، وخدمتها لتخفيف الجهد والمعاناة، سيما التراكيب التي يكثر استعمالها في التعبير"².

وأكثر ما يرتبط الاقتصاد اللغوي عند العرب وعند غيرهم بالاستعمال والجريان على الألسنة والأفواه، وعندما يكون الأمر كذلك يضطر المستعمل إلى التخفيف من جهوده العضلية والذاكرية، وهذا هو السبب في تحول اللغة من نظام إلى نظام آخر، ولابد من التنبيه على أن التحول الناتج من هذا الميل الطبيعي إلى الاقتصاد (في جميع أفعال الإنسان) ينطبق خصوصا على لغة التخاطب اليومي لعفويته كما يقول عبد الرحمان حاج صالح³ الذي يؤكد أن "لغة التخاطب تخضع خضوعا كاملا لقانون الاقتصاد اللغوي"⁴. ولقد مر بنا في كلامه مصطلح التخفيف الذي أطلقه العلماء الأوائل على مفهوم الاقتصاد اللغوي ولاحظوه في كلام العرب ومخاطباتهم، وأطلقوا ما أسموه طلب الخفة والاستخفاف على نفس المفهوم.

¹. في اللهجات العربية، إبراهيم أنيس، ص 134.

². الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد فخر الدين قباوة، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، ط1، 2001م، ص 40.

³. الفصحى وعامياتها، ص 81.

⁴. نفسه، ص 83.

وقد نص على ذلك غير واحد من علماء اللغة، وعلى رأسهم ابن جني الذي ذكر أن العرب "قد تنطق بالشيء غيره في نفسها أقوى منه لإيثارها التخفيف"¹، وقد ذكر في موضع آخر العرب في كلامها وبعد أغراضهم ولطف أسرارهم حيث قال: "حتى كأنك لم ترهم وقد ضايقوا أنفسهم، وخففوا عن ألسنتهم بأن اختلسوا الحركات اختلاسا وأخفوها فلم يمكنوها في أماكن كثيرة ولم يشبعوها"².

وقد ذكر المبرد (ت 286 هـ)³ أن تخفيف العرب إنما يرجع أساسا لكثرة الاستعمال حيث قال بعد ذكر مواضع منه: "وهذا أكثر على ألسنتهم، لطلب التخفيف، وذلك الأصل وبعض العرب يقلب فيقول: كيء يا فتى فيؤخر الهمزة لكثرة الاستعمال".

وقد ذكر ابن فارس اختصاص العرب ببعض ظواهر التخفيف والاقتصاد قائلا: "ومما اختصت به العرب -بعد الذي تقدم ذكرناه- قلبهم الحروف عن جهاتها ليكون الثاني أخف من الأول، نحو قولهم ميعاد ولم يقولوا موعاد وهما من الوعد، إلا أن اللفظ الثاني أخف، ومن ذلك تركهم الجمع بين الساكنين، وقد تجتمع في لغة العجم ثلاث سواكن، ومنه قولهم يا حار ميلا إلى التخفيف، ومنه اختلاسهم الحركات"⁴.

وكان الاقتصاد اللغوي في العربية الفصحى مشتملا على كثير من الظواهر التي تعكس جنوح العربي في كلامه اليومي ومخاطباته إلى الاستئناس وعدم الغلو في تناول لغته، واختياره المرونة في أدائها في الوقت الذي لم يخش فيه اللحن، وهذا حصل فيه الوعي التام أن تلك الظواهر ما هي إلا طريقة في أداء العربية تعارف عليها الفصحاء فلم ينكروها، ومن ذلك إقرار العلماء بوجود اختلاس الحركات في العربية الفصيحة مقارنة مع محاربتهم لظاهرة اللحن.

¹. الخصائص (ج1/ص 249).

². نفسه (ج1/ص 72).

³. الكامل (ج3/ص 1252).

⁴. الصاحبى، ص 15.

وإذا كان ابن فارس قرر بأن بعض مظاهر الاقتصاد اللغوي اختص بها العرب إلا أن الاقتصاد كسلوك لغوي موجود في كل لغات العالم بلا استثناء ، وقد ذكر فرديناند دي سوسير أن من أسباب حدوث المتغيرات الصوتية في أي لغة قانون الاقتصاد في الجهد إذ قال: "كما فسر سبب التغيير الصوتي بقانون الاقتصاد في الجهد، ومفاده أن لفظتين تعوض بلفظة واحدة أو اللفظة الصعبة تحل محلها لفظة أسهل"¹، وذلك كمثال على ما أراد ، ويشير في كلام مطول² أن قانون الاقتصاد في الجهد يفسر بعض الحالات كتحول الصوت من مخرج إلى مخرج أيسر منه ، ووقوع مجموعات الأصوات الصحيحة في المقاطع النهائية في كثير من اللغات كنوع من الإدغام ، ومنه كذلك تحول الحركات الثنائية إلى أحادية ، وكذلك ما أسماه الاختصار في طول الصوت ، وأقر بأن قانون الاقتصاد في الجهد يتطلب دراسة شاملة .

وأقر اندري مارتيني³ أن مبدأ التقطيع المزدوج الذي وضعه يوجد في كل الألسن ، ويظهر أن هذا التنظيم قد فرض نفسه على المجموعات البشرية بصفته الأنسب إلى حاجات الإنسان وإمكانياته، وأنه لا شيء غير الاقتصاد الناجم عن التقطيعين يمكن من الحصول على أداة تبليغ وهي ذات استعمال عام ، وقادرة على إيصال المعلومات بمقدار مهول وبجهد زهيد. والعربية على امتداد الأزمان ، أثبتت كفاءتها في ذلك التوجه ، مما عرف فيها من نماذج الحذف والاختصار، وطلب الخفة في النطق بمفرداتها وطرح ما يصعب على الناطق بالاستغناء والإختزال على كافة المستويات : الصوتية و الإفرادية و السياقية وغير ذلك من مظاهر وضع المؤونة عن اللسان ، وهي أكثر ما تكون كذلك في نموذجها الأفصح الموروث عن العرب القدامى ، أو بتعبير أدق لا تخلو الفصحى بمعناها الدقيق - و هو كونها صالحة للاحتجاج في العربية - من مظاهر الاقتصاد اللغوي .

¹. علم اللغة العام، ص 171.

². ينظر نفسه ، ص 171-172.

³. ينظر كتابه، مبادئ في اللسانيات العامة، تر: الزبير سعدي، دار الآفاق، الجزائر، ص 21.

3.3.2 - أسبقية الشفاهية العربية وتأثيراتها:

ما لا شك فيه أن العرب الأوائل الذين تكلموا العربية تشافهوا بها ونطقوها قبل أن يتأدبوا بها شعرا ونثرا وقبل أن يكتبوها، وهذا ما أثبتته الدراسات التاريخية لهذه اللغة في نشأتها، وهذا بالنسبة إلى جميع اللغات البشرية إذ لم تكن العربية بدعا في ذلك ولذلك قال أندري مارتيني: "ولو عمدنا إلى موافقة بدايات البشرية، بحصر المعنى وتلك العائدة للغة الملفوظة لأمكننا أن نورخ المنطوق بحدود ملايين السنوات، ولكننا لم نبدأ إلا منذ آلاف من السنوات في استخدام أشكال خطية متطابقة تقريباً"¹، وأقر برتيل مالبرج² "أن المنطوقات ذات التغير الصوتي والسمعي تمثل الشكل الأول والطبيعي للغة الإنسانية، والتفوق النهائي للغة المنطوقة لدى الإنسان يفسره ما أسماه الرفاهية التمييزية الفائقة لحاسة السمع عندنا ولعدد إمكانيات الإنتاج الصوتي التي يطرحها جهازنا الناطق". ولذلك أيضا قال فرديناند دي سوسير "إن اللغة إذن لها تقليد شفهي"³، ويفهم من ذلك أن مفهوم اللغة تخرج عنه الأشكال المستقلة عنه كالكتابة من الدرجة الأولى ما يفسر كذلك تعريف ابن جني لها أنها: "أصوات يعل ربها كل قوم عن مرادهم"⁴، ودليل ذلك أيضا أن الجهل بالكتابة أو حتى بالصورة الفنية للغة كالشعر والخطابة لا يمنع أبدا من اكتساب اللغة واستعمالها، وكما قال جورج بول: "ينبغي أن نضع في الحسبان أن عددا هائلا من لغات العالم اليوم لا تستعمل إلا في صورتها المنطوقة وتفنقر إلى الرموز الكتابية، وهذه اللغات التي لها نظم للكتابة، فإن تطور الكتابة كما تعلم عنها يعد إلى حد ما ظاهرة حديثة"⁵، وكذلك ما نلاحظ مثلا من أن الأولاد يتكلمون اللسان قبل أن يكتبوه ويقرؤوه، وأن كثير من

¹. وظائف الألسن وديناميتها، ص 171.

². ينظر كتابه مدخل إلى اللسانيات، تر: السيد عبد الظاهر، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، ط 1، 2010م، ص 63.

³. علم اللغة العام، ص 43.

⁴. الخصائص (ج1/ص 33)، وينظر فقه اللغة في الكتب العربية، عبده الراجحي، ص 62.

⁵. معرفة اللغة، ص 21.

البالغين في العالم لا يحسنون لا القراءة ولا الكتابة، وانه كانت ما زالت هناك شعوب تتكلم بالطبع، ولكنها لا تملك نظام كتابة كما ذكر أندري مارتيني¹.

وتبدو أسبقية المشافهة والسماع من أن ما سمعه المرء وما يتلفظ به من اللغة أكثر مما يحصى إذا قورن بما يقرؤه ويكتبه، وكذلك في العربية نجد اختلافا غير يسير من الصورة المنطوقة والصورة المكتوبة، مما يدل على أن الأخيرة ليست تمثيلا صادقا أو مطابقا للأولى، ومثال ذلك ألف الوصل المثبتة في الكتابة الغائبة في النطق، و"ال" التعريف حينما تدغم اللام في الحرف المشدد وهو إسقاط لها من النطق دون الكتابة، والألف التي تكتب بعد واو الجماعة في الفعل الماضي، وكثير من الأسماء التي تكتب على نحو لا يعكس طريقة نطقها كالرحمن وطه وعمر² وهذه مسائل تخص الخط العربي الذي يعد لاحقا وتابعا للغة. ولقد كان العرب كما أثر عنهم يتكلمون العربية في حياتهم اليومية ويتشافهون بها، وتصدر عنهم في خطاباتهم مصبوعة بطابع الاقتصاد والعفوية، ولم يكن أكثرهم يحسن الكتابة أو يجيد قول الشعر وفنون الخطابة والآداب، لأن شفاهيتهم العربية كانت متأصلة فيهم يتكلم بها كل أحد، وذكر ابن فارس³ "أن العرب كلها مدرا ووبرا لم تعرف الكتابة كلها والحروف أجمعها، وما العرب في قديم الزمان كما قال إلا كنحن اليوم: فما كل يعرف الكتابة والخط والقراءة، ولقد وصفهم الجاحظ وصفا دقيقا في التكلم بلغتهم فقال: "وكانوا أميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكلمون وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر وهم عليه أقدر وأقصر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع"⁴.

ولعل سريان العربية على شفاه العرب قبل انتشار الكتابة واحتراف الشعر والخطابة وفنون القول مكن لظهور بعض الخصائص الشفاهية كاختلاف لغات القبائل، واشتمالها على خصوصيات إقليمية وتباينات أدائية وصوتية، وقد ذكر الراجعي "أن من بعض أسباب

¹. وظائف الألسن وديناميتها، ص 166.

². ينظر مدخل إلى علم اللغة، محمود فهمي حجازي، ص 32، وعلم اللغة العربية له أيضا، ص 11.

³. ينظر الصاحب، ص 9.

⁴. البيان والتبيين (ج3/ص 28).

اختلاف اللغات عند العرب كونهم أميين لا يكتبون، فبقيت اللغة متعلقة على الألسنة، تتغير ما دام يتكلم بها وما دامت ألسنتهم متصرفة بالسليقة أو ما هو في حكمها، كالتقليد الطبيعي الذي يأخذ به العربي للخفة، وانحراف لسانه إليه طبيعة¹.

وهذا يفهم منه أن أسبقية الشفاهية وأولييتها كان لها الأثر الباقي على اللغة لم تستطع الكتابة ولا اللغة الأدبية محوه على مر الزمن، لأن صفاته وخصائصه تمكنت وضربت بجذورها في السلوك اللغوي للفرد العربي، ولم يتوقف الأمر عند هذا، وإنما ظهرت رواسبه على اللغة الأدبية المشتركة التي ستتشأ فيما بعد ولم تستطع التخلص منها، ولما نزل القرآن على لغات العرب إنما راعى هذه الميزات الشفاهية للقبائل العربية المعروفة بالفصاحة، ولذا فكل ظواهر الاقتصاد والاستخفاف من روم وتسهيل وإدغام وإشمام وغيرها، والتي توجد في القراءات القرآنية أو في أشعار العرب وكلامهم إنما مردها إلى الشفاهية الأولى التي نطق بها العرب عفوا وتلقائيا في المراحل الأولى لتطور اللغة في شبه الجزيرة العربية.

ولا يقصد بهذا أن ظواهر الاقتصاد اللغوي والتخفيف مقصورة على الخطاب الشفاهي العفوي، فهذا مخالف لمنطق التفكير اللغوي، وإنما القصد منه أن الشفاهية في الخطاب العفوي هي الأصل الذي انبثقت عنه تلك الظواهر، وقد استفاد علماء العرب ذلك من عادة العرب في كلامها وما سرى على ألسنتهم قبل شعرهم وعيون خطبهم، وإنما احتاجوا إلى الشعر للاستشهاد والتوثيق²، وإذا أخذنا مثال الحذف والاستغناء لطلب الخفة والاختصار نجد ابن جني يقول: "وقد حذفت العرب الجملة والمفرد والحرف والحركة، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه، وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته"³، إشارة إلى كون الاقتصاد عرفا كلاميا وعادة يومية يؤخذ فيها بعين الاعتبار المتلقي للخطاب على أنه

¹. تاريخ آداب العرب (ج1/ص 108).

². ولذلك نراهم يقولون عادة : قالت العرب وتقول العرب، ثم يأتون بالشاهد من الشعر.

³. الخصائص (ج2/ص 360).

عنصر مدرك إدراكا جيدا لمقصود المنتج للخطاب، وما دامت عادة راسخة عند العرب في أبسط صور تعاملهم باللغة، ظهرت في شعرهم وأوجه قراءاتهم للقرآن.

ومن أمثلة سيبويه في تعليل الاستخفاف بالعادة وكثرة الاستعمال قوله: "قالوا والياء بمنزلة الحروف التي تدانى في المخارج، لكثرة استعمالهم إياها، وأنهما لا تخلو الحروف منهما، من الألف أو بعضهن، فكان العمل من وجه واحد أخف عليهن، كما أن رفع اللسان من موضع واحد أخف عليهن في الإدغام، وكما أنهم إذا أدنوا الحرف من الحرف كان أخف عليهن"¹، وقوله فيما بعد "وإنما خفت الألف هذه الخفة لأنه ليس منها علاج على اللسان والشفة، ولا تحرك أبدا، فإنما هي بمنزلة النفس، فمن ثم لم تنقل ثقل الواو عليهن ولا الياء، لما ذكرت لك من خفة مؤنثها"².

وهذا الذي ذكره سيبويه كذلك لا يكون إلا فيما تتعاطاه ألسنتهم وتنقلب فيه فثبتوا على تلك الحال من طلب الخفة، وراعوها فيما بعد في أشعارهم وخطبهم وأمثالهم ونزل القرآن فخطبهم بما دار بينهم على اختلاف لهجاتهم وطرائق أدائهم للغة.

ولهذا أمكننا أن نقول إن الشفاهية العربية اليومية في زمن الفصاحة هي قاعدة السلوك اللغوي ومادته الخام في أدنى وظائفها الأساسية، وما تفرع عنها بعد ذلك من نشأة الشعر وفنون القول والبيان إنما هو انصراف إلى وظائف أخرى اقتضت حدوث التغير على شكل هذه اللغة مع بقاء بعض ظواهرها عالقة في اللغة الأدبية والخطاب القرآني، وما كان ذلك الاختلاف إلا لتغير المقام وأغراض الكلام، هذه القضية التي تأخذ أهمية بالغة في إيجاد تفسير علمي آخر لهذه الظاهرة.

4.3.2 - مقام الكلام في الخطاب الشفاهي العربي:

تحدثنا فيما سبق عن قضية ارتباط اللغة الشفاهية العربية الفصيحة العفوية بالحياة اليومية والسلوكات الاجتماعية في أبسط أشكالها، ولكن ذلك يعد كلاما عاما نوعا ما إذا قورن بآلية

¹. الكتاب (ج4/ص 335).

². نفس المصدر السابق (ج4/ص 336).

أخرى تحدث عنها علماء العرب الأول وخصوصا البلاغيون منهم وهي قضية مقام الكلام، والتي تعد أكثر دقة وعلمية في تفسير ذلك النوع من الخطاب اللغوي ووصفه، ولا نجد أنفسنا أبعدنا القول أو جانبنا الصواب إذا قلنا أنها الفاصل الحقيقي بين هئيتي اللغة الرسمية وغير الرسمية.

وهذه القضية وإن كانت أكثر ما ترد في البلاغة والحديث عن اكتمال أدوات البيان إلى جانب مراعاة مقتضى الحال، إلا أنها لا تستطيع أن تتفك عن مقابلة المقامات ببعضها حتى في أدنى صورها، والإشارة إلى مراتب الناس وطاقاتهم في الكلام والفهم حتى لو كانوا من السوق¹، ممن يلهجون اللغة بعفوية دون روية أو تشادق واجتلاب، خصوصا في علم المعاني الذي يدرس الكلام من جهة المراد منه وإفادته، وقد ذكر السكاكي (ت 626 هـ)² كثيرا من المقامات التي تحكم شكل الكلام، قائلا: "ومقام الجد في ذلك يباين مقام الهزل" وأضاف أن "مقام الكلام مع الذكي مغاير لمقام الكلام مع الغبي"، و"أن ارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به" و"إن كان المقتضى ترك المسند³ فحسن الكلام وروده عاريا عن ذكره" وما إلى ذلك من المقامات والأحوال التي تستفاد من استقراء كلام العرب، وتتبع مقاصدهم وأساليبهم.

وممن أشار إلى هذه المسألة باتساع وإحاطة مشيرا إلى أدنى مقامات الكلام وأبسطها، ومراعاة حال السامعين مع دنو مراتبهم الجاحظ في مؤلفاته التي استطردها حول المقام ومقتضى الحال، مؤكدا أن الخطاب يشرف وتعلو مرتبته أو تقل عن ذلك وتنتضح حسب الأحوال ومنازل المتكلمين ومواقف الحديث، ولهذا فالبلغي عنده "لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوق ويكون في قواه فضل للتصرف في كل طبقة، ولا تدقق

¹. السوق : من الناس الرعية، وسموا كذلك لأن الملوك يسوقونهم، وهم العامة ولا يقصد بهم أهل الأسواق على الخصوص، راجع: تاج العروس (ج25/ص 479)، و خزنة الأدب (ج7/ص 60)، و تهذيب اللغة (ج9/ص 184)، و لسان العرب (ج3/ص 2156)، و المحيط في اللغة (ج1/ص 490)، و المعجم الوسيط (ج1/ص 465).

². مفتاح العلوم، تح: عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1460هـ/2000م، ص 265.

³. حذفه إذا دل عليه دليل.

المعاني كل التدقيق ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح، ولا يصفىها كل التصفية ولا يهذبها غاية التهذيب ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما أو فيلسوفا عليمًا"¹، مشيرا بوضوح إلى أن هذه الأمور لا تكون في خطاب العامة والسوقة الذين يكون الكلام بينهم مبسوط مسترسل ليس فيه تحقيق ولا حتى تحرر لاستكمال العناصر اللغوية التي نجدها في الصورة المثلى للغة. وقد أشار إلى ذلك في موضع آخر مفرقا بدقة بين الكلام المسترسل في الوسط المفتوح وبين الكتابة حيث قال: "اللسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم مطلق في الشاهد والغائب" واصفا اللسان بأنه "لا يعدو سامعه ولا يتجاوزه إلى غيره"²، ولما يكون الحال إلى اللسان والكلام الدائر بين طرفين لابد عنده من إنزال الكلام منزلته المناسبة حين أكد أن "مدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم والحمل عليهم على أقدار منازلهم"³. وقد أكد الجاحظ في الرسائل ظاهرة تأثر اللغة بطوابع الحياة التي يحياها المتكلمون ، وأثر هذه الحياة في وسم اللغة بسمات خاصة من حيث المفردات والأساليب وكذا التصرف فيها بحسب البيئة والأحوال، وقد ساق في بعض تلك الرسائل قصة جماعة من أصحاب الحرف الذين وصفوا معركة دارت في بلاد الروم، فيصفها كل واحد بأسلوبه الذي يأخذ مادته اللفظية من عوائد يومياته وتأثيرات حرفته وأشغاله⁴. وقد فسر سيبويه بعض ما يحدث من حذف واستغناء في كلام العرب بالحال التي تصدر فيها الكلام حيث قال⁵: "وإنما حذفوا الفعل في هذه الأشياء حين ثنوا لكثرتها في كلامهم، واستغناء بما يرون من الحال وبما جرى من الذكر"، وأكد ذلك ابن جني حين ذكر أن سبب إهمال ما أهمل إنما هو لضرب من ضروب الاستخفاف وأنه ليس مبنيا على وجوه الإعراب

¹. البيان والتبيين (ج1/ص 92).

². نفسه (ج1/ص 80).

³. نفسه (ج1/ص 93).

⁴. ينظر رسائل الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان ، 1991م ، ص 381-393.

⁵. الكتاب (ج1/ص 275).

وإنما هو كما قال مقام القول¹، ومن أمثلة المقام ومراعاة الحال أن اللفظ إذا جرى على كلام العرب في أحاديثهم المتكاثرة التي يتشابهون بها يحسن للمتكلم الإتيان به ولو كان عنده غير مرغوب، كقول العرب، بلى وأبيك أو كلا وأبيك، وقد ذكر ابن الأثير أنها كلمة جارية على ألسن العرب تستعملها كثيرا في خطابها، وقد قالها النبي صلى الله عليه وسلم مع نهيه عنها مراعاة لحال السامعين حوله، وعلل ابن الأثير ذلك بأنه صلى الله عليه وسلم لم يرد القسم بها وإنما أراد التحدث على عادة الكلام الجاري على الألسن².

وقد تفسر لنا بعض المفاهيم اللسانية الحديثة آليات التخاطب بين طرفي التواصل اللغوي (المرسل - المرسل إليه) حقيقة المقام إذا كانت القناة مباشرة مفتوحة بينهما كما يحدث في المخاطبات الاجتماعية العفوية، حين تغني القرائن الحالية عن القرائن اللفظية، أو تكون الحال سببا في سرعة الكلام وإسقاط الحروف والكلمات أحيانا، أو ما درج عليه المتكلمون من العادات اللفظية والقوالب الدارجة في أحاديثهم، أو ما يغني عن أكثر الكلام من الإشارة والقرائن البصرية وحركات اليد والملامح، وهذا يكون أكثر ما يكون في المخاطبات العفوية الشفهية بين جميع الناس في أبسط حوارهم، ولا يكون حذفهم للكلام واختصارهم له إلا لوجود الإشارة التي وصفها الجاحظ أنها "ما أكثر ما تنوب عن اللفظ"³، وذلك حين تكون القناة مباشرة بين المتخاطبين وتكون الحاجة إليها أمس إذا تزايد تشوش القناة بوجود ضوضاء أو ضجيج⁴.

¹. ينظر الخصائص (ج1/ص 67).

². ينظر لسان العرب (ج1/ص 16).

³. البيان والتبيين (ج1/ص 78).

⁴. يرى عبد الجليل مرتاض ما أسماه : الطبيعة البنائية للتركيب والتعبير الشفهية أنها تقوم على وجوب حضور المتكلم والمستمع معا في زمان ومكان واحد، وعلى عفوية الخطاب الشفهي غير القابل للمراجعة والتقيق، وعلى بعض الأساليب كقطع الخطاب واستئناف خطاب آخر، ينظر الفصحى وعاميته، ص 223-224.

ويمكننا تسمية مقام الحديث العفوي بين الناس مقام أنس وعادة، أو مقاما يوميا والحال حال تلقائية عفوية تستوجب بالطبيعة كل الخصائص التي يتميز بها الخطاب الشفاهي العفوي من التخفيف أو طلب الخفة والاقتصاد، وبروز الأعراف الكلامية في الخطاب.

5.3.2 - الشفاهية العربية التخاطبية نموذج لظاهرة عالمية:

إن لغة العرب القدامى في صورتها: الفصيحة العالية والشفاهية اليومية، ليست على الإطلاق بما فيها من فوارق بين المستويين وضعاً شاذاً أو ظاهرة وقتية حصلت في ذلك الزمان، ولم تكن تلك الازدواجية أو الثنائية اللغوية بدعا اختصت بها لغة العرب ولا مقصورة على ذلك الزمن، وإنما الحقيقة التي لا يمكن لأحد بحال من الأحوال ردها أو إنكارها أن لكل لغة من لغات العالم مستوى شفاهي مرتبط بالحياة العامة وموسوم بالاقتصاد في الجهد العضلي والذاكري حسب مقام الكلام فيه، ما جعلنا نطلق على كل تلك الميزات بأنها عامة. ولذلك عد محمود السعران¹ اختلاف الكلام باختلاف الطبقات الاجتماعية في المجتمع الواحد في العصر الواحد من القوانين اللغوية التي تتصف بشيء من الصدق والعموم، وأكد عبد الرحمان حاج صالح قائلاً: "إن جميع لغات البشر يوجد فيها مستويان اثنان في التعبير كما قلنا بالنسبة إلى اللغة الواحدة: المستوى المنقبض يجري في مقام الحرمة وخاصة في الميدان الثقافي، والمستوى المسترسل العفوي غير المتكلف"²، وذكر كذلك أنه "ليس من لغة في الدنيا إلا وفيها ازدواجية من هذا النوع ولا تنفرد بتلك العربية عن غيرها أبداً إلا بما اختصت به من الفوارق بين الفصحى وعامياتها"³، وبالتالي فإن المستوى التخاطبي لكل لغة لابد أن يكون مشتملاً على ذات الخصائص الموجودة في جميع اللغات مع مراعاة لخصوصيته.

¹. ينظر علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، ص 13.

². الفصحى وعامياتها، ص 88.

³. نفسه، الصفحة نفسها، وينظر كذلك فقه اللغة العربية وخصائصها لإميل بديع يعقوب، ص 147.

ولنأخذ على سبيل المثال أندري مارتيني وهو يتحدث عن مبدأ التقطيع المزدوج للغة البشرية كالخاصية، فإن تحليل اللغة إلى وحدات دالة أو المونيمات ثم التقطيع الآخر إلى وحدات أصغر غير دالة أو فونيمات محدودة ، يمكن أن تؤلف منها أعداد هائلة من الكلمات والجمل هو مبدأ عام يمنح اللغة القدرة على التعبير عن اللا متناهي من الأفكار بواسطة التصرف في عدد محدود من الأصوات، وهذا ما يسمى بمبدأ الاقتصاد اللغوي¹، وهو أمر يجعلنا نقول كذلك أن ظاهرة الاقتصاد اللغوي هي ظاهرة عالمية لكل اللغات البشرية بلا استثناء مهما كان عدد أصوات تلك اللغة، وهو ما يجعل اللغة العربية تشترك مع غيرها في أبسط قوانين الاقتصاد اللغوي.

هذا بالنسبة للغات أيضا مهما كان مستوى استخدامها، فكيف إذا تعلق الأمر بمستوياتها التخاطبية والتي لاحظها اللغويون ودرسوها في أكثر من مجتمع ، وقد ذكر فرجسون² أمثلة عما أسماه الشكل الأعلى للغة (الفصحى) ، والشكل الأدنى لها (التخاطبي) ، فذكر أن العربية الفصحى تقابلها الدارجة أو العامية ، والشكل الأعلى للألمانية في سويسرا هو شرفنز براخ ويقابله الأدنى: هوخت دويتش ، ولغة اليونانية شكل أعلى هو كاثا ريفوسا وآخر أدنى هو ديمو تكيه ، ولغة هايتي الهجين أعلاهـا فرانسيس وأدناها كريول هيشيان .

وذكر عبد الرحمن الحاج صالح في سياق حديثه عن الفصحى و العاميات العربية و مختلف الخصائص التي تشتمل عليها هذه العاميات مقابل الفصحى ، أنه حتى الإنجليزية التي يعتقد أنها تشتمل على مستوى واحد، في حين أنه في لندن توجد لغة

¹. ينظر مبادئ في اللسانيات لمارتيني، ص17.

². ينظر ازدواجية اللغة، إبراهيم صالح الفلاي، ص 20.

عامية تسمى كوكني لا تستعمل إلا في التخابط اليومي
كالعاميات العربية¹.

وهذه اللغات البشرية جميعها حال التكلم بها لا بد أن تخضع حال الاستعمال إلى التغير على المستوى الصوتي والأدائي، وأكثر ما يفسر هذا التغير هو قانون الاقتصاد وتخفيف مؤونة النطق في الكلام أثناء المواقف السريعة والمتكررة اليومية .
وذلك القانون كما ذكر فرديناند دي سوسير يفسر بعض الحالات كتحول صوت الغلق إلى صوت تنفسي habere في اللاتينية إلى avoir في الفرنسية، ووقوع مجموعات الأصوات الصحيحة في المقاطع النهائية في كثير من اللغات وهي نوع من الإدغام مثلا: ailos/alyos في الإغريقية، و annus/atnos في اللاتينية، وتحول الحركات الثنائية إلى أحادية، وهو نوع آخر من الإدغام مثال ذلك في الفرنسية mezo/maizan وتكتب maison².

وقد أسهب فنديريس³ بشكل أوفى في سياق الحديث عن التغيرات الصوتية ، وذكر أن هناك حالات من الإسراع ومن التقطيع الوزني ومن تخفيف السرعة ومن أوقات التوقف يقع بشكل متفـاوت تبعا للغات وتبعا

¹. الفصحى وعامياتها، ص 89.

و يذكر علي عبد الواحد وافي أن اللهجات الأوروبية حدث لها ما حدث للغة العربية من ذهاب لهجاتها ، و سيطرة لهجة مركزية واحد هي لهجة قریش ، و يذكر في هذا الصدد قوله : " فقد ترتب على تغلب لهجة باريس على معظم أخواتها أن أصبحت هي وحدها لغة ال كتابة و الآداب بفرنسا ، و عليها وحدها الآن يطلق اسم اللغة الفرنسية ، و هذا هو ما حدث عقب تغلب لهجة لندن بإنجلترا ، و لهجة مدريد بإسبانيا ، و اللهجة السكسونية بألمانيا ، و التوسكانية بإيطاليا ، فقد أصبحت هذه اللهجات هي اللغات الأدبية في البلاد السابقة ذكرها ، و عليها وحدها الآن يطلق اسم اللغات الانجليزية و الإسبانية و الألمانية و الإيطالية " ، يراجع كتابه فقه اللغة ، ص 89 .

². علم اللغة العام، ص 171.

³. ينظر كتابه اللغة، ص 86-93.

للمتكلمين¹ ، تجعل منهم يعاملون نهاية الكلمة معاملات خاصة غير القطعة المبدئية والداخلية، فالقطعة النهائية عنده خاتمة القوى من حيث هي نهاية، وانها في بعض اللغات حالات مخففة من مبدأ الضعف العام كما قال، وهكذا سقطت الميم M النهائية من النطق في اللاتينية، إلا في الكلمات القصيرة التي أكثر ما تقاوم هذه الانحرافات، ولكن هذا بالنسبة إليه هي الحال بالنسبة لكلمات كثيرة الاستعمال، ومن ثم يمكن فهمها قبل النطق بها إلى حد أن المتكلم يستطيع أن يعفي نفسه من توضيح النطق بها لأنها آلات مساعدة أو عبارات محفوظة متداولة ضاربا أمثلة عن اللغة الإغريقية في تقلص بعض الكلمات، ونختار مثال الفرنسية التي نعرفها جيدا حين يقال: ومسيوه wimsyeu هكذا عوض أن يقال: وي موسيوه oui monsieur وفي الإسبانية يقال usted بدلا من vestra merced، وفي الألمانية moen guioen بدلا من guten morgen.

وذكر فندريس أن سرعة إرسال الكلام تختلف من لغة إلى أخرى، فالفرنسيون أو الإنجليز أسرع من الألمان في الكلام، وألمانيو الشمال أسرع من ألمانيو الجنوب، واختلاف صيغ أداء الكلمات راجع إلى سرعة المحادثة.

وعلى بعض الأمثلة فونيتيكية، ففي الأصوات الانفجارية يكون الإنحباسي أقل حساسية للسمع من الانفجاري، وفي كلمة AKTA تلتقي الكاف K الإنحباسية مع التاء T الانفجارية وتكون النتيجة تغيرا في الأداء حيث يتخلى المتكلم كسلا عن تحقيق الحركات النطقية للكاف فينتقل طرف لسانه توا منذ الاحتباس إلى موضع التاء فتنتطق في النهاية ATTA، وهي

¹. و نجد إبراهيم أنيس يثير قضية السرعة في النطق و تخفيفها ، و ما يحدث جراء ذلك من تجاوز بعض الأصوات و حذفها من الكلام ، حيث يقول : " على أن أظهر نتائج السرعة في النطق ، هو سقوط بعض الأصوات من الكلمات في أثناء النطق بها ، و يعد هذا أيضا من مظاهر الاقتصاد في الجهد العضلي ، و إن شئت فسمه كسلا ، و لكنه يحقق الغرض بين المتكلم و السامع ، و لا يخل بهدف الكلام ، و هو الفهم ، فقد ينطق البدوي دون تمهل في نطقه ، و دون انتظار لنهاية الكلمات ، فتصدر عنه الكلمات مبتورة الآخر " ، يراجع كتابه في اللهجات العربية ، ص 116 ، 117 .

موجودة في اللغة الإيطالية، على أنه يمكن أن تدفع الرغبة المتكلم إلى توضيح نطق الكاف وهذا النطق كما قال نسمعه في الفرنسية غالبا عند أولئك الذين يغالون في صحة الأداء. وما نلاحظه في كلام فندريس أنه لخص بصورة واضحة حالات كثيرة تقع أثناء التخاطب المتسارع باللغات البشرية على اختلافها، وهي ظواهر من إزالة الحرف وإسقاطه في نهاية الكلمة أو في وسطها لم تخلو منها العربية ولا زالت موجودة إلى يوم الناس هذا، ما يجعلنا نؤكد على أن العربية تتفق مع لغات العالم الأخرى في كونها تشتمل على المستوى التخاطبي أو لغة المحادثة، وتتفق معها في ظواهر التخفيف والاقتصاد مع مراعاة لخصوصية العربية كذلك في بعض القضايا.

3 - الفصل الثالث

الاقتصاد اللغوي و التخفيف في

الاستعمال اللغوي العفوي

- مفهومه بين القديم و الدرس اللغوي الحديث -

" ما أبعدك عن تصور أحوالهم وبعد أغراضهم ولطف
أسرارهم حتى كأنك لم ترهم وقد ضايقوا أنفسهم وخففوا عن
السنتهم بأن اختلسوا الحركات اختلاسا وأخفوها فلم يمكنوها في
أماكن كثيرة ولم يشبعوها "

أبو الفتح عثمان بن جني

" فلغة التخاطب هي إدراج كما كان يقول علماؤنا أي تسلسل عفوي لدرج الكلام
يسوده التخفيف لعفويته ، و لم يكن ذلك لنا أبدا ، فالتخفيف و الدرج سمع من أفواه
جميع العرب الفصحاء ، فقد استمع العلماء إلى العرب بالفعل و هم يتخاطبون في حاجاتهم
اليومية فلا حظوا الكثير من التخفيف ، بل قد يكون ذلك غالبا عليهم "

عبد الرحمن حاج صالح

3 - الاقتصاد اللغوي و التخفيف في الاستعمال اللغوي العفوي - مفهومه بين

القديم و الدرس اللغوي الحديث - :

1.3 - مفهوم الاقتصاد اللغوي

1.1.3 - التوجيه العام لمصطلح الاقتصاد :

ذكر أبو البقاء الكفوي أن " الاقتصاد هو من القصد والقصد استقام —ة الطريق " ¹ ، و جاء في لسان العرب "وقد اقتصد واقتصد فلان في أمره أي استقام " ² ، و قال أبو هلال العسكري (ت 395 هـ) : " ومقتصد لمن لا يتجاوز الحاجة ولا يقصر دونه " ³ ، و قال كذلك : "وقيل الاقتصاد من أعمال الجوارح لانه نقيض الاسراف وهو من أعمال الجوارح والقناعة من أعمال القلوب " ⁴ ، و عند الزبيدي (ت 1205 هـ) : " يقال : فلان مُقْتَصِدٌ في المعيشة وفي النِّفَقَةِ ، وقد اقْتَصَدَ . واقْتَصَدَ في أمره : استقامَ . وفي البصائر للمصنّف : واقْتَصَدَ في النِّفَقَةِ : تَوَسَّطَ بين التَّقْتِيرِ والإسراف ، قال صلى الله عليه وسلم (ولا عَالَ مَنْ اقْتَصَدَ) " ⁵ ، و تتفق هذه التوجيهات في أن لفظ الاقتصاد يرجع إلى التوسط و الاعتدال بين الإفراط و التفريط في سائر الامور .

و بين ابن الأثير معناه في قوله : " فأما الاقتصاد في الشيء فهو من القصد الذي هو الوقوف على الوسط الذي لا يميل إلى أحد الطرفين قال الله تعالى " فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ " فظلم النفس والسبق بالخيرات طرفان والاقتصاد وسط بينهما " ⁶ ، و قد نصت بعض المعاجم على أن القاصد من الأمور أيسرها و أسهلها ففي

¹ . الكليات ، ص 224

² . لسان العرب ، مادة قصد ، (ج 5 / ص 3642) .

³ . الفروق اللغوية ، تح : محمد ابراهيم سليم ، دار العلم و الثقافة للنشر و التوزيع ، مدينة نصر ، مصر ،

1418هـ/1997م ، ص 300

⁴ . نفسه ، الصفحة نفسها .

⁵ . تاج العروس ، مادة قصد ، (ج 9/ص 36) .

⁶ . المثل السائر ، (ج 3/ص 177) ، الآية 32 من سورة فاطر .

المعجم الوجيز: " و القاصد من الاسفار ، السهل و في القرآن الكريم " لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا
وَ سَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَ لَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ " ¹ .

و الاقتصاد سلوك إنساني عام يدخل في أغلب مناحي الحياة ، و نشاطاتها التي لا يمكن
للإنسان أن يستغني عنها ، و ذلك لأن الطبيعة البشرية تنزع إليه ، و تحبذه على ما يقابله
من المبالغة و الإفراط ، أو الإهمال و التفريط ، و من المعلوم أنه يغلب على مسائل
الأموال و المصارف و الأنشطة التبادلية حتى صار مصطلحا مركزيا فيها ، و لذلك نجد
في المعاجم أن " الاقتصاد علم يبحث في الظواهر الخاصة بالإنتاج و التوزيع " ² ،
و وظيفته أنه كذلك " يكشف عن القوانين التي تخضع لها " ³ ، و ذلك لأن مجال الأموال
أكثر مجال عني الإنسان بالاقتصاد فيه و محاولة ايجاد أحسن السبل لتسييره و تسييره ،
تماما كحرصه على تخزين طاقاته العضلية و الفكرية و توفيرها .

و الاقتصاد موجود كذلك في كافة شؤون الإنسان التي تحيط به : فهو يقتصد في جهده
و حركته ، و تفكيره و نشاطه العقلي ، و في أموره الخاصة و تعاملاته العامة ، و في
تصريف مصالحه ، و توظيف ممتلكاته ، و غيرها من سائر الأمور ، على أن مفهوم
الاقتصاد هنا لا يرتبط بالضرورة بمفهوم البخل أو النقص أو التقدير ، لأن هذه الأمور إنما
هي خروج عن الحد في الاقتصاد ، و فهم خاطيء لما يمكن أن يكون اقتصادا ايجابيا .

¹ . المعجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، مصر ، ط 1 ، 1400هـ/1980م ، مادة قصد ، ص 503 ، الآية
42 من سورة التوبة .

² . المعجم الوسيط ، مادة قصد ، (ج2/ص738)

³ . المعجم الوجيز ، مادة قصد ، ص 503 .

و يقابل مصطلح الاقتصاد كلمة *économie* في الفرنسية ، و *economy* في الانجليزية و يقصد بها في أكثر الأحيان المعنى المتعلق بالأموال و الادّخار و تسيير النفقات و التوفير ¹ ، لكنها كذلك تستعمل في المجالات العامة الأخرى .

و الاقتصاد بمفهومه العام وجد توجيهها في أكثر العلوم و الفنون و المعارف ، فالاقتصاد بمفهومه المعروف و نقصد بذلك التوسط و الاعتدال و السهولة في الدين خلق محمود ، و ذكر في بعض النصوص فقد روي عن النبي صلى الله عليه و سلم قوله : " الاقتصاد نصف العيش " ² ، و يشرح ابن قيم الجوزية (ت 751 هـ) مفهوم الاقتصاد بقوله : " أما الفرق بين الاقتصاد و الشح ، أن الاقتصاد خلق محمود ، يتولد من خلقين : عدل و حكمة ، فبالعدل يعتدل في المنع و البذل ، و بالحكمة يضع كل واحد منهما موضعه ، الذي يليق به ، فيتولد من بينهما الاقتصاد ، و هو وسط بين طرفين مذمومين " ³ ، و يقول العز بن عبد السلام (ت 660 هـ) : " الاقتصاد رتبة بين رتبتين ، و منزلة بين منزلتين " ⁴ .

و الاقتصاد في سياسة الدول و أمور الحكم جانب يمس ما للمجتمع من ثروات و مداخل و كيفية توظيفها و تنميتها ، حتى صار من أشهر الإطلاقات في هذا المجال قولهم : الاقتصاد السياسي ، و موضوعه كما يذكره المختصون هو : " المعرفة المتعلقة بمجموع الظواهر المكونة للنشاط الاقتصادي للإنسان في المجتمع ، أي النشاط الخاص بغنتاج و توزيع المنتجات و الخدمات اللازمة لمعيشة أفراد المجتمع ، هذا النشاط يتبدى في

¹ . le Dictionnaire , Dictionnaire générale linguistique technique et scientifique , par bureau des études et des recherches , dar al-koutoub al-ilmiyah , beirut , liban , 2 eme éditon , 1424h/2004a.d , p 293 .

² . شعب الإيمان لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، تح : محمد السعيد بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1410 هـ ، (ج6/ص255) .

³ . الروح لابن القيم ، تح : محمد اسكندر يلدا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1402 هـ/1982م ، ص318.

⁴ . معجم المصطلحات المالية و الاقتصادية في لغة الفقهاء ، نزيه حماد ، دار القلم ، دمشق ، سوريا ، ط 1 ، 1429 هـ/2008م ، ص 72 .

شكل علاقة مزدوجة : علاقة الإنسان بالطبيعة ، و علاقة الإنسان بالإنسان¹ ، و يدل على اختصاص مجموعة من الاشخاص في تسيير الشؤون المالية و التجارية و التبادلية كونهم اصحاب خبرة في وضعها موضعها الصحيح الإيجابي الكفيل بتميمتها ، و هذه هي الغاية القصوى من النشاط الاقتصادي .

و الاقتصاد جانب من جوانب المعرفة الإنسانية ، و آلية مهمة في توجيه المعرفة من أجل النهوض بأفكار الإنسان و جعلها أكثر فاعلية في كافة المجالات ، و لقد أشار إلى هذا ابن قتيبة في قوله : " اعلم أن هذه المعاني الثلاثة من الاقتصاد والتفريط والإفراط توجد في كل شيء من علم وصناعة وخلق "² ، و من ذلك ما يسمى اليوم اقتصاد المعرفة ، و هو الاقتصاد الذي يدور حول الحصول على المعرفة و المشاركة فيها و استدامها و توظيفها و ابتكارها و إنتاجها ، بهدف تحسين نوعية الحياة بكافة مجالاتها³ .

فالاقتصاد : توسط و اعتدال في التصرف ، لتجنب الإفراط و التفريط ، و له مظاهر مختلفة في الحياة العملية ، من زراعة و صناعة و تجارة و إدارة و توجيه ، و كذلك تراه في ميدان التفكير العلمي ، لأنه يرمي إلى الإيجاز ، و التعويل على أقل ما يمكن ، من الضوابط و الظروف لتفسير الظواهر المختلفة ، في أشكالها التي تتجاوز الحصر أحيانا ، فالعلم اقتصاد في التفكير و العمل ، و اختزال للجهد و النشاط في ميادين الحياة⁴ .

و لقد تعلق مصطلح الاقتصاد بكافة المجالات اليومية التي توصل اليها اليها الإنسان في العالم المعاصر ، و أصبح يقصد به كيفية الاستخدام الأمثل لتلك المجالات ، و جعلها أكثر نفعا و مردودية في نطاقها الموضوعية له ، و البحث عن النظريات الجديدة التي من الممكن

¹ . مبادئ الاقتصاد السياسي ، محمد دويدار ، الاسكندرية ، 1992م ، ص 18 .

² . المثل السائر ، (ج2/ص398) .

³ . نحو رؤية جديدة للبحث التربوي في مجتمع الاقتصاد المعرفي ، منى مؤتمن عماد الدين ، الأردن ، 2003م ، ص 2.

⁴ . الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد ، فخر الدين قباوة ص 9 .

أن تخلق وضعاً جديداً ، قائم على فكرة توسيع دائرة المكاسب بأقل التكاليف ، و هذا مطلب طبيعي لكل فرد أو جماعة أو مجتمع منذ نشأة الإنسان إلى اليوم .

2.1.3 – الحاجة أمس إلى الاقتصاد في التواصل باللغة :

لا نجد في الدراسات و المؤلفات اللغوية و اللسانية العربية خصوصاً كثيراً من التعاريف لهذا المصطلح ، و لا حتى الاتفاق عليه بهذا الشكل ، فأغلب الذين تحدثوا عنه يحلو لهم تسميته الاقتصاد اللغوي و منهم من يشير إليه بالتخفيف في مستويات اللغة ، أو منهم من يطلق عليه تسمية قانون الجهد الأقل ، أو مبدأ الجهد الأدنى في السلوك اللغوي ، أو مبدأ السهولة و التيسير في أداء لغة ما .

يقول رمضان عبد التواب¹ : " تميل اللغة في تطورها نحو السهولة و التيسير ، فتحاول التخلص من الأصوات العسيرة و تستبدل بها أصواتاً أخرى ، لا تتطلب مجهوداً عضلياً كبيراً كما تحاول أن تتفادى تلك الأنظمة المعقدة ، و الأنظمة المختلفة للظاهرة الواحدة ، و إلى هذا يذهب كثير من علماء اللغة من أمثال هويتني Whitney ، الذي يرى أن كل ما نكتشفه من تطور في اللغة ، ليس إلا أمثلة لنزعة اللغات إلى توفير المجهود الذي يبذل في النطق ، و أن هناك استعداداً للاستغناء عن أجزاء الكلمات الذي لا يضر الاستغناء عنها بدالاتها " ، و إلى جانبه ماكس مولر Max moler في تأييد هذه الفكرة ، كما ذكر عبد الكريم مجاهد² في إطار ما أسماه قانون الجهد الأقل ، الذي هو من أسباب التطور اللغوي .

¹ . التطور اللغوي مظاهره علله و قوانينه ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر ، ط2 ، 1410هـ/1990م ، ص 75 .

² . ينظر كتابه علم اللسان العربي ص 219 .

و يرى فلوريان كولماس¹ أن أشمل محاولة اليوم لشرح ما أسماه الاقتصاد الذاتي للغة هو مبدأ الجهد الأقل لزيف Ziff ، و الذي رغم شهرته لم يؤخذ بجدية في العلوم اللغوية ، الذي هدف إلى تقديم دليل مقنع على أن كل سلوك إنساني صحيح للفرد يجكمه مبدأ الجهد الأقل.

و هو ذات المبدأ الذي ركن إليه سوسير في تفسير حالات التغير التي تصيب أصوات اللغة حيث قال : " كما فسر سبب التغير الصوتي بقانون الاقتصاد في الجهد " ، و أن قانون الاقتصاد في الجهد يفسر بعض الحالات " و أقر كذلك في موضع آخر أن " قانون الاقتصاد في الجهد يتطلب دراسة شاملة ، و يحتاج إلى أن يأخذ بنظر الاعتبار النظرة الفلسفية (مسألة المنطق) ، و النظرة السايكولوجية (مسألة الانتباه) في آن واحد " ² .

و كذلك يقول بيير جيرو³ " أن اقتصاد الكلام الذي يشترطه مبدأ الجهد الأقل هو الآخر مصدر من مصادر تبدلات المعنى ، فنحن نحذف من خطابنا كل ما ليس ضروريا للاتصال ، المجاز هو الشكل الأكثر شيوعا في هذه الأطروحة (المدينة بيروت عاصمة لبنان) ، تصبح (عاصمة لبنان) ، و تنتهي إلى أن تكون (العاصمة) " .

و يرى عبد السلام المسدي⁴ أن قانون الاقتصاد اللغوي ظاهرة كلية و مبدئية في نفس الوقت فليست تجزئية : كأن تتصل ببناء صوتي أو صرفي أو حتى نحوي ، مما يطرد تقديمه دليلا على قانون الاقتصاد أو نزعة المجهود الأدنى في اللسانيات المعاصرة .

و بين إبراهيم انيس أن الإقتصاد اللغوي أو ما أسماه نظرية السهولة ، تنادي بأن الإنسان في نطقه أصوات لغته يميل إلى الإقتصاد في المجهود العضلي ، و يلمس أسهل السبل مع الوصول إلى ما يهدف إليه ، من إبراز المعاني و إيصالها إلى المتحدثين معه ،

¹ . ينظر اللغة و الاقتصاد ، تر : أحمد عوض ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت ، 2000م ، ص 281 .

² . علم اللغة العام ص 171 ، 172 .

³ . علم الدلالة ، تر : انطوان أبو زيد ، منشورات عويدات ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1986 م ، ص 83 .

⁴ . ينظر التفكير اللساني في الحضارة العربية ، الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، مصر ، ط2 ، 1986 م ، ص 252 .

فهو لهذا يميل إلى استبدال السهل من أصوات لغته بالصعب الشاق الذي يحتاج إلى مجهود عضلي أكبر ، و مثل الإنسان في هذا ، مثله في كل الظواهر الاجتماعية ، يحاول عادة الوصول إلى غرضه عن أقصر الطرق كلما أمكن ذلك " ¹ .

و يعرفه فخر الدين قباوة بقوله : " أن يبلغ المتكلم اكبر عدد ممكن من الفوائد ، بأقل كمية من الجهود الذهنية و العلاجية لآلة الخطاب " ² .

و الاقتصاد اللغوي بهذا المفهوم ، يكون قد احتل مكانة أكيدة بين الحاجات الإنسانية اللازمة له و التي لا يستغني عنها بحال ، لأنه إن صح لجوئه في جل أحواله و نشاطاته إلى الاقتصاد فإنه في استعماله للغته يصبح أشد و أكثر ضرورة ، خصوصا إذا تعلق الأمر بسلوكاته اللغوية اليومية التي يصرف بها أحواله ، و يتقاهم بها مع غيره ، لأنه حال الكلام اليومي العفوي يتوخى السهولة و اليسر في جميع ما يقوم به من تصرفات بسيطة ، و لهذا نجد مارتيني يؤكد أن مبدأ الاقتصاد يعد ركيزة تقوم عليها اللغة الانسانية و تتميز بها عن غيرها من الانظمة التواصلية الأخرى ، بفضل ما تتميز به من محدودية أدواتها الصوتية ، و قابلية التمثيل و التقطيع ، ما يمكن الناطق لأي لغة من إنتاج كم هائل من الكلمات من تلك الاصوات ، و كم مهول من الدلالات من تلك الكلمات التي تعد في ذاتها محدودة ³ ، و من ثم فإن الاقتصاد اللغوي له وجهان : أولهما كون اللغة قائمة على مبدأ الاقتصاد في نظامها و هي صفة لا يمكن للإنسان أن تجريد لغته منها ، و ثانيهما ما يضيفه الإنسان أيضا من سلوكات اقتصادية أثناء استعماله للغته و هو في هذه الحالة قد عدل عن شكل معين في آدائه للغة إلى شكل اسهل منه و أيسر و اوفر للجهد و الزمن .

¹ . الأصوات اللغوية ص 165 ، 166 .

² . الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد ، ص 31 .

³ . مبادئ في اللسانيات ، ص 18 - 25 .

و ذلك لأن اللغة في سياقها القاعدي التواصلي ، لا تعتبر إلا عادة من العوائد التي لا يشعر الانسان في أغلب الاحيان بكيفية صناعته لها ، فيحدث دون إدراك منه تحويرا دقيقا و خاطفا في أبنية لغته و أصواتها ، و ذلك كما قال فندريس¹ في " حالات من الإسراع ومن التقطيع الوزني ومن تخفيف السرعة ومن أوقات التوقف يقع بشكل متفاوت تبعا للغات وتبعا للمتكلمين " ، فتقتضي الاحوال منه تسخير ما أمكنه من فرص الاقتصاد اللغوي و التغيير الغير إرادي كما ذكر ابراهيم أنيس² و إمكانياته المختلفة ، فيلجأ إليها محدثا ذلك الشكل اللغوي الذي يريحه .

و لا يمكن لنا أن نتصور إنسانا يكلم غيره و هو يشق على نفسه بتحقيق أصوات لغته تحقيقا مفرطا و لا حتى نسبي ، أو الإسهاب و الإطناب باستيفاء المفردات ، أو تكلف التصويت التام لحروف لغته ، أو الاستغناء عن المعينات المقامية و القرائن البصرية التي تحط عنه العناية في توصيل أفكاره و رغباته إلى غيره ، لأنه في هذه الحالة قد يخرج عن النظام و العرف الكلامي الحاصل المتمسم بأنه متفق عليه و مسكوت عنه ، بخذا الصفة الأولى من قوة المنطق اللغوي و الثانية من سلطان الفطرة البشرية .

إن الفرد المنتمي إلى أي مجتمع أثناء حركته الدائمة لقضاء مصالحه ، و مزاولته نشاطاته اليومية الطبيعية ، يميل دون شعور منه إلى الاقتصاد في كافة تصرفاته ، و يجد نفسه متعودة على سلوك أيسر السبل للوصول إلى أهدافها في كل شيء خصوصا فيما تعودت عليه من السلوكات و الأفعال و التعاملات ، و أظهر اشكال هذا الاقتصاد هو ما يبرز في التعامل اللغوي اليومي فضلا عن أشكاله الأخرى .

و كيف لا ، و اللغة في أبسط أشكالها و أدنى مستوياتها حين تكون على ألسنة الناس ، كسلوك يومي غير منقطع و مستحيل الانقطاع ، لا تتسم بتلك الأريحية و التبسط في

¹ . اللغة ص 86 .

² . الاصوات اللغوية ص 166 .

تعاملات الناس فيما بينهم ، و هذه تبررها الحاجة الطبيعية و النفسية التي يوفرها الفرد المتكلم لنفسه بطريق لا شعوري .

و هذا ابن جني يؤكد ان ما يحدث في اللغة من الاختصار و الحذف و أساليب إسقاط فضول الكلام عند العرب هو تعللها حاجة الإنسان إلى التوسيع عن نفسه ، و توفير الراحة ، حيث يقول : " وهذا يدل على أنهم قد يستعملون من الكلام ما غيره أثر في نفوسهم منه سعه في التفسح ، وإرخاء للتنفس ، وشحا على ما جشموه فتواضعوه ، أن يتكارهوه فيلغوه ويطرحوه . فاعرف ذلك مذهبا لهم ، ولا تطعن عليهم متى ورد عنهم شيء منه " ¹ ، يقول عبد الله جاد الكريم : " من الأسباب المنطقية التي تدفع في اتجاه اختصار الكلام و التخلي عما لا طائل منه ، الرغبة في تحقيق الراحة البدنية و النفسية للمتكلم و السامع ، و ذلك عن طريق توفير الجهد و الوقت في توفير المعاني المنشودة بالفاظ محدودة " ².

و ما الاختصار إلا شكل مصغر من أشكال الترويح عن النفس في السلوك اللغوي ، ذلك أن التطويل و الإسهاب و استيفاء جميع عناصر الكلام ، مما يجوز الاستغناء عنه تمجّه الطباع ، و تهرب عنه الفطرة البشرية ، و ذلك كأن تقول لشخص أخبرك قبل ذلك انه ذاهب لرؤية نتائج ابن من ابناءه في اختبار ما : هل نجح ابنك زيد في الاختبار الذي أجراه و ذهبت صباحا لترى نتيجته و أخبرتني بذلك قبل ان تذهب أم لم ينجح ؟ ، فهل يعقل أن تعدل في هذا الحال عن قولك: هل نجح ابنك ؟ أو تكون أكثر عقلانية فنقول: نجح ابنك ؟ ، أو تتجاوز جميع ذلك إلى استخدام البديهة و سرعة الخاطر بقولك : نجح ؟ ، و المشكل في الصيغة المطولة خصوصا إذا كان في حالة نفسية دالة على عدم نجاح ابنه .

هذا ما درجت عليه طبائع الأفراد في جميع المجتمعات اللغوية ، و لابد من التأكيد أن كافة أشكال الاقتصاد اللغوي إنما هي مطلب فطري و نفسي ، و نتذكر هاهنا ما قاله ابراهيم

¹ . الخصائص (ج3/ص319)

² . الاختصار سمة العربية ، عبد الله جاد الكريم ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 2006 م ، ص 56 .

أنيس عن استخدام أسهل الأصوات في اللغة ، بأن الإنسان في نطقه أصوات لغته " يميل إلى الإقتصاد في المجهود العضلي ، و يلمس أسهل السبل مع الوصول إلى ما يهدف إليه ، من إبراز المعاني و إيصالها إلى المتحدثين معه ، فهو لهذا يميل إلى استبدال السهل من أصوات لغته بالصعب الشاق الذي يحتاج إلى مجهود عضلي أكبر ، و مثل الإنسان في هذا ، مثله في كل الظواهر الاجتماعية ، يحاول عادة الوصول إلى غرضه عن أقصر الطرق كلما أمكن ذلك " ¹ .

3.1.3 - مستويات الإقتصاد اللغوي :

تمس ظاهرة الإقتصاد اللغوي كل مستويات اللغة التي نص عليها الدرس اللغوي الحديث و هي المستويات : الصوتي ، و الإفرادي و الصرفي و النحوي و السياقي و الدلالي .

أما عن المستوى الصوتي الذي يعدّ قاعدة الإقتصاد اللغوي ، فهو يكون كما ذكر فرديناند دي سوسير بالعدول عن أصعب الأصوات إلى أيسرها ، فهو يذكر أن " قانون الإقتصاد في الجهد يفسر على ما يبدو بعض الحالات : كتحول صوت الغلق إلى صوت تنفسي habere في اللاتينية إلى avoir في الفرنسية، ووقع مجموعات الأصوات الصحيحة في المقاطع النهائية في كثير من اللغات وهي نوع من الإدغام مثلا: ailos/alyos في الإغريقية، و annus/atnos في اللاتينية، وتحول الحركات الثنائية إلى أحادية، وهو نوع آخر من الإدغام مثال ذلك في الفرنسية mezo/maizan وتكتب maison " ² .

و يفسر ابراهيم أنيس هذا أكثر بمثال في قوله : " حقا من الصعب في بعض الاحيان الحكم على أي الصوتين أسهل أو أصعب ، و لكن مما لا شك فيه أن الأصوات الساكنة الشبيهة بأصوات اللين كاللام و النون مثلا لا تحتاج إلى مجهود عضلي ، كالذي تحتاجه بعض الأصوات كالظاء و الغين ، فإذا قيل لنا إن السين و الفاء قد قلبتا في بعض

¹ . الأصوات اللغوية ، ص 166 .

² . علم اللغة العام ص 171 .

التطورات اللغوية إلى هاء ، لا نشك لحظة في أن الصوتين قد قلبا إلى صوت أسهل منهما " ¹ .

و لقد ذكرنا من قبل ما وقع في بعض اللغات العالمية من استغناء عن الأصوات التي يصعب النطق بها ، خصوصا إذا تعلق الأمر بكلمات كثيرة الدوران على الأفواه و الألسن ، مما يدخل في العادات اللفظية و الكلمات اليومية التي يتشافه بها أصحاب تلك اللـغة و ذكرنا تحليل فندريس كيف علل بعض الأمثلة فونيتيكية في الأصوات الانفجارية حيث يكون الصوت الإنحباسي أقل حساسية للسمع من الانفجاري، ومثاله في كلمة AKTA حيث تلتقي الكاف K الإنحباسية مع التاء T الانفجارية وتكون النتيجة تغيرا في الأداء حيث يتخلى المتكلم كسلا عن تحقيق الحركات النطقية للكاف فينتقل طرف لسانه توا منذ الاحتباس إلى موضع التاء فتتطرق في النهاية ATTA، وهي موجودة في اللغة الإيطالية، على أنه يمكن أن تدفع الرغبة المتكلم إلى توضيح نطق الكاف وهذا النطق كما قال نسمعه في الفرنسية غالبا عند أولئك الذين يغالون في صحة الأداء ² ، فضلا عن أمثلة دي سوسير التي ذكرها ³ .

و تمس ظاهرة الاقتصاد اللغوي المستوى الصرفي أيضا ، فكل ما يذكر في مباحث التصريف من قلب مكاني ، و إبدال ، و حذف للحروف إنما هو ضرب من الاقتصاد و تسهيل النطق و تقليب اللسان على ما هو أطوع من البنى و الصيغ ، و خروج مباني الكلمات عن أصل وضعها المفترض المنصوص إلى حالة استعمالية واقعة في اللسان و مسموعة إنما هو لغرض تيسير النطق ، يقول تمام حسان : " الكلمة سواء كانت صحيحة أو معتلة تعود إلى أصل وضع جرده لها النحاة ، و فائدة هذا الأصل أنه معيار

¹ . الأصوات اللغوية ص 167 ، و ينظر في ذلك أيضا : التطور اللغوي لرمضان عبد التواب ص 78 - 86 .

² . اللغة فندريس ، ص 91 .

³ . علم اللغة العام ص 171 .

اقتصادي ترد إليه الكلمة و تقاس به إذا تجافى بها الاستعمال عن مطابقته بما أصابها من تغيير أو تأثير ، كالإعلال و الإبدال و القلب و النقل و الحذف و الزيادة الخ " ¹ .

فمثلا القلب المكاني و هو عبارة عن تقديم بعض أصوات الكلمة على بعض ، لصعوبة تتابعها الأصلي على الذوق العربي ، و هو ظاهرة يمكن تعليلها بنظرية السهولة و التيسير كما ذكر رمضان عبد التواب ² .

كما أن الاقتصاد اللغوي يمس الجانب الإفرادي و السياقي ، و ذلك بظاهرة الحذف و الاستغناء عن بعض الكلمات في السياق طلبا للإيجاز و ربحا للوقت إذا دل دليل عليه ، و ذلك في إطار التغير الذي يصيب اللغات و هي تحيا حياتها الطبيعية على الألسن و في السلوكات اللغوية المستمرة ، و يضرب لنا محمود السعران مثالا عن ذلك في الفرنسية عن استحالة بعض التعبيرات إلى حالات مبتورة قائلا : " و من ذلك التعبيرات الفرنسية التي كانت تعني (و لا خطوة ، ne.... pas) ، و (لا شيء ، ne ...rien) و (لا شخص ، ne....personne) صارت تستعمل استعمالا خاصا في الرد على كثير من الأسئلة ذات الصيغ المعينة ، يتلخص في حذف الجزء الأول من هذه التعبيرات ، و هو كلمة ne ، و هي الكلمة الدالة على النفي ، فيرد بكلمة pas (خطوة) أو personne (شخص) أو rien (شيء) ، وحدها و هي التي تدل على الثبوت ، و لكن يفهم الفرنسيون من هذه الكلمة معنى النفي إن مثل هذا الإيجاز ، أي حذف جزء من عبارة مركبة ، و استعمال الباقي للدلالة على معنى الكل ، أمر له نظائر في جميع اللغات " ³ .

و هذه مسألة من أهم المسائل التي عني بها علماء اللغة العربية كونها تحتل مكانة هامة في الأساليب العربية ، بل و عليها ترتكز فصاحة المتكلم و قدرته على البيان اللذان يعينان

¹ . الأصول ، ص 119 .

² . التطور اللغوي ، ص 88 .

³ . علم اللغة - مقدمة للقارئ العربي - ، ص 287 .

عند بعضهم حذف فضول الكلام كما ورد عند الجاحظ¹ ، و يكون ذلك أغلب ما يكون في المخاطبات المباشرة بين الناس و التي تتسم بالتلقائية حيث يدخل عامل الزمن ، و براغماتية المستعمل للخطاب في الوصول إلى إفهام مراده من أقصر الطرق و أقلها بذلا للطاقة و تضيقا للوقت .

و يرى تمام حسان أن النقل الذي يصيب الجانب المعجمي ، أو بتعبير آخر إخراج الكلمات من معناها الأصلي إلى المجازي ، و إحداث مفارقة بين اللفظين ليس إلا تصرف في امثلة و تطويعها للاستعمال المجازي الفني خدمة لخاصية الاقتصاد في العربية² . و من مظاهر الاقتصاد اللغوي التي تمس الجانب السياقي ظاهرة الاختصار التي تعرف بها العربية ، " فإنما يهدف الاختصار إلى تحقيق التخفيف على المتكلم و السامع ، و يؤكد ياسر رجب على أن أهم القيم التي توخاها العرب من وراء الاختصار قيمة التخفيف ، فقد درج العرب على كره ما هو ثقيل في الكلام و النفرة منه ، و الميـل إلى ما هو خفيف و السعي إليه " ³ .

و الاستغناء عن عنصر من عناصر الكلم ، و الاكتفاء بلفظ دون غيره نجده أيضا عند النحاة الذين وصفوا طرائق العربية في الحذف و تقدير المحذوف فقد أورد ابن جني بابا في ذلك حيث قال : باب في الاستغناء بالشئ عن الشئ ، قال سيـبويه واعلم ان العرب قد تستغني بالشئ عن الشئ حتى يصير المستغنى عنه مسقطا من كلامهم البتة ، فمن ذلك استغناؤهم بترك عن ودع و وذر " ⁴ ، و هو ما يمكننا كذلك أن ندرجه في أبعاد الاقتصادية في البنية النحوية للكلام العربي .

و قد أولى أصحاب النظرية التحويلية في اللسانيات الغربية اهتماما بالغا بهذه القضية النحوية ، و ذلك لاعتبارهم عنصر العقل و نشاطه في العملية اللغوية عاملا هاما في تفسير

¹ . ينظر البيان و التبیین (ج1/ص97 ، 191 ، 276).

² . مقالات في اللغة و الأدب ، تمام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1427هـ/ 2006م (ج1/ص296).

³ . ينظر الاختصار سمة العربية ، ص 58 .

⁴ . الخصائص (ج1/ص266) .

الظاهرة اللغوية ، " و الطريقة التي يقدمها النحو التحويلي في تفسير ظاهرة الحذف ،
و " الطريقة التي يقدمها النحو التحويلي في تفسير ظاهرة الحذف شبيهة بما قدمه النحو
العربي ، و ما يسميه النحويون بقواعد الحذف الإجمالي شبيهة بما سماه نحاة العرب القدماء
بالحذف الواجب ، حيث لا تكون الجملة صحيحة إذا ظهر المحذوف المقدر في الكلام ، أي
في بنية السطح على حد تعبير التحويليين " ¹ .

و يقول تمام حسان في هذا الصدد : " تنتهي الألفاظ و الأنماط التركيبية و لا تنتهي
المعاني ، و من ثم يصبح على العربية أن تعبر بالقليل المتناهي عن الكثير غير المتناهي ،
فإذا تحقق لها ذلك فقد تحقق لها الاقتصاد بعينه ، و لقد عمدت العربية إلى اصطناع بعض
الوسائل التي تمكنها من تحقيق هذه الخاصية ، و لعل أشهر هذه الوسائل تعدد المعنى
للمبنى الواحد ثم النقل ، و كلاهما يتحقق في النحو كما يتحقق في المعجم " ² .

و من ظواهر الاقتصاد في النحو العربي ، ما ورد عند بعض العلماء الأوائل من مرويات
و أحداث دلت على أن العرب في استعمالها اللغوي قد تعدل عن إظهار حركات الإعراب
فتختلسها اختلاسا ، أو تسكن بعض المتحركات تسريعا للكلام ، و ابتعادا عن التشاؤم
و الإغراق و كسرا لسلطة القاعدة في الكلام طلبا للاستئناس ، فقد روى أبو حيان التوحيدي
ما نصه : " قال أبو العيلاء : ما رأيت مثل الأصمعي قط ، أنشد بيتاً من الشعر فاختلس
الإعراب ؛ وقال : سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : كلام العرب الدرج ؛ قال : وحدثني
عبد الله بن سوار أن أباه قال : إن العرب تجتاز بالإعراب اجتيازاً ؛ قال الأصمعي :
وحدثني عيسى بن عمر أن ابن أبي إسحاق قال : العرب ترفرف على الإعراب ولا تتفهيق
به ؛ قال : وسمعت يونس يقول : العرب تشام بالإعراب ولا تحققه ؛ قال : وسمعت
الحساس بن حباب يقول : العرب تقع بالإعراب وكأنها لم ترد ؛ قال : وسمعت أبا الخطاب

¹ . ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي سليمان طاهر حمودة ، الدار الجامعية للطباعة و النشر و التوزيع ، الاسكندرية ،

مصر ، 1998 م ، ص 14

² . مقالات في اللغة و الأدب ، تمام حسان ، (ج1/ص292)

يقول : إعراب العرب الخطف والحذف ؛ قال : فتعجب الناس منه ¹ ، و هذا من أهم ما روي في هذا الباب ، و لقد سبب حرجا عظيما للذين زعموا أن العربية لا يمكن أن تتساهل في ميزتها الإعرابية .

و لذلك نجد رمضان عبد التواب يصف هذا النص بالنص الخطير ² كونه هدم الاعتقاد بجمود السمة الإعرابية للغة العربية عند بعض المحدثين المحافظين ، حتى كأن هؤلاء لم يقرؤوا قول ابن جني مثلا عن العرب و واصفا تعاملهم مع اللغة قائلا : " حتى كأنك لم ترهم وقد ضايقوا أنفسهم ، وخففوا عن ألسنتهم بأن اختلسوا الحركات اختلاسا وأخفوها فلم يمكنوها في أماكن كثيرة ولم يشبعوها " ³ ، و لقد أقر ابراهيم أنيس بذلك قائلا : " فلم تكن لهجات الكلام عند القبائل تلتزم الإعراب على الصورة التي رويت لنا في كتب النحاة ، و إنما التزم الإعراب على تلك الصورة في اللغة الأدبية التي نزل بها القرآن ، و نظم بها الشعر " ⁴ .

كما أن الاقتصاد اللغوي و قانون الجهد الأقل يعد سببا من أسباب التطور الدلالي ، ضمن ما يصيب الدلالات من تحولات عبر الزمن ، و مثال ذلك أشكال المجازات التي يستخدمها الفرد في شذذ أقل منطوق بأوسع مفهوم كما أشار إلأى ذلك بيار جيرو ⁵ .

و قد قسم فخر الدين قباوة ⁶ الاقتصاد اللغوي في العربية مثلا إلى ما أسماه اقتصاد التفريع و يقصد به ما تتضمنه العربية من تراكيب لغوية محتملة ، أهملها العربي ليحصر نشاطه في زوايا محدودة يتييسر استيعابها و استخدامها في الأداء ، و لولا ذلك لكانت العربية قائمة على عدد مهول من المفردات ، و كذلك ما روي من مئات الأسماء للشيء الواحد ، و القسم الآخر هو اقتصاد الأنظمة و الجهود و يعني به التخلي عن كثير من التراكيب

¹ . البصائر و الذخائر (ج6/ص146)

² . فصول في فقه اللغة ص 80 .

³ . الخصائص (ج1/ص72) .

⁴ . في اللهجات العربية ص 84 .

⁵ . ينظر كتابه علم الدلالة ، ص 83 .

⁶ . ينظر الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد ، ص 32 - 38 .

اللهجية المعروفة و إهمال بعض الصيغ من الصور التعبيرية التي استعمل العرب منها ما لا يوازي عشر معشارها على حد قوله .

و يبقى أن نشير في هذا الصدد أنه من الخطأ العلمي الاعتقاد بأن الاقتصاد اللغوي قائم على الإنقاص و التقليل ، فهو غاية للمتكلم في كلامه ، و إذا كانت وسيلته كذلك إطالة الكلام أو العدول عن ما هو ثقيل إلى أثقل منه فهو أمر وارد حسب اللغات ، و قد أفرد ابن جني بابا قال فيه : "باب في العدول عن الثقيل إلى ما هو أثقل منه لضرب من الاستخفاف ، اعلم أن هذا موضع يدفع ظاهره إلى أن يعرف غوره وحقيقته . وذلك أنه أمر يعرض للأمثال إذا ثقلت لتكريرها ، فيترك الحرف إلى ما هو أثقل منه ليختلف اللفظان ، فيخفا على اللسان"¹ ، و كذلك أشار إلى هذا فرديناند دي سوسير² أثناء حديثه عن قانون الجهد الأقل ، حيث قال : " قلما نستطيع أن نجزم أي الأصوات هو الأسهل و أيها هو الصعب على النطق في كل لغة من اللغات ، إن الاختصار في طول الصوت معناه جهد أقل بمفهوم الامتداد الزمني و لكن يصح أيضا القول بأن الأصوات الطويلة تسمح بالنطق الذي لا يتصف بكثير من الاهتمام ، أما الأصوات القصيرة فتحتاج إلى جهد أكبر ، و إذا أخذنا بعين الاعتبار الميول المختلفة ، فإننا نستطيع أن نقدم حقيقتين متضادتين من زاوية واحدة : فالصوت k أصبح ts (كما في cédere اللاتينية cedere في الإيطالية) ، و في هذا زيادة في الجهد ، إذا أخذنا بنظر الاعتبار النتيجة النهائية للتغيير ، و لكن رأينا يتغير إذا تتبعنا سلسلة التغييرات حتى نصل إلى الناتج النهائي " و إلى هذا كذلك أشار بيار جيرو في قوله : " و يمكن للاقتصاد الكلامي أن يطول الكلمات في حد ذاتها "³ .

2.3 - أشهر مصطلحات الاقتصاد اللغوي عند العرب و معانيها :

¹ . الخصائص (ج3/ص18)

² . علم اللغة العام ص 172 .

³ . علم الدلالة ، ص 84 .

1.2.3 - التخفيف و الاستخفاف و طلب الخفة :

التخفيف في اللغة : من خَفَّ و خَفَّ ، جاء في اللسان : **الْخَفَّةُ وَالْخِفَّةُ ضِدُّ الثَّقَلِ وَالرُّجُوحِ** يكون في الجسم والعقل والعمل خَفَّ يَخِفُّ خَفًّا وَخِفَّةً صار خَفِيفاً فهو خَفِيفٌ ¹ ، و في مختار الصحاح : **" التخفيف ضد التثقل و استخفه ضد استثقله و استخف به أهانه و خَفَّ الشيء يخف بالكسر خفة صار خفيفاً "** ² ، و في المعجم الوسيط : **" (تخفف) الشيء صار خفيفاً ومن الشيء أزال بعضه ليقل ثقله "** ³ .

و التخفيف مصطلح استعمله علماءنا الأوائل للإشارة إلى معنى الاقتصاد في اللغة ، و قد ورد في عديد من المؤلفات النحوية و اللغوية ، و أكثر ما وردت أنها من العلل النحوية الأكثر وروداً في تفسير الظاهرة النحوية في لغة العرب .

فمنه قول المبرد : **" هذا باب ما حذف من المستثنى تخفيفاً واجتزأ بعلم المخاطب وذلك قولك عندي درهم ، ليس غير أردت ليس غير ذلك فحذفت وضممت كما ضمنت قبل وبعد لأنه غاية "** ⁴ ، و قول ابن جني في باب الترخيم : **" اعلم أن الترخيم حذف يلحق أواخر الأسماء المضمومة في النداء تخفيفاً "** ⁵ ، و قوله كذلك عن العرب **" أنها قد تنطق بالشيء غيره في أنفسه لا أقوى منه لإيثارها التخفيف "** ⁶ ، و يقول كذلك : **" ومنه قولهم : لن ، في قول الخليل ، وذلك أن أصلها عنده (لا أن) فحذفت الهمزة عنده "**

¹ . لسان العرب ، فصل الفاء باب الخاء ، (ج2/ص 1212) .

² . مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي ، تح : محمود خاطر ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، لبنان ، (1415 هـ - 1995 م) ، مادة خفف ، ص 77 .

³ . المعجم الوسيط ، مادة خفف ن ص 347 .

⁴ . المقتضب ، تح : محمد عبد الخالق عزيمة ، عالم الكتب ، بيروت ، لبنان ، (ج4/ص 429) .

⁵ . اللع في العربية تح : فائز فارس ، دار الكتب الثقافية ، الكويت ، 1972 م ، (ج1/ص 114) ، و التعريفات

للجرجاني ص 78

⁶ . الخصائص (ج1/ص 249) .

تخفيفاً " ¹ ، و مثاله أيضاً قول البغدادي تعقيباً على قول سيبويه باب حذف المستثنى استخفافاً قال : " و ذلك قولك ليس غير ، و ليس إلا كأنه قال : ليس إلا ذلك و ليس غير ذلك ، و لكنهم حذفوا ذلك تخفيفاً و اكتفاء بما يعلم المخاطب " ² ، و وصف ابن الانباري أساليب العرب قائلًا : " والحذف للتخفيف كثير في كلامهم ولهذا يذهبون إلى أنه حذفت لام الأمر وتاء المخاطب في أمر المواجه طلباً للتخفيف وقد حكى هشام بن معاوية عن الكسائي أنه حكى عن العرب لا بد من يتبعها أى لا بد من أن يتبعها فحذف أن فكذلك هاهنا " ³ ، و هناك أمثلة لا تعد و لا تحصى عن هذا ، في كتب النحو حيث نجدهم يعملون كثيراً مما وقع في كلام العرب من الحذف و القلب و الإبدال و غير ذلك .

و قد يرد هذا المفهوم عندهم تحت تسمية استخفاف ، و قد وردت على هذا الشكل عند سيبويه ، و من ذلك قوله : " ولم نسمعهم قالوا في التحرك: حين سليمان فأسكنوا النون مع هذه الحروف التي مخرجها معها من الخياشيم، لأنها لا تحول حتى تصير من مخرج موضع الذي بعدها. وإن قيل لم يستكر ذلك، لأنهم قد يطلبون ههنا من الاستخفاف " ⁴ مثال ذلك ما أورده ابن سيده قال : " قال سيبويه سألت الخليل رحمه الله عن قولهم مُدُّ عامٌ أوَّلُ ومُدُّ عام أوَّلَ فقال هاهنا صفةٌ وهو أوَّلُ من عامِك ولكن ألزموه هاهنا الحذفَ استخفافاً " ⁵ ، و قول ابن قتيبة بعد ذكره لاسقاط الكتاب بعض الحروف : " والعرب كذلك يفعلون ، ويحذفون من اللفظة والكلمة، نحو قولهم: " لم يكُ " وهم يريدون " لم يكن " ، ولم " أُبْلُ " وهم يريدون " لم أبال " ، ويختزلون من الكلام ما لا يتمُّ الكلام على الحقيقة إلا به، استخفافاً

¹ . نفسه (ج3/ص151) .

² . خزائن الأدب (ج5/ص66) .

³ . الإنصاف في مسائل الخلاف تح : جودة مبروك محمد مبروك ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر ، ط2 ، 2002 م ، ص 463 .

⁴ . الكتاب ، (ج4/ص455) .

⁵ . المخصص (ج5/ص58) .

وإيجازاً، إذا عَرَفَ المخاطبُ ما يعنون به " ¹ ، و أفرد المبرد باباً عنوانه : " ما يحذف
استخفافاً لأن اللبس فيه مأمون " ² ، و قول ابن جني : " قد يحذفون بعض الكلم
استخفافاً " ³ ، و قوله : " فلعلق يدك بما ذكرناه من أن سبب إهمال ما أهمل إنما هو
لضرب من ضروب الاستخفاف " ⁴ .

و يرد هذا المفهوم تحت تسمية طلب الخفة كذلك ، و من ذلك قول ابن جني معللاً
تفضيل ترك الضمير المنفصل متى أمكن استعمال المتصل : " فإن قيل : وما الذي رغبهم
في المتصل حتى شاع استعماله ، وصار متى قدر عليه لم يؤت بالمنفصل مكانه علة ذلك
أن الأسماء المضمرة إنما رغب فيها ، وفزع إليها طلباً للخفة بها " ⁵ ، و ذكر ابن الأنباري
رأي الكوفيين في ميم اللهم ، حيث قال : " الأصل فيه يا الله أمنا بخير إلا أنه لما كثر في
كلامهم وجرى على ألسنتهم حذفوا بعض الكلام طلباً للخفة والحذف في كلام العرب لطلب
الخفة كثير " ⁶ .

2.2.3 - التسهيل و السهولة :

قال ابن فارس : " السين و الهاء و اللام أصل واحد يدل على اللين " ⁷ ، و ذكر
الأزهري : " سهل : قال الليث : كلُّ شيء إلى اللين ودّه سَابِ الحُسونة " ⁸ و كذلك في

¹ . أدب الكاتب ، ص 213 .

² . المقتضب ، (ج1/ص248) .

³ . الخصائص ، (ج1/ص80) .

⁴ . نفسه (ج1/ص67) .

⁵ . نفسه (ج2/ص183) .

⁶ . الإنصاف في مسائل الخلاف ، ص 290 .

⁷ . معجم مقاييس اللغة ، مادة سهل ، (ج3/ص110) .

⁸ . تهذيب اللغة ، مادة سهل ، (ج6/ص78) .

العين¹ ، و ذكر الزبيدي : " ، والسَّهْلُ ، كَكَتَفٍ : كُلُّ شَيْءٍ إِلَى اللَّيْنِ ، وَقِلَّةُ الْخُسُونَةِ ، كَمَا فِي الْمُحْكَمِ " ² ، و في الوسيط : " سهل سهولة مال إلى اللين ، و قلت خشونته " ³ .

و التسهيل عند أبي هلال العسكري ترك المبالغة في النطق ، حيث يقول شارحا قول محمد ابن الحنفية : " بأسهل عبارة : تنبيه على تسهيل اللفظ و ترك تنقيحه " ⁴ ، و قال الرماني (ت 384 هـ) : " التخفيف : تسهيل ما يثقل على النطق أو في الطباع " ⁵ ، و ذكر ذكر الزبيدي : " التَّرخيمُ : التَّليين . و منه التَّرخيم في الأسماء ؛ لَأَنَّهُ تَسْهِيلٌ لِلنُّطْقِ بِهَا " ⁶ ، و مصطلح التسهيل عند القدماء مرتبط بمبحث الاقتصاد ارتباط الجزء بالكل ، حيث إنهم أطلقوه على الهمزة عندما لا تحقق في النطق كما اشتهر عن قريش مثلا في نطقها ، و قد ذكر الرضي الاستراباذي (ت 686 هـ) في شرح الشافية : " ومعنى التسهيل أن تأتي بها بين الهمزة وبين حرف حركتها، وتجعل الحركة التي عليها مختلصة سهلة بحيث تكون كالساكنة وإن لم تكنها " ⁷ .

و عند المحدثين يستخدم مصطلح السهولة للدلالة على جميع مظاهر الاقتصاد اللغوي ، و قد ذكره إبراهيم أنيس للدلالة على ما يدل عليه مصطلح Linguistic economy عند هويتني ، و قد أقر كذلك أن هذا المفهوم هو ما يقابل مفهوم الخفة عند القدماء و الذي ارتبط لديهم دائما بمفهوم الثقل كمقابل له ⁸ .

¹ . العين للخليل ، السين و الهاء و ما يثلثهما ، (ج4/ص7) .

² . تاج العروس ، مادة سهل ، (ج29/ص234) .

³ . المعجم الوسيط ، مادة سهل ، (ج1/ص458) .

⁴ . الصنائعيتين ، تح : علي محمد بجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1371هـ/1952م ، ص 12 .

⁵ . رسالتان في اللغة ، تح : إبراهيم السامرائي ، دار الفكر للنشر و التوزيع ، عمان ، الأردن ، 1984 م ، ص 71 .

⁶ . تاج العروس (ج32/ص238) ، مادة ر خ م ، و القاموس المحيط (ج1/ص1426) ، فصل الراء .

⁷ . شرح شافية ابن الحاجب ، تح : محمد نور حسن و محمد الزفزاف و محمد محي الدين عبد الحميد ، دار

الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1402هـ/1982م ، (ج3/ص45) .

⁸ . الأصوات اللغوية ، ص 166 ، 167 .

و أطلق رمضان عبد التواب مصطلح السهولة و التيسير على الاقتصاد اللغوي¹ ،
و الذي درجه - كما فعل إبراهيم انيس - ضمن أسباب التطور اللغوي .

3.3 - مفاهيم الاقتصاد في الدرس اللغوي العربي القديم :

1.3.3 - الاقتصاد في الدرس النحوي :

تعرض النحاة الأوائل لمسائل الاقتصاد اللغوي في ثنايا كتبهم ، أثناء إشاراتهم الكثيرة بأن العرب خففوا عن أنفسهم مؤنة الكلام ، و وضعوا عنها كثيرا من تعاقيد الكلام التي لو ردت إلى أصولها صارت العملية اللغوية أعقد بكثير مما هي عليه ، بل و ذهبوا إلى أن العرب تصرفت في لغتها بصنوف من الحذف و الإضمار و الترك و العدول ، و كلها تقريبا تحت علة التخفيف و الاستخفاف و طلب الخفة .

يقول تمام حسان : " من مظاهر الطاقة التفسيرية في النحو العربي ظاهرة التعليل لأحكام النحو و أقيسته ، و لعل طلب الخفة يكون أوسع العلل العربية مجال التطبيق ، و حسبه أن يجد اعترافا مؤكدا من علم اللغة الحديث ، إذ يجد لنفسه مكانا مهما بين مبادئه تحت عنوان economy of effort أي : الاقتصاد في المجهود " ² .

و يقرر كثير من الدارسين المطلعين على التراث النحوي العربي ، أن النحاة من جهة لم يغفلوا عن مفهوم الاقتصاد اللغوي ، و إنما ذكر لديهم تحت عنوان التخفيف ، و من جهة أخرى قرنوه في أكثر مسائلهم بمفهوم آخر يقابله و هو مفهوم الثقل ، فلذا نجدهم يتحدثون عن الخفة و الثقل ، أو الاستخفاف و الاستثقال و ما إلى ذلك .

يقول عبد الرحمن عفيفي : " و ينبغي معرفة أن التخفيف قد أثر في اللغة العربية تأثيرا واضحا ، التفت إليه بعض النحاة من أمثال ابن جني و ابن يعيش و السيوطي ، و من قبلهم سيبويه ، و غفل عنه كثير من النحاة ، و مع هذا فقد ظل تأثير هذه الظاهرة مستمرا

¹ . التطور اللغوي مظاهره علله و قوانينه ، ص 75 .

² . عن مقال له بعنوان : اللغة العربية و الحداثة ، مجلة فصول ، القاهرة ، مصر ، الجزء 1 ، العدد 3 ، المجلد 4 ، 1984م ، ص 137 .

في أوصال اللغة ، لأن اللغة مرتبطة باللسنة المتكلمين أولاً ، ثم بقوانين الوضعيين المقننين ثانياً ، و إن كان تأثير الناطقين هو الأهم و الأخطر ، فسلوك المتكلمين في كثير من الأحيان ، هو الذي يفرض على المقننين وضع قاعدة ما " ¹ .

و نجد عند سيبويه كثيراً من هذا القبيل ، فهو يخبر في باب كم عن شيخه الخليل قائلاً : " وسألته عن قوله : على كم جذع بيتك مبني؟ فقال : القياس النصب وهو قول عامة الناس. فأما الذين جرّوا فإنهم أرادوا معنى من ، ولكنهم حذفوها هـ اهنا تخفيفاً على اللسان، وصارت على عوضاً منها " ² ، و قوله بعد ذلك : " ومثل ذلك: الله لتفعلن؟ إذا استقهمت، أضمرنا الحرف الذي يجزّ وحذفوا، تخفيفاً على اللسان " ³ ، و كذلك في نفس الباب يقول : " وزعم الخليل أن قولهم : لاه أبوك ولقيته أمس، إنما هو على : لله أبوك، ولقيته أمس، ولكنهم حذفوا الجارّ والألف واللام تخفيفاً على اللسان " ⁴ .

و كذلك قوله : " و من العرب من يقول : إي هلله ذا، فيحذف الألف التي بعد الهاء ، ولا يكون في المقسم ههنا إلا الجرّ؛ لأنّ قولهم: ها صار عوضاً من اللفظ بالواو، فحذفت تخفيفاً على اللسان. ألا ترى أنّ الواو لا تظهر ههنا كما تظهر في قولك: والله، فتركهم الواو ههنا البتّة يدلّك على أنها ذهبت من هنا تخفيفاً على اللسان، وعوضت منها ها " ⁵ .

و قد ورد عند سيبويه باب أكثر فيه من التأكيد على إرادة الاستخفاف في كلام العرب حيث يقول : " باب ما يكون فيه المصدر حيناً لسعة الكلام ، والاختصار وذلك قولك : متى سير عليه ؟ فيقول مقدّم الحاج ، وخفوق النجم ، وخلافة فلان ، وصلاة العصر. فإنما هو:

¹ . ظاهرة التخفيف في النحو العربي ، عبد الرحمن عفيفي ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، مصر ، ط 1 ، 1417هـ/1996م ، ص 15.

² . الكتاب (ج2 / ص 160) .

³ . نفسه ، (ج2 / ص 161) .

⁴ . نفسه ، (ج2 / ص 162) .

⁵ . نفسه ، (ج3 / ص 499) .

زمن مقدم الحاج ، وحين خفوق النجم، ولكنه على سعة الكلام والاختصار ، وإن قال: كم سير عليه ، فكذاك " ¹ .

و يشرح بعض مواطن الحذف و الإضمار ثم يعقب قائلاً : " وإنما أضمرنا ما كان يقع مظهراً استخفاً، ولأن المخاطب يعلم ما يعني ، فجرى بمنزلة المثل ، كما تقول: لا عليك ، وقد عرف المخاطب ما تعني ، أنه لا بأس عليك، ولا ضرر عليك ، ولكنه حذف لكثرة هذا في كلامهم ، ولا يكون هذا في غير عليك .

وقد تقول : إذا كان غداً فأنتي، كأنه ذكر أمراً إما خصومةً وإما صلحاً، فقال: إذا كان غداً فأنتي ، فهذا جائز في كل فعل، لأنك إنما أضمرت بعد ما ذكرت مظهراً، والأول محذوفٌ منه لفظ المظهر، وأضمرنا استخفاً " ² .

و أمثلة هذا كثير في كتاب سيبويه ، و نلاحظ انه إنما علل كثيراً مما وقع في كلام العرب من الأحداث الصوتية و الحذف و الإضمار و الاستغناء ، أثناء قيامه بعملية وصفية دقيقة لما سمعه من أفواه العرب الفصحاء مما كانوا يتشابهون به ، و دليل ذلك أنه رد أكثر أسباب التخفيف إلى كثرة الاستعمال و دورانه على ألسنتهم كما ذكر من بعده من النحويون و ذلك اعتباراً منهم للمتكلم (المرسل) ، و لعلم المخاطب به اعتباراً للمتلقى (المرسل إليه) ، و هو مما يدخل في خطاباتهم اليومية الجارية في كلامهم .

و مثال ما ورد عند بعض النحويين من التعليل بالتخفيف و وضع المشقة ما أورده ابن السراج ، حيث يقول : " واعلم : أنه يجوز لك أن تحذف التنوين والنون من أسماء الفاعلين التي تجري مجرى الفعل ، وتضيف استخفاً ، ولكن لا يكون الاسم الذي تضيفه إلا نكرة ، وإن كان مضافاً إلى معرفة لأنك إنما حذفته النون استخفاً ، فلما ذهبت النون عاقبها الإضافة والمعنى معنى ثبات النون " ³ ، و قوله : " فمتى وجدت فعلاً حقه أن يكون غير

¹ . نفسه ، (ج1 / ص 222) .

² . المصدر السابق ، (ج1 / ص 224) .

³ . الأصول في النحو ، (ج1 / ص 126) .

متعد بالصفة التي ذكرت لك ووجدت العرب قد عدته ، فاعلم ، أن ذلك اتساع في اللغة واستخفاف ، وأن الأصل فيه أن يكون متعديا بحرف جر ، وإنما حذفوه استخفافا " ¹ .

و مثال ذلك ما ورد عند ابن جني من تعليقات ، فمنها قوله : " فإذا كان المبتدأ جثة و وقع الظرف خبرا عنه لم يكن ذلك الظرف إلا من ظروف المكان تقول زيد خلفك فزيد مرفوع بالابتداء والظرف بعده خبر عنه والتقدير زيد مستقر خلفك فحذف اسم الفاعل تخفيفا وللعلم به " ² ، و قوله : " قولك في الامر اضرب ، انطلق ، اقتطع لأنك تقول يضرب ويقتطع وينطلق فتفتح حرف المضارعة ويسكن ما بعده إلا أنهم قد حذفوا في بعض المواضع تخفيفا فقالوا خذ و كل ومر وقياسه اؤخذ اؤكل اؤمر وقد جاء ذلك في بعض الاستعمال " ³ .

و من النحويين الذين قدموا هذا المفهوم الزمخشري في المفصل ، من ذلك قوله في تخفيف الموصول : " والذي وضع وصلة إلى وصف المعارف بالجمل ، وحق الجملة التي يوصل بها أن تكون معلومة للمخاطب ، كقولك : هذا الذي قدم من الحضرة لمن بلغه ذلك . ولاستطالتهم إياه بصلته مع كثرة الإستعمال خففوه من غير وجه " ⁴ ، و قوله في التصرف في القسم : " ولكثرة القسم في كلامهم أكثروا التصرف فيه ، وتوخوا ضروبا من التخفيف " ⁵ .

و في شرح الكافية قول الرضي الأستراباذي : " ثم اعلم أنه كان القياس في أمر الفاعل المخاطب أن يكون باللام أيضا كالغائب ، لكن لما كثر استعماله ، حذفت اللام وحرف المضارعة تخفيفا " ⁶ ، و كذلك قوله : " وأيمن الله عند الكوفيين ، جمع يمين ، فهو م ثل : يمين ، جعلت همزة القطع فيه وصلا ، تخفيفا لكثرة الاستعمال " ⁷ .

¹ . نفسه ، (ج 1 / ص 171) .

² . اللمع في العربية ، ص 28 .

³ . نفسه ، ص 222 .

⁴ . شرح المفصل لابن يعيش ، تح : إميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1422هـ/2001م ، (ج2/ص 393) .

⁵ . نفسه ، (ج5/ص 248) .

⁶ . شرح الرضي على الكافية ، (ج 4/ص 85) .

⁷ . نفسه ، (ج 4/ص 306) .

و يمكن لنا العثور على كثرة هائلة من هذه النماذج ، و ما تقدم منها يشعرونا بأن النحاة أدركوا أن العرب إنما تخفف عن نفسها من مؤنة الكلام في جلّ حالاتها بناء على كثرة الاستعمال ، و تقلب الألسنة على بعض الألفاظ و الأساليب ، و هذا ما لا ينكر أحد أنه يكون في مخاطبات العرب ، أو بتعبير آخر في الإطار الاستعمالي التواصلية للغة ، و هذا ما رأينا من قبل أنه وصف يطلق في أكثر الحالات على كلام العرب من غير الشعر و النثر ، و الذي يكون في حاجاتها اليومية البسيطة .

و يرى عبد الرحمن عفيفي أن بعض النحاة بالغ في تعليل الظواهر اللغوية بالتخفيف ، و أرجعوا كثيرا من مظاهر الحذف و التغيير إلى التخفيف و الصواب بعيد عن ذلك ، و لم يكن منهم ذلك إلا لعجزهم عن التعليل ، و اورد بعض الأمثلة في حذف الألف التي علّوها عليها ابن جني بالتخفيف مع أن العكس هو الصحيح ، و أن مثل هذا بعيد عن الذوق و النظام ، و و دعا إلى الحذر من إطلاق التعليل بالتخفيف لكل حذف أو تغيير¹.

2.3.3 - الاقتصاد عند البلاغيين :

و ممن تنبه من العلماء إلى أن العرب تقتصد في كلامها ، و تستغني عن فضول الكلام رغبة في الاختصار و الإيجاز ، و سعيا إلى البيان و الإيضاح عما في النفس بأوجز عبارة و ألطف إشارة ، البلاغيون الذين عنوا بمقاصد المتكلم و موقف السامع ، و مع أن الإيجاز من صفات الكلام عامة و يدخل في علم المعاني ، فإن كلامهم منصب أكثره على فنون القول من الشعر و النثر مما يدخل في اللغة الأدبية كما رأينا من قبل .

و لئن كان العرب في عصر فصاحتهم و نصاعة لغتهم ، يفرّقون بين مراتب الكلام بين ما يدخل منه في فنون قولهم من شعر و نثر ، و بين ما يتحدثون به في سائر أحوالهم ، إلا أنهم كانوا يتصرفون في لغتهم بالحذف و الاختصار و التخفيف مهما كان الموقف الذي تصدر فيه اللغة ، و كانوا يعيبون على من يكثر الكلام في غير طائل ، و من يجهل

¹ . ينظر ظاهر التخفيف في النحو العربي ص 105 - 107 ، و كذلك مقالات في اللغة و الأدب لتمام حسان (ج1/298)

صنوف الحكمة في القول بأن يخالفهم فيما تعارفوا عليه في ذلك ، و كانوا أقدر الناس على توخي ضروب الكلام و معرفة لطائفه ، و أمهر الأمم في دكّ المعاني المتكاثرة في القليل من اللفظ مع أن كل الناس مهما كانت أصولهم يميلون إلى الاقتصاد في الكلام ، و هذا الجاحظ يقول: " درجت الأرض من العرب و العجم على إثثار الإيجاز ، و حمد الاختصار ، و ذم الإكثار و التطويل و التكرار ، و كل ما فضل عن المقدار " ¹

و الجاحظ من أشهر من أشار إلى هذا المفهوم ، و هو صاحب المقولة المشهورة : " و أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره " ² ، فلذا تأملنا بدقة ما ذكره ندرك بأنه أشار إلى معنى التخفيف عن النفس بقوله يغنيك ، و قد درج على إيضاح هذا الأمر كثير من البلاغيين ، فقد ذكر المبرد : " وقيل : خير الكلام ما أغنى اختصاره عن إكثاره " ³ ، و نقل التوحيدي أنه : " قد قال بعض العرب : خير الكلام ما لم يحتج معه إلى كلام " ⁴ ، بل و أدركوا أن ترك هذا يخرج نفس السامع من الأريحية إلى الضيق ، و من سعة التحادث إلى ضيق الضجر ، و هذا أبو هلال العسكري يقول بعد حديث مطول في باب تمييز الكلام قائلاً : " ولولا كراهة الإطالة وتخوف الإملال لزدت من هذا النوع ، ولكن يكفى من البحر جرعة ، وقالوا : خير الكلام ما قلّ وجلّ ، ودلّ ولم يملّ " ⁵ .

و لقد أشار ابن قتيبة صراحة إلى أن الاقتصاد في الكلام يقصد به تطابقه مع مقتضى الحال ، فلا هو إخلال و لا هو تجاوز إذ يقول : " أما الاقتصاد فهو أن يكون المعنى المضمّر في العبارة على حسب ما يقتضيه المعبر عنه في منزلته " ⁶ ، و سمى القاسم ابن سلام (ت 224 هـ) التوسط في الكلام و عدم الزيادة على الحد فيه اقتصادا إذ يقول : " باب

¹ . الرسائل ، (ج4/ص151) .

² . البيان و التبیین (ج1/ص83) .

³ . الكامل (ج2/ص884) .

⁴ . الإمتاع و الموانسة ، (ج1/ص305) .

⁵ . الصناعتين ، ص 68 .

⁶ . المثل السائر ، (ج2/ص399) .

الاقتصاد في المنطق وما يتقى فيه من الإكثار والهدر " ¹ ، و نقل ابن رشيق (ت 463 هـ) أن الاقتصاد ضد المبالغة ، إذ يقول : " قال بعض الحذاق بنقد الشعر : المبالغة ربما أحوالت المعنى، ولبسته على السامع ، فليست لذلك من أحسن الكلام ولا أفخره، لأنها لا تقع موقع القبول كما يقع الاقتصاد وما قاربه " ² ، و قد نقل في بعض كتب الأدب : " وقيل لرجل من الرّوم : ما البلاغة؟ ، قال: حسن الاقتصاد عند البديهة، والغزارة يوم الإطالة " ³ .

و تحتاج كثير من إشارات السابقين من النقد العرب الذين تحدثوا عن آليات الخطاب اللغوي و دقائقه ، إلى إعادة قراءة فعلية و متماشية مع ما وصل إليه علم النص و الخطاب في الوقت المعاصر ، ذلك أننا بإمكاننا التفتح على كثير من ملاحظاتهم في مسائل شتى من بينها الطاقة الاقتصادية للخطاب اللغوي ، و كمثال على ذلك يقدم لنا عبد السلام المسدي نموذجاً جيداً عن ابن سنان الخفاجي و ذكائه في وصف الخطاب العربي ، من خلال إشارته إلى ما أسماه المسدي الطاقة الانتشارية التي تجعل الكلام يستغني عن ان يعيد نفسه مرات بحسب عدد المقصودين به ، و يضيف المسدي قائلاً : " و لعل هذه الخاصية التي نفذت إليها بصيرة التفكير اللساني عند العرب ، هي الكفيلة بإعطاء ما يعرف اليوم بقانون الاقتصاد اللغوي وزنه الأكمل ، لأن الظاهرة في هذا المقام كلية و مبدئية في نفس الوقت فليست تجزئية : كأن تتصل ببناء صوتي أو صرفي أو حتى نحوي ، مما يطرد تقديمه دليلاً على مبدأ الاقتصاد ، أو نزعة المجهود الأدنى في اللسانيات المعاصرة " ⁴ هذه النقول و النصوص و التحليلات دليل واضح على أن البلاغيين قرنوا مفهوم قلة الكلام و الحذف منه على وجه الإيجاز بلالاقتصاد ، و هذا من سنن العرب كما ذكر ابن

1 . الأمثال للقاسم ابن سلام تح : عبد العزيز قطامش دار المأمون للتراث، بيروت، لبنان، ط1400، 1هـ/1980م، ص 43 .

2 . العمدة ، (ج2/ص53) .

3 . بهجة المجالس و أنس المجالس ، لابن عبد البر القرطبي ، تح : محمد مرسى الخولي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1981م ، (ج1/ص71)

4 . التفكير اللساني في الحضارة العربية ، ص 251 ، 252 .

فارس¹ ، لكنهم أكدوا دائماً على أن ذلك الاقتصاد ليس المراد به الحذف لغرض الحذف ، و لا يكون على حساب المعنى و تمام الفهم أبداً ، لأنهم كما هو معروف راعوا المتكلم و السامع في تحديد آليات الكلام و التواصل اللغوي ، و هو الأمر نفسه الذي دأب النحويون على إقراره في مباحث الحذف و التقدير .

يقول الجاحظ : " والإيجاز ليس يُعنى به قلّة عددِ الحروفِ واللفظ وإنّما ينبغي له أن يحذف بقدرٍ ما لا يكون سبباً لإغلاقه ، ولا يردّد وهو يكتفي في الإفهام بشطره فما فضل عن المقدار فهو الخطأ " ² .

4.3 - الاقتصاد اللغوي في الدرس اللساني الحديث :

1.4.3 - الاقتصاد اللغوي في الدرس اللساني الغربي :

و كما أن مفهوم الاقتصاد اللغوي لا يختص بلغة دون أخرى ، و يعتبر خاصية تتميز بها كل اللغات ، و تتشابه في بعض مظاهرها و تختلف في أخرى ، فإن اللسانيين الذين تطرقوا لدراسة اللغة البشرية بمنهج علمي أقروا باشتغال اللغات البشرية على آليات توفير المجهود ، و تحقيق الخطاب اللغوي بسلوك كافة الطرق التي تكفل توصيل الأفكار بطريق تخفيف المجهود العضلي و الفكري ، مادامت اللغة هي أرقى وسائل التواصل الإنساني ، ضمن المنظومة الاجتماعية التي ينتمي إليها الفرد .

و لقد رأينا أن فرديناند دي سوسير أقر بوجود هذه الظاهرة في السلوك اللساني ، و في تحليله للظاهرة اللغوية ذكر أن من خصائصها ما أسماه العلامة اللسانية أو الدليل اللساني أو ما ترجمه البعض إلى الإشارة³ ، و أن هذه الأخيرة تتبدى في تغييرات تصيب مستويات اللغة و على رأسها المستوى الصوتي ، ثم بحث في الأسباب التي تؤدي إلى التغيير فوجدها كثيرة منها الميول العرقية ، و منها عوامل التربة و المناخ ، و منها ما أسماه : قانون

¹ . الصاحبى ، ص 175 .

² . الحيوان ، تح : عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، 1416هـ/1996م ، (ج 1/ص 91) .

³ . علم اللغة العام ، ص 84 .

الاقتصاد في الجهد ، حيث يقول : " كما فسر سبب التغيير الصوتي بقانون الاقتصاد في الجهد، ومفاده أن لفظتين تعوض بلفظة واحدة أو اللفظة الصعبة تحل محلها لفظة أسهل ، إن هذه الفكرة مهما قيل عنها تستحق الدراسة ، فقد توضح سبب التغيير الصوتي أو تشير ، في الأقل إلى الاتجاه الذي ينبغي أن يتخذه البحث عن السبب " ¹ .

و الذي نلاحظه في كلامه هو نوع من عدم الاقتناع الكافي بالفكرة ، و مع ذلك فإنه ترك المجال للبحث أكثر في قضية الاقتصاد في الجهد اللغوي ، كونها بالنسبة إليه لابد أن تدرس بعمق ، لذا نجده يقول بعد ذلك : " إن قانون الاقتصاد في الجهد يتطلب دراسة شاملة " ² ، على أن تركز الدراسة عنده على الجانبين النطقي و النفسي للغة .

و أثناء شرحه للفكرة نجده يعترف أنه قلما نستطيع أن نحدّد أيّ الأصوات أسهل و أيها أصعب على النطق في كل لغة من اللغات ، و أننا مثلاً قد نرى أن الاختصار في طول الصوت جهداً أقل بمفهوم الامتداد الزمني ، و لكن يصح أيضاً أن نقول أن الأصوات الطويلة تسمح بالنطق الذي لا يكلفنا جهداً مذكوراً ³ ، ما يمكن أن يفسر لنا التحفظ الذي أبداه في حديثه عن الاقتصاد .

و ينادي أندري مارتيني إلى اعتبار الطاقة الاقتصادية للغة البشرية واحدة من أهم ميزاتها و خصائصها أمام الأنظمة التبليغية الأخرى ، و هو لا يختلف كثيراً عن سوسير في تناول القضية ضمن مفهوم التغيير اللغوي عبر الزمن ، فهو يقول : " فالعربية مثلاً ، هي قبل كل شيء الوسيلة التي تمكن أهل اللسان العربي من أن تكون لهم علاقات ، سنرى أن أي لسان يتغير بمرور الزمن ، و هذا الأمر يحصل أساساً استجابة لحاجيات التبليغ في المجتمع الذي يستعمل اللسان ، و يتم ذلك بالوجه الاقتصادي الأمثل " ⁴ .

¹ . نفسه ، ص 171 .

² . نفسه ، ص 172 .

³ . ينظر نفسه ، الصفحة نفسها .

⁴ . مبادئ في اللسانيات ، ص 14 .

و فكرة أندري مارتيني تقول : " لدى الإنسان نزعتان متضادتان يقوم تأثيرها المتوازي بتنظيم التطور في اللغة ، و هما : الحاجة إلى تلبية جميع ما تتطلبه عملية التواصل ، و الاتجاه إلى الاقتصاد في الطاقة الذهنية و البدنية أثناء عملية الكلام ، أي القصور الذاتي Inertia ، و يمكن للعلاقة القائمة بين هاتين النزعتين أن تتجلى بطرق متنوعة ، و لكن مع ضرورة تحقق شرط لا يخضع للتغير ، و هو تامين حدوث التواصل " ¹ .

و مارتيني كما أشرنا من قبل ، يتخذ مبدأ التقطيع المزدوج الذي تتميز به اللغة الإنسانية ، كفكرة قاعدية لإدراك الخاصية الاقتصادية في اللغة ، و أكد أن هذا التنظيم قد فرض نفسه على المجموعات البشرية بصفته الأنسب إلى حاجات الإنسان وإمكانياته، وأنه لا شيء غير الاقتصاد الناجم عن التقطيعين يمكن من الحصول على أداة تبليغ وهي ذات استعمال عام ، وقادرة على إيصال المعلومات بمقدار مهول وبجهد زهيد ² .

و يرى فلوريان كولماس أن اللسانيات الوظيفية قامت على مفاهيم رئيسية من بينها نظريات كارل بوهلر Karl buhler و الذي انطلق في كتابه النظرية اللغوية من مفهوم اقتصادي ³ .

و يرى طاهر سليمان حمودة أن النحو التحويلي نظرية يمكن أن نفسر من خلالها الحذف الذي يقع في البنية السطحية للغة ، طبعاً إذا قورنت بالأصل الذي تفرعت عنه و هو البنية العميقة التي تشتمل على عناصر لا تظهر الواقع اللساني ، و بالتالي فهي وجه من أوجه فهم الاستغناء الضروري و المنطقي عن تلك العناصر في الكلام .

و بخصوص فكرة أصل التراكيب الذي يصيبه التحويل و التغيير حين انتقاله إلى بنية السطح : " و هذا الأصل هو ما يسمونه بالبنية العميقة ، و يحاولون الوقوف عليه من خلال عناصر البنية السطحية ، و تتضح عناصر النظرية بهذا الأصل المفترض في

¹ . اتجاهات البحث اللساني ميلكا إيفينش ، تر : سعد عبد العزيز مصلوح ، وفاء كامل فايد ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، مصر ، 2000م ، ص 268 .

² . ينظر مبادئ في اللسانيات العامة ، ص 21 .

³ . اللغة و الاقتصاد فلوريان كولماس ، ص 274 .

التركيب في اعتبارها : أن جميع التراكيب الخاصة بأي لغة من اللغات على اختلافها و تعقدها ، إلى نوع واحد من الجمل هو ما سماه تشومسكي جملة البذرة The kernel sentence ، و تتصف جملة البذرة ببساطتها و قصرها ، و بكونها أكثر التراكيب ورودا و استعمالا " ¹ .

و اكتشاف تشومسكي للكفاءة و الأداء ، و تمكن الإنسان منذ الطفولة على تركيب عدد من الجمل ذات هيئة سطحية ، تتحكم فيها آليات داخلية في البنية العميقة للغة هو أمر يفتح الأفق في قضايا لغوية كهذا ، " و لكن افتراض تشومسكي لمثل هذا الجهاز يكشف عن الأهمية العظيمة التي تنسب في نظريته إلى قانون الاقتصاد " ² .

و تحدث بيار جيرو عما أسماه الاقتصاد في الكلام أو الاختزال في مباحثه الدلالية ، و أرجعه إلى مبدأ الجهد الأقل الذي يؤثر في تبدلات المعنى ، لأننا بحسبه نلجأ إلى ذلك السلوك بحذفنا ما ليس ضروريا من كلامنا ، و قد يطول الكلام كذلك تبعا لذلك ³ .

و رأينا من قبل أن ممن نبه إلى النزوع للاقتصاد اللغوي على صعيد أصوات اللغة هويتني Whiteney ، الذي يرى أن كل ما نكتشفه من تطور في اللغة ، ليس إلا أمثلة لنزعة اللغات إلى توفير المجهود الذي يبذل في النطق ، و أن هناك استعدادا للاستغناء عن أجزاء الكلمات الذي لا يضر الاستغناء عنها بدلالاتها " ، و كذلك ماكس مولر Max moller يرى نفس الرأي ⁴ .

و يرى بول هرمن Paul harmann أن الاقتصاد في التعبير مرهون بالاستعمال اللغوي و الحاجات كذلك ، فهو يقول : " سواء استخدمت الوسائل اللغوية باقتصاد أو بإفراط فإن هذا يعتمد على الاحتياجات ، و لا يمكن إنكار أن هذه الوسائل كثيرا ما تستعمل

¹ . ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي ، ص 17 .

² . اللغة و الاقتصاد فلوريان كولماس ، ص 279 ، 280 .

³ . ينظر علم الدلالة بيار جيرو ص 83 ، 84 .

⁴ . ينظر التطور اللغوي لرمضان عبد التواب ص 75 ، و كذا علم اللسان العربي لعبد الكريم مجاهد ص 219 .

بإسراف ، و لكن كلامنا على العموم يحمل ملامح اقتصاد معين " ¹ ، و يواصل قائلا : "في كل موقف يجب أن تصاغ أشكال التعبير دون أن تحتوي على أكثر مما يحتاج إليه إمكان فهمها من قبل المستمع " ² .

و يعزو يسبرسن Jespersen لاقتصاد التعبير دورا مركزيا في تفكيره عن طبيعة اللغة ، فالتغير اللغوي - في رأيه - هو أساسا مظهر للميل العام نحو الاقتصاد في الجهد ، و لكن على عكس بول كان يسبرسن أكثر اهتماما بالنظام اللغوي ³ من الاستعمال اللغوي .

و ليس من الصحيح الاعتقاد بأن كل اللغويين سلموا بهذه الفكرة ، أو وافقوها إلى حد قريب ، فمنهم من رأى العكس تماما و نفى أن يكون الإنسان يسعى إلى توفير جهده في استعماله اللغة ، و من أهم هؤلاء ماريو باي ، حيث يقول : " و لا تتفق نظرية الاقتصاد في الجهد أو ميل المتحدثين في اللغة إلى اتباع أسهل الطرق في الحديث مع الحقائق المعروفة ، فلو صحت هذه النظرية لكانت كل اللغات الحديثة أسهل في نطقها من اللغات التي تفرعت عنها " ⁴ ، و يضيف باي في سياق حديثه أن التطورات اللغوية في الواقع تخضع لعوامل أخرى أكثر تعقيدا من مجرد رغبة المتحدثين في بذل مجهود أقل ، حتى يوفروا عن أنفسهم بعض المشقة و العناء ، بل إن كل الشواهد التاريخية و الوصفية - على حد تعبيره - تبين رغبة المتحدث في تأكيد كلامه و نطقه بسرعة و طلاقة ، و إن بذل أقل جهد فليس الغاية التي تعتبر عاملا فعالا في التطور اللغوي ⁵ .

¹ . اللغة و الاقتصاد ، فلوريان كولماس ، ص 277 .

² . المرجع السابق ، ص 277 .

³ . ينظر نفسه ، الصفحة نفسها .

⁴ . . لغات البشر أصولها و طبيعتها و تطورها ، تر : صلاح العربي ، منشورات الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، مصر

، ط1 ، 1970م ، ص 85 .

⁵ . ينظر نفسه ، ص 85 ، 86 .

كما نقل عبد الرحمن أيوب أن كلام هوييتي عن نزوع اللغة نحو السهولة و التيسير عارضه كل من سفرس Sievers و لسكن Leskien ، و وصفاه بأنه كلام أجوف ، يرفضه العلم الحديث ¹ .

و من الذين لم يتحمسوا كثيرا لهذا المفهوم موسر Moser ، الذي لاحظ أن ظاهرة الاقتصاد اللغوي لم تلق نسبيا إلا القليل من الاهتمام ، و مع ذلك فإنه حاول أن يلخص أنواع الاقتصاد اللغوي في ثلاثة أوجه :

1 - الميل إلى استخدام الوسائل اللغوية باقتصاد ، و بالتالي التقليل من الجهد البدني و الذهني اللازمين لإنتاج الكلام ، و كذا تطوير و ضبط تلك الوسائل .

2 - بذل الجهد لتحسين كفاءة الوسائل اللغوية .

3 - الميل نحو إزالة اختلافات الأنماط الاجتماعية من أجل الاستجابة بشكل أفضل للاحتياجات الاتصالية ² .

كما أن الثورة و الانتقاد الموجه إلى مفهوم استخدام المجهود الأدنى في اللغة ليس نفيا تاما لوجود ظاهرة الاقتصاد في اللغة ، و من أدلة ذلك ما ذهب إليه بعض اللسانيين من أن الاقتصاد قد يكون لاعتبار الزمن أو السامع أو المقام و ما إلى ذلك .

2.4.3 - الاقتصاد اللغوي في الدرس اللساني العربي :

¹ . ينظر دراسة الصوت اللغوي ، أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، مصر ، 1418هـ/1979م ، ص374 .
² . اللغة و الاقتصاد فلوريان كولماس ص 278 ، و يمكن لنا هاهنا أن نشير إلى أن موسر حين رأى أن من مظاهر الاقتصاد اللغوي ، السعي إلى إزالة اختلافات الأنماط الاجتماعية من أجل الاستجابة أكثر للاحتياجات الاتصالية ، يفسر إلى حد بعيد ما تحدثنا عن من قبل من جنوح اللهجات العربية إلى الاجتماع و إزالة فوارقها في الحديث اليومي ، و الاقتراب من التوحد على غرار اللغة الأدبية قبيل الإسلام و بعد مجيئه ، و لذلك فإن تلك اللهجات حافظت فيما بعد على هذه النزعة ، و سارت نحو تبسيط العربية و الاحتفاظ بكل مظاهر التخفيف و السهولة في النطق من الاختلاس و الحذف و الروم و الإشمام و قصر المد و ما إليها .

و قد أبدى عدد من اللغويين و اللسانيين العرب رأيهم في قضية الاقتصاد اللغوي ،
و على غرار الدارسين في الغرب فإن بعضهم أكد على نزوع الإنسان في سلوكه اللغوي نحو
محاولة توفير جهوده العضلية و الذاكرية ، و مزاوله النشاط اللغوي بمبدأ الجهد الأقل أو
الجهد الأدنى .

من بين هؤلاء إبراهيم أنيس حين حديثه عن مبدأ السهولة في نطق أصوات اللغة ، هذا
المبدأ الذي يفسر بالنسبة إليه التطورات الحاصلة في الأصوات اللغوية سواء أكان هذا
التطور هو استبدال لصوت ما ، أو تغيير في صفة نطقه على نحو يتمشى مع حاجات
الإنسان المختلفة ، لذلك نجده يدافع عنها بشكل كبير ، حيث يقول : " و قد حاول بعض
العلماء الانتقاص من هذه النظرية ، بانها تنسب إلى الإنسان الكسل ، مع أنه يزداد نشاطا
مع مرّ الأيام ، و الحقيقة أن هناك فرقا بين ما تنادي به النظرية ، من ان الإنسان يميل إلى
الاقتصاد في المجهود العضلي و بين الكسل ، لأن الكسل في العمل لا يؤدي إلى النتيجة
المرجوة التي يهدف إليها المرء ، في حين أن الاقتصاد في المجهود العضلي قد يؤدي إلى
نفس المطلوب عن طريق أقصر"¹.

و نجد إبراهيم أنيس يلمح إلى تمسكه بالفكرة و تجاهل الانتقادات الموجهة إليها ، حين
يتحدث عن السرعة في النطق و سقوط بعض الأصوات تبعا لذلك ، يدافع عن كون هذه
الظاهرة من الاقتصاد ، حيث يقول : " على أن أظهر نتائج السرعة في النطق ، هو سقوط
بعض الأصوات من الكلمات في أثناء النطق بها ، و يعد هذا أيضا من مظاهر الاقتصاد
في الجهد العضلي ، و إن شئت فسمه كسلا ، و لكنه يحقق الغرض بين المتكلم و السامع ،
و لا يخل بهدف الكلام ، و هو الفهم "².

¹ . الأصوات اللغوية ، إبراهيم أنيس ص 168 .

² . في اللهجات العربية ، ص 116 .

و ممن دافع بشدة عن مبدأ الاقتصاد اللغوي رمضان عبد التواب ، خصوصا في كونه عاملا من اهم العوامل التي تدفع باللغة نحو التغير و التطور من صورة إلى صورة اخرى عبر الزمن ، و خصوصا على مستوى أصواتها انتقالا إلى المستويات الأخرى ، لكنه يعترف أن تعميمه على كافة اللغات غير وارد ، و " أن هذا القانون كغيره من قوانين التطور اللغوي صالح للعمل في أي لغة من اللغات ، و ليس معنى هذا كل لغة لابد أن تتعرض لجميع آثاره ، فالحتمية بمعنى انه لابد من وقوع كل لغة تحت سيطرة هذا القانون ، و الشمول يعني عدم إفلات أي لغة من تأثيره و السير على مقتضاه أمران لم يقل بهما واحد من أنصار التطور اللغوي في العصر الحديث " ¹.

و يوافق أحمد مختار عمر مذهب ماريوباي في استبعاد هذا الطرح و القول بعدم واقعيته ، و يرفض التسليم بأن الإنسان يقتصد في نشاطه اللغوي ، أو يحاول بذل الجهد الأقل في ذلك ، و ذهب إلى الاحتجاج بعدد من الأدلة التي احتج بها غيره ، منها قوله : " لوصح هذا لكانت اللغات الحديثة أسهل في نطقها من اللغات التي تفرعت عنها ، و ستتضح لنا مخالفة ذلك للواقع ، إذا قارنا النظم الصوتية للغتين الفرنسية و اللاتينية ، فالواقع أن التطورات اللغوية تخضع لعوامل أخرى أكثر تعقيدا من مجرد رغبة المتحدثين بها في بذل جهد أقل ، حتى يوفروا عن أنفسهم بعض المشقة و العناء ... و لو صح هذا لصارت اللغات جميعا سلسلة من الأصوات المتحركة لأنها تتطلب جهدا أقل من نطقها ، و لكننا نجد الأمر على العكس من ذلك ، إذ تقل الأصوات المتحركة ، و تزيد الأصوات الساكنة المتعاقبة التي تحتاج إلى جهد كبير من المتحدث عند النطق بها " ².

أما تمام حسان فقد أقر بوجود الاقتصاد اللغوي ، و ذكره كخاصية من خصائص العربية ، فهو يقول : " تنتهي الألفاظ و الأنماط التركيبية و لا تنتهي المعاني ، و من ثم

¹ . التطور اللغوي ، رمضان عبد التواب ص 54 ، 55 .

² . دراسة الصوت اللغوي ، أحمد مختار عمر ص 374 .

يصبح على العربية أن تعبر بالقليل المتناهي عن الكثير اللامتناهي ، فإذا تحقق لها ذلك فقد تحقق لها الاقتصاد بعينه ، و لقد عمدت العربية إلى اصطناع بعض الوسائل التي تمكنها من تحقيق هذه الخاصية ، و لعل أشهر هذه الوسائل تعدد المعنى للمبنى الواحد " ¹ .

و يؤكد تمام حسان ان الاقتصاد في العربية يتجلى في مظاهر أخرى إلى جانب تعدد المعنى ، منها النقل النحوي (كالعلم المنقول عن الفعلية كيزيد) و النقل المعجمي (كالمجاز) ، و منها ميل العربية إلى التركيز (كالقرائن الدالة على علاقة الإسناد كرفع المبتدأ و الخبر و كذلك الإضمار) ، و اعتبر إمكان الاستغناء بالأصناف (تصنيف العينات الكلامية تحت القواعد) عن المفردات مظهرا من مظاهر الاقتصاد كذلك ، و يرى كذلك أن من مظاهر الاقتصاد في الجهد التأليف و الإدغام و المناسبة الصوتية و الإعلال و الإبدال و التخلص من التقاء الساكنين ، و غير ذلك ، و ختم كل ذلك بقوله إن العربية تطلب الخفة أينما وجدت ، و تسعى إلى تحقيق خاصية الاقتصاد . ²

و يرى تمام حسان أنه لا بد لنا من التفرقة بين الأصل و العدول عنه في الكلام العربي ، فهو يرى أن هناك أصولا في قاعدة اللغة عدل عنها في الصورة المنطوقة لغرض الاقتصاد لا تظهر في الصورة المكتوبة ، فلا يمكن ملاحظة مظاهر الاقتصاد في الكتابة كالإدغام و الإخفاء و الإقلاب و التي يتقى بها الثقل ، و لذلك فالإقتصاد في جهد المتكلم يؤدي إلى العدول ، و الاقتصاد في جهد الكاتب يؤدي إلى استصحاب الأصل مع علامات خطية دالة على ما يقع من المتكلم ³ .

¹ . مقالات في اللغة و الأدب ، تمام حسان (ج1/ص 292 ، 293) .

² . ينظر نفسه ، ص 293 - 304 .

³ . الأصول ، تمام حسان ص 127 .

و يلمح عبد السلام المسدي ¹ إلى أصالة ظاهرة الاقتصاد اللغوي في العربية ،
و كذا تقطن منظري الفكر اللغوي في تاريخ الحضارة العربية إليه ، و قد يثير انتباهنا إلى
دقيقة علمية أخرى في المظاهر الاقتصادية للغة البشرية لا العربية فقط ، و هو ما أسماه
البعد المكاني للكلام عندما يتشكل و المدرك بحاسة السمع أو التواجد الفعلي له (اللغة
المنطوقة) و ما أسماه المسدي فكرة قدرة الكلام على الاستيعاب المطلق حضوريا مما يبوئه
طاقة انتشارية يدرك بفضلها عددا لا متناهيا من المتقبلين ، ليس في هيئته الفيزيائية
المسموعة و لكن باعتباره رسالة دلالية و شحنة إخبارية ، فللخطاب إذن طاقة ذاتية تمكنه
من الشمول العددي اللامتناهي ، و هو إن تعذر عليه ألا يشمل كل من توافرت لديه
شرائط السماع موضوعيا ، فإنه من حيث مادته الخطابية قادر على ان يشمل عددا لا
متناهيا من المعنيين به ، سواء أحضروا لحظة إنجازه أم لم يحضروه ، و هذه الخاصية هي
الكفيلة بإعطاء ما يعرف اليوم بقانون الاقتصاد اللغوي وزنه الأكمل ، و هي ظاهرة نجدها
في أكثر من مستوى في اللغة مما يصلح ان يكون دليلا على قانون الاقتصاد أو نزعة
المجهود الأدنى في اللسانيات المعاصرة .

و يشرح عبد الرحمن حاج صالح ² مفهوم التخفيف و الاقتصاد في اللغة ، انطلاقا من
قاعدة الوضع و الاستعمال في اللغة ، فنظام اللغة يصيبه التغيير من خلال الاستعمال له ،
و الغاية من استعمال اللغة هو التواصل ، و هذا يحتاج إلى نظام متماسك من الرموز
المتباينة ، إلا أن الاستعمال فعل محكم ، و كل فعل يعتبر مكلفا ، فإذا كانت الكلفة باهظة
أو تتجاوز الفائدة ، يضطر المستعمل إلى التخفيف من جهوده العضلية و الذاكرية ، و هذا
هو السبب الأهم في تحول اللغة من نظام إلى نظام آخر ، و هذا التحول ناتج عن الميل
الطبيعي إلى الاقتصاد في جميع أفعال الإنسان ، على أن هناك سببا بخر للتحول هو
المحافظة اللاشعورية للمجتمع على نظام لغته في عملية ترميمية متجددة لها ، فالعامل

¹ . ينظر التفكير اللساني في الحضارة العربية ، ص 247 - 252 .

² . ينظر الفصحى و عامياتها ، ص 81 .

الأول عند الحاج صالح و هو : الاقتصاد الذي تجلى عند العرب في التخفيف من المؤنة في ظواهر الإبدال و الإعلال و الإدغام و القلب ، أما العامل الثاني فهو عندهم طرد الباب ، كحمل حذف الهمزة في أكرم على كل تصاريف الفعل لكيلا يختلف الباب ، مضيفا أن لغة التخاطب - خصوصا - تخضع خضوعا كاملا لقانون الاقتصاد اللغوي .

لقد صار مبدأ الاقتصاد اللغوي على قلة الاهتمام به و البحث فيه ، واحدا من أهم القضايا اللسانية التي تستحق الاهتمام بشكل علمي ، و هو خاصية في اللغة البشرية من الصعب التصديق بندرة وقوعه فيها أو ضعف تأثيره في مستوياتها ، كونه شكل طبيعي لا للتطور اللغوي فحسب ، و إنما للتطور الإنساني بشكل عام ، و لذلك أشار إليه اللسانيون الغرب و العرب ، و دعوا إلى البحث - بحثا أنيا وصفيا - في مظاهره المتجددة في كل زمان و مكان ، و في كل اللغات للوقوف على واقع النظم اللغوية التي تعد نتيجة حتمية لكل تصرف في اللغة في شكلها المنطوق المنجز .

5.3 - الاقتصاد اللغوي و التخفيف في اللغة التخاطبية العفوية :

1.5.3 - العفوية في الاستعمال تتطلب الاقتصاد و التخفيف :

نزوع الإنسان إلى الاقتصاد هو أمر فطري و طبيعي ، و ظاهرة محسوسة و مشاهدة ، و لكن هذه النزعة تظهر أكثر في سلوكيات الفرد اليومية و المتسمة بالتكرار و العفوية ، ذلك لأنه يمضي باستمرار إلى محاولة كشف السبل التي تيسر عليه نشاطاته الحاجية و متطلباته التي لا يستغني عنها بحال .

و هاهنا يجدر بنا ان نتوقف عند كلمة : العفوي ، و هو الوصف الذي نطلقه على التخاطب اليومي الحادث بين الناس بصفة مستمرة ، و غير منقطعة في المجتمع الإنساني تماما كبقية الحاجات البيولوجية و النفسية .

و قد جاء في اللغة أن العفو هو الترك ¹ ، و هو الذي يسمح به و لا يحتجن و لا يمسه عليه ² ، و العفو الفضل الذي يجيء بغير كلفة ³ ، وفي حديث ابن الزبير أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس قال : هو السهل الميسر أي أمره أن يحتمل أخلاقهم ويقبل منها ما سهل وتيسر ولا يستقصي عليهم ⁴ ، و قال الكفوي : " ذكر ابن الأنباري أن العفو يجيء بمعنى السهولة " ⁵ ، و " العفوية : عمل شيء بدون محرض على عمله " ⁶ .

و مدار هذه المعاني في اللغة على : الترك و المجاوزة و اليسر و السهولة و ترك الكلفة و انعدام القصد في الفعل ، و هي سمات نجدها في السلوكات العفوية التي يقوم بها الإنسان غالبا دون شعور أو بشعور غير مستحكم ، و لذلك نجده يتساهل و يتراخي في جميع حركاته و تصرفاته و نشاطاته العادية متى لم يتطلب منه سبب معين أن يجهد نفسه أو يتحكم فيها ، و يراقب ما يقوم به طبعا في مواقف مخصوصة و حالات أقل من الحالة الأولى .

و لذلك يصاحب هذه السلوكات اليومية عند الفرد الطبيعي - أو الواعي - ، نوع من النزوع الفطري إلى توفير الجهد ، و تقليل المشقة و دفع التعب ، بالبحث عن أيسر السبل لقضاء مصالحه و الوصول إلى أهدافه ، و إذا كان من أكثر أهدافه التي يسعى إلى تحقيقها التواصل مع غيره ، و توصيل رغباته و أفكاره و آرائه في حياته اليومية و ذلك عن طريق اللغة ، فإنها - أي اللغة - تصدر عنه بصفتيها العفوية و الاقتصادية .

¹ . مقاييس اللغة لابن فارس ، مادة عفو (ج4/ص46) .

² . نفسه (ج4/ص49) .

³ . لسان العرب لابن منظور ، فصل الواو باب العين ، (ج4/ص3020) .

⁴ . نفسه ، الصفحة نفسها .

⁵ . الكليات ، ص 1001 .

⁶ . المنجد في اللغة ، لويس معلوف ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، لبنان ، ط19 ، مادة عفا ، ص 517 .

و يمكن لنا في هذا التوجه أن نسميها اللغة العفوية و كذلك التلقائية ، وقد بين جرجوري بأن التكلم التلقائي هو ما يقابل غير التلقائي ، وفرعه إلى حديث ومحادثة ، وذكر بأن التلقائي يتميز عن غيره بانتفاء عنصر الإعداد المسبق ، وسماه إيجليسون الكلام غير المتروى¹ .

و ما دام كل الناس يتكلمون ، و ليس الكلام باللغة مقصورا على موقف أو ثقافة أو مستوى أو مقام معين ، فهم يتكلمون تلقائيا و عفويا كما قال أندري مارتيني² "نحن على اقتناع بأنه يحصل من تلقاء نفسه والدليل هو في أن كل الناس يتكلمون" . و هذا يحدث في تخاطبات الناس اليومية العادية و في كل اللغات ، و لقد أشار الجاحظ إلى هذا المعنى مؤكدا أن العرب يصدر عنهم البيان دون إعداد مسبق ، أو بتعبير أدق أن بلاغتهم كانت عفوية و تلقائية بقوله³ : "وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا إحالة فكر ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام ، و إلى رجز يوم الخطام ، أو حين أن يمتح على رأس بئر أو يحدو ببعير أو عند المقارعة والمناقلة ، أو عند صراع أو في حرب ، فما هو إلا أن يصرف وهمه الى جملة المذهب ، وإلى العمود الذي إليه يقصد فتأتيه المعاني ارسالا ، وتنتال عليه الألفاظ انثيالا ، ثم لا يقيده على نفسه ولا يدرسه أحدا من ولده " ، ثم يقول⁴ : "وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر، وأكثر وهم له أقدر وعليه أقهر، وكل واحد في نفسه أنطق" ، و ما ذكره الجاحظ هنا في ما كانوا يتفوهون به من فنون القول ، فكيف بهم في أحوالهم العادية .

¹ . ينظر اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة، محمد العيد، ص93، 94 .

² . وظيفة الألسن وديناميتها، ص 171.

³ . البيان والتبيين (ج3/ص 28).

⁴ . نفسه، الصفحة نفسها.

و إذا ركزنا النظر في ما قاله الجاحظ من أنهم كانوا يتكلمون ، و هاهنا الأمر موجه في الأغلب إلى بلاغتهم في فهم القول ، و يكون ذلك منهم دون معاناة و لا مكابدة و لا إحالة فكر و لا استعانة ، و لا يتكلفون : فهمنا جيدا الواقع اللغوي العربي في ذلك الزمن الذي اضطر كثيرا من الدارسين إلى القول بأنهم - أي العرب - كانوا من أقدر الأمم في مجال التحكم في اللغة و التصوير بها و التفنن فيها إلى حد بعيد .

هذا الواقع الذي يجعلنا نقول : إنهم كانوا في حالاتهم العفوية كذلك ليسوا بأقل منهم و هم ينظمون الشعر أو يقولون الخطب و ما إلى ذلك ، و إذا كانوا يتفننون في اللغة متحررين من الانقباض و الحرص ، فمنطقي أنهم في مخاطباتهم اليومية تكلموا الفصاحة البسيطة بعفوية .

و العفوية في المخاطبات تتميز بخصائص معينة ، و قد أشار إلى بعضها إبراهيم انيس في تعريفه لغة التخاطب بأنها التي إذا استعملها الناس " يؤدون بها التافه من شؤونهم ، لا يعمدون إليها عن قصد ، و لا يتخيرون ألفاظها ، بل يكتفون منها بتأدية الأغراض العامة في الحياة العادية " ¹ ، و من ذلك يمكن ان نوجزها في مايلي :

1 - على صعيد الدلالة مجالها الأكثر استعمالا : الحاجات اليومية العادية و البسيطة .

2 - على صعيد الشكل لا يتخير المتكلم ألفاظها و لا تراكيبها .

3 - على صعيد الوظيفة فإنها تكون لتحقيق الغاية القاعدية و هي مجرد التواصل .

و ما دامت على هذا المنحى فإنها تستعمل بصفة براغماتية (نفعية) ، يؤخذ منها ما فيه حاجة و لا يمكن الاستغناء عنه ، و يهمل منها ما ليس له حضور ضروري خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار المقام الاجتماعي أو السياق غير اللغوي الذي حدثت فيه .

¹ . في اللهجات العربية ، ص 38 .

و استعمالها بهذه الصفة - كما أشرنا إليه من قبل - يستصحب معه بالضرورة كل الطرق الاقتصادية فيها ، و قد أثبتت الدراسات اللغوية العربية أن العرب كانت تستعمل ضروبا كثيرة من التخفيف في هذه الحال ، منها الصوتي كحذف بعض المقاطع النهائية من الكلمات ، و كذا إدغام بعض الأصوات في بعض أو إشماعها أو رومها أو الإقلاب أو الإخفاء ، و منها الصرفي كتجنب النقل في النطق بالإبدال و الإعلال و القلب المكاني ، و منها النحوي كاختلاس الحركات و تسكين الحرف في درج الكلام ، و منها ما يكون على مستوى المفردات و التراكيب العربية الكثيرة الاستعمال و الجارية على السنة العرب ، لذلك نجد عبد الرحمن حاج صالح يقول : " فبما أن لغة النخاطب العفوي هي أكثر استعمالا - لأنها لغة الحياة اليومية العادية - ، فينبغي ان تكون أخف على الألسنة بالنسبة للغة المحررة (و لغة الثقافة في أيامنا) ، و هذا لا يخص اللغة في بنيتها و نظامها في زمان الفصاحة العفوية ، و في زماننا بل طريقة استعمالها و كيفية النطق بها ، و تكون لغة التخاطب أقل تكليفا و مؤونة لأنها غير مقيدة بكتابة أو أي إعداد سابق للنص " ¹.

2.5.3 - قضية الاقتصاد و التخفيف في فصحي التخاطب العفوي العربي :

1.2.5.3 - تأصيل القضية من خلال المفاهيم السابقة :

كلّ مل تقدم يجعلنا نتساءل : ماهي خصائص لغة الشفاهة في عربية التخاطب الفصيحة و التي تعدّ مظاهرا لم تدرس بعمق للتخفيف و الاقتصاد اللغوي ؟

إن هذا التساؤل يدعونا إلى فك عناصره الداخلية و وضعها في إطارها ، و كذلك يدعونا إلى توضيح رؤية تجعل من التساؤل مشروعا .

بالنسبة لعناصر التساؤل فإنه من الطبيعي أن نعتبر ما نريد دراسته ضمن يدخل ضمن مفاهيم أعم بكثير من الوقوف عند العينات اللغوية محل البحث ، هذه المفاهيم هي المفاهيم

¹ . السماع اللغوي العلمي عند العرب و مفهوم الفصاحة ، ص 185 .

العلمية اللسانية ، و التي دعتنا بالقوة إلى تأصيل مبحث **اللغة الشفاهية** و الموروث الشعبي الشفاهي للأمم السابقة ، و هو مادة هائلة ورثتها المعرفة الحديثة ، ثم راحت تبحث في قيمتها العلمية و الحضارية و الفكرية ، فوجدتها ذخيرة إذا أمكن الإنسان الوصول إلى محتواها بكل تنوعاته ، أمكنه أن يؤسس المعرفة الإنسانية الشمولية التي تربط الماضي بالحاضر عموما ، و على صعيد المعرفة اللسانية خصوصا ، و لكن تحديدها كمادة و الوصول إليها على حالتها أرق الدارسين و المفكرين على السواء .

و لقد زاد من متاعب الباحثين كونها نتاج للشعوب و المجتمعات القديمة ، و لا يخفى علينا أنها أحداث كلامية في مواقف بسيطة عابرة ، لفئة العموم من الناس ، مما يمكن تسميتهم الشعب و العامة و المجتمع و الرعية بلغة القدماء من العرب ، مما يلزم التاريخ الفكري البشري أن يكون واعيا وعيا نسبيا بتسجيلها في بنها و لحظتها .

هذا الطرح بعناصره المذكورة يتصف بالعموم و الاتساع و التفريعات الكثيرة ، ما دعانا إلى معالجته من وجهة نظر لسانية في أغلب مراحله ، و تبلورت لدينا فكرته العامة و التي ملخصها أن الموروث الشفاهي للشعوب القديمة ما لبثت النهضة الفكرية في نهاية القرن الثامن عشر و بداية القرن التاسع عشر ، أن تتدارك ما بقي لها منه فيما كان له الحظ أن يسجل ، أو حتى في تجلياته في لسان الشعوب المعاصرة لتلك النهضة ، فوجد علم اللسان - و الذي هو أحد إفرازات هذه النهضة - نفسه مضطرا إلى عدم الاستغناء عن **المنهج الفيلولوجي - دراسة اللغة عبر النصوص المادية** - ، والذي سبق له و أن جرده من الصفة العلمية ، و لم يتجاوز به أن اعتبره جزءا من علم اللغة التاريخي ، لسبب بسيط : هو التصور الخاطئ لمفهوم اللغة الذي طغت عليه الكتابة ، الفكرة التي لو استمرت تعطلت بها كل مساعي اللسانيات ، و القائمة على وصف اللغة و مواجهتها في الواقع المنطوق .

و كما لم تكن لعلم اللسان الحديث طاقة في إنكار اعتماده الكلي في مرحلة من مراحل تطوره على الصورة الكتابية للغة ، و بأنه في فترة معينة لم تكن بين يديه سوى شهادات

خطية للغة ذهبت معها جل خصائص الشفاهية ، لم تكن لديه كذلك طاقة على تجاهل التبادل المعرفي بينه و بين علم الفلكلور و الأدب الشعبي ، أو على الأقل الاستفادة من بعض ملاحظاته كون هذا الأخير قطع أشواطاً مهمة في التوصل إلى بعض طرق الظفر بالشفاهي القديم أو الإحاطة ببعض ملامحه .

و تأكد فيما بعد أن **الميراث اللغوي الشفاهي** للعرب وجه آخر من وجوه تقدم الوعي العلمي عامة ، و الحس اللساني خاصة عند النحاة العرب الأوائل من خلال جمعهم لغة فصحاءهم في مدوناتهم على أشد طرق الرواية و السماع صرامة ، الشيء الذي يجعلنا نبحت في الماضي الشفاهي للعرب و نحن على علم بصحة ما نبحت فيه .

و إذا ثبت أننا نريد البحث في ذلك ، وجدنا أنفسنا بالضرورة نتساءل عن حقيقة العربية الشفاهية التي نقصدها ، و ظروف نشأتها و تكونها ، و ما هي الصورة التي استقرت عليها الشفاهية التواصلية أو بتعبير أدق لغة تخاطب عامة الفصحاء من العرب ، و هذا هو العنصر الثاني في التساؤل الذي طرحناه و هو حول المراد بقولنا : **عربية التخاطب الفصيحة** .

و إلى اليوم ، لا يزال اختلاف الرؤى يتجاذب اللغويين العرب حول تكوين رؤية واضحة عن هذه العربية الفصحى التي نقرأ عنها و نقام حولها الدراسات و البحوث ، و ليس مفهومها من المسلمات كما يعتقد كثير من الناس ، و إنما - من وجهة نظر معرفية - لابد من الوصول إلى مفهوم متفق عليه بخصوص ما نعنيه بكلمة العربية الفصيحة ، أكانت لغة الشعر و الأدب فحسب ، أم كانت لغة تأدب و تخاطب عند عرب القرون السابقة لعهد فساد اللسان العربي ، و هذا لأن بعض الباحثين تمسكوا بالمقولة التي مفادها أن الفصاحة لغة الأدب في عصر الاحتجاج تأثراً بدراسات المستشرقين ، و هم يقصدون بذلك التفرقة بين اللغة الأدبية المشتركة و ما عداها من اللهجات أو لغة التخاطب ، و الحق كما يظهر من

خلال المعطيات السابقة أن من الصعب التسليم بذلك بسهولة ، خصوصا و أنه تكرر كثيرا في الدراسات اللغوية التي وجدت في بداية النصف الثاني من القرن العشرين¹ .

و إذا صح القول إن لغة التخاطب اليومية التي سادت بين العرب في عصر الفصاحة هي نتاج تصادم عظيم بين اللهجات المشتهرة قائمة على قاعدة اللهجة القرشية ، و هذا ما جعلها تصل إلينا في صورة موحدة ، و أنها عامية ذلك العصر بالمفهوم المعروف لمصطلح عامية ، و أنها فصيحة كفصاحة صنوتها في الأدب ، فلا يصح القول أنهما متطابقتان تطابقا كليا فهذا لا أحد يمكنه القول به او الاستدلال عليه ، فالفصاحة في العربية واحدة لكن لغة الأدب تختلف و لا شك عن لغة التخاطب بما تحمله كل واحدة من خصائص ، و إذا كانت لغة الأدب لغة معيارية في كل جوانبها الصوتية و الصرفية و المعجمية و النحوية و البلاغية ، فإن لغة التخاطب كذلك لها ما يميزها من خصائص ، منها ما هو عام يصدق على جميع لغات التخاطب في العالم ، و منها ما نص عليه علماء اللغة و النحاة العرب من الأداء المستخف الذي هو وجه من وجوه الفصاحة و ليس لحنا يعيب تلك الفصاحة ، ذلك الأداء الذي يعتبر من أقوى تجليات الاقتصاد اللغوي في اللغة الإنسانية ، بل يظهر في ذلك المستوى بشكل أوضح من ظهوره في غيره .

و هذا التخفيف الذي كان في أداء العربية التخاطبية العفوية ، هو ظاهرة تتلاءم و طبيعة ذلك الحدث الكلامي ، إذ إن العربي الذي كان يسترسل في لغته بفصاحة سواء حال التأدب أو حال التخاطب العادي ، ميزة نسيت تماما في الدراسات الحديثة و غفل أو تغافل عنها الناس ظنا منهم أن العربية ليست إلا انقباضا في التعامل معها ، و ترتيلا في آدائها على حد تعبير عبد الرحمن حاج صالح ، و هذا خطأ يدعو إلى محاولة كشف حقيقة العربية التي تؤدي بخفة و لا تفارق صفة الفصاحة .

¹ . و نقصد بذلك كتب فقه اللغة و علم اللغة المواكبة لوصول الفكر اللساني الغربي إلى الوطن العربي ، و قد بين عبد الرحمن حاج صالح بعد هذه المقولات عن الواقع و التفكير العلمي ، يراجع في ذلك الفصحى و عامياتها ص 90 .

2.2.5.3 - آراء الحاج صالح و دعوته إلى دراسة الموضوع :

تعد قضية المستوى التخفيفي للعربية الفصحى من أهم القضايا التي دعا عبد الرحمن حاج صالح إلى الالتفات إليها و دراستها ¹ ، فهو في أكثر من مناسبة ينبه على ما يقع فيه دعاة الرجوع إلى الفصحى الذين يحسبون أن العربية ليس لها إلا أداء واحد و هو الموصوف باللغة الأدبية الرسمية التي لا اتسا فيها و لا تخفيف .

فالقائمون على تعليم العربية في العالم العربي رسخ في أذهانهم ذلك المستوى المنقبض الذي يلزم المتعلم بنطق العربية بعيدا عن فضاءات التخفيف و الاقتصاد التي يجدها في لغته العامية اليومية ، فرسخوا الفكرة بأن العربية ليس لها سوى ذلك المستوى من النطق و الأداء ، و هذا كما نرى لا يمت إلى الواقع بأدنى صلة .

و لقد أدرك هذا الأمر لغويو العرب المحدثون الذين أهتموا بمسائل الفصحى و العامية ، و الجدل الحادث بينهما في بحوث كثيرة نشرت بالمجامع اللغوية ، و كان من آثارها نشوء معاجم مقارنة العامي بأصله الفصيح ² ، و دراسات للعاميات العربية على ضوء المنهج العلمي سعيا من لالها إلى فهم التطور الذي مس العربية منذ أقدم العصور إلى الآن .

و أدى التصور الخاطئ للعربية الفصيحة إلى استهجان بعض المحافظين من هؤلاء لكل ما يرد من العامي و كأنه لغة ذات هوية أخرى ، و حاولوا عبثا أن يحاربوه بالدعوة إلى الرجوع للعربية الأصلية ظنا منهم ان هذا الأمر في مكنة الشعوب العربية .

¹ . ينظر على سبيل المثال مقاله : اللغة العربية بين المشافهة و التحرير ، مجلة مجمع اللغة العربية المصري ، القاهرة 1990 م ، العدد : 66 .

² . منها معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية لأحمد تيمور ، و المحكم في أصول الكلمات العامية لأحمد عيسى ، و تحريفات العامية للفصحى لشوقي ضيف ، و مراجع العامية في الوطن العربي لعبد الحميد الحلوجي و غيرها - ينظر عناوين بعضها في كتاب لغة الحياة اليومية لمحمود الجوهري ص 78 - 81 .

أما البعض الآخر فذهبوا أبعد من ذلك بكثير ، حيث ظهرت الدعوة إلى إحلال العامية محل الفصحى في كل المجالات ¹ ، في خطوة نتيجتها الحتمية هي القضاء على الموروث اللغوي العربي ، و من حسن الحظ أنهم اصطدموا بالنص القرآني الذي شكل لهم هاجسا أدركوا من خلاله استحالة ما يصبون إليه .

و تتأسى كل هؤلاء أن اللغة العربية مستوى تخاطبيا فصيحاً عرف عند العرب و دونه العلماء الأوائل ، يجمع بين كونه فصيحاً استشهدوا به في أثناء وصفهم للغة العرب ، و كذا خفته و سهولته و اشتماله على خصائص تبتعد به عن انقباضية اللغة الأدبية و تضعه موضعه من أريحية اللغة التخاطبية و عفويتها ، أو إن صح التعبير العامية .

هذا المستوى التخاطبي هو عربية التواصل الشفاهي العفوي التي كان العرب الفصحاء الأفحاح يستخدمونها في يومياتهم و حياتهم العادية ، و نقلها النحاة الأوائل سماعاً و مشافهة مع وصفها وصفا لا يبتعد عن العلمية التي تدعو إليها اليوم الدراسات اللسانية .

و يعتبر نهاد الموسى واحداً من الدارسين الذين أدركوا هذا الأمر ، و رأى أن حل الخلاف الحاصل بين دعاة الفصحى و دعاة العامية ، و توجيه المفاهيم الخاطئة في هذا المجال يرتكز على تدبيرين وصف الأول بأنه : " تدبير لغوي خالص ، يستقرئ صفة العربية التاريخية بما كانت لغة منطوقة ، و يتحرى نموذجاً فصيحاً منطوقاً عفوياً تلقائياً ، ينأى بنا عن ظن بعض الناس أن استعمال الفصحى في مواقف المشافهة يفضي بنا إلى التكلف و الاصطناع ، ذلك أننا نرى أن العلة هنا تكمن في استعمال الفصحى المنطوقة على مثال العربية المكتوبة ، و حجتنا في هذه الأطروحة أن العربية الفصحى كانت لغة منطوقة ، و أن إحياء ما في قواعدها من رخص الحذف و الاجتزاء و اعتبار موقف

¹ . ينظر تاريخ الدعوة إلى العامية و آثارها في مصر ، نفوسة زكريا سعيد 75 - 149 .

الخطاب .. ، يقدم لنا نموذجاً فصيحاً للخطاب الشفوي يتصف بالتلقائية و ينأى عن التكلف و لا ينأى عن أصله الفصيح " ¹ .

و لعل كثير من الذين قد يطلعون على هذا الواقع يتعجبون من أن العرب الفصحاء كان لهم هذا التعامل الخفيف مع لغتهم في مخاطباتهم اليومية ، و هذا الشعور له ما يبرره إذ إن العربية الفصحى أصبحت مقننة منذ جمود النحو العربي ، و تسلط النظرة المعيارية عليه ، في صورة القواعد التي توجب على المتعلم نمطا معيناً من الأداء ، بل كان هذا الشعور موجوداً قبل ذلك بكثير بعد فشو اللحن و التهويل من أمره في القرن الثاني الهجري ، و دليل ذلك أن بعضاً ممن اطلع على ما أورده التوحيدي في ذلك عدّه نصاً خطيراً كرمضان عبد التواب ² ، و ما ورد فيه حرفياً هو : " قال أبو العيناء : ما رأيت مثل الأصمعي قط ، أنشد بيتاً من الشعر فاختلس الإعراب ، وقال : سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : كلام العرب الدرج ، قال : وحدثني عبد الله بن سوار أن أباه قال : إن العرب تحتاز بالإعراب اجتيازاً ، قال الأصمعي : وحدثني عيسى بن عمر أن ابن أبي إسحاق قال : العرب ترفرف على الإعراب ولا تنفيق فيهِ ، قال : وسمعت يونس يقول : العرب تشام الإعراب ولا تحقّقه ، قال : وسمعت الحساس بن حباب يقول : العرب تقع بالإعراب وكأنها لم تزد ، قال : وسمعت أبا الخطاب يقول : إعراب العرب الخطف والحذف ، قال : فتعجب الناس منه " ³

فإذا كان الناس في ذلك الزمان اعتبروه أمراً داعياً للعجب ، فإن هذا يجعلنا نقول إن هذا من الأدلة الواضحة على القصور المتقدم تاريخياً في فهم النحاة الأوائل ، مما يدعونا بإلحاح إلى جعل إعادة قراءة التراث النحوي العربي و الدفاع عن أصالة النحو العربي من أولى أولوياتنا في اللسانيات العربية ، و هذا ما أراده الحاج صالح بدعوته .

¹ . الفصحى و عامياتها ، ص 46 .

² . فصول في فقه اللغة ، ص 80 .

³ . البصائر و الذخائر (ج6/ص146)

يقول في إحدى مداخلاته ¹ : " فإذا أردنا على هذا ، أن تكون الفصحى لغة تخاطب فلا بد أن تتصف بما تتصف به كل لغة تخاطب من الخفة و عدم المؤونة في الأداء ، هذا و الخطأ الخطير الذي يرتكبه أكثر المتقنين هو الاعتقاد بأن هذه العربية التي يتعلمها التلاميذ الصغار في المدارس هي تلك العربية التي تكلم بها العرب في زمان الفصاحة السليقية ، و هذا مستحيل لاتصاف لغة التخاطب العفوي بالخفة الكاملة " .

و يضيف قائلاً ² : " فالدليل على ان الفصحى كانت لغة التخاطب اليومي ، هي هذه الأوصاف التي ذكرها العلماء الذين شافوها فصحاء العرب في زمان التدوين للغة و السماع لكلامهم ، و كل هذه الظواهر اللغوية الخاصة بالمستوى المستخف من الكلام لا وجود له اليوم إطلاقاً في التعليم ، و لا في الكتب الخاصة بتعليم العربية ، و يجهلها تماماً المعلمون و أكثر الأساتذة ، و كل من اطلع عليها فلا يعتدون بها ظناً منهم أنها لغات شاذة ، لا ينبغي أن يتعلمها التلميذ ، فجعلوا بذلك معيار الأداء العربي واحداً ، و هو المستوى المرتل و المنقبض ، و حصل ذلك أيضاً منذ القديم لعناية المعلمين المبالغ فيها بالنطق الكامل لعلامات الإعراب و التنوين ³ ، فنسوا أن الوقف على المتحرك بالحركة هو لحن ، لأن العرب لم يكونوا يقفون على متحرك ، و بالغوا في مد الحركات و حتى الممدود منها ، و تجنبوا كل اختلاس لها " .

و يضيف قائلاً ⁴ : " هذا و نلاحظ أن التخفيف الذي وصفه العلماء (و قد سمعواهم هم أنفسهم يتخاطبون في حاجاتهم) ، هو الذي تتصف به كل لغة تخاطب في العالم مهما كانت ، لأنها عفوية و لا يتأمل فيها الناطق ، و لا ينظر كيف ينطق إذ يرسل كلامه كما يرد في خلدته " .

¹ . الفصحى و عامياتها ، ص 90 .

² . نفس المرجع السابق و الصفحة .

³ . و يقصد بذلك توقيف العربية على احترام المعايير التي ذكرناها في خصائص الفصحى الأدبية .

⁴ . نفس المرجع السابق ، ص 93 .

و في موضع آخر يقول : " فبما أن لغة النخاطب العفوي هي أكثر استعمالا - لأنها لغة الحياة اليومية العادية - ، فينبغي أن تكون أخف على الألسنة بالنسبة للغة المحررة (و لغة الثقافة في أيامنا) ، و هذا لا يخص اللغة في بنيتها و نظامها في زمان الفصاحة العفوية ، و في زماننا بل طريقة استعمالها و كيفية النطق بها ، و تكون لغة التخاطب أقل تكليفا و مؤونة لأنها غير مقيدة بكتابة أو أي إعداد سابق للنص ، فلغة التخاطب هي إدراج كما كان يقول علماؤنا أي تسلسل عفوي لمدرج الكلام يسوده التخفيف لعفويته و لم يكن ذلك لحنا أبدا ، فالتخفيف و الدرج سمع من أفواه جميع العرب الفصحاء ، فقد استمع العلماء إلى العرب بالفعل و هم يتخاطبون في حاجاتهم اليومية فلاحظوا الكثير من التخفيف ، بل قد يكون ذلك غالبا عليهم " ¹.

و نحن نضيف أن هذا التخفيف هو صفات معينة نص عليها العلماء ، و قرئ بها القرآن الذي نزل على لغة العرب و على سنن نطقهم بها ، و لذا نجد علماء القراءات كذلك درسوا تلك الصفات بعمق شديد ، نظرا لاتصالها بالنص القرآني و آدائه التي سمعت عن الرسول صلى الله عليه و سلم بالسند الصحيح المتصل .

و معرفتها قد تغير من نظرة الكثيرين إلى العربية الفصحى ، تلك النظرة التي جعلت منها في رأي الأكثرين صعبة التلقين و التعلم ، و لو راعوا تلك الصفات التي لا تخرجها عن مسمى الفصاحة لوجدوا فيها نموذجا أخف و أيسر من الراسخ في أذهان الناس ، و أقرب إلى حاجاتهم النفسية و الاجتماعية ، و لذلك يقول عبد الرحمن حاج صالح : " فالذي ينقص العربية الفصحى في زماننا هذا و منذ القديم ، هو هذا المستوى العفوي المستخف الموجود بالفعل في العامية ، و هيهات أن يكون لحنا ، فكل ظواهر التخفيف موجودة فيها لأنها لغة مشافهة و تخاطب ، قامت مقامها العامية في هذه المشافهة العفوية ، و تحتاج الفصحى - و نعني العربية غير الملحونة - التي يتعلمها الطفل في المدرسة إلى أن يرجع إليها هذا

¹ . السماع اللغوي العلمي عند العرب و مفهوم الفصاحة ، ص 185 .

المستوى من التعبير ، و ذلك بتنبيه المعلم لتلاميذه أن هذا النطق المستخف الموجود في لغة التخاطب الذي سمع من فصحاء العرب ، و قرئ بها القرآن (و قد أحصوا كل ذلك) ليس بخطأ ، و ليس من العامية وحدها ، و يجوز أن ينطق به فب حالة التخاطب المسترسل " ¹ .

و هذا الذي يدفعنا إلى البحث في تلك الخصائص التي تميزت بها لغة التخاطب اليومية عند فصحاء العرب ، و معرفة ما تتحلى به تلك اللغة العفوية الفصيحة من ميزات ، الأمر الكفيل بتصحيح النظرة الخاطئة عن العربية .

¹ . المرجع السابق ، ص 94 .

4 - الفصل الرابع

إشكاليات المدونة التخاطبية

العفوية الفصيحة في التراث

و منهجية دراستها

4 - إشكاليات المدونة التخاطبية العفوية الفصيحة في التراث و منهجية دراستها :

1.4 - المدونة الشفاهية التخاطبية : العينات و مصادرها و مظانها

1.1.4 - ملاحظات في المدونة المقصودة بالدراسة :

إن دراسة واقع لغوي معين لابد أن يقوم على مادة متوفرة من متن تلك اللغة ، مدون و منقول على أسس علمية صحيحة و هذا ما يسمى بالمدونة ، و هو مجموع ما يسمع من الواقع اللغوي لأي مجتمع لغوي يراد دراسة لغته و خصائصها ، و المدونة التي اختصت بها اللغة العربية و هي ما يسميها القدامى المسموع هي أعظم مدونة لغوية شهدتها تاريخ البشرية¹ ، و قد جمعها علماء اللغة العرب الأوائل على أدق طرق السماع و الرواية . و ليس بوسعنا في حقيقة الأمر سوى أن نعتمد على ما ذكره أئمة النحو و اللغة مما دونوه عن أفواه العرب ، و من المعلوم لدى الدارسين ما تكبده هؤلاء من عناء الجمع و الترحال من أجل جمع اللغة و تدوينها من أفواه الفصحاء قبل ذهاب زمنهم ، و من المعلوم كذلك أنهم لم ينقلوا الشعر و عيون الخطب و الأمثال فحسب ، و إنما دونوا كل ما سمعوه من مخاطبات العرب و كلامهم ، و مصنفاتهم تزخر بذلك .

و المدونة التي نريد دراستها هي : كلام العرب اليومي من غير الأدب ، أو بعبارة أخرى ما دونه النحاة الأوائل من فصحى التخاطب العفوي الشفاهي ، فالقدامى عاشوا في زمان الفصاحة ، و شافوها فصحاء العرب ، و سجلوا ما كانوا يسمعون من مخاطباتهم ، و لم يتركوا من ذلك شيئاً على الإطلاق ، بل سجلوا كل العبارات العفوية² التي صدرت عن العرب الموثوق بفصاحتهم و نقاء سليقتهم اللغوية .

و لقد شهدت كثير من الأخبار و التراجم على أن هؤلاء لم يقصروا سماعهم على الأدب أثناء تحرياتهم ، لأنهم كانوا موضوعيين إلى درجة بعيدة لا يهتمهم القائل و المقول إلا ما يتصل بالفصاحة و شروطها ، و و رغم ذلك لم يثنيهم شيء عن نقل ما صنفوه لغات رديئة

¹ . السماع اللغوي العلمي عند العرب و مفهوم الفصاحة ، عبد الرحمن حاج صالح ص 251 .

² . نفسه ص 264 .

أو غير مطردة ، و كان منهجهم قريب نوعا ما من الوصفية العلمية قبل تأثر النحاة المتأخرين عنهم بالمنطق و جنوحهم إلى المعيارية البعيدة عن العلمية ، و المقصود أن الدراسات اللغوية على عهدهم بدأت وصفية في كثير من أصولها ثم انتهت في الفترات المتأخرة و لا سيما بعد القرون الهجرية الأربعة إلى المعيارية ، و هي في شطرها الأول عولت على استقرار المادة اللغوية من مصادرها الأصلية (السماع - المشافهة) كما ذكر علي زوين ¹ .

و لقد أشرنا من قبل إلى أن تمام حسان ذكر أن النحاة قد بنوا النحو على المسموع من كلام العرب ثم وصف هذا المسموع بقوله : ما روي من اللغة الأدبية لا لغة الكـلام و التخاطب ، و الغريب في الأمر أنه ذكر ذلك في سياق وصفهم بالموضوعية ² ، و إذا قصد بذلك أنهم لم يثبتوا فيما جمعه ما كان العرب الفصحاء يتشافهون به من كلامهم اليومي فهو بعيد عن الصواب الذي تثبته الحقائق التاريخية و الباقية في مؤلفاتهم . و قد نأى الكثيرون بفكرهم عن الاعتقاد بأن النحاة و اللغويين العرب الأوائل اقتربوا من العلمية التي بنيت عليها اللسانيات الحديثة في اعتنائهم باللغة و وصفهم إياها ، خصوصا الحداثيون المؤمنون إيماننا عميقا بالطفرة السوسيرية في اللسانيات ، و ربما لم يلتفتوا إلى جهود في استنباط قواعدهم مما قيل فعلا من اللغة العربية ، و قاموا بأعمال ميدانية جريئة في سبيل المسح الشامل للواقع اللغوي العربي ، بل و كما ذكر عبد السلام المسدي : قادهم النظر أيضا إلى الكشف عن كثير من أسرار الظاهرة اللسانية مما لم تهتد إليه البشرية إلا مؤخرا بفضل ازدهار علوم اللسان منذ مطلع القرن العشرين ³ .

و ذلك ما يدعونا إلى تأمل أعمق للمدونة التي جمعوها و نقلوها في مؤلفاتهم الكثيرة ، خصوصا تلك التي تعد أُمّات لكتب النحو و اللغة ، فإن الحس العلمي الذي تمتع به الرعيل

¹ . ينظر كتابه منهج البحث اللغوي بين التراث و علم اللغة الحديث ، دار الشؤون الثقافية بغداد العراق 1986م، ص 16

² . ينظر الأصول ص 57 .

³ . التفكير اللساني في الحضارة العربية ، ص 26 .

الأول من اللغويين العرب جعلهم لا يغفلون الواقع اللغوي العربي في عهود الفصحاة ، و من ذلك اهتمامهم بكل صغيرة و كبيرة سمعوها ممن وثقوا بعربيتهم ، كيف لا و نحن نسمع جواب الخليل بن أحمد لما سأله الكسائي من أين أخذت علمك هذا ؟ فقال : من بوادي الحجاز و نجد و تهامة ¹ ، و يقال إن الكسائي سلك طريق الخليل فمضى في رحلة بحثا عن فصحاء العرب و معه خمس عشرة قنينة حبر ، و ظل يكتب ما يسمعه من أفواههم و يدونه في صحفه حتى أنفذ كل ما حمله من حبر ² .

و هناك أخبار كثيرة شبيهة بهذه عن حرص هؤلاء في تلقف ما يسمعون من كلام العرب ، فهل يعقل ان يكون كل ذلك من اللغة الأدبية لا غير ، و ماذا كانت ستفيدهم تلك اللغة النوعية في معرفة حقيقة أساليب العرب و طرائقهم في تأدية لغتهم ما دامت وصلت إلينا كما يقرره الباحثون على نمط واحد كالتشابه الحاصل بين المعلقات و هي لشعراء من قبائل متباعدة في الموطن و اللهجة ؟ .

و يؤيد ذلك الواقع الذي نقرؤه في أهم كتاب لدينا إلى حد الآن ، و هو كتاب سيبويه المفعم بالكلام العادي الذي تنطق به العرب في أبسط أحوالها ، و يقرر عبد الرحمن حاج صالح ذلك بقوله : " إن هذا الكلام المنثور المأخوذ من لغة التخاطب اليومي كثر مجيئه كشواهد في كتب النحو ، فسيبويه يذكر منه مجموعة كبيرة جدا و يقارن دائما بين ما يسميه الكلام ، و هو الكلام المنثور من كلام العرب و بين الشعر " ³ .

و لقد أشار ابن جني إلى جهود هؤلاء العلماء و كل ما كابدوه في سبيل تتبع كلام العرب الفصحاء ، و دعا إلى النظر فيما عبر عنه بقوله : " ما كانت الجماعة من علمائنا تشاهده من أحوال العرب ووجوهها وتضطر إلى معرفته من أغراضها وقصودها ، من استخفافها شيئا أو استئثاره ، وتقبله أو إنكاره ، والأنس به أو الاستيحاش منه ، والرضا به أو التعجب

¹ . إنباه الرواة على أنباء النحاة ، جمال الدين بن يوسف القفطي ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1406هـ / 1986م ، (ج2/ ص 258) .

² . المدارس النحوية ، شوقي ضيف ص 173 .

³ . السماع اللغوي العلمي عند العرب و مفهوم الفصحاة ، ص 263 .

من قائله ، وغير ذلك من الأحوال الشاهدة بالقصود بل الحـالـة على ما في النفوس " ¹ ،
و هذا لا يكون إلا بملاحظتهم لكلام العرب في سائر أحوالهم .

و على هذا فإننا نعرّف مدونة هذه الدراسة بأنها : لغة التخاطب اليومي الشفاهي العفوي
المنقولة من أفواه فصحاء العرب في مصادر النحو العربي .

2.1.4 - الشواهد القرآنية و الأدبية ليست محلا للدراسة :

و من خلال ما سبق ذكره فإن هذه الدراسة ستقصي من الاعتبار ما يكثر الاستشهاد به
في الدرس النحوي مما اصطلح عليه باللغة الرسمية أو الأدبية ، و يشمل هذا القرآن الكريم
و الحديث النبوي ، و الشعر العربي و كذلك النثر بكل انواعه المعروفة في زمن الفصاحة
من خطابة و وصايا و أمثال على أن هناك وقفة لابد منها هنا لإيضاح بعض الأمور :
أولا : من الواجب أن نذكر أن الأنواع السالفة الذكر لا تمت إلى الموضوع بصلة كونها
ليست من اللغة الشفاهية اليومية العفوية التي نريد دراسة أوجه الاستخفاف و الاقتصاد
اللغوي فيها ، و لقد تقدم لدينا مباحث أوضحنا فيها الهوة بين اللغة الأدبية و اللغة اليومية ،
و كذا مفهوم الفصحى الأدبية و الفصحى التخاطبية ، فهما شكلان مختلفان عن بعضهما
في مجال الاستخدام و في الشكل اللغوي .

ثانيا : و من الخطأ العلمي الاعتقاد بأن تلك الأنواع لا تشتمل على ظاهرة الاقتصاد
اللغوي أو التخفيف ، لأن أكثر مظاهر التخفيف هو خاصية في اللغة البشرية على العموم
مهما كان نوع تلك اللغة ، أو المجال التي تستعمل فيه ، لكن تبقى هناك الفوارق التي
يقتضيها الفرق بين النوعين و التي قد تكشف عن خصائص اقتصادية تنحصر في لغة
التخاطب دون اللغة الرسمية كالاختلاس و إسقاط بعض الأصوات بسبب السرعة في الكلام
تماشيا مع مقام الحديث اليومي ، إلا إذا كان ذلك تعمدًا من منشد بيت الشعر كما فعل
الأصمعي في رواية أبي العيناء ².

¹ . الخصائص (ج1/ص 245) .

² . البصائر و الذخائر ، التوحيدي (ج6/ص 146) .

ثالثا : أن هناك أنواعا من اللغة الأدبية قد يعوزنا البحث إلى الاستئناس بها أثناء الدراسة لا لغرض الاستشهاد وإنما الإيضاح ، و من ذلك مثلا القراءات القرآنية التي يعتبر أصحابها عمدة في فهم قضايا كثيرة في كليات الأداء اللغوي لبعض مظاهر الاستخفاف كالروم و الإشمام و الوقف و الإمالة ، و كذلك قضية الأمثال و التي رغم كونها جزءا من الموروث الأدبي إلا أنها في الأصل تقليد شفاهي شعبي دائر على الألسن و الأفواه ، و ليس حكرا على طبقة معينة من المثقفين ، و بمرور الزمن ارتقى إلى المستوى الذي هو عليه ، و لذلك فإننا نجد أنفسنا مدفوعين إلى توظيفها .

3.1.4 - كتب النحو و جمع اللغة المعتمدة :

و نصل إلى محاولة الكشف عن بعض أهم المصادر التي تزودنا بالمدونة التي نقصدها بالدراسة ، و هي أشهر كتب اللغة و النحو المتقدمة من حيث الظهور ، و التي أرفقت ببعض التعليقات و الملاحظات التي دونها علماءنا الأوائل ، و هذا أشار إليه عبد الرحمن حاج صالح حيث قال : " و دون العلماء الكثير مما سمعوه من كلام العرب غير الشعراء ، و كانوا يملون على تلاميذهم في دروسهم نصوصا نثرية كاملة و مختصرة ، و يعلقون عليها من جميع جوانبها اللغوية و الدلالية و النحوية و الصرفية ، و هؤلاء العلماء هم أبو عمرو بن العلاء و أبو عبيدة و أبو زيد و المفضل الضبي و ابن السكيت و اللحياني و غيرهم " ¹ و مرويات هؤلاء و غيرهم كالخليل و سيبويه و الأخفش الأوسط و المبرد و الكسائي و الفراء و ثعلب و غيرهم من رؤوس مدرستي البصرة و الكوفة ، و أوائل المنظرين للنحو العربي موجودة في المصنفات النحوية ، و أمات كتب العربية كخصائص ابن جني الذي نقل بدوره كثيرا من كلام بعض أصحابه الفصحاء ، و الذين اعتبروا البقية القليلة من الفصحاء التي عاصرها هذا العالم الجليل ، و الذي يعتبر واحدا من اللغويين الذين اتصفوا بالعلمية و العبقرية في معالجة الظاهرة اللغوية .

¹ . السماع اللغوي العلمي عند العرب و مفهوم الفصاحة ، ص 264 .

1.3.1.4 - كتاب سيبويه :

و هو بنسبة كبيرة أهم مصدر يمكن التعويل عليه في مثل هذه الدراسة ، ليس لأنه أول كتاب وضع في النحو فحسب ، و إنما لا يستطيع أحد إنكار ما يحتله هذا المصنف من مكانة خطيرة في تاريخ النحو العربي بشكل عام ، و التأسيس لعلم العربية بشكل خاص ، دون ما حواه من أقوال العرب الفصحاء الذين شافهم¹ أو نقل كلامهم سماعاً من شيخه الخليل بن أحمد في الأغلب و كذلك يونس بن حبيب و الأخفش الكبير و أبي عمرو بن العلاء و عيسى بن عمر و ابن إسحاق² ، و يعرف عنه أنه دخل بوادي نجد و الحجاز و قيد كثيراً عن العرب ، و يطفح الكتاب با قيده عنهم شعراً و نثراً ، و كان موقفه من العرب دائماً أن يسجل الصورة الشائعة على ألسنتهم في التعبير³ .

و قد شهد النحاة في زمنه و رواته على ارتفاع شأنه و أهمية ما جمع فيه ، و قد ورد في ديباجته مايلي : " قال أبو إسحاق : إذا تأملت الأمثلة من كتاب سيبويه تبين أن أعلام الناس باللغة ، قال أبو جعفر : و حدثني علي بن سليمان قال : حدثني محمد بن يزيد أن المفتشين من أهل العربية و من له المعرفة باللغة ، تتبعوا على سيبويه الأمثلة فلم يجدوه ترك من كلام العرب إلا ثلاثة أمثلة : منها الهندلع و هي بقلة ، و الدرداقس و هو عظم في القفا ، و شمنصير و هي اسم أرض " ⁴ .

و قد شهد كذلك بفضل كتاب سيبويه أبو سعيد السيرافي (ت 368 هـ) الذي قال : " و عمل كتابه الذي لم يسبقه إلى مثله أحد ، و لم يلحق به من بعده " ⁵ ، " و كان المبرد إذا أراد أحد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه يقول له : هل ركبت البحر ؟ تعظيماً له و استعظاماً لما

¹ . ذكرنا في المبحث الأول من الفصل الأول صيغ سيبويه في نقله لكلام العرب الفصحاء .

² . ينظر المدارس النحوية لشوقي ضيف ، ص 81 .

³ . نفسه ، الصفحة نفسها .

⁴ . الكتاب (ج 1/ص 7) .

⁵ . أخبار النحويين البصريين ، تح : طه محمد الزيتي و محمد عبد المنعم خفاجي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده بمصر ، ط 1 ، 1374 هـ / 1955 م ، ص 37 .

فيه ، و كان المديني يقول : من أراد أن يعمل كتابا كبيرا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي " ¹ ، و ذكر الجاحظ كتاب سيبويه بأنه لم يكتب الناس كتابا في النحو مثله ، و جميع كتب الناس عليه عيال ² ، بل كان سيبويه في مجالسه يعلم تلاميذه كيف تعبر العرب عن بعض المواقف ، فقد طلب من أحدهم يوما أن يخرج و يرى اتجاه الريح ، فلما رجع أخبره أنها لا تثبت على جهة فقال سيبويه : العرب تقول في مثل هذا تذاءبت الريح أي فعلت فعل الذئب ليختل فيتوهم الناظر أنه عدة ذئاب ³ ، و مثل هذا عن سيبويه كثير ، و هو دليل على أنه خالط العرب و عرف كيف يعبرون بلغتهم عن بعض المواقف .

و ليس هناك أحد من العارفين بتاريخ النحو العربي ينكر ما لكتاب سيبويه من الفضل في ضم كلام العرب الفصحاء ، خصوصا أولئك الذين اشتغلوا على الكتاب و درسوه بعناية و عرفوا وفرة مادته التخاطبية الفصيحة ، و الذي يطلع عليه يجد أن له عدة صيغ يقصد بها ما هو من كلام العرب المسموع في خطاباتهم اليومية ، فمثلا قد يأتي بالصيغة المنقولة ثم يقول "وهو كثير في كلام العرب" ⁴ ، أو "وهو أكثر في كلام العرب" ⁵ ، أو في قوله "فهذا الغالب في كلام الناس" ⁶ ، أو "في كلام العرب" ⁷ ، وقد يقول كذلك "وهذا أكثر من أن أصفه لك في كلام العرب" ⁸ ، وقوله "وهذا الباب لأنه جرى في كلام العرب" ⁹ ، أو ينسب صيغة ما إلى قوله سمعناه أو يتكلم به "ناس من العرب كثير" ¹⁰ .

¹ . إنباه الرواه عن أنباه النحاة ، للقفطي (ج2/ص348) .

² . نفسه (ج2/ص351)

³ . طبقات النحويين و اللغويين ، الزبيدي ص 67 .

⁴ . الكتاب (ج2/ص131،182،241) .

⁵ . نفسه (ج2/ص49) .

⁶ . نفسه (ج3/ص426) .

⁷ . نفسه (ج2/ص100) .

⁸ . نفسه (ج2/ص118) .

⁹ . نفسه (ج3/ص346) .

¹⁰ . نفسه (ج4/ص123) .

2.3.1.4 - معاني القرآن للأخفش (ت 215 هـ) :

و هذا الكتاب يعد أيضا من المصنفات العظيمة في شرح غريب القرآن بناء على المعرفة العميقة بلغة العرب ، و لقد أراد الأخفش أن يعرض آراءه النحوية فوجد سبيله في النص القرآني ، و وجد في توجيهه الإعرابي للآيات متسعا لبث كل آراءه ، و لو جمعنا كل ما في هذا الكتاب من الآراء النحوية و الصرفية لوجدنا أنه لم يترك بابا من أبواب النحو و الصرف إلا أورده ، و لخرج لنا كتا نحو للأخفش يفوق كثيرا من كتب النحو و الصرف التي ألفت بعده ¹ ، و الأخفش هو أحد كبار علماء مدرسة البصرة و أكبر أئمتهم بعد سيبويه ، و كان عالما بلغات العرب ² ، مما يجعله أحد أهم المصادر في متن العربية .

و قد وردت عند الأخفش في هذا الكتاب عبارات تدل على إحاطته بالمسموع من كلام العرب ، منها قوله : تقول العرب ³ ، و العرب تقول ⁴ ، و قالت العرب ⁵ ، و ناسا أو قوما قوما من العرب يقولون ⁶ ، و بعض العرب يقول ⁷ ، و أمثلة من أشباه هذا كثير .

و لعل الاعتماد في رصد بعض أساليب العرب في التخفيف و التسهيل على هذا النوع من المؤلفات أنسب و أدعى لضبط المدونة ، لأن وجه الأداء القرآني أو القراءات هي لغات العرب الفصيحة المشهورة التي نزل بها القرآن ، و مثل هذا الكتاب يزودنا بمادة غزيرة من الاستشهاد بكلام العرب على كثير من الوجوه الأدائية في العربية ، إذا أضفنا إلى ذلك كون صاحبه من الحفاظ الثقات .

¹ . ينظر معاني القرآن ، الأخفش سعيد بن مسعدة ، تح : هدى محمود قراعة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر ، ط 1 ، 1411هـ/1990م ، (ج1/ص26) .

² . المدارس النحوية ، شوقي ضيف ص 95 .

³ . معاني القرآن (ج1/ص270 ، 310 ، 347) ، (ج2/ص513) .

⁴ . نفسه (ج1/ص61 ، 335 ، 376) ، (ج2/ص430) .

⁵ . نفسه (ج1/ص37 ، 52 ، 175) ، (ج2/ص402) .

⁶ . نفسه (ج1/ص15 ، 38 ، 320) .

⁷ . نفسه (ج1/ص9) ، (ج2/ص422 ، 569) .

3.3.1.4 - معاني القرآن للفراء :

و هذا الكتاب كذلك مليء بما تتكلم به العرب الفصحاء في مخاطباتها اليومية ، و يعدّ صاحبه واحدا من الأئمة المتقدمين في النحو ، و كتابه هذا من سابقة في مجال الدرس اللغوي و النحوي القائم على تفسير القرآن و إيضاح معانيه ، و هو فيه لا يفسر الذكر الحكيم بالطريقة المعروفة ، و إنما يتخير من البيات على ترتيب السور ما يدير وله مباحثه اللغوية و النحوية ، و بالتالي يحل مشكلها و يوضح غامضها ، مدليا دائما بآرائه النحوية ، و معبرا بما اختاره للنحو من مصطلحات جديدة ، ناثرا من حين إلى حين آراء أستاذه الكسائي و آراء النحويين البصريين ¹ .

و كان الفراء نحويا لا على طريقة المقلدين و إنما واحد من أولئك المجددين في الدرس النحوي ، و كان يعرف طبائع العرب في كلامها ، و أساليبها في تعاطي الإعراب ، و من أخباره انه دخل على هارون الرشيد فتكلم بكلام لحن فيه مرات ، فقال له الرشيد : أتلحن ؟ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن طباع أهل البدو الإعراب ، و طباع أهل الحضر اللحن ، فإذا تحفظت لم ألحن ، و إذا رجعت إلى الطبع لحننت ، فاستحسن الرشيد قوله ² .

و إن كانت هذه الحادثة تدل على معرفة الفراء بكلام العرب و مداخله ، فإن كتابه معاني القرآن كما أشرنا لا يخلو من منقول عن كلام العرب الفصيح الذي يستدل به على مسائله لا هو من الشعر و لا من النثر ، و إنما من كلام الناس العادي ، أو لغة الحياة اليومية و ذلك بصيغ قريبة جدا من صيغ سيبويه كقوله : سمعت العرب تقول ، العرب تقول ، كقول العرب ، من ذلك قول العرب ، العرب تقوله في كلامها ، سمعنا العرب من أهل هذه اللغة ، و غير ذلك مما ينقله عن شيخه الكسائي كذلك ³ .

¹ . المدارس النحوية ، شوقي ضيف ص 194 .

² . ينظر طبقات النحويين و اللغويين للزبيدي ص 131 .

³ . السماع اللغوي العلمي عند العرب و مفهوم الفصاحة ، عبد الرحمن حاج صالح ص 256 ، 257 .

4.3.1.4 - مجالس أبي العباس ثعلب (ت 291 هـ) :

هذا الكتاب هو مصنف عظيم يحوي وفرة هائلة من المادة الفصاحية المسموعة عن العرب ، خصوصا و أن صاحبه أبو العباس ثعلب شهد ببراعته في النقل و الحفظ و قوة استحضاره للشواهد مما سمع عن العرب ، و لشدة حذقه بالعربية كان لا يتكلف إقامة الإعراب في كلامه ¹ ، و هذا شأن من عرف طرائق العرب في التعامل مع لغتها بمرونة .

و يذكر عبد السلام هارون في مقدمة تحقيقه لمجالس ثعلب أنها اشتملت على ضروب شتى من علوم العربية ، و ضمت في تضاعيفها كثيرا من المسائل النحوية على مذهب الكوفيين ، و نستطيع أن نقول إن هذه المجالس هي من أهم الوثائق العلمية في بيان مذهب أهل الكوفة ، و ضمت كثيرا من أشعار العرب و أخبارها الموثوقة ² ، تلك الأخبار التي استمدت مصداقيتها من قدر الإمام ثعلب و اشتهاره بالصدق .

و الإمام ثعلب واحد ممن عرفوا بضبط المرويات و الوثوق من الأخبار ، خصوصا و أنه جرى على مذهب الكوفيين من التوسع في السماع ، و الاجتهاد في المسائل و الانتصار لشيخه الكسائي و الفراء ، و الدفاع عنهما دفاعا أساسه الاحتكام إلى السماع و الرواية و الإحاطة بالشاذ و النادر من اللغة و تصاريফها على ألسنةيوخه العرب ³ .

و قد وردت عنه أو نقلا عن شيوخه عبارات تدل على استشهادهم بمادة متكاثرة من كلام العرب المسترسل العادي المأخوذ من اللغة العفوية اليومية ، منها قوله : سمعت العرب تقول ⁴ ، و كذلك صيغة : تقول العرب ⁵ ، و صيغة : العرب تقول ⁶ ، و قوله : هذا كثير

¹ . إنباه الرواه للقفطي (ج1/ ص 174 ، 175) .

² . ينظر مجالس ثعلب ، تح : عبد السلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، (ج1/ ص 24) .

³ . المدارس النحوية ، شوقي ضيف ص 237 .

⁴ . مجالس ثعلب (ج1/ ص 43) ، (ج11/ ص 553) ، (ج12/ ص 590)

⁵ . نفسه (ج8/ ص 349) ، (ج10/ ص 492)

⁶ . نفسه (ج5/ ص 207 ، 216 ، 227) ، (ج6/ ص 272 ، 273) .

في كلام العرب¹ ، و صيغة : قالت العرب² ، و ما إلى ذلك .

5.3.1.4 - العين للخليل بن أحمد :

هذا المعجم الأول في العربية جمعه الخليل مما سمعه عن العرب الفصحاء من تحرياته الميدانية ، و مخالطته للفصحاء سنوات طويلة ، و لقد شهد له معاصروه و من بعدهم بالتفوق و الصدارة في علم العربية ، و لم يكن علمه الذي نقرأ بعضه في معجم العين قائما على الفرضية و التخمين ، و إنما استقره العربية استقراء أقرب ما يدعى بالإحصاء في عصرنا الحاضر ، ففيض له أن ينتهي إلى كتاب العين ، فكان أول معجم في العربية ، و هو عمل جد كبير إذا عرفنا انه من المعجمات الأولى في تاريخ الإنسانية³ .

و لقد جاء في مقدمته أن الخليل أراد به أن تعرف به العرب في أشعارها و أمثالها و مخاطبتها⁴ ، و هو إشارة واضحة إلى اعتماد الخليل على محاورات العرب لبعضها البعض و كلامها اليومي إذ كان جاريا على الفصاحة و يصح الاستشهاد به .

و لذلك نجد الخليل يستشهد بما تتقوه به العرب من عاداتها في الكلام ، بصيغ هي الأخرى قريبة من الصيغ التي وردت عند تلامذته من بعده ، و منها صيغة : العرب تقول⁵ ، تقول⁵ ، و صيغة : تقول العرب⁶ ، و قوله : هكذا كلام العرب⁷ و ما إلى ذلك .

و لقد أثبتت الدراسات المعجمية بشكل خاص و اللغوية بشكل عام أن الخليل بن أحمد صاحب منهج رياضي صرف في كل ما توصل إليه من علوم العربية ، كالعروض و موسيقى الشعر و العمل المعجمي ، و قد قامت بحوثه كلها على الإحصاء و الاستقصاء

¹ . المصدر السابق (ج 6 / ص 273) .

² . نفسه (ج 4 / ص 170) .

³ . كتاب العين للخليل بن أحمد ، تح : مهدي المخزومي و إبراهيم السامرائي ، (ج 1 / ص 7) .

⁴ . نفسه ، (ج 1 / ص 47) .

⁵ . نفسه ، (ج 1 / ص 276، 292، 259، 62) ، (ج 2 / ص 265) ، (ج 3 / ص 35) ، (ج 5 / ص 347) ، (ج 6 / ص 70) .

⁶ . نفسه ، (ج 3 / ص 317) ، (ج 4 / ص 125) ، (ج 5 / ص 224 ، 230) ، (ج 7 / ص 31) ، (ج 8 / ص 177، 154، 148) .

⁷ . نفسه ، (ج 1 / ص 259) ، (ج 2 / ص 125) .

الدقيق ، و لم يكن الخليل ليتوصل إلى متن اللغة المستعمل منه و المهمل إلا بفضل التقاليد بناء على أدنى ما يتكون منه اللفظ إلى أقصاه ، و هو عمل قائم على إدراك مجموع الألفاظ المتحققة في واقع الاستعمال الفعلي للعربية عند العرب الفصحاء ، و قد أحاط بذلك من مخالطته للعرب و سماع كلامهم كله دون تمييز ، و لو أنه قصر اهتمامه على اللغة الأدبية لما أمكنه الوقوف على دلالة جميع ما تتكلمه العرب ، لأنه يستحيل أن يوجد جميعا في اللغة الأدبية مهما كان حجمها .

و الكتب المتقدمة الذكر و غيرها توقفتنا على بعض ما يمكننا إدراجه في اللغة العربية الشفاهية العفوية في عصر الفصاحة ، على أننا لا يمكن أن نجزم بأن جميع ما احتوته من هذه المادة يفيدنا في دراسة ظواهر التخفيف لأنها ليست بالضرورة مشتملة عليها ، و إن اشتملت فلا نجزم بأن أصحابها نصوا على تلك المسائل فيها ، و إنما نحتاج إلى التنقيص على تلك المسائل إذا كانت صوتية بحتة لا يوضحها إلا السماع المباشر للمنطوق كالإشمام و الروم و الإمالة و غيرها .

و ما جعلنا نؤخر الحديث عن كتاب العين ما اشتهر من الخلاف في صحة نسبته إلى الخليل ، و هذا ليس بالأمر الهين إذا قرأنا ما ذكره السيوطي في شأنه قائلا : " وأما كتابُ العين فقد أطبق الجمهور من أهل اللغة على القَدْح فيه " ¹

4.1.4- القراء و المصادر المؤلفة في القراءات :

علم القراءات القرآنية هو من أجل العلوم و أكثرها شيوعا في ميدان التعليم الشرعي عند المسلمين ، و هو علم قائم على الرواية و الإسناد المتصل إلى النبي صلى الله عليه و سلم الذي قرأه على لغات العرب كما أنزل عليه ، و القراءات القرآنية وجوه أدائية صوتية أو بنائية أو نحوية أجزئ أن تقرأ بها آيات القرآن الكريم ² .

¹ . المزهر (ج1/ص117) .

² . التفسير اللغوي الاجتماعي للقراءات القرآنية ، هادي نهر ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن ، ط 1 ، 1429هـ/2008م ، ص 26 .

و هناك قضية تلفت الانتباه في نزول القرآن على سبعة أحرف ، هي أنها كانت لحكم كثيرة من أجلها نزوله على مجتمع أغلبه أمي يتكلم العربية على طبيعته ، و هناك حديث يروي أن الرسول صلى الله عليه و سلم لقي جبريل عليه السلام عند أحجار المرأ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم لجبريل : إني بعثت إلى أمة أميين فيهم الشيخ الفاني و العجوز الكبيرة و الغلام ، قال : فمرهم فليقرؤوا القرآن على سبعة أحرف ¹ ، و لذلك جاءت ظواهر التخفيف و الإدراج في بعض القراءات جريا على حال العرب ، و لذلك قال عبد الرحمن حاج صالح : " أما عن تفسير وجود التخفيف في جميع خطاباتهم إذا أدرجوا و لم يحققوا ، فلأنهم كانوا أميين في أغلبيتهم الساحقة ، يتناقلون إنتاجهم الفكري و الفني مشافهة جيلا بعد جيل ، و لا يعتمدون في ذلك على كتابة معينة إلا في أحوال غير مطردة " ² .

و ليس الأمر مقتصرًا على ظواهر التخفيف و تسهيل النطق فحسب ، فإن علم القراءات من أهم العلوم التي حفظت لنا آداءات العرب في نطقهم لغتهم و كيفية تصويتها لكلامها ، فالحكمة في اشتمال القراءات على معظم لهجات العرب و صفاتها كانت له غاية عظيمة ، هي توحيد العرب الذين كانوا متفرقين قبل نزول القرآن ، بحيث نجد لكل قبيلة ألفاظ من اللهجة التي تتكلم بها ، و لعل ذلك أوحى بوجود لغة واحدة تكون اللغة النموذجية للعرب جميعا ³ ، و لا يقصد بذلك أنها لغة فوق الجميع أو لغة يفهمها الخاصة دون العامة .

و قد أسهمت الصبغة الشفاهية لرواية القرآن الكريم ، و إقراءه للناس في البلدان و الأمصار على ترسيخ هذا التنوع في القراءة و الأداء ، في الزمن الذي سبق إيجاد النقط

¹ . النشر في القراءات العشر ، ابن الجزري (ج 1/ص 20) .

² . السماع اللغوي العلمي عند العرب و مفهوم الفصاحة ، ص 188 .

³ . ينظر القراءات و أثرها في علوم العربية ، محمد سالم محيسن ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، مصر ،

1404هـ/1984م ، (ج1/ص82).

و الشكل في القرآن ¹ ، و لذلك فإن العادات الشفاهية للعرب هي الأصل الأصيل في كون القرآن متصلا إلى الرسول صلى الله عليه و سلم بكل تلك الوجوه .

و لذلك فإن كتب القراءات و المصادر المؤلفة فيها ، كفيلة بان تطلعنا على تلك الصفات الشفاهية العربية التي نطق بها العرب ، خصوصا و أنها علم متين الإسناد صحيح النقل لا يدع اي مجال للشك في كون العرب تكلموا على تلك الطرائق .

و من بين أهم الكتب المصنفة في ذلك كتاب الحجة لأبي علي الفارسي (ت 377 هـ) ، و كتاب الكشف لمكي ، و كتاب الهداية للمهداوي ، و في توجيه شواذ القراءات كتاب المحتسب لابن جني و كتاب أبي البقاء و غيرها كما ذكر الزركشي (ت 794 هـ) ² ، و كذلك النشر في القراءات العشر لابن الجزري (ت 833 هـ) و هو أيضا من أشهر المصنفات في القراءات .

و ينبغي التنبيه إلى أن الصفات الشفاهية للعربية الفصيحة التي نود الوقوف عليها في القراءات نجدها بصورة اوضح في تلك المعروفة بانها قراءة الحدر ، و " الحدر بفتح الحاء وسكون الدال المهملتين وهو إدراج القراءة وسرعتها وتخفيفها بالقصر والتسكين والاختلاس والبدل والإدغام الكبير وتخفيف الهمزة ونحو ذلك مما صحت به الرواية مع مراعاة إقامة الإعراب وتقويم اللفظ " كما عرفه السيوطي (ت 911 هـ) ³ ، و عرفه ابن الجزري بأنه : " عبارة عن إدراج القراءة وسرعتها وتخفيفها بالقصر والتسكين والاختلاس والبدل والإدغام الكبير وتخفيف الهمز ، ونحو ذلك مما صحت به الرواية، ووردت به القراءة مع إيثار الوصل ، وإقامة الإعراب ومراعاة تقويم اللفظ ، وتمكن الحروف ، وهو عندهم ضد التحقيق

¹ . ينظر التوجيه النحوي و الصرفي للقراءات القرآنية عند أبي علي الفارسي في كتابه الحجة للقراء السبع ، سحر سويلم راضي ، بلنسية للنشر و التوزيع ، المنوفية ، مصر ، ط1 ، 1429هـ/2008م ، ص 19 .

² . البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين الزركشي ، تح : أبو الفضل الدمياطي ، دار الحديث ، القاهرة ، مصر ، 1427هـ/2006م ، ص 235 .

³ . الإتيقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي ، تح : سعيد المنذوب ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 1416هـ/1996م ، (ج1/ص265) .

"¹ ، و هي كما نرى قراءة تراعي الجانب التخفيفي في اللسان مما يقع في الكلام اليومي العفوي .

و هذه القراءة معروفة عن بعض القراء دون بعض ، يقول ابن الجزري : " وهذا النوع ، وهو الحدر : مذهب ابن كثير وأبي جعفر وسائر من قصر المنفصل ، كأبي عمرو ويعقوب وقالون والأصبهاني عن ورش في الأشهر عنهم ، وكالولي عن حفص ، وكأكثر العراقيين عن الحلواني عن هشام "² .

و لهذا فليس هناك أدنى شك في أننا سنفيد إفادة عظيمة من علم القراءات و ما ألف فيه من ناحيتين ، أولاهما : الوقوف على المفهوم الدقيق لظواهر التخفيف و كيفية آدائها ، ثانيهما : العثور على بعض المرويات عن العرب التي قد ترد عرضا للتمثيل من كلام العرب الفصحاء على المسألة و كذا نسبة تلك الكيفية إلى قبيلتها .

2.4- التحديد المنهجي للمدونة في البحث (الإطار الزمني و المكاني)

1.2.4- قضية زمن الفصاحة و أطرها الجغرافية :

إن المدونة التي يراد عرضها في هذا البحث ، و كشف خصائصها التي نص عليها علماء اللغة و النحو القراءات ، هي التي يطلق عليها : عربية التخاطب اليومي الفصيحة ، و يقصد بها : ما سمع عن العرب الفصحاء من كلامهم العادي في شؤونهم العامة في عصر التدوين و جمع اللغة قبل فساد الألسن و فشو اللحن ، على أننا لا بد ان نعترف أن هذه المسألة هي محل خلاف نسبي بين الدارسين العرب ، فهم مع اتفاقهم في مفهوم اللغة الاحتجاجية ، إلا أن هناك بعض الجدل في الرقعة الجغرافية التي تم فيها السماع و القبائل المحتج بلغتهم ، و مثل ذلك الحد الزمني الذي توقف فيه الاحتجاج في الطبقة الأخيرة من العرب الفصحاء الذي يوثق بعربيتهم .

¹ . النشر في القراءات العشر (ج1/ص207)

² . نفسه ، الصفحة نفسها .

و على هذا من الصعب بمكان التحديد الدقيق و المسبق للإطار الزماني و المكاني
للمدونة المدروسة ، لكننا يمكننا القول إن المصادر التي ذكرناها سابقا و على رأسها كتاب
سيبويه ، يحصل بالاعتماد عليها الاطمئنان الذي يغلب على الظن أنه صادر من شهرة
أصحابها في دقة السماع و الصرامة في الأخذ عن العرب .

و قد عرف السيوطي ¹ السماع بأنه : " ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته ، فشمّل
كلام الله تعالى و هو القرآن ، و كلام نبيه صلى الله عليه و سلم ، و كلام العرب قبل
بعثته ، و في زمنه ، و بعده ، إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولدين نظما و نثرا ،
عن مسلم و كافر " .

هذا هو الأساس في سماع النحاة الأوائل ، فهم حاولوا جاهدين الإحاطة بلغة العرب
الفصحاء لما أحسوا ببداية فسادها و ذهابها بالكلية ، " و بلغت عملية جمع اللغة و تدوينها
أوج نشاطها في القرنين الأول و الثاني الهجريين ، و كان أول من ابتدأ به علماء البصرة ثم
علماء الكوفة فعلماء بغداد ، و قد جعلوا من البادية مجالا لاستقراهم و لسماعهم اللغة
الفصحى من سكانها الذين لم تشب ألسنتهم شائبة لحن و لم تفسدها عجمة ، يروون ما
يسمعون و يكتبون في صحفهم التي لا تفارقهم في حلهم و ترحالهم " ² .

و في هذه اللغة المجموعة ، و على خلاف الشعر الذي حددوا طبقات المحتج بهم ، فإن
الكلام المنثور الذي لا يدخل في اللغة الأدبية ، و هو كما يقدمه أحمد مختار عمر على أنه
ما نقل عن بعض الأعراب و من يستشهد بكلامهم في حديثهم العادي ، فقد وضع اللغويون
شروطا تشمل الزمان و المكان بالنسبة لهذا النوع من المادة ، أما من ناحية الزمان فقد
حددوا نهاية الفترة التي يستشهد بها بآخر القرن الثاني الهجري بالنسبة لعرب الأمصار ،
و آخر القرن الرابع بالنسبة لعرب البادية ، و اما المكان فقد ربطوه بفكرة البداوة و الحضارة ،

¹ . الاقتراح في علم أصول النحو ، تح : محمود سليمان ياقوت ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، 1426هـ/2006م ، ص74 .

² . الشاهد و أصول النحو في كتاب سيبويه ، خديجة الحديثي ص 130 .

فكلما كانت القبيلة بدوية أو أقرب إلى حياة البداوة كانت لغتها أفصح ، و الثقة فيها أكثر ،
و كلما كانت متحضرة أو إلى حياة الحضارة كانت لغتها محل شك و مثار شبهة " ¹ .

و قد بين ذلك ابن جني في أحد أشهر الأبواب التي أفردتها في الموضوع قائلاً : " باب
في ترك الأخذ عن أهل المدر كما أخذ عن أهل الوبر : علة امتناع ذلك ما عرض للغات
الحاضرة وأهل المدر من الاختلال والفساد والخلل . ولو علم أن أهل مدينة باقون على
فصاحتهم ، ولم يعترض شئ من الفساد للغتهم ، لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل
الوبر ، وكذلك أيضا لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة
وخبالها وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها لوجب رفض لغتها وترك تلقي ما يرد عنها ،
وعلى ذلك العمل في وقتنا هذا لأننا لا نكاد نرى بدويا فصيحاً . وإن نحن آنسنا منه فصاحة
في كلامه ، لم نكد نعدم ما يفسد ذلك ويقدر فيه ، وينال ويغض منه " ² ، و قد سمى
السيوطي القبائل التي ترك الأخذ عنها بأسمائها ، ممن خالطوا الأعاجم لقربهم منهم ،
و كون مواطنهم على أطراف بلاد العرب ³ .

و هؤلاء اللغويون المقصودون بجمع اللغة و الذين قاموا بمشاهدة العرب هم المتقدمون
الأوائل المعروفون ، و على رأسهم أبو عمرو بن العلاء من علماء البصرة ، و الذي ابتدع
طريقة السماع اللغوي الميداني ، و لم يسبقه إلى ذلك أي لغوي آخر ، و من علماء الكوفة
المفضل الضبي (ت 168 هـ) ، و قد سار على نهج أبي عمرو : الأصمعي و أبو عبيدة
و أبو زيد الأنصاري (ت 215 هـ) ، و سمع عنه عيسى بن عمر الثقفي (ت 149 هـ) و الخليل
بن أحمد الفراهيدي و يونس بن حبيب (ت 182 هـ) و أبو الخطاب الأخفش (ت 180 هـ) و أبو
عمر اليزيدي و أبو جعفر الرؤاسي (ت 175 هـ) ، و قد اختص الخليل من بين هؤلاء باتساع
سماعه ، و صرح تلميذه سيبويه بأن أكثر ما يرويه شيخه موجود في الاستعمال الحقيقي

¹ . البحث اللغوي عند العرب ، أحمد مختار عمر ص 50 .

² . الخصائص (ج 2/ص 5) .

³ . المزهر (ج 1/ص 212) .

لفصحاء العرب ، و قد أفاد من سيبويه الأخفش و قطرب ، إضافة إلى علماء الكوفة كالكسائي و خليفته الفراء ، فهؤلاء هم المؤسسون الحقيقيون للسمع اللغوي العلمي ، و كلهم مدينون لأبي عمر بن العلاء المبادئ العلمية التي بنى عليها السماع و طريقته و تقنياته¹ . هذا ما يجعلنا حين الاعتماد على الكتب السالفة الذكر ، و نقصد بذلك كتاب سيبويه و معاني القرآن للأخفش و الآخر للفراء و مجالس ثعلب و العين للخليل و ما شابهها ، مطمئنين حين الأخذ بها ، خصوصا حين نعلم أن هؤلاء عاشوا في القرن الثاني و بداية الثالث الهجريين و هو زمن كانت الفصاحة فيه لا تزال شائعة في قبائل العرب ، و نعرف حينئذ أن ما ننقله من فصحي التخاطب العفوي الشفاهي المسموع و المنقول عند هؤلاء هي مادة لا يعتورها الشك من أي وجه من الوجوه .

2.2.4- لغات بعض القبائل و خصوصيتها في الموضوع :

لقد تقدم لدينا أن اللغة التخاطبية المشتركة بين العرب الفصحاء إنما هي إفراز نهائي لتصادم اللهجات العربية قبيل مجيء الإسلام و أثناءه و بعده ، و ذلك ما كشفت عنه بعض خصائص العربية من نسبة بعض الصفات النطقية و الآدائية لبعض القبائل المشهورة بالفصاحة دون بعض ، كقريش و قيس و تميم و أسد و هذيل و بعض الطائيين كما نص على ذلك أبو نصر الفارابي في كتابه المسمى الألفاظ و الحروف² ، و تلك القبائل التي نص اللغويون الأوائل على نسبة بعض الآداءات إليها ، كان بعضها مشهورا بالتحقيق مقابل اشتهار البعض الآخر بالتخفيف ، و هذا نسبي إضافي : فإن قريشا مثلا اشتهرت بتسهيل الهمز على أن الشائع في العربية الفصحى الباقية تحقيقه على لغة تميم³ ، و هو من أدلة القائلين بالامتزاج المتساوي للهجات في الفصحى دون سيطرة اللهجة القرشية .

¹ . ينظر السماع اللغوي العلمي عند العرب و مفهوم الفصاحة ، عبد الرحمن حاج صالح ص 337 - 342 .

² . ينظر المزهر ، السيوطي (ج1/ص211) .

³ . راجع على سبيل المثال المخصص لابن سيده (ج5/ص175) .

و نقصد من ذلك أن علماء النحو و القراءات نقلوا في تصانيفهم كثيرا من طرق التخفيف في اللغة على أنها عرف راسخ في لهجات بعض القبائل التي أسهمت لهجاتها في صناعة اللغة المشتركة التخاطبية دون الأدبية التي يرى اللغويون أنها وصلت إلينا عبر الأجيال في صورة لا تشعر فيها بأدنى خاصية لهجية¹ ، مع أن هذا القول في حد ذاته لا يتوافق مع الواقع التاريخي و الآني للغة العربية .

أما من الناحية التاريخية فقد أثبت اللغويون تكون الفصحى من خليط اللهجات ، و إذا كان هذا صحيحا فمن الاستحالة بمكان أن نعجز عن نسبة صيغة معينة إلى قبيلة بعينها ، و لو كان ذلك في الشعر ، و هذا ما كان يفعله النحاة الأوائل في قولهم : هذه لغة قيس و تلك لغة هذيل و غيرها ، و أما الواقع المشاهد في اللغة الفصحى فشيوع تحقيق الهمز مثلا الذي هو من خصائص لغة تميم و ليس من خصائص لغة قريش ، الذين زعم أكثر المستشرقين و من تابعهم من الدارسين العرب أنها قاعدة اللغة الفصحى .

و هذا يتأكد بصورة أكبر في متناثر اللغة اليومية التخاطبية للعرب الفصحاء ، و التي دونها علمائنا الأوائل ، إذ إنهم ينسبون اللغة إلى قبيلة بعينها دون استهجان لها أو استبعادها من الفصاحة أو الاستعمال و الشيوع ، و قد قال ابن جني : " وكيف تصرفتم الحال فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ " ² .

و على ذلك فإننا بالرغم من بعد المدونة التي نريد دراستها من أن تكون ذات توجه لهجي محض ، فإن نسبة بعض أوجه التخفيف و الاقتصاد اللغوي المتعلق باللغة التخاطبية اليومية العفوية الفصيحة إلى بعض القبائل لا ينفي فصاحتها أو بعدها عن القياس و لا يعني كذلك اقتصارها على تلك القبيلة ، و إنما يعني سلوكها في كلام العرب مسلكا ارتضاه العرب

¹ . في اللهجات العربية ، ابراهيم انيس ص 38 ، و هو يقول في هذا الصدد : " و لذلك رويت لنا الآثار الأدبية القديمة في لغة موحدة ، لا تشتمل على خصائص من تلك التي رويت عن اللهجات العربية القديمة " ، لكن ابراهيم أنيس حاول قبل ذلك أن يجعل الهوية شاسعة بين لغة الأدب و لغة التخاطب عند العرب ، و هذا كما رأينا من قبل هو مجرد رأي شائع بين اللغويين تأثرا بالمستشرقين ليس عليه أي دليل و لا نص عليه أحد من القدماء .

² . الخصائص (ج2/ص12) .

الفصحاء و تكلموا به و لم ينكروه ، لا هم و لا النحاة بعدهم ، و قد نص العلماء أن قريشا لم تكن أفصح العرب باقتصارها على لغتها المحلية ، و إنما بانتقائها لما تسمعه من القبائل الأخرى ما يسهل نطقه على اللسان عند النطق كما ذكر الفارابي¹ ، و تتخير من كلامها و أشعارها أحسن لغاتهم و أصفى كلامهم كما ذكر ابن فارس² ، و لا يمكن أن نتصور أنها أخذت منهم أساليب الت فخيم و التشادق و الإغراق و تركت أساليب التخفيف و التسهيل و هم أميل إلى ذلك ، بل الفطرة البشرية تتطلب ذلك .

و هؤلاء النحاة و هم ينقلون لنا كلام العرب المسموع على الطبيعة ، فإنهم و لا شك سمعوه من عرب لا ينفكون عن كونهم من هذه القبيلة أو تلك ، كيف و نحن نعلم أنهم كانوا يقصدون قبائل بعينها لشهرتها في الفصاحة ، و بعدها عن ما يبث الشك في لغتها ؟ . و على ذلك أيضا ، لا غرابة من أن تكون بعض لغات القبائل الفصيحة ، و بعض المسموع الشائع في العربية من لهجتها ذات خصوصية في الموضوع ، و نحن نأخذ على سبيل المثال لغة تميم .

فمع أن لغة تميم اشتهر عنها تحقيق الهمز على خلاف الحجازيين³ ، فإن أكثر ما نقل عنهم التخفيف في كثير من المواضع التي نص عليها النحاة و اللغويون ، و من أمثلة ذلك ما ذكره سيبويه حيث قال : " فإن قلت : ما بال قال صرف اسم رجل ، وقيل التي هي فعل ، وهما محدودان عن البناء الذي هو الأصل ؟ فليس يدخل هذا على أحـد في هذا القول ، من قبل أنك خففت فعل وفعل نفسه ، كما خففت الحركة من علم ، وذلك من لغة بني تميم ، فتقول : علم كما حذفتم الهمزة من يرى ونحوها ، فلما خففت وجاءت على مثال ما هو في الأسماء صرفت ، وأمّا عمر فليس محذوفا من عامرٍ كما أن ميّتا محذوف من ميّيتٍ ، ولكنه اسمٌ بني من هذا اللفظ وخولف به بناء الأصل ، يدلك على ذلك : أن مثني

¹ . المزهر للسيوطي (ج1/ص211) .

² . ينظر الصاحبى ص 23 .

³ . المخصص لابن سيده (ج5/ص175) .

ليس محذوفاً من اثنين ، وإن سُميت رجلاً ضرب ثم خَفَفته فأسكنت الراء صرفته ، لأنك قد أخرجته إلى مثال ما ينصرف كما صرفت قيل ، وصار تخفيفك لضرب كتحقيقك إيَّاه ، لأنَّك تخرجه إلى مثال الأسماء ، ولو تركت صرف هذه الأشياء في التخفيف للعدل لما صرفت اسم هارٍ ، لأنه محذوف من هائرٍ " ¹ .

و من أمثلة ذلك قول ابن مالك : " فصل : إذا تحرك المثلان في كلمة وجب تسكين أولهما وإدغامه ، وكذلك مثال : إِبِل ، لو بني من مضاعف لوجب فكه أيضاً لمخالفة وزنه وزن الفعل ، وقد منعوا إدغام فَعَل اسماً كطَلَّ مع كونه على وزن الفعل ، قصدوا بذلك التنبيه على فرعية الاسم في الإدغام وعلى خفة الفتحة ، وأنَّ المتحرك بها إن لم يكن فعلاً ولا اسماً مزيداً فيه مستغن عن التخفيف بالإدغام استغناءه عن التخفيف بالتسكين عند ملاقة غير المثل ، بخلاف المتحرك بالكسرة والضمة فإنَّه خفف بالتسكين مع غير المثل نحو : كَبِدٍ ، وَعَضُدٍ ، فَقِيلَ فيهما : كَبُدْ ، وَعَضُدْ ، وذلك مطرد في لغة تميم " ² .

و مثله قول الرضي الاسترأبادي : " كذا قولهم غزى بالياء دون الواو غزى لعروض سكون الزاى ، فليس التخفيف فى مثله لكرهه الانتقال من الاخف إلى الاثقل كما كان في كتف وعضد ، كيف والكسرة أخف من الضمة والفتحة أخف من الكسرة ؟ بل إنما سكن كراهة توالى الثقيلين في الثلاثي المبني على الخفة ، فسكن الثاني لامتناع تسكين الأول ، ولأن الثقل من الثاني حصل ، لانه لأجل التوالى ، ولتوالى الثقيلين أيضاً خففوا نحو عنق وإبل بتسكين الحرف الثاني فيهما ، وهذا التخفيف في نحو عنق أكثر منه فيى إبل ، لان الضمتين أثقل من الكسرتين حتى جاء في الكتاب العزيز وهو حجازى رسلنا ورسلم ، وهو في الجمع أولى منه في المفرد لثقل الجمع معنى ، وجميع هذه التفريعات في لغة تميم " ³ .

¹ . الكتاب (ج3/ص227،226)

² . إيجاز التعريف في علم التصريف ، محمد ابن مالك ، تح : محمد المهدي عبد الحي عمار سالم ، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، السعودية ، ط1 ، 1422هـ / 2002م ، ص 204 .

³ . شرح شافية ابن الحاجب (ج1/ص44) .

و في إعراب القرآن للنحاس (ت 338 هـ) : " وقرأ مجاهد وطلحة وعيسى (اثنتا عشرة عينا) وهذه لغة بني تميم وهذا من لغتهم نادر لأن سبيلهم التخفيف " ¹ .

و هكذا فالأمثلة كثيرة في شواهد النحو و كتب القراءات ، على أن تميما عرفوا على العموم بميلهم إلى التخفيف ، و لذلك فإن قراءة أبي عمرو بن العلاء و المعروفة بكثرة التخفيف و الاختلاس ، و هي من القراءات المتواترة كانت أغلب آدائها تنسب إلى لغة تميم ، و هو الذي كان يقول فيهم : " أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم " ² .

3.2.4 - إشكالية الفصحى التخاطبية العفوية كمدونة :

و بالرغم من كل ما سبق ذكره عن جهود النحاة العرب الأوائل في جمع ما أمكنهم من كلام العرب الفصحاء ، فإننا نجد حقائق حول المدونة في المقابلة بين اللغة الفصحى الأدبية و اللغة الفصحى التخاطبية ، و هي كثرة الأولى و وفرة مادتها و تكاملها مقابل قلة الثانية في الكم و عدم تكامل صورتها التي نريد .

و نقصد بهذا الكلام أن اللغة الأدبية في الواقع أقل بكثير من اللغة التخاطبية فيما تفوه به العرب الفصحاء في عصور الاحتجاج ، و لحسن الحظ تظن كبار النحاة من أمثال الخليل و سيبويه و الكسائي و الأخفش و قبلهم أبو عمرو بن العلاء إلى أهمية تدوين المسموع من كلام العرب حتى لو لم يكن من قبيل الشعر و الخطابة و غيرهما من فنون القول في تلك الفترة ، لعلمهم بأن اللغة الأدبية لا يمكن أن تحيط بكل أساليب العرب في كلامها و ضروب تصرفها في تلك اللغة ، و رغم هذا كثرة وجود ذلك في كتبهم فإنه قليل مقابل ما حفظ من الأدب ، على حساب فصحى التخاطب العفوي الشفاهي الدائر في الحياة اليومية للفصحاء . و ما زاد من عمق الإشكال هو نزوع المتأخرين من النحاة إلى التركيز بصورة كبيرة على اللغة الأدبية ، بحجة أنها أقرب إلى صورة اللغة الموحدة المشتركة ، و بالتالي فإن القواعد

¹ . إعراب القرآن ، أبو جعفر النحاس ، تح : زهير غازي زاهد ، عالم الكتب ، بيروت ، لبنان ، 1409هـ/1988م ، (ج1/ص230) .

² . البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين الزركشي (ج1/ص283) .

التي تستنبط منها يكون لها وصف الشمولية و الابتعاد عن التناقض الذي يجعل مقاييس النحو يضرب بعضها بعضا ، مع أننا رأينا أن تحجير مفهوم اللغة النموذجية الفصيحة على اللغة الأدبية هو طرح بعيد عن العلمية .

و ما بقي لنا من الشواهد من كلام العرب الفصحاء الشفاهي العفوي هو عبارة عن جمل متناثرة هنا و هناك و أحيانا كلمة واحدة قد يصلح أحيانا أن تكون في اللغة الأدبية أيضا ، و مثال ذلك قول سيبويه : " أما الذين يشبعون فيمططون ، وعلامتها واوٌ وياءٌ ، وهذا تحكمه لك المشافهة. وذلك قولك: يضربها، ومن مأمك ، وأما الذين لا يشبعون فيختلسون اختلاساً وذلك قولك : يضربها، ومن مأمك ، يسرعون اللفظ ، ومن ثم قال أبو عمرو: " إلى بارئكم " ويدلك على أنها متحركة قولهم : من مأمك ، فيبينون النون ، فلو كانت ساكنة لم تحقق النون " ¹ ، و هو ملاحظ في قوله مأمك حين الحديث عن الاختلاس أثناء تسريع الكلام في المخاطبة اليومية .

و قد تحدث عبد الرحمن حاج صالح عن حال هذه المدونة في المؤلفات العربية القديمة التي ترجع إلى أوائل النحاة فقال ² : " هي نصوص سمعها اللغويون من أصحابها مباشرة فليست بكلام منقول و محفوظ ، يحفظه الناس ، و ليست تأدية لكلام سبق و أن قيل ، فأصحابها هم الذين تكلموا بها عفويا ، و لم ينقلوها عن غيرهم " ، ثم أضاف أن مجموعة من الباحثين اهتموا بتلك المدونة قائلا : " و قد رتب و نشر بعض الإخوان في زماننا ما وجدوه في كتاب سيبويه من شواهد نثرية ، و أكثره هو سماعه من فصحاء العرب لمخاطباتهم اليومية غير المتكلفة ... فالقداى عاشوا في زمان الفصاحة ، و شافوها فصحاء العرب ، و سجلوا كما كانوا يسمعون منهم من مخاطباتهم ، و لم يتركوا شيئا من ذلك على الإطلاق ، بل سجلوا كل العبارات العفوية من تلك التي تدل على حيوية العربية الفصيحة ،

¹ . الكتاب (ج4/ص202)

² . السماع اللغوي العلمي عند العرب و مفهوم الفصاحة ص 262 .

و سجلوا كل صغيرة و كبيرة و لاحظوا كثرة الحذف و الاختزال و الإدغام و التخفيف و القلب و التقديم و التأخير فكتبوا كل ذلك بأمانة فائقة " ¹ .

و لكنه لم يذكر شيئاً عن هوية هؤلاء الباحثين الذين جمعوا و رتبوا تلك المادة من كتاب سيبويه ، و لا تفاصيل البحث الذي قاموا به ، و لهذا فإننا نجمل ما ينطرح أمامنا من صعوبة في التعامل مع هذه المدونة فيمايلي :

- 1 - قلتها رغم وجود كتاب سيبويه و غيره .
- 2 - عدم تكامل الصورة فيها في بعض الأحيان كنقل كلمات مستقلة من كلام العرب .
- 3 - عدم الاهتمام بها مقابل الاهتمام الكلي باللغة الأدبية الفصيحة .

3.4- حول هذا البحث و منهجيته :

1.3.4- التركيز على خصائص اللغة الشفاهية العفوية :

و حتى نبين أكثر مجال البحث و مناطه ، فإن المدونة التي نريد عرض خصائصها ، و هي فصحي التخاطب العفوي الشفاهي في عصور الاحتجاج ، قد تشتمل على مفاهيم أغلب ما تتدرج تحته هو أشكال الاقتصاد اللغوي ، و التخفيف الذي يقع من المتكلم في حياته اليومية سعياً لتوفير الجهد العضلي و الذهني ، و هذا في جميع مستويات اللغة المعروفة : الصوتية و الصرفية و النحوية و المعجمية و الدلالية و التركيبية .

و لا يعنينا كما سبق الإشارة إليه اللغة الأدبية من شعر و نثر عربي في فترة التدوين لأنه لا يدخل في مسمى اللغة التخاطبية العفوية اليومية ، و لو كان المراد منه ما يراد بها عادة من اجتلاب المصالح و ضروب المبادلات بين الناس في جميع طبقاتهم و أحوالهم حال ممارسة الحياة اليومية العادية .

أضف إلى ذلك أن بعض المنقول من النصوص الحرة المنثورة في الكلام العفوي جاءت ممزوجة ببعض الشعر أو الأمثال كما ذكر عبد الرحمن حاج صالح ، فهو يقول عن

¹ . نفسه ص 264 .

النصوص الحرة العفوية المدونة و المسموعة في عصر الفصاحة : " و أكثر هذه النصوص هي من الكلام المنثور ، و فيها على كل حال الكثير من الشعر ، و بعض الأبيات سمعت مع كلام آخر منثور ، و كذلك العدد الكبير من القصائد سمعت و دونت منذ بداية عصر التدوين كقصائد شعراء بني أمية ، و من جاء بعدهم " ¹ .

و الفائدة من تركيز الدراسة على هذا النوع هو إخراجها من دائرة النسيان التي أحاطت به مع الاهتمام الزائد بلغة الشعر و النثر ، و الوقوف على ذلك الجانب المستخف من الآداء اللغوي الذي غفل عنه كثير من الناس ، و ذلك باعتقادهم أن العرب كانت تتكلم في حياتها اليومية بالعربية التي لا متسع فيها من التخفيف ، و أن ما يعرف اليوم في العاميات العربية من خصائص اللغة اليومية لا يمت بصلة إلى الفصحى .

ثم إن الذي عليه العمل اليوم في البحوث اللسانية المتقدمة هو لغة المشافهة ، لأنها هي الواقع اللغوي المحسوس و المشاهد ، و لقد كان من أولى أولويات اللسانيات في قيامها تصويب النظرة إلى اللغة على أنها مايقال فعلا لا ما يجب أن يقال ، و هذا مؤسسها فرديناند دي سوسير يقول : " تضم مادة علم اللغة جميع مظاهر الكلام عند الإنسان ، سواء كان ذلك في المجتمعات البدائية أو المتقدمة ، و في الفترات الكلاسيكية أو الفترات المتأخرة و لا ينبغي للغوي أن يدرس في كل فترة من الفترات اللسان الصحيح و اللغة المنمقة فحسب بل جميع أنواع التعبيرات الأخرى أيضا " ² .

و لعل عبد الرحمن حاج صالح أشار إلى هذا المفهوم باعترافه أن العربي اليوم يعجب باهتمام اللغويين الغربيين بلغة المشافهة ، ما أداهم إلى ازدياد لغة التحرير ، و هو رد فعل ضد القداماء الذين لم تكن تهمهم سوى اللغة المحررة ، و لم يعتدوا بلغة التخاطب العفوي المليئة بالأخطاء في نظرهم ³ .

¹ . نفس المرجع السابق ص 262 .

² . علم اللغة العام ، ص 24 .

³ . ينظر بحوث و دراسات في اللسانيات العربية ، (ج1/ص 64 ، 65) .

و من دواعي التركيز على لغة المخاطبة اليومية البرهنة على ان صورة الفصحى الأولى الماثلة في أذهان الناس اليوم هي صورة ناقصة قطعت منها بعض ملامحها ، فصار المواطن العربي اليوم يتمثل العرب في عصر جاهليتهم و صدر إسلامهم يتكلمون بالعربية التي تتعلم في المدارس و توضع لها المناهج التعليمية ، و يدرب المتعلمون على النطق بها بصورة يصعب جدا أن تتحقق فيهم ، بما فيها من تفاصيل إعرابية لا يجوز خرقها و كيفيات نطقية لا يسمح بمخالفتها متصورين ان ذلك يمكنهم من اكتساب ملكة العربية الصحيحة ، و هذا بعيد عن الواقع .

يقول الحاج صالح : " إن اللغة إذا صارت تكتسب الملكة فيها بالتلقين ، و إذا اقتصر هذا التلقين على صحة التعبير و جماله فقط أو ما يبدو أنه كذلك ، و استهان بما يتطلبه الخطاب اليومي من خفة و اقتصاد في التعبير ، و ابتذال واسع للألفاظ تقلصت رقعة استعمالها ، و صارت لغة أدبية محضة ، و عجزت حينئذ أن تعبر عما تعبر عنه لغة التخاطب الحقيقية ¹ .

و اللغة العربية في زمان الفصاحة كانت أدبية و شفاهية يومية ، فإن اقتصر النظر على الأولى دون الثانية في التصور و التعليم كان ذلك ضياعا لكليهما ، فمحاولة التمسك بأدبية الفصحى أثبت عجز نسبة كبيرة من المتعلمين عن تملك القدرة اللغوية التي تضاهي الأدبية في آدائها ، و محاولة نسيان الفصحى المنطوقة في يوميات الفصحاء هو تزييف للحقائق العلمية ، و تفويت فرصة على المتعلمين في استغلال الجانب الأيسر من الأداء اللغوي ، و لذلك يؤكد نهاد الموسى أن العربية الفصحى كانت لغة منطوقة ، و أن إحياء ما في قواعدها من رخص الحذف والاجتزاء و اعتبار موقف الخطاب يقدم لنا نموذجا فصيحا للخطاب الشفوي يتصف بالتلقائية ، وينأى عن التكلف ولا ينأى عن أصله الفصيح" ² .

¹ . بحوث و دراسات في اللسانيات العربية ، (ج1/ص 68) .

² . الفصحى و عامياتها ، ص 46 .

و لذلك فإن الطريقة المعتمدة في هذه الدراسة هي الاستشهاد على خصائص اللغة التخاطبية العفوية الفصيحة من المدونة المحسوبة عليها لا من الشعر و لا من النثر ، اللهم إلا إذا اقتضى الأمر ذلك زيادة في الإيضاح كما سبق ذكره ، و هو أمر نرجو أن يعيد لهذا المستوى من الاستعمال اللغوي مكانته في الدرس اللغوي ، سواء تعلق الأمر بالموروث الشفاهي المحفوظ لكل الفترات العربية السالفة ، أو الواقع المعاصر المعيش .

2.3.4- أكثر مظاهر التخفيف لا تختص بالتخاطب العفوي فحسب :

و الخصائص التي سنحاول رصدها في اللغة التخاطبية العفوية في عصور الفصاحة من خلال ما جمعه اللغويون و النحاة الأوائل و وصفهم لها و من خلال ما ذكره القراء أصحاب القراءات القرآنية المشهورة ، و التي تدخل بنسبة كبيرة جدا في مظاهر التخفيف و الاقتصاد اللغوي للغة الشفاهية التواصلية ، إنما هي ميزات تعد الأصل المشافهة العفوية كما أوضحنا من قبل ، و لعل بعضها لا يتوافر في غيرها كاللغة الأدبية التي يكون التحقيق و التأني في قراءتها أنسب لها عادة ، فالاختلاس لتسريع الكلام مثلا هو من أخص خصائص اللغة العفوية ، و كذلك حذف بعض الأصوات في نهاية الكلمات أو في درج الكلام ، و العدول عن تحقيق الإعراب ، و الإشمام و الروم و الإمالة بنسبة كبيرة لأن هذه الظواهر لا تظهر أبدا في الكتابة ، و إنما تختص بحيويتها التي تلاحظ في اللغة الصوتية .

و بالمقابل فإن غالب الخصائص المربوطة بمفهوم التخفيف لا تختص بلغة الشفاهة اليومية لوحدها ، لأنها من خصائص اللغة البشرية مهما كان شكلها ، و ذلك كحذف الاختصار ، و الاختلاس جريا على عرف العرب في كلامها ، و الإدغام لتمائل المخارج ، و تسهيل الهمز بتصويره حرف مد و ما إلى ذلك .

و الضابط في ذلك أن تكثر وجوه التخفيف و الاقتصاد اللغوي في لغة المخاطبة الشفاهية ، و قلما جدا أو ربما لا نجد من يحقق الكلام فيها و يخرج بمعايير الصوتية و المعجمية و النحوية و الصرفية و التركيبية ، بل قد يعد ذلك عند العامة و في مواقف الأئس و العفوية اليومية ضربا من الإغراب أو مدعاة من دواعي السخرية ، و العكس يقال

في اللغة الرسمية أو الأدبية ، فهي تقل فيها مظاهر التخفيف و يغلب عليها التفيهق أو ما يسمى الإغراق في القول و إشباع الحروف و الحركات مما يتناسب مع طبيعة المقروء .
و ذلك لا يعني البتة أن نقصر مظاهر التخفيف على اللغة الشفاهية العفوية اليومية في الحاجات العادية ، و نزع غيابه التام من اللغة الأدبية أو الرسمية ، فنحن لا نعدم أن نسمع خطيبا يلقي كلمة ، أو شاعرا ينشد قصيدة و يسلكان فيهما مسالك التخفيف المعروفة كحذف ما يغني المقام عن ذكره مثلا ، أو حتى الاختلاس و حذف بعض الأصوات مع أن الإشباع أولى في مقام الحرمة ، و هذا شأنه شأن من يختار قراءة القرآن بالتحقيق المتأن ، أو قراءته بالحدرد المتسارع ، أو التدوير و هو التوسط بينهما .

و قد أشار الحاج صالح إلى اشتغال اللغة الأدبية على مظاهر التخفيف في قوله متحدثا عن جهود النحاة الأوائل في تتبع كلام العرب : " و لكن الغريب بالنسبة لنا أبناء العصر الحديث ، هو أنهم لاحظوا أن أكثر ظواهر التخفيف التي لاحظوها في لغة التخاطب هي موجودة أيضا في لغة الشعر إلا في الظروف التي يحصل فيها تقخيم و تفيهق ، و قد يستشهدون بالشعر أيضا على ظواهر التخفيف " ¹ .

لكن القصد من كل ما سبق أن يعرف بأن طبيعة لغة المشافهة العفوية أكثر احتواء لمظاهر التخفيف و الاقتصاد اللغوي من غيرها ، و ذلك لجل الأسباب و المعطيات التي ذكرناها في مباحث الشفاهية و اللغة التخاطبية الفصيحة ، و طبيعة التواصل اللغوي اليومي البشري في أبسط المواقف التي يتكلم فيها الفرد في مجتمعه ، و كذا الاقتصاد اللغوي .

3.3.4 - دور كتب القراءات في المفاهيم النظرية :

و تشمل دراسة خصائص التخاطب العفوي الشفاهي في العربية الفصيحة على مفاهيم معينة ، يجدر قبل ملاحظتها في المدونة أن تقدم نظريا ، و تشرح طبيعتها و أسبابها ، ذلك كله في سائر المستويات اللغوية التي تشملها الدراسة ، فهناك مفاهيم صوتية و هي : حذف

¹ . السماع اللغوي العلمي عند العرب و مفهوم الفصاحة ، ص 185 .

الحرف في درج الكلام ، اختلاس الحرف و الحركة ، الإشمام ، الروم ، الإمالة ، الإدغام ، إخفاء النون و الميم و الاكتفاء بالغنة ، تسكين الحركة في الوقف ، و قصر المد و غيرها ، و مفاهيم صرفية و هي : القلب ، و الإبدال ، و الإعلال ، و مخالفة القياس الصرفي ، و مفاهيم معجمية إفرادية و منها : النقل (المجاز) ، حذف الكلمة أو الكلمات ، لغات العرب و أعرافها الكلامية ، و مفاهيم نحوية و منها : تسكين الحرف في وسط الكلام (اختلاس الإعراب) ، اللحن المقصود لغرض في الكلام ، ترخيم المنادى ، و مفاهيم سياقية تركيبية و منها : التقديم و التأخير ، الإيجاز و الاختصار بالحذف و غيرها .

كل هذه المفاهيم قبل ملاحظتها في كلام العرب الفصيح المدون ، و قبل عرض وصف النحاة و اللغويين لها ، لابد لها من تأصيل نظري ، و هو ضروري جدا لاستكمال عناصر البحث فيها ، و نجد أنفسنا في ذلك نعتمد على طائفتين من الدارسين :

- 1 - اللغويون و النحاة الذين قدموا لهذه المفاهيم ، و عرفوها في كتبهم بأساليب مختلفة تصب في معنى واحد ، و هو أمر يقرب الصورة أكثر للباحث ، و هذ الطائفة بطبيعة الحال لا غنى لنا عنها بحال من الأحوال لأن منهجها أقرب إلى دراسة اللغة كموضوع للبحث .
- 2 - القراء أو المتخصصون الذين ألفوا في القراءات القرآنية ، و كذا المؤلفات التي تفصل قواعد التجويد و التلاوة ، و يتميز هذا النوع من العلوم بالدقة المتناهية في وصف طريقة الأداء الصوتي لمختلف تلك الظواهر ، خصوصا و أن بعضها ترفق تلك المفاهيم بصور توضيحية لجهاز النطق و شكله لحظة تشكيل الصوت المقصود ، و نحن نجد أنفسنا بحاجة إلى هؤلاء بشكل أكبر في الظواهر الصوتية و التي هي أكثر ظواهر التخفيف و الاقتصاد اللغوي ، إن لم نقل أن باقي الظواهر تعود إليها بشكل أو بآخر .

4.3.4 - حول منهج الدراسة و مناقشة إشكالياته :

قبل الخوض في الحديث عما تركه لنا العلماء من المدونة التخاطبية العفوية الفصيحة التي صحبتها ملاحظاتهم الدقيقة فيها ، نوجه النظر إلى أننا ملزمون أن نركن إلى منهج معين على هذا النوع من البحث ، و قد سبق جزء هام من مختلف المحطات النظرية التي

أمكن الوقوف عليها في ما يخص اللغة الشفاهية لدى الإنسان ، مفهومها و توجيهها و وجهات نظر ، و كذا اللغة التخاطبية العربية الفصيحة و قضاياها ، على أننا كذلك لم نستطع إغفال الجانب التاريخي في ذلك ، و لا نحن في غنى عنه مستقبلا ، إذ يتوجب علينا حصر أقوال العلماء السابقين الذين حملوا على عاتقهم جمع هذه المدونة الفصيحة .

إن الرجوع إلى مدونة لغوية غير متاحة في الأسماع و في المحسوس ، و محاولة الوقوف على خصائصها الشفاهية يثير أكثر من تساؤل حول السبل الكفيلة بالوصول إلى نتائج ذات قيمة علمية تقترب من الحقيقة ، و لا يغيب عنا في هذا الصدد ما أثاره الباحثون في التراث الشفاهي للشعوب القديمة من إشكالات تصير عقبة في طريق الباحث فيها ، على رأسها أن اللغة الشفاهية ذات صبغة صوتية لا بد أن تواجه حية متحركة لحظة تدوين الملاحظات و مواجهة الفعل اللغوي .

و لكن هل يمنعنا هذا من البحث في تراثنا اللغوي الشفاهي العفوي لدى الأجيال المتقدمة من العرب الفصحاء و نحن نلاحظ خطأ في التصور المنوط به ؟ ، و هل يدفعنا ذلك إلى ترك دراسته دراسة علمية بداعي أنه يستحيل بالمنطق إيجاد نسخة حية منه ؟ ، و نحن نلاحظ ما دونه علماؤنا الأوائل من كلام العرب في أبسط أحوالهم ، و ما عانوه في سبيل تسجيل كل كبيرة و صغيرة عاينوها في كلام الفصحاء .

نحن في هذا الموقف بحاجة إلى أن نفتتح بالطرق العلمية التي تسلمنا إلى نتائج صحيحة حول تلك المدونة ، و لذلك وجدنا أنه من المفترض اللجوء إلى مسلكين :

1 - المسلك النظري التاريخي : و هو يقوم على حصر أقوال العلماء العرب في المدونة التخاطبية العفوية الفصيحة ، و ما علق بها من وصفهم إياها و تصنيفها ضمن ظواهر نطقية مختلفة ، و ذلك ما ورد أكثره في كتاب سيبويه كما تقدم و بعض الأمات الأخرى في اللغة و مسائل النحو .

2 - المسلك الوصفي : و ذلك بالاعتماد على ما علق بأفواه الناس في كلامهم العفوي ضمن العاميات العربية المعاصرة ، استثمارا لمفهوم القالب الصياغي لمليمان باري و ألبرت

لورد ، و يقتصر مفهوم هذه النظرية المتصلة اساسا بالتراث الشعبي و علم الفلكلور على دراسة التقاليد التي لا تزال حية في أفواه الناس و أغانيهم الشعبية الشفاهية ، و التي ورثوها من الماضي و دلت على تواتر هذه السمات الشفاهية و مقاومتها لعمال الزمن ، و يعرف باري هذا المفهوم بأنه : " مجموعة كلمات توظفت بانتظام حسب نفس الشروط الوزنية لتعبر عن فكرة رئيسية معطاة " ¹ .

و نحن في هذا البحث اللساني ، حول موضوع اللغة الشفاهية القديمة خصوصا ، نحتاج إلى استثمار هذا النموذج لتطبيقه بشكل يجمع بين الشمولية و الدقة ، يأخذ بعين الاعتبار الخصوصية العلمية و اللسانية أثناء عملية الإسقاط ، و نقصد بداية : أن باري و لورد أثبتا إمكانية الوقوف على بعض خصائص الموروث الشفاهي الشعبي القديم - الذي حصلت بيننا و بينه قطيعة بسبب تباعد الفترات الزمنية - ، الوقوف على ذلك من خلال تلمسه فيما بقي من آثاره الحية على ألسنة شعراء الشعر الشعبي ، و هذا ملاحظ بشكـل واضح ، و على الصعيد اللغة الشفاهية العربية الفصيحة في مفهومها اللساني فإننا نرى كثيرا من أهل الجزيرة العربية ، و حتى في العاميات العربية الأخرى بقايا من صفات دونها العلماء العرب الأقدمون و لاحظوها في المدونة الفصيحة التي جمعوها ، كالاختلاس و القلب المكاني الموجودين في مخاطبات بعض أهل البوداي العربية ، و المناطق الداخلية في الأقطار العربية ، و حتى في صحرائنا مثلا مما نراه و نسمعه من أهل الجنوب الجزائري ، هذه مدونة حية تعطينا الانطباع بأن بعض الظواهر الموجودة في ألسنة العوام لم تأت من فراغ و إنما هي عادات نطقية تمتد في أصلتها إلى أزمان بعيدة جدا .

و هذا الذي يدعونا بشدة إلى عملية وصفية مقارنة نقوي بها كل طرح وجدناه في ملاحظات الأوائل من خلال وصف بعض المدونة المختارة من شتى العاميات العربية خصوصا التي تنزع إلى البداوة ، و مقارنتها بالنظرية التي بين أيدينا .

¹ . النظم الشفوي في الشعر الجاهلي لجيمس مونرو ، ص 27 .

5 – الفصل الخامس

خصائص التخاطب الشفاهي العفوي في

عربية الاحتجاج

- دراسة وصفية تحليلية -

"وتحب العرب التخفيف والحذف ، وهربها من التثقل والتطويل كان قصر الممدود أحب إليها من مد المقصور ، وتسكين المتحرك أخف عليها من تحريك الساكن ، لأن الحركة عمل والسكون راحة ، ومن كلام العرب الاختصار والإطناب ، والاختصار عندهم أحمد في الجملة "

ابن عبد ربه الأندلسي

" العربية الفصحى كانت لغة منطوقة ، وأن إحياء ما في قواعدها من رخص الحذف والاجتزاء واعتبار موقف الخطاب يقدم لنا نموذجا فصيحا للخطاب الشفوي يتصف بالتلقائية ، وينأى عن التكلف ولا ينأى عن أصله الفصيح ."

نهاد الموسى

5 - خصائص التخاطب الشفاهي العفوي في عربية الاحتجاج :

1.5 - تسريع الكلام في التخاطب - verbomanie - Débit de la parole :

من الموصفات الملحوظة بشكل كبير ، و التي تميز بها الخطاب الشفاهي العفوي لدى الإنسان منذ تكون اللغة كوسيلة أساسية للتواصل المجتمعي اليومي ، سرعة الكلام و إخراج التراكيب و الجمل على هيئة متعاقبة متقاربة زمنيا ، مما قد يطلق عليه أيضا حذر الكلام¹ ، و أهم ما ورد في هذا المفهوم ما جاء في كتاب سيبويه قوله : " بلب الإشبـاع في الجر و الرفع وغير الإشبـاع ، والحركة كما هي فأما الذين يشبعون فيمططون، وعلامتها واو وياء، وهذا تحكمه لك المشافهة ، وذلك قولك: يضربها، ومن مأمـنك ، وأما الذين لا يشبعون فيختلسون اختلاسا، وذلك قولك: يضربها، ومن مأمـنك، يسرعون اللفظ ، ومن ثم قال أبو عمرو: " إلى بارئكم " . ويدلـك على أنها متحركة قولهم : من مأمـنك، فيبينون النون، فلو كانت ساكنة لم تحقق النون " ² .

و قول سيبويه عن العرب يسرعون اللفظ حال كلامهم العفوي في مخاطباتهم ، و هذا هو الملاحظ في الحديث الشفاهي الجاري على ألسن الناس في حوارهم و انشغالاتهم اليومية ، و قد يكون ذلك من أظهر مظاهر العفوية في الاستعمال اليومي للغة تناسبا مع المقامات المتصلة بانشغالات المتخاطبين و ميلهم الى الاقتصاد في زمن التكلم .

و قد يجزّ تسريع الكلام إلى جملة من الأحداث اللسانية التي تعتبر نتيجة طبيعية له كالاختلاس الذي ذكره سيبويه ، و لكن و من جهة أخرى فإن هذه السرعة في الاداء اللغوي أمر لصيق بطبيعة اللغة إن لم نقل أنها في أكثر احوالها ترد عليه ، و لذلك كان من أشهر طرق الاداء القرآني ما يسمى في علم القراءات بالحدـر .

¹ . و هو من طرق قراءة القرآن المعروفة لدى علماء القراءات ، و التي تقابل التحقيق و التدوير .

² . الكتاب (ج4/ص 202) .

و الحدر في أصل لغة العرب الإسراع ، و قد نقل " ثعلب عن ابن الأعرابي قال :
الْحَدْرُ : الإسراعُ في القراءة وفي كلِّ عَمَلٍ ، ومنه قيل : رَجُلٌ حَدْرَةٌ أي مُسْتَعَجِلٌ " ¹ . وفي
اللسان : " ومنه سميت القراءة السريعة الحَدْرُ لأن صاحبها يَحْدُرُهَا حَدْرًا " ² .

أما في علم القراءات فيذكر ابن الجزري مايلي : " فهو عندهم عبارة عن إدراج القراءة
وسرعتها وتخفيفها بالقصر والتسكين والاختلاس والبدل والإدغام الكبير وتخفيف الهمز ،
ونحو ذلك مما صحت به الرواية " ³ ، و قال ابن دريد : " ومنه قراءةُ الحَدْر ، لَخِفَّتْهَا
وسُرْعَةُ حَرَكَةِ اللِّسَانِ بها " ⁴ .

و لا يقصد بهذا النوع من القراءة العجلة و السرعة المخلة بالنطق السليم للحروف
و الحركات إذ يذكر ابن الجزري أن الحدر " وردت به القراءة مع إثثار الوصل ، وإقامة
الإعراب ومراعاة تقويم اللفظ ، وتمكن الحروف " ⁵ ، ذلك لأن القرآن الكريم يرقى على ما
يتكلم به الناس سواء كان كلامهم خطابا رسميا أم غير ذلك ، لكن قراءته بالحدر في نفس
الوقت جارية على سنن العرب الفصحاء في كلامها و طرائقها في تناول هذه اللغة ، لذلك
نص علماء اللغة و النحو الأوائل على ما يعمدون إليه في حدرهم للكلام و تسريع أثناء
مخاطباتهم من تجوزات و رخص تضم الحذف و الاختلاس بأنواعه و تخفيف النطق و غير
ذلك رغم قصاحتهم ، و بقاءهم على السليقة خصوصا من نقلت عنهم العربية سماعا
مباشرا و مشافهة في البوادي ، و من ذلك ما أشار إليه سيبويه صراحة إذ قال : " وهذا
تحكمه لك المشافهة " ⁶ .

¹ . تهذيب اللغة للأزهري ، مادة ح د ر (ج4/ص 238) .

² . لسان العرب لابن منظور ، باب الزاء فصل الحاء (ج2/ص 802) .

³ . النشر في القراءات العشر (ج1/ص 207) .

⁴ . الاشتقاق ص 220 .

⁵ . النشر في القراءات العشر (ج1/ص 207) .

⁶ . الكتاب (ج4/ص 202) .

و يذكر ابراهيم أنيس كلاما مهما في هذا الشأن إذ يقول : " تميل القبائل البدوية إلى السرعة في نطقها ، و تلمس أيسر السبل " ¹ ، و هذا مشاهد ملاحظ محسوس إلى يومنا ، إن لم نقل انه انتقل إلى لغة أهل الحواضر و المدن ، خلافا للماضي الذي لم كان فيه أهل الحاضرة يتشادقون في الكلام ، أما البدوي على حد تعبير ابراهيم انيس " يخلد إلى السكينة و الهدوء ، فحياته مليئة بالتراخي ، و بما يشبه الكسل حتى في نطقه ، فهو يقتصد في الجهد العضلي و في التنفس ، و يميل إلى الاختصار في القول ، لا يكاد يبدأ الكلام حتى ينتهي منه " ² ، و لذلك نراه يجتزئ من الكلام ما يمكنه الاستغناء عنه طبعاً إن قام عليه دليل من النصب أو الحال أو دليل من الدوال البصرية كالإشارات و الملامح .

و قد يتضح المفهوم أكثر إذا عرفنا أن مثل هذه الظاهرة كانت و لا تزال مرهونة بميل الإنسان إلى الاقتصاد في الوقت قبل المجهود ، إذ إن التخاطبات العفوية الشفاهية تجري في مقامات من الاستعجال و قضاء المصالح ما يدفع بمستعملي اللغة إلى الاستيعاض عن التركيز في ملامح التراكيب التي يرسل بها بعضهم إلى بعض ، و الالتفات عن كل ما يعيق غاياتهم اليومية و لو كانت بسيطة جدا ، و لذلك أشار إبراهيم أنيس أن لغة التخاطب اليومي في مجتمعات المتكلمين هي التي " يؤدون بها التافه من شؤونهم ، لا يعمدون إليها عن قصد ، و لا يتخيرون الفاظها ، بل يكتفون منها بتأدية الأغراض العامة في الحياة العادية " ³ ، و قد يكون تسريع الكلام ، و تمرير ألفاظه و الاسترسال بعفوية و طلاقة فيه أول أسباب عدم انتقاء جزئياته ، و اشتماله عادة على ظواهر أخرى كالابتذال و الاغلاط الكثيرة و غير ذلك .

¹ . في اللهجات العربية ص 115 .

² . نفس المرجع السابق و الصفحة .

³ . نفسه ، ص 38 .

و كانت العرب قديما تطلق على هذه الظاهرة في الكلام " هذرمة " ، على أنها في الأغلب يوصف بها قلة من الناس الذين طبعوا على السرعة في الكلام¹ في جميع أحوالهم ، أو بتعبير أدق هي حالة فطرية مخصوصة² أو تعرف بها بعض المناطق أو قبائل القليلة ، و بالتالي يلزم علينا ان نشير إلى أننا بصدد الحديث عن تسريع الكلام و ليس سرعة الكلام الفطرية أو السرعة المرضية Tachylalie إذا أردنا أن نكون أكثر دقة في الإطلاقات و الاصطلاحات .

و بطبيعة الحال فإن تسريع الكلام الذي وقف عليه سيبويه في كلام العرب ، يكون أصلا لبعض الخصائص المتعلقة بالاققتصاد اللساني ، و أهم هذه الخصائص :

1.1.5 – الاختزال Brachylogie – Réduction :

1.1.1.5 – اختزال الصوائت Brachylogie des voyelles :

1.1.1.1.5 – اختزال الحركات الإعرابية Brachylogie des désinences :

من مظاهر الفصحى التخاطبية العفوية في زمن الفصاحة اختزال الحركات الإعرابية و اختلاسها ، و امتد ذلك إلى بعض الشعر الذي هو أبرز نموذج للغة الأدبية التي لا تستغني في الأصل عن المعيار الإعرابي³ ، و امتداده إلى نزر من الشعر أو بتعبير أدق

¹ . ينظر مقاييس اللغة لابن فارس مادة هذر (ج6/ص 72) ، و الصحاح للجوهري مادة هذر (ج5/ص 2057) .
² . و هذا ملاحظ بشدة في عصرنا الحالي ، فنحن نلمس من بعض الناس سرعة النطق لديهم في كل الاحوال ، و تكون هذه الظاهرة لديهم بمثابة الصفة الفطرية التي لا يستطيعون التحرر منها ، إلى حد أنهم حين تعاملهم مع من ليس له معرفة سابقة بهم يطلب منهم الإبطاء أو التكرار .

³ . يورد اللغويون و النحاة القدامى في مسألة اختلاس الحركات في الشعر قول امرئ القيس :
فاليوم أشرب غير مستحقب إنما من الله و لا واغل
و الاختلاس ظاهر في قوله أشرب (بتسكين الباء) و حقه الرفع كما هو معلوم في الفعل المضارع الذي لم يسبق بناصب و لا جازم ، و ذكروا أن ذلك من ضرورات الشعر ، غير أن ابن فارس يرى أنه من سنن العرب في كلامها .
ينظر في هذا : الكتاب (ج4/ص 204) ، و الصاحب ص 16 ، و الأصول في النحو (ج2/ص 364) ، و الخصائص (ج1/ص 388) ، و المزهر للسيوطي (ج1/ص 324) ، و سر الفصاحة (ج1/ص 83) .

نموذج من الشعر المروي يعني أنه كان موجودا بكثرة في الكلام العرب ، و قرئ به القرآن الكريم فاختلفت بعض الحركات الإعرابية في بعض القراءات ¹ ، و قد يحيلنا هذا المبحث إلى الرواية الشهيرة التي أوردها أبو حيان التوحيدي حيث نقل ما نصه : " قال أبو العيلاء : ما رأيت مثل الأصمعي قط ، أنشد بيتاً من الشعر فاختلف الإعراب ؛ وقال : سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : كلام العرب الدرج ؛ قال : وحدثني عبد الله بن سوار أن أباه قال : إن العرب تجتاز بالإعراب اجتيازاً ؛ قال الأصمعي : وحدثني عيسى بن عمر أن ابن أبي إسحاق قال : العرب ترفرف على الإعراب ولا تتفهيق به ؛ قال : وسمعت يونس يقول : العرب تشام الإعراب ولا تحققه ؛ قال : وسمعت الحساس بن حباب يقول : العرب تقع بالإعراب وكأنها لم ترد ؛ قال : وسمعت أبا الخطّاب يقول : إعراب العرب الخطف والحذف ، قال : فتعجب الناس منه " ² ، و قد قال ابن فارس في ذكر أمور اختصت بها العرب في كلامها : " و منه اختلاسهم الحركات " ³ .

و لكننا ننبه في هذا الموضع إلى أمر مهم جدا يفهم من كل هذه المرويات و غيرها ، أن ما أسماه أبو عمرو بن العلاء بالدرج ، و سماه آخرون اجتيازاً و رفرقة و خطفا و ما إلى ذلك قد كان كثيراً و مطرداً في كلام العرب ، و شائعاً بصورة مستفيضة الشيء الذي نفهمه

¹ . روى اليزيدي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قرأ : " إلى بارئكم " بإسكان الهمزة فيه ، و في قوله : " يأمركم " ، و " ينصركم " ، و يلعنهم " ، و يجمعكم " ، و أسلحتهم " يسكن ذلك كله كراهية لتوالي الحركات مستشهدا ببيت امرئ القيس المذكور آنفاً ، ينظر الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ، تح : عبد العال سالم مكرم ، دار الشروق ، بيروت ، لبنان ، 1401 هـ ص 77 ، و روي عن عباس بن الفضل سألت أبا عمرو كيف تقرأ " إلى بارئكم " مهموزة مثقلة أو " إلى بارئكم " مخففة فقال قراءتي " بارئكم " مهموزة غير مثقلة ، ينظر السبعة في القراءات لابن مجاهد البغدادي ، تح : شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، 1400 هـ ، ص 155 .
و ينظر كذلك : النشر لابن الجزري (ج2/ص 212) ، الإتيان للسيوطي (ج2/ص 171) .

² . البصائر و الذخائر (ج6/ص 146)

³ . الصاحبى ص 15 .

من كل تلك الأقوال ، و لذلك يقول الحاج صالح في هذا الصدد : " الإدراج في النطق بالحركات يكثر ، بل و يطرد أحيانا عند توالي الحركات " ¹ .

و لكن رغم ذلك فإن هذه الظاهرة التي يمكن أن نعرفها بأنها تسكين لأواخر المفردات في درج الكلام ، أبرز ما نقل فيها مما سمع عن العرب قول العرب : **يضرِبُها** بتسكين الباء الذي حقه الضم علامة لرفع الفعل المضارع الذي لم يسبقه ناصب و لا جازم ، و قوله : **من مَأْمَنُك** بتسكين نون مَأْمَنُك التي حقهما الكسر علامة للجرب : من الجارّة ، و ذلك في قول سيبويه : " بلب الإشبـاع في الجر و الرفع وغير الإشبـاع ، والحركة كما هي فأما الذين يشبعون فيمططون ، وعلامتها واؤٌ وياءٌ ، وهذا تحكمه لك المشافهة ، وذلك قولك : يضرِبُها، ومن مَأْمَنُك ، وأما الذين لا يشبعون فيختلسون اختلاسا ، وذلك قولك : **يضرِبُها، ومن مَأْمَنُك** يسرّعون اللفظ ، ومن ثم قال أبو عمرو : " إلى بارئكم " ويدلك على أنه لا متحركة قولهم : من مَأْمَنُك ، فيبينون النون ، فلو كانت ساكنة لم تحقق النون " ² .

و لقد أشار ابن جني صراحة بوجود هذه الظاهرة في كلام العرب في معرض الحديث عن حكمة العرب في كلامها ، و تصرفها بضروب من القول قائلا : " فإن قلت ومن أين يعلم أن العرب قد راعت هذا الأمر واستشفته وعنيت بأحواله وتتبعته حتى تحامت هذه المواضع التحامي الذي نسبته إليها وزعمته مرادا لها وما أنكرت أن يكون القوم أجفى طباعا وأبيس طينا من أن يصلوا من النظر إلى هذا القدر اللطيف الدقيق الذي لا يصح لذي الرقة والدقة منا أن يتصوره إلا بعد أن توضح له أنحاؤه بل أن تشرح له أعضاؤه ؟ ، قيل له : ما أبعدك عن تصور أحوالهم وبعد أغراضهم ولطف أسرارهم حتى كأنك لم ترهم وقد ضلّـيقوا أنفسهم

¹ . السماع اللغوي العلمي عند العرب و مفهوم الفصاحة ، ص 186 .

² . الكتاب (ج4/ص 202) .

و خففوا عن ألسنتهم بأن اختلسوا الحركات اختلاسا وأخفوها فلم يمكنوها في أماكن كثيرة ولم يشبعوها " ¹ .

و القدماء كما هو ملاحظ غلبوا تسمية الاختلاس على هذه الظاهرة ، بينما يفضل بعض المحدثون تسميتها بمصطلح اختزال الحركات ² و إهمال الإعراب ، و يمكن لنا أن نقف على جملة من التعاريف للاختلاس أوردها علماء اللغة و القراءات ، منها ما أشار صراحة إلى أن ذلك من سنن العرب في كلامها ، و أنه متحقق و مسموع بشكل قارب الاطراد حيث يقول أبو علي الفارسي : " اعلم أن الحركات التي تكون للبناء والإعراب يستعملون في الضمة والكسرة منهما ضربين ، أحدهما : الإشباع والتمطيط ، والآخر : الاختلاس والتخفيف وهذا الاختلاس والتخفيف إنما يكون في الضمة والكسرة ، فأما الفتحة فليس فيها إلا الإشباع ولم تخفف الفتحة بالاختلاس ، كما لم تخفف بالحذف ، في نحو : جمل ، وجبل ، كما خفف نحو : سبع وكتف " ³ .

و قال تلميذه ابن جني متحدثا عن عادات العرب في لطيف تصرفهم في الكلام من ترك إشباع الحروف و من إشمام ثم قال : " ومما أسكنوا فيه الحرف إسكانا صريحا " ⁴ . و قال الأزهري : " العربي يختلس الحركات اختلاسا خفيا ، إذا سمعه الحضري ظنه جزما ، وذلك الظن منه وهم " ⁵ ، دلالة على جريان هذه العادة في كلام البدو دون الحضري .

¹ . الخصائص ، (ج1/ص 72) .

² . كما هو عند عبد الرحمن حاج صالح .

³ . الحجة للقراء السبعة ، تح : بدر الدين قهوجي ، بشير جويجاني ، دار المأمون للتراث ، بيروت ، لبنان ، ط 2 ، 1413 هـ / 1992 م ، (ج2/ص 83) .

⁴ . الخصائص ، (ج1/ص 73) .

⁵ . معاني القراءات ، تح : عيد مصطفى درويش ، عوض بن حمد الفوزي ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط 1 ، 1991 م ، (ج1/ص 262 ، 263) .

و قد نقل السيوطي ¹ أن طائفة من النحاة افترقوا في جواز " حذف الحركة الظاهرة من الأسماء والأفعال الصحيحة على أقوال أحدها الجواز مطلقا ، وعليه ابن مالك وقال إن أبا عمرو حكاه عن لغة تميم " .

و قد نص كثير من النحاة أن العرب تفعل ذلك دفعا للثقل الذي سببه توالي الحركات ، " و التخلص من تتابع الحركات بحذف الحركة قد يكون لتحويل المقاطع المفتوحة إلى المقاطع المغلقة من أجل توفير الجهد و الاقتصاد فيها ، و عموما فهو سلوك لغوي للعرب يراد به التخفيف " ² .

و قد جاء عند الفراء ما وصفه أنه حذف للحركة الإعرابية و الحرف في آن واحد ، و ذلك قوله : " ومما كثر في كلام العرب فحذفوا منه أكثر من ذا قولهم : أيش ، عندك فحذفوا إعراب (أي) وإحدى ياءيه ، وحذفت الهمزة من (شيء) ، وكسرت الشين وكانت مفتوحة في كثير من الكلام لا أحصيه " ³ .

و من الإشارات اللطيفة الموجودة في غير كتب النحو و القراءات ما جاء عند الجاحظ يحكي عن فضائل الكلام و فضل العرب قوله : " وكانوا يروون صبيانهم الأرجاز ويعلمونهم المناقلات ويأمرونهم برفع الصوت و **تحقيق الإعراب** لأن ذلك يفتق اللهاة ويفتح الجرم واللسان " ⁴ ، فهذا الكلام من الجاحظ فيه إشارة على أن العرب كان لهم سبيل غير تحقيق الإعراب ، و لوم لم يكن لهم لما فعلوا ذلك مع الصبيان حين التعليم ، فتحقيق الإعراب كما هو خاصية من خاصيات تعليم العربية ، فإن اختلاسه خاصية من خاصيات الكلام العادي في شؤونهم العامة .

¹ . هم —ع الوامع في شرح جمع الجوامع —ع ، تح : عبد الحميد هندراوي ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، مصر ، (ج1/ص 216) .

² . التوجيه اللغوي للقراءات القرآنية عند الفراء في معاني القرآن ، طه صالح أمين آغ —ا ، دار المعرفة للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1428 هـ / 2007 م ، ص 109 .

³ . معاني القرآن ، (ج1/ص 2) .

⁴ . البيان و التبیین (ج1/ص 272) .

ونجد عند العلماء العرب القدامى توجيهها صوتيا لهذه الظاهرة حيث يقول ابن جني في شرح معنى الاختلاس و التفرقة بينه و بين الإشمام : " فأما الحركة الضعيفة المختلصة كحركة هم —زة بين بين وغيرها من الحروف التي يراد اختلاس حركاتها تخفيفا فليست حركة مشمة شيئا من غيرها من الحركتين وإنما أضعف اعتمادها وأخفيت لض —رب من التخفيف " ¹ .

و هذه المسألة على الخصوص رغم تنصيب النحاة الأوائل على وجودها في السنة بعض القبائل العربية الفصيحة ، فإننا لم نعثر لها في كتب القدماء مدونة كثيرة من الكلام العادي المسموع ، غير ما نص عليه سيبويه و هي قول العرب : (يضرئها) ، و (من مأمئك) ، و قد يكون السبب راجعا إلى تأويل وجيه جدا : و هو أن النحاة العرب اهتموا بقضايا الإعراب بشكل فاق كل تصور ، و تتبعوا مواقع الحركات حين الرفع و الضم و الجر و الجزم على نحو دقيق ، فوَقعت منهم خشية من أن يشتبه الأمر على الناس بين ما هو اختلاس للإعراب و سنة للعرب الفصحاء في كلامها من جهة ، و بين ما هو اعوجاج للفطرة الفصحائية و لحن يوضع في خانة العجز و العجمة و الجهل بالعربية من جهة ثانية .

و هذا الذي حصل فيما بعد ، إذ إنَّ العربية بمرور الزمن نزع بها الناطقون نحو ضروب من التسهيل تجاوز الاختلاس إلى تجريد الكلمات من الإعراب تماما ، و تلاشت علامات الاعراب على السنة العامة و المثقفين ² .

كما عدَّ ابراهيم أنيس هذه الظاهرة دليلا على أن الأصل خلو أواخر الكلم من الإعراب ، و أن تحريك أواخر الكلم كان لأسباب صوتية ³ ، و هذا لا يخلو من مبالغة في التقدير .

¹ . سر صناعة الإعراب ، (ج1/ص 56) .

² . ينظر العربية ليوهان فك ، ص 14 .

³ . من أسرار اللغة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، مصر ، ط 6 ، 1978 م ، ص 248 ، 249 .

و لقد ذكر شوقي ضيف أن إهمال الإعراب لم تعرف به قبيلة من القبائل العربية قديما ¹ ،
و هذا في الحقيقة حكم ينبغي أن يرد إلى ما ذكره العلماء الأوائل ، و الظاهر أن شوقي
ضيف يقصد أنها لم تكن تهمل الإعراب على الصورة التي وصل إليها العوام في زماننا من
تسكين أواخر الكلم كافة في كل ما ينطقون به ، أو بتعبير آخر خلو العاميات العربية
الناشئة جيلا بعد جيل من الإعراب رغم انبثاقها عن العربية الفصحى ، و هذا صحيح لأن
الإعراب من خصائص الفصحى التي لا ينفك عنها ، و إنما كانت العرب زمن الفصاحة
تجد في بعض الاختلاس للإعراب ما يوافق ميلها للاقتصاد و بذل الجهد الأدنى في حياتها
اليومية ، خصوصا و أنهم لم يكونوا يخشون على أنفسهم اللحن نظرا لسليقتهم و فطرتهم
اللغوية السليمة التي نشأوا عليها ، و احتفالهم بلغتهم و عنايتهم بها .

أما إن كان مقصوده أن هذا الإهمال لم يكن على الإطلاق فماذا نفعل بما تناقل إلينا
من الروايات السالفة الذكر من أن العرب ترفرف على الإعراب و لا تحققه ، و أن كلامهم
الدرج و الخطف و الحذف على قول أبي عمرو بن العلاء ، و أنهم اختلسوا الحركات على
قول ابن فارس و ما إلى ذلك ؟ ، و أكثر من هذا ما كيف نؤول ما نقله سيبويه في الكتاب
من قول بعضهم يضربها و من مأمئك اختلأ ؟ .

و مما يزيد في الاعتقاد أن ضيف لا ينكر وقوعه في كلام العرب الفصحاء ، بل يعتقد
بوجوده في التخاطب الشفاهي اليومي مقابل ندرته في اللغة الأدبية ، أنه قال صراحة :
" و مما لا يختلف فيه اثنان أن الإعراب كان و لا يزال جزءا لا يتجزأ من النطق بالعربية ،
سواء في القرآن العظيم أو في الحديث أو في الشعر أو في كلام البلغاء و الخطباء ، و هو
جوهر راسخ فيها لم يزلها إلى اليوم ، و روي أن قبائل ربيعة كانت تقف بالسكون على
المفعول به ، و أرى أن ذلك إنما كان في الحديث اليومي " ² .

¹ . ينظر تحريفات العامية للفصحى ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، 1994 م ، ص 11 .

² . المرجع السابق ، ص 12 .

و يقول احد الدارسين : " نميل إلى الاعتقاد بان هذه الظاهرة تمثل وجها من وجوه السلوك اللغوي اليومي للمتكلمين العرب ، الذين لم يكونوا يحرصون بدقة على مراعاة التقيد بالعلامات الإعرابية ، و نطقها في جميع احوالهم " ¹ .

و هذا ملاحظ بشدة في بقايا ما نتحدث به العامة ² و حتى المثقفون اليوم في كل البلدان العربية ، ليس في عامياتهم اليومية لأنها ليس لها نظام إعرابي حتى تختلس فيه ، و إنما جعلوا اختلاس الحركات الإعرابية صبغة مستقرة صبغوا بها كلامهم بالفصحى في مواقف محددة ، يضطرون فيها للحديث بالعربية في وسائل الإعلام و المناقشات العفوية و السجلات الرسمية الصاخبة ، و هذا يرصده كثيرا الفئة التي يمكن أن نطلق عليها فئة المحافظين من الذين يمتلكون قاعدة متينة في العربية و معرفة نحوها بشكل دقيق .

و لقد كان من نتائج هذا انغماس موغل في التصور الخاطئ للعربية ، ملخصه أن الفصحى لا بد أن تخضع للعاميات و تكون تبعا لها ، و ظهرت طوائف من دعاة التخلي عن الإعراب في العربية بتسكين أواخر الكلم في كل الحالات ، منهم سلامة موسى و أنيس فريحة و فئام من المثقفين العرب ، و ذهب بعضهم إلى حد القول بإدخال تعديلات على لغة القرآن الكريم ³ ، و هذ المستوى من التفكير الذي أقل ما يقال فيه أنه غير منطقي و غير مؤسس ، يفسر لنا جنوح النحاة الأوائل عن تدوين كل ما سمعوه عن العرب من اختلاس الحركات الإعرابية ، و قلة هذا النموذج بالذات من المدونة التخاطبية العفوية في كتبهم ، كما يفسر لنا قلة اطلاع هؤلاء على ما قدمه علماء العربية القدماء خدمة للغة العربية التي تعتبر أهم اللغات السامية محافظة على السمة الإعرابية ، بالنظر إلى ما حدث لأخواتها من زوال الحركات الإعرابية .

¹ . لغات القبائل في كتب إعراب القرآن و معانيه ، اسماعيل محمود منيزل القيام ، مكتبة الحامد ، ط 1 ، 2008 م ، ص 139 .

² . نفسه ، ص 13 .

³ . تاريخ الدعوة إلى العامية و آثارها في مصر ، نفوسة زكريا السعيد ، ص 201 ، 202 ، 203 .

2.1.1.1.5 - إشمام الحركة في الوقف :

الإشمام ضرب آخر من العدول عن النطق بالحركات ، و هو تمويه بالشفة دون تصويت بالحركة ، قال الخليل بن أحمد : " والإشمام أن تشم الحرف الساكن حرفا كقولك في الضمة هذا العمل وتسكت فتجد في فيك إشماما للام لم يبلغ أن يكون واوا ولا تحريكا يعتد به ولكن شمة من ضمة خفيفة ويجوز ذلك في الكسر والفتح أيضا " ¹ ، و قال ابن جني : " الإشمام إنما هو للعين لا للأذن وليست هناك حركة البتة " ² ، و قال في موضع آخر تعقيبا على شعر للراجز : " هذا يدلّك من مذهب العرب على أن الإشمام يقرب من السكون وأنه دون روم الحركة " ³ ، و قال أبو علي الفارسي " الإشمام عند النحويين ليس بصوت ، ... وإنما هو تهئية العضو لإخراج الصوت الذي هو الضم ليدلّ عليه، وليس بخارج إلى اللفظ " ⁴ .

كما قال ابن الأنباري ⁵ : " وأما الإشمام فالمراد به أن تبين أن لهذه الكلمة حال حركة في حال الوصل " ، و ذكر الجرجاني في التعريفات ⁶ أن الإشمام : " تهئية الشفتين للتلفظ بالضم ولكن لا يتلفظ به تنبيهها على ضم ما قبلها أو ضمة الحرف الموقوف عليه و لا يشعر به الأعمى " ، و قال السيوطي : " الإشمام وهو الإشارة إلى الحركة دون صوت فهو لا يدرك إلا بالرؤية وليس للسمع فيه حظ ، ولذلك لا يدركه الأعمى ويدركه بالتعلم بأن يضم شفثيه إذا وقف على الحرف " ⁷ ، و أتى في موضع آخر قوله : " وأما الإشمام فهو عبارة

¹ . العين ، مادة ش م ، (ج 6/ص 223) .

² . الخصائص ، (ج 1/ص 73) .

³ . سر صناعة الإعراب ، (ج 1/ص 59) .

⁴ . ينظر الحجة للقراء السبعة (ج 1/ص 212) .

⁵ . أسرار العربية ، تح : فخر صالح قدارة ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1415 هـ / 1995 م ، ص 355 .

⁶ . التعريفات ، ص 44 .

⁷ . همع الهوامع ، (ج 3/ص 432) .

عن الإشارة إلى الحركة من غير تصويت وقيل أن تجع لـ شفتيك على صورتها وكلاهما واحد " ¹ .

و عند علماء القراءات كذلك توجيه دقيق للإشمام ، فقد قال أبو عمرو الداني ² : " أما حقيقة الإشمام فهو ضمك شفتيك بعد سكون الحرف أصلا ولا يدرك معرفة ذلك الا على لانه لرؤية العين لا غير اذ هم ايماء بالعضو الى الحركة " ، فالإشمام هو إشعار للسامع أن الحركة موجودة إذا استمر المتكلم بالكلام ، و مفهوم ما ذكره بعض النحاة و اللغويين و علماء القراءات أنها إيهام بالحركة دون نطق بها ، و عرفه ابن الجزري " أنه إعمال العضو وتهيئته من غير صوت خارج إلى اللفظ فلا يقرع السمع " ³ .

و ذكر عبد الغني الدمياطي ⁴ أن الإشمام هو : " حذف حركة المتحرك في الوقف فضم الشفتين بلا صوت إشارة إلى الحركة والفاء في فضم للتعقيب فلو تراخى فإسكان مجرد لا إشمام وهو معنى قول الشاطبي والإشمام إطباق الشفاه بعيد ما يسكن وهو أتم من تعبير غيره " .

و الإشمام من سنن العرب في كلامها ، و هو من مظاهر الاقتصاد اللساني ، لأنه عدول عن ترك الحركة و تعطيل التصويت بها ، و الحركة إذا عذمت في النطق خف الأمر على اللسان خصوصا فيما يتقلب فيه من الألفاظ ، و العرب كما هو ثابت و معروف يميلون إلى التخفيف عن ألسنتهم ، لذلك قال ابن جني عنهم : " فإذا قنعوا من الحركة بأن يومئوا إليها بالآلة التي من عادتها أن تستعمل في النطق بها من غير أن يخرجوا إلى حس

¹ . الإتيان في علوم القرآن ، (ج1/ص 238) .

² . التيسير في القراءات السبع ، تح : أتو تريزل ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، 1404 هـ / 1984 م ، ص 58 .

³ . النشر في القراءات العشر ، (ج1/ص 296) .

⁴ . في كتابه : إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ، تح : أنس مهرة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1419 هـ / 1998 م ، ص 135 .

السمع شيئاً من الحركة مشبعة ولا مختلصة ، أعزى إعمالهم الشفتين للإشمام في المرفوع بغير صوت يسمع ، هناك لم يبق وراء ذلك شئ يستدل به على عنايتهم بهذا الأمر ، ألا ترى إلى مصارفتهم أنفسهم في الحركة على قلتها ولطفها حتى يخرجوها تارة مختلصة غير مشبعة ، وأخرى مشمة للعين لا للأذن ، ومما أسكنوا فيه الحرف إسكاناً صريحاً " ¹ .

فالعرب تلك طباعها في كلامها ، و لقد سمع النحاة الأوائل ذلك منهم و رأوه على ألسنتهم لذلك نرى ابن جني يشير إلى تصرفهم الذي وصفه بأنه إعمال للشفنتين للإشمام بغير صوت مسموع ، و تعميمه على هذا النحو دال على شيوع ذلك في ألسنة العرب ، دعاه ذلك بأن يصف عدولها عن النطق بتلك الكيفية بوصف دقيق جداً ، مفاده أنها إذا قنعت من الحركة بالإيماء بالآلة و هي حركة الشفاه ، فعلت ذلك و لم تتوان عنه .

و يشير ابن جني في موضع آخر أن الإشمام قد يكون طريقاً آخر إلى الإخلال بالإعراب إذ يقول بعد حديثه عن روم الحركة : " وأخفى منها الإشمام لأنه للعين لا للأذن ، وقد دعاهم إيثار قرب الصوت إلى أن أدخلوا بالإعراب " ² ، فكأنه طريقة من طرق اختلاس الإعراب و ليس هو بالضبط ، فاختلاس الحركات الإعرابية هي تعويض للحركة الإعرابية بالسكون في أواخر الكلم دون إيماء و لا حركة للشفنتين ، و لكنه يلتقي مع الإشمام في أن كليهما عدول عن النطق بالحركة الأخيرة الأصلية من المفردة ، و قد يكون هذا توجيه ما سمع عن يونس بن حبيب أنه قال : العرب تشام بالإعراب ولا تحققه " ³ .

و يختلف الإشمام عن الاختلاس بأنه إظهار بحركة الشفتين إلى حقيقة أن الكلمة المشمة الآخر تستحق الرفع لو وصل الكلام و استمر و لم يسكت عليها ، و لذلك قال

¹ . الخصائص ، (ج1/ص 73) .

² . الخصائص ، (ج2/ص 145) .

³ . البصائر و الذخائر (ج6/ص 146) .

سيبويه : " فأما الذين أشموا فأرادوا أن يفرقوا بين ما يلزمه التحريك في الوصل وبين ما يلزمه الإسكان على كل حال " ¹ .

و قد نقل سيبويه عن العرب أنها تفعل ذلك إذا علم ضرورة أن الكلمة المشمة لا يمكن أن تحمل على الإسكان عند السامع ، و جاء في سياق حديثه عما تنطقه العرب و هي تبالغ في تضعيفه و إشباعه قوله : " و لم يفعلوا ذلك بعمرٍ و زيدٍ لأنهم قد علموا أنه لا تسكن أواخر هذا الضرب من كلامهم وقبله ساكن ولكنهم يشمون " ² .

و لعل هذا يحيلنا على فكرة اعتبار السامع أو المرسل إليه ، و أن بعض الأحداث الكلامية إنما تخضع لمعطيات الاستعمال اللغوي حيث يصير أطراف العملية التواصلية على وعي تام بالسلوكات اللغوية الحادثة بينهم ، فتنتزل منزلة الوضع الراسخ لديهم ، فم يستعملون الخطاب اللغوي على كفيات معلنة و هي المنطوق ، و تواضعات غير معلنة تأتي في صورة عرف لساني قائم بين الأفراد . ، و هذا ما يفسره لنا قول سيبويه لم يفعلوا – لأنهم قد علموا ، فكأنه يقول لم ينطقوا بذلك لاشتغال أذهانهم على علة ذلك لديهم .

و من نماذج ما سمع عن العرب من الإشمام ما نقله الفراء في قوله : " وهي في لغة الذين يقولون: هذه مئةٌ دَرهمٍ يشمون شيئاً من الرفع ولا يبينون " ³ .

و منه ما نقله سيبويه و مثل به ، حيث قال : فالإشمام قولك هذا خالد وهذا فرج وهو يجعل حدثنا بذلك عن العرب الخليل وأبو الخطاب ⁴ ، و في موضع آخر يصف سيبويه طرائق العرب في كلامها يقول : " وأما تغزين ونحوها فالإشمام لازمٌ لها ولنحوها لأنه ليس في كلامهم أن تقلب الواو في يفعل ياءً في تفعل وأخواتها وإنما صيرت فيها الكسرة

¹ . الكتاب ، (ج2/ص145) .

² . نفسه ، (ج4/ص171) .

³ . معاني القرآن ، (ج1/ص160) .

⁴ . الكتاب ، (ج4/ص169) .

للياء ، وليس يلزمها ذلك في كلامهم كما لزم رد وقيل فكرهوا ترك الإشمام مع الضمة والواو إذا ذهبا وهما يثبتان في الكلام فكرهوا هذا الإجحاف " ¹ .

و نحن إذا نظرنا بعمق إلى قوله (ليس في كلامهم) ، و كذلك (وليس يلزمها ذلك في كلامهم) ، و كذا (فكرهوا هذا الإجحاف) ، نفهم أنه يتكلم من منطلق معرفة بكلام العرب و خبرة بأساليبهم في الكلام ، مبعثها تلك الجهود التي قام بها هو و أساتذته من سماع مباشر لكلام العرب ، و تقص لما تشافهت به العرب في حديثها مما جرى على الألسنة ، إذ كانوا يلجؤون إلى هذه الأنماط من النطق ميلا للتخفيف و السهولة .

3.1.1.1.5 - روم الحركة في الوقف :

و هذه صفة أخرى تقابل الاشمام ، مما عرف من سنن العرب في تلفظها بالصوائت على شكل تريد به التخفيف ، قال ابن جني : " فأما روم الحركة إنما هي كالإهابة بالساكن نحو الحركة " ² .

و قد عدّه علماء اللغة أظهر بقليل من الاشمام ، و هذا طبيعي لأنه اقتراب من التحريك ، و لذا شرحه السيوطي بقوله : " الروم و هو إخفاء الصوت بالحركة ، هكذا شرحه ابن مالك ، وقال بعضهم هو ضعف الصوت بالحركة من غير سكون فتكون حالة متوسطة بين الحركة والسكون وتكون في الحركات كلها " ³ .

¹ . نفس المصدر السابق ، (ج4/ص423) .

² . ينظر الخصائص ، (ج2/ص145) .

³ . همع الهومع ، (ج3/ص432) .

و ذكر السيوطي أيضا : " قال أبو حيان : وقولهم في الروم إنه عمل اللسان لا يتم إلا في الحروف اللسانية وهي التي يكون للسان عمل في حركاتها ، ألا ترى أن الحروف الحلقية والشفهية لا عمل للسان فيها ومع ذلك فيها الروم " ¹ .

و في علم القراءات قال أبو عمرو الداني : " فلما حقيقة الروم فهو تضعيفك الصوت بالحركة حتى يذهب بذلك معظم صوتها فتسمع لها صوتا خفيا يدرك —ه الأعمى بحاسة سمعه " ² ، و قال ابن الجزري : " وأما الروم فهو عند القراء عبارة عن النطق ببعض الحركة ، وقال : بعضهم هو تضعيف الصوت بالحركة حتى يذهب معظمها ، وكلا القولين واحد ، وهو عند النحاة عبارة عن النطق بالحركة بصوت خفي " ³ ، و قال الدمياطي : " أما الروم فهو الإتيان ببعض الحركة وقفا ، فلذا ضعف صوتها لقصر زمنها ويسمعا القريب المصغي " ⁴ .

و قد أشار سيبويه أنها مما سمع عن العرب في كلامها و مشافهاتها ، إذ إنها تنتزل منزلة الاختلاس و الاشمام ، و نقصد بذلك أنها ترصد عن طريق السماع و المشافهة ، و استقرار سبل العرب في تصرفها بالعربية ، حيث يقول : " وأما الذين راموا الحركة فإنهم دعاهم إلى ذلك الحرص على أن يخرجوها من حال ما لزمه إسكانٌ على كل حال ، وأن يعلموا أن حالها عندهم ليس كحال ما سكن على كل حال " ⁵ ، قال الجوهري : " وروم الحركة الذي ذكره سيبويه ، هي حركة مختلصة مختفاة لضرب من التخفيف " ⁶ .

¹ . نفسه ، (ج3/ص433) .

² . التيسير في القراءات السبع ، ص 58 .

³ . النشر في القراءات العشر ، (ج2/ص121) .

⁴ . إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ، ص 135 .

⁵ . الكتاب ، (ج4/ص168) .

⁶ . الصحاح ، مادة روم ، (ج5/ص1938) .

و يعطي سيبويه نموذجا من المسموع عن العرب حيث يقول : " وأما الذين راموا الحركة فهم الذين قالوا : هذا عمر وهذا أحمد كأنه يريد رفع لسانه ، حدثنا بذلك عن العرب الخليل وأبو الخطاب " ¹ .

و حكى ابن جني ما وقع له في مجلس صاحبه الفصيح قائلاً : " سألت مرة الشجري أبا عبد الله ومعه ابن عم له دونه في فصاحته ، وكان اسمه غصنا ، فقلت لهما : كيف تحقران حمراء ، فقالا : حميراء ، قلت : فسوداء قالوا : سويداء ، وواليت من ذلك أحرفا وهما يجيئان بالصواب ، ثم دسست في ذلك علباء ، فقال غصن : علياء وتبع هـ الشجري ، فلما هم بفتح الباء تراجع كالمذعور ، ثم قال : آه عليبي و رام الضمة في الياء ، فكانت تلك عادة له " ² .

و هذه الظاهرة التي فسرهما ابن جني بأنها عادة ، إنما تجري على ألسنة العرب عفوا و تبعا لما تتقلب عليه ألسنتهم ، و لذلك تراجع الشجري كالمذعور حيث وجد نفسه يخالف ما عهده من طرائق في أداء لغته .

2.1.1.5 - اختزال الأصوات Brachylogie des phonèmes :

1.2.1.1.5 - الاختزال بحذف صوت أو أصوات من الكلمة Haplologie :

أطلق ابراهيم أنيس على هذه الظاهرة **Haplologie** ، و ذكر أن اللغويين يعرفونها أنها حذف بعض الأصوات من الكلمة اختصارا لبنيتها ، و تيسيرا للنطق بها ³ ، و على هذا سارت اللغة منذ نشأتها إلى اليوم ، خصوصا في مناسبات التخاطب اليومي كما هو مشاهد و ملموس ، و لذلك قال يسبرسن : " ليس هناك شك في ان الاتجاه العام لجميع اللغات هو

¹ . الكتاب ، (ج4/ص169) .

² . الخصائص ، (ج2/ص26) .

³ . ينظر كتابه من أسرار اللغة ، ص 91 .

نحو تقصير الصيغ للكلمات " ¹ ، و قد أورد الخليل بن احمد أن بعض العرب و هم قبيلة طيء يقول الواحد منهم : " يا أبا الحكا وهو يُريدُ يا أبا الحكم فَيَقْطَعُ كَلامَه عن إِبَانَةِ بَقِيَّةِ الكلمة " ² ، و حكى ابن فارس عن العرب تخفيف الكلمة بالحذف بقوله و هو يعدد خصائص العربية : " وتخفيفُ الكلمة بالحذف نحو : لم يَكُ ولم أُبْلُ " ³ ، و علق ابن قتيبة بعد ذكره لاسقاط الكتاب بعض الحروف بقوله : " والعرب كذلك يفعلون ، ويحذفون من اللفظة والكلمة، نحو قولهم: " لم يَكُ " وهم يريدون " لم يكن " ، ولم " أُبْلُ " وهم يريدون " لم أُبال " ويختزلون من الكلام ما لا يتمُّ الكلام على الحقيقة إلا به ، استخفافاً وإيجازاً ، إذا عَرَفَ المخاطبُ ما يعنون به " ⁴ .

و قد نبه سيبويه إلى ان العرب تحذف أصواتا من نهاية الكلمة ، طلبا للخفة في ما يكثر دورانه على الألسنة ، حيث يقول : " و من العرب من يقول : إي هالـله ذا ، فيحذف الألف التي بعد الهاء ، ولا يكون في المقسم ههنا إلا الجرّ ، لأنَّ قولهم : ها صار عوضاً من اللفظ بالواو، فحذفت تخفيفاً على اللسان ، ألا ترى أنَّ الواو لا تظهر ههنا كما تظهر في قولك : والله ، فتركهم الواو ههنا البتّة يدلُّك على أنها ذهبت من هنا تخفيفاً على اللسان ، وعوضت منها ها ، ولو كانت تذهب من هنا كما كانت تذهب من قولهم : الله لأفعلنّ ، إذن لأدخلت الواو " ⁵ ، كما ذكر الفراء على سبيل المثال أن العرب تقول " ما أَحَسْتُ بهم أحدا، فيحذفون السين الأولى " ⁶ ، و يقول : " و مثله مَسَسْتُ ومِسِسْتُ تقول العرب قد مَسَسْتُ ذلك ومِسِسْتَه " ⁷ .

¹ . المرجع السابق ، ص 92 .

² . العين ، (ج1/ص137) .

³ . الصاحبى ، ص 15 .

⁴ . أدب الكاتب ، ص 213 ، و انظر الكتاب (ج2/ص256) .

⁵ . الكتاب ، (ج3/ص499) .

⁶ . معاني القرآن للفراء ، (ج1/ص217) .

⁷ . نفسه ، (ج2/ص186) .

و قرر ابراهيم انيس أن ما يمثل هذه الظاهرة في العربية هو نحت العرب للكلمات إذ إنه ناقش مايسميه اللغويون Haploglie ثم ذكر أنه ليس من المغالاة أن نعتبر النحت يمثل هذه الظاهرة عند العرب ¹ .

و يمكن لنا أن نميل إلى هذا الرأي إلى حد ما ، فالنحت عند العرب هو اختزال صوتي يسلك به العرب مسلك التخلص من بعض أصوات الكلمات ليركبوا منها كلمة جامعة تشير إلى مرادهم ، يقول ابن فارس : " العرب تَنَحَّتْ من كلمتين كلمة واحدة ، وهو جنس من الاختصار " ² ، وحكى الفراء عن بعض العرب قولهم : معي عشرة فأَحْذَهُنَّ لي : أي صَيَّرَهُنَّ أَحَدَ عشر ³ .

و ذكر الخليل معقبا على قول الشاعر عبشمية : " نسبها إلى عبد شمس فأخذ العين والباء من (عبد) ، وأخذ الشين والميم من (شمس) ، وأسقط الدال والسين فبنى من الكلمتين كلمة فهذا من النحت ، فهذا من الحجة في قولهم حيل حيلة فإنها م —أخوذة من كلمتين (حي على) ، وما وجد من ذلك فهذا بابه " ⁴ .

و بين ابن فارس النحت بقوله : " ومعنى النحت أن تؤخذ كلمتان وتنحت منهما كلمة تكون آخذة منهما جميعا بحظ " ⁵ .

و يذكر الزبيدي بعضا مما سمع عن العرب منحوتا قائلا : " النحت كعبشمي والأول أكثر والعبدان في بني قشير : عبد الله بن قشير بن كعب بن ربيعة القبيلة المشهورة ... العبيدتان : عبيدة بن معاوية بن قشير بن كعب بن ربيعة وعبيدة بن عمرو بن معاوية بن

¹ . ينظر من أسرار اللغة ، ص 94 .

² . نفس المصدر السابق ، ص 227 .

³ . ينظر المزهر ، (ج 1/ص 483) .

⁴ . العين ، (ج 1/ص 61) .

⁵ . مقاييس اللغة ، باب ما جاء من كلام العرب على أكثر من ثلاثة أحرف أوله باء ، (ج 1/ص 328) .

قشير بن كعب بن ربيعة ، والعبادلة جمع عبد الله على النحت لأنه أخذ من المضاف وبعض المضاف إليه لا أنه جمع لعبدل " ¹ .

و قد يكون من هذا القبيل ما أشار إليه الفراء من حذف العرب للحروف ، على سبيل النحت ، و ذهب إلى وصفه بالكثير الذي لا يعد و لا يحاط به ، و ذلك في قوله : " ومما كثر في كلام العرب فحذفوا منه أكثر من ذا قولهم : أيش ، عندك فحذفوا إعراب (أي) وإحدى ياءيه ، وحذفت الهمزة من (شيء) ، وكسرت الشين وكانت مفتوحة في كثير من الكلام لا أحصيه " ² .

و يظهر جلياً أن النحت إنما هو مسلك من مسالك الخفة في النطق بالكلمات ، و اختصار الجهد و الزمن في توظيفها في التخاطب ، و لقد عمدت العرب إلى ذلك في كلامها بحذف اصوات من كلمتين متلازمتين و إخراجهما في كلمة واحدة ، تأخذ من كل كلمة منهما ما يدل عليها ، و نحن نلاحظ ان هذه الظاهرة أصبحت شائعة بصورة كبيرة جدا ليس في العربية فحسب ، و إنما في كل لغات العالم ، حيث أصبحت الحاجة إلى هذه الطريقة ماسة جدا ، و صار الناس يفكرون في طرائق يختصرون بها ممارساتهم اللغوية خصوصا في العلوم و المبتكرات و الصنائع و الحرف .

لكننا نود أن نشير إلى نقطة هامة في اختزال الأصوات اللغوية في العربية الفصحى التي سمعت عن العرب ، و هي أنها كانت ملحوظة بصفة أكبر من خلال ثلاث ظواهر تضاف إلى ما سبق و هي : الإدغام ، و ترخيم المنادى ، و تسهيل الهمز .

و هذه الظواهر تتناسب مفاهيمها و طبيعتها أكثر مع اللغة اليومية ، إذ إنها ترد على الألسنة بصفة كثيرة جدا تفسرها حاجة الإنسان إلى التقليل من الأصوات كلما وجد سبيلا لذلك .

¹ . تاج العروس ، (ج1/ص2101) .

² . معاني القرآن ، (ج1/ص2) .

2.2.1.1.5 - الإِدْغام Assimilation :

الإِدْغام : إدخال الشيء في الشيء ¹ ، و عند اللغويين و النحويين له تعريفات كثيرة متقاربة ، منها قول ابن جني : " الإِدْغام المألوف المعتاد إنما هو تقريب صوت من صوت وهو في الكلام على ضربين : أحدهما أن يلتقى المثلان على الأحكام التي يكون عنها الادغام ، فيدغم الأول في الآخر " ² .

و يقول المبرد : " اعلم أَنَّ الحرفين إذا كان لفظهما واحدا فسكن الأوَّلُ منهما فهو مدغم في الثاني ، وتَأوِيل قولنا مدغم : أَنَّهُ لا حركة تفصل بينهما فَإِنَّمَا تعتمد لهما باللسان اعتماداً واحدة ، لأنَّ المخرج واحد ولا فَصْلَ وذلك قولك : قَطَعَ وكَسَرَ وكذلك محمّد ومعبّد ولم يذهب بَكَر ، ولم يقدّم مَعَكَ فهذا معنى الإِدْغام " ³ .

و يقول ابن السراج : " وهو وصلك حرفا ساكنا بحرف مثله من موضعه من غير حركة تفصل بينهما ولا وقف ، فيصيران بتداخلهما كحرف واحد ، ترفع اللسان عنهما رفعة واحدة ، ويشدّ الحرف ، ألا ترى أن كل حرف شديد يقوم في العروض والوزن مقام حرفين ، الأول منهما ساكن ، و الإِدْغام في الكلام يجيء على نوعين : أحدهما : إدغام حرف في حرف يتكرر ، والآخر : إدغام حرف في حرف يقاربه " ⁴ .

و يقول ابن الأنباري : " إن قال قائل ما الإِدْغام قيل أن تصل حرفا بحرف مثله من غير أن تفصل بينهما بحركة أو وقف فينبو اللسان عنهما نبوة واحدة فإن قيل فعلى كم ضربا

¹ . التعريفات للجرجاني ، ص 29 .

² . الخصائص ، (ج2/ص139) .

³ . المقتضب ، (ج1/ص197) .

⁴ . الأصول في النحو ، (ج3/ص405) .

الإدغام قيل على ضربين إدغام حرف في مثله من غير قلب وإدغام حرف في مقاربه بعد القلب " ¹ .

و يقول أبو حيان : " هو رفعك اللسان بالحرفين دفعة واحدة ووضعك إياه بهما وضعاً واحداً ولا يكون إلا في المثلين والمتقاربين " ² .

و قد تحدث عنه علماء اللغة و القراءات بشكل مستفيض ، دعاهم التفصيل العلمي فيه إلى بسط الحروف و مخارجها و صفاتها ، ثم الحديث عن أشكاله و مايكون منه في كلام العرب و ما لا يكون .

و يبسط لنا أحمد مختار عمر مفهوم الإدغام في العربية بقوله : " تميل اللغة العربية إلى الإدغام حين يتوالى صوتان متماثلان سواء في كلمة واحدة أو كلمتين ، إذا كان الصوت الأول مشكلاً بالسكون و الثاني متحرك ، و ذلك لتحقيق حد أدنى من الجهد عن طريق تجنب الحركات النطقية التي يمكن الاستغناء عنها " ³ .

و كما اتفق عليه اللغويون في القديم و الحديث فالإدغام ضربان ⁴ :

1 - إدغام متماثلين : و هو دمج حرفين من جنس واحد .

3 - إدغام متقاربين : و هو دمج حرفين ليسا من نفس الجنس مع تقاربهما في المخرج .

و لقد أشار سيبويه في الكتاب إلى نماذج كثيرة مما سمع عن العرب مدغماً من الحروف المتماثلة و المتقاربة ، أما عن المتماثلة و يسميه أيضاً التضعيف و هو التقاء حرفين متماثلين في آخر الفعل أو بتعبير أدق متماثلين في كلمة واحدة غير منفصلين يقول : "

¹ . أسرار العربية ، (ج1/ص358) .

² . همع الهوامع (ج3/ص482) .

³ . دراسة الصوت اللغوي ، ص 387 .

⁴ . ينظر : في البحث الصوتي عند العرب ، خليل إبراهيم عطية ، ص 81 ، 82 .

والتضعيف أن يكون آخر الفعل حرفان من موضع واحد وذلك نحو : رددت ووددت واجتررت وانقددت واستعددت وضاررت وتراددنا واحمررت واحماررت واطمأننت ، فإذا تحرك الحرف الآخر فالعرب مجمعون على الإدغام ، وذلك فيما زعم الخليل أولى به لأنه لما كانا من موضع واحد ثقل عليهم أن يرفعوا ألسنتهم من موضع ثم يعيدها إلى ذلك الموضع للحرف الآخر فلما ثقل عليهم ذلك أرادوا أن يرفعوا رفعةً واحدة¹ .

و يقول كذلك منبها إلى تصرف العرب في التماثلين من كلمة واحدة المسبوقين بساكن : " ألا تراهم في غير الانفصال قالوا : رادٌ وتمودٌ الثوب ، وذلك قولك إن المـ الـ لك وهم يظلموني وهما يظلمائي وأنت تظلميئي ، والبيان ههنا يزداد حسناً لسكون ما قبله " ² .

كما قال الخليل : " اعلم أن الراء في اقشعرّ واسبكرّ هما راءان أدغمت واحدة في الأخرى ، والتشديد علامة الإدغام " ³ ، و قد بين في موضع بخر أن الإدغام سبيل من سبل التوسع في كلام العرب ، و باب من أبواب حكمة العرب في صنوف ما تنطق به حيث يقول : إن قيل لم ردوا مر إلى أصلها ولم يردوا وكلا ولا وخذ قيل لسعة كلام العرب ربما ردوا الشيء إلى أصله ، وربما بنوه على ما سبق وربما كتبوا الحرف مهموزا وربما تركوه على ترك الهمزة ، وربما كتبوه على الإدغام وكل ذلك جائز واسع " ⁴ .

و حكى الفراء حكمة العرب في الإدغام قائلا : " ربما أظهرت العرب الإدغام في الجمع إرادة تأليف الأفعال وأن تكون كلها مشددة ، فقـ الـوا في حبيبت : حيّوا ، وفي عبيت : عيّوا " ⁵ .

¹ . الكتاب ، (ج3/ص530) .

² . نفسه ، (ج4/ص438) .

³ . العين ، (ج1/ص49) .

⁴ . نفسه ، مادة أرم ، (ج8/ص298) .

⁵ . معاني القرآن ، (ج1/ص412) .

و قد شرح ابن جني علة الإدغام في المتماثلين في كلمة واحدة قائلاً : " ومن ذلك ما يعتقده في علة الادغام ، وهو أن يقال : إن الحرفين المثلين إذا كانا لازمين متحركين حركه لازمة ولم يكن هناك إلحاق ولا كانت الكلمة مخالفة لمثال فعل ، وفعل أو كانت فعل فعلاً ولا خرجت منبهة على بقية بابها فإن الأول منها يسكن ويدغم في الثاني وذلك نحو شدّ وشلّت يده " ¹ .

و يكون الإدغام في المتماثلين المنفصلين ، و ذلك أن يلتقيا فيكون السابق منهما هو آخر الكلمة ، و اللاحق أول الكلمة التي بعدها ، و قد أظهر سيبويه من خلال استقراء كلام العرب ما يكون فيه الإدغام من أحوال الكلم مرجعا سبب هذه الظاهرة إلى استئصال إظهار تلك الحروف إذا توالى ، و تحقيقاً لضرب من أضرب التخفيف ، و ذلك في قوله : " فأحسن ما يكون الإدغام في الحرفين المتحركين اللذين هما سواءً إذا كانا منفصلين أن تتوالى خمسة أحرف متحركة بهما فصاعداً ألا ترى أن بنات الخمسة وما كانت عدته خمسة لا تتوالى حروفها متحركة استئصالاً للمتحرّكات مع هذه العدة " ² .

و النوع الثاني و هو إدغام الحرفين المتقاربين في المخرج ، فإنه من عادة العرب في كلامها كذلك ، و من أمثلة ذلك عند سيبويه قوله : " و الباء قد تدغم في الفاء للتقارب ولأنها قد ضارعت الفاء ، فقويت على ذلك لكثرة الإدغام في حروف الفم ، وذلك قولك اذهب في ذلك ، فقلبت الباء فاءً كما قلبت الباء ميماً في قولك اصحمطراً " ³ .

و كذلك من أمثلة هذا الباب من الحروف المتقاربة التي يدغم بعضها في بعض ، ما ذكره سيبويه و علق عليه بتوجيه صوتي ، حيث يقول : " الهاء مع الحاء كقولك : أجه

¹ . الخصائص ، (ج1/ص159) .

² . الكتاب ، (ج4/ص437) .

³ . نفسه ، (ج4/ص448) .

حماً ، البيان أحسن لاختلاف المخرجين ولأن حروف الحلق ليست بأصلٍ للإدغام لقلتها ،
والإدغام فيها عربيّ حسن لقرب المخرجين لأنهما مهموسان رخوان " ¹ .

و يقول كذلك : " العين مع الهاء كقولك : اقطع هلالاً ، البيان أحسن ، فإن أدغمت
لقرب المخرجين حولت الهاء حاءً والعين حاءً ، ثم أدغمت الحاء في الحاء " ² ، و أورد
سيبويه بعضاً مما سمع عن العرب في كلامهم الدائر بينهم ، حيث يقول : " ومما قالت
العرب تصديقاً لهذا في الإدغام قول بني تميم : محم يريدون معهم ، ومحاولاء يريدون مع
هؤلاء " ³ ، و قوله كذلك : " ألا ترى أنه يقول بعض العرب : منخلٌ ومنغلٌ فيخفى النون
كما يخفيها مع حروف اللسان والفم لقرب هذا المخرج من اللسان " ⁴ ، و قوله يحكي قول
بعض العرب : " ومما أخلصت فيه الطاء تاء سماعاً من العرب قولهم : حتهم ، يريدون :
حطتهم " ⁵ .

و قد فصل سيبويه ما يكون فيه الإدغام مع غنة أو مع إقلاب على ما سمع من العرب ،
فيقول في إدغام النون مع الراء : " النون تدغم مع الراء لقرب المخرجين على طرف
اللسان ، وهي مثلها في الشدة وذلك قولك من راشدٍ ومن رأيت وتدغم بغنةٍ وبلا غنةٍ ،
وتدغم في اللام لأنها قريبةٌ منها على طرف اللسان وذلك قولك من لك فإن شئت كان
إدغاماً بلا غنة ، فتكون بمنزلة حروف اللسان وإن شئت أدغمت بغنةٍ ، لأن لها صوتاً من
الخياشيم فترك على حاله لأن الصوت الذي بعده ليس له في الخياشيم نصيبٌ فيغلب عليه

¹ . نفس المصدر السابق ، (ج4/ص449) .

² . نفسه ، الصفحة نفسها .

³ . نفسه ، (ج4/ص450) .

⁴ . نفسه ، (ج4/ص451) .

⁵ . نفسه ، (ج4/ص460) .

الاتفاق ، وتدغم النون مع الميم لأن صوتهما واحد وهما مجهوران قد خالفا سائر الحروف التي في الصوت حتى إنك تسمع النون كالميم والميم كالنون " ¹ .

أما الإدغام مع الإقلاب فقله : " وتقلب النون مع الباء ميماً لأنها من موضع تعتل فيه النون ، فأرادوا أن تدغم هنا إذ كانت الباء من موضع الميم ، كما أدغموها فيما قرب من الراء في الموضع ، فجعلوا ما هو من موضع ما وافقها في الصوت بمنزلة ما قرب من أقرب الحروف منها في الموضع ، ولم يجعلوا النون باءً لبعدها في المخرج وأنها ليست فيها غنة ولكنهم أبدلوا من مكانها أشبه الحروف بالنون وهي الميم وذلك قولهم ممبك يريدون من بك وشمباء وعمبرٌ يريدون شنباء وعنبراً " ² .

و يفسر سيبويه ظاهرة الإدغام بما أسماه الميل إلى الخفة ، و وضع التكاليف عن اللسان حال الاستعمال ، إذ يقول : " و أصل الإدغام لحروف الفم لأنها أكثر الحروف ، فلما وصلوا إلى أن يكون لها مخرج من غير الفم كان أخف عليهم أن لا يستعملوا ألسنتهم إلا مرة واحدة ، وكان العلم بها أنها نون من ذلك الموضع كالعلم بها وهي من الفم ، لأنه ليس حرفٌ يخرج من ذلك الموضع غيرها فاختاروا الخفة إذ لم يكن لبس " ³ .

3.2.1.1.5 - ترخيم المنادى L'Euphonie :

أما الترخيم فهو نوع آخر من انواع حذف الأصوات من الكلمة ، و يكون في النداء الذي نعلم ضرورة أنه من الأساليب الغالبة فيما يتخاطب به الناس في حياتهم اليومية ، إن لم نقل انه أغلب ما يسمع في اللغة الشفاهية العفوية ، و قد عرفه سيبويه بقوله : " والترخيم حذف أواخر الأسماء المفردة تخفيفاً ، كما حذفوا غير ذلك من كلامهم تخفيفاً واعلم أن

¹ . نفسه ، (ج4/ص452) .

² . نفس المصدر السابق ، (ج4/ص453) .

³ . نفسه ، (ج4/ص454) .

الترخيم لا يكون إلا في النداء إلا أن يضطر شاعر ، و إنما كان ذلك في النداء لكثرتة في كلامهم فحذفوا ذلك كما حذفوا التثوين و كما حذفوا الياء من قومي و نحوه في النداء " ¹ .

و قد وضع الخليل بن أحمد باب الترخيم من منطلق أنه من سهل الكلام و ميسره ، و نقل صاحب اللسان أن الأصمعي قال : " أَخَذَ عني الخليل معنى الترخيم وذلك أنه لقيني فقال لي : ما تُسمي العرب السَّهْل من الكلام ؟ فقلت له : العرب تقول جارية رَخِيمةٌ إذا كانت سَهْلَةً المَنْطِقِ فعلم باب التَّرخيم على هذا " ² .

" و يتضح من معنى الترخيم أنه ضرب من ضروب الرقة في الكلام ، و اللين في المنطق ، و العرب كانوا يرون أن كثرة الاستعمال تتطلب التخفيف ، حتى يلقي الكلام قبولا و استحسانا " ³ ، و ليس هناك موضع أحوج للتخفيف من الذي يتكرر على ألسنتهم طيلة الوقت ، و ظاهرة النداء قد تكون كما أشرنا من قبل أكثر الظواهر تردادا على ألسنة الناس في مخاطباتهم اليومية العفوية ، و لذلك فهي الأولى بأن يلتبس لها الاقتصاد في التلفظ ، و لذلك قال سيبويه : " لأنه لما كان من كلامهم أن يحذفوا في غير النداء كانوا في النداء أجدر لأن النداء موضع حذفٍ يحذفون التثوين ويقولون يا حار ويا صاح " ⁴ ، يريدون يا حارث و يا صاحب .

و يقول سيبويه كذلك مبينا حكمة العرب في ترخيم المنادى : " وإنما فعلوا هذا بالنداء لكثرتة في كلامهم ، ولأن أول الكلام أبدا النداء ، إلا أن تدعه استغناء بإقبال المخاطب عليك ، فهو أول كل كلام لك به تعطف المكلّم عليك ، فلما كثر وكان الأول في كل موضع

¹ . نفسه ، (ج2/ص239) .

² . لسان العرب ، مادة رخم ، (ج2/ص239) .

³ . الترخيم في العربية ، معناه أغراضه أنواعه ، إبراهيم حسن إبراهيم ، مطبعة حسان ، القاهرة ، مصر ، 1404هـ /

1984 م ، ص 6 .

⁴ . الكتاب ، (ج4/ص184) .

حذفوا منه تخفيفا ، لأنهم مما يغيرون الأكثر في كلامهم حتى جعلوه بمنزلة الأصوات وما أشبه الأصوات من غير الأسماء المتمكنة ويحذفون منه كما فعلوا في لم أبل " ¹ .

و الترخيم سمع عن العرب في أسماء كثيرة ، يقول سيبيويه : " وسمعنا الثقة من العرب يقول يا حرمل يريد يا حرمله " ² ، و يقول كذلك : " قال بعض العرب إذا رخموا يا طلح ويا عنتر " ³ .

و ذكر سيبيويه أن الخليل فسر حذف آخر صوت من المنادى المرخم بأن العرب أرادت تقليص حروف الكلمة تخفيفا ، حيث يقول : " زعم الخليل رحمه الله أنهم خففوا هذه الأسماء التي ليست أواخرها الهاء ليجعلوا ما كان على خمسة على أربعة وما كان على أربعة على ثلاثة ، فإنما أرادوا أن يقرئوا الاسم من الثلاثة أو يصيروه إليها وكان غاية التخفيف عندهم ، لأنه أخف شئ عندهم في كلامهم ما لم ينتقص " ⁴ .

4.2.1.1.5 - تخفيف الهمز :

تعتمد العرب في كلامها إلى إسقاط الهمزة من الكلمات ، ذلك أنها في الصوتيات تعتبر أعسر الأصوات اللغوية نطقا ، لأنها " أقصاها مخرجا " ⁵ ، و لأنها كما قال الخليل : " أقوى من سائر الحروف الجوفية " ⁶ ، و ذكر ابن سينا أنها : " تحدث من حفز

¹ . نفسه ، (ج2/ص208) .

و تعد ظاهرة الترخيم في النداء من أقوى الظواهر العالقة بالأسنة الشعوب إلى اليوم ، و نحن لا نكاد نعدمها فيما نسمع من الناس يوميا من المخاطبات الشفاهية العفوية ، ففي الجزائر العاصمة مثلا يشيع قولهم : (موج) لمن اسمه محمد و ذهبوا بهذا العلم إلى حد الإبقاء على حرف واحد منه و هو قولهم (يا م) ، و مثله قولهم (صو أو سو) لمن اسمه سفيان ، و (فات) لمن اسمها فاطمة ، كما حذفوا كلمات برمتها من الأعلام المركبة كقولهم قادر لعبد القادر ، و مجيد لعبد المجيد ، و الظاهرة منتشرة في كل لغات العالم .

² . نفس المصدر السابق ، (ج2/ص244) .

³ . نفسه ، (ج2/ص248) .

⁴ . نفسه ، (ج2/ص255) .

⁵ . نفسه ، (ج2/ص255) .

⁶ . العين ، باب الثلاثي المعتل ، (ج8/ص91) .

قوي من الحجاب و عضل الصدر لهواء كثير ، و من مقاومة الطرجهالي الحاصر زمانا قليلا لحفز الهواء ، ثم اندفاعه إلى الانقلاع بالغسل الفاتحة و ضغط الهواء معا " ¹ ، و عبر عن ذلك ابراهيم أنيس بقوله : " أما مخرج الهمزة المحققة فهو من المزمار نفسه ، إذ عند النطق بالهمزة تنطبق فتحة المزمار انطباقا تاما فلا يسمح بمرور الهواء إلى الحلق ، ثم تتفرج فتحة المزمار فجأة ، فيسمع صوت انفجاري هو ما نعبر عنه بالهمزة ، فالهمزة إذن صوت شديد " ² .

و يضيف قائلا : " و لا شك أن انحباس الهواء عند المزمار انحباسا تاما ، ثم انفراج المزمار فجأة ، عملية تحتاج إلى جهد عضلي قد يزيد عما يحتاج إليه أي صوت آخر ، مما يجعلنا نعد الهمزة أشد الأصوات " ³ .

و الهمزة في الكلام العربي من الأصوات الشائعة ، و شيوخ الأصوات في أي لغة يجعلها عرضة للتطور المتسارع ⁴ ، و هذا التطور قد يذهب إلى الإسقاط و الاستبدال ، و يشترك سبب آخر لحذفها و هو ابتغاء السهولة و اليسر ، و ما دامت صوتا ثقيلًا فالتخلص منها أمر عادي لأن كثرة الاستعمال تدفع المتكلم تلقائيا دون أن يشعر بذلك إلى تخفيف الكلمة على لسانه ⁵ ، و قد تقدم لدينا أنه من مرتكزات الاقتصاد اللساني : طرح الأصوات التي فيها فيها نوع من المشقة و التكلف في الأداء ، و هذا قد نص عليه علماء اللسانيات على رأسهم

¹ . أسباب حدوث الحروف ، ص 72 .

² . الأصوات اللغوية ، ابراهيم أنيس ، ص 77 .

³ . نفس المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

⁴ . مفهوم شيوخ الأصوات في التطور اللغوي نادى به فيلهلم تومسون vilehelm thomsen ، و تقرر هذه النظرية أن الأصوات التي يشيع تداولها في الاستعمال تكون أكثر عرضة للتطور من غيرها .

- ينظر المرجع السابق ، ص 169 .

⁵ . ينظر التوجيه اللغوي للقراءات القرآنية عند الفراء ، طه صالح أمين آغا ، ص 99 .

دي سوسير¹ ، و تتمثل ظاهرة العدول عن تحقيق الهمز أو نطقه عند العرب القدامى الفصحاء في ظاهرة تخفيف الهمز أو تسهيل الهمز .

و الحقيقة أن العربية الفصحى لا تشتمل على الصورة التي تحقق فيها الهمزة فحسب ، و اعتقاد التحقيق تفصحا بالعربية ، و التسهيل خروجاً بها عن الصحيح سواء في ممارستها شفاهياً أو حتى في تعليمها أمر لا يمت إلى الصحة بصلة ، و أدى هذا بكثير من الدارسين المتأثرين بآراء المستشرقين إلى الظن بأن تحقيق الهمز من سمات الفصحى ، و استدل بشيوعه اليوم في ألسنة المتكلمين بالعربية على أنه النموذج الأعلى للفصاحة² .

و مسألة تسهيل الهمزة عند قبائل ذات شهرة من العرب الفصحاء تدعونا إلى إعادة النظر في صورة الفصحى في أذهان المعلمين و المتعلمين ، الذين قصرُوا النطق بالهمزة العربية على هيئة التحقيق و الإشباع دون التخفيف ، و اعتقادهم إلى جانب هذا أن ذلك من صفات العاميات التي هي صورة مشوشة للعربية النقية ، و هذا خطأ جسيم .

كما أنه ثبت عند المتقدمين من العلماء تفضيلهم للتسهيل على التحقيق ، بل و كراهة بعضهم لإشباع الهمز كما ورد عن الإمام أحمد بن حنبل أنه كره من قراءة حمزة الهمز الشديد و الإضجاع ، و ذكر حمزة نفسه أن التحقيق له منتهى حيث يصير مذموماً ، و أن أحسن من ذلك رياضة الألسنة بالتسهيل ، و كان يرى هو و تلميذه الكسائي أن ترك الهمز في المحارب من الأستاذية³ .

و لا أدل على ذلك من حادثة الأعرابي الذي دخل على رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فقال يا نبي الله ، فقال له : لست بنبي الله و لكني نبي الله⁴ .

¹ . ينظر علم اللغة العام ، ص 171 .

² . ينظر لغة قريش ، مختار الغوث ، ص 61 .

³ . ينظر نفسه ، ص 62 .

⁴ . الاشتقاق لابن دريد (ج1/ص 462) ، و الخصائص (ج1/ص 383) .

و قد ثبت في كتب القدماء أن ناسا كثيرا من العرب الفصحاء كانوا يسهلون الهمزة ،
و على رأسهم قريش أشهر القبائل العربية ، و ما جاورها من قبائل الحجاز بصفة أقل من
ذلك ، و خلاصة ذلك أن تسهيل الهمزة على ثلاثة أشكال كما ذكر سيبويه و هي تخفيفها
بين بين أو إبدالها أو حذفها ¹ :

1 - أما تخفيفها بين بين فهو أن تجعل بين الهمزة و حرف العلة المناسب لحركتها مع
إضعاف صوتها ، فإذا كانت مفتوحة و قبلها مفتوح جعلت بين الهمزة و الألف ، و إذا كانت
مكسورة و ما قبلها مفتوح جعلت بين الهمزة و الياء ، و إذا كانت مضمومة و ما قبلها
مفتوح جعلت بين الهمزة و الواو ، و إذا كانت مكسورة و ما قبلها مكسور أو مضموم نحو
من عند إبلك أو مرتع إبلك ، أو كانت مضمومة و ما قبلها مضموم أو مكسور نحو درهم
اختك و من عند امك جعلت بين بين و هذا قول العرب كما ذكر سيبويه ² .

و قد أشار الأخفش إلى مثال من هذا بقوله : " وذلك أن العرب تحوّل الشيء من
الهمزة حتى يصير كبنات الياء، يجتمعون على ترك همزة نحو "الْمِنْسَاءُ" ولا يكاد أحد يهملها
الا في القرآن فان اكثرهم قرأها بالهمز وبها نقرأ " ³ .

و من أمثلة الفراء قوله : " كَانَ يُوْسَا إِذَا تَرَكْتَ الْهَمْزَةَ مِنْ قَوْلِهِ (يُوْسَا) فَإِنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ
يُوسَا وَيُووسَا " ⁴ .

2 - و أما إبدالها الصريح فان تقوم حروف المد مقامها نطقا ، و يذكر سيبويه أنها إذا
كانت مفتوحة وكان قبلها حرف مكسور فإنها تبدل مكانها ياء في التخفيف نحو من غلام
يبببك أي : من غلام أبببك ، و إذا كانت الهمزة مفتوحة وقبلها ضمة و أريد التخفيف أبدلت

¹ . الكتاب ، (ج3/ص 541) .

² . ينظر نفسه ، (ج3/ص 542) .

³ . معاني القرآن للأخفش ، (ج1/ص 106) .

⁴ . معاني القرآن للفراء ، (ج2/ص 130) .

مكانها واواً كما أبدلت مكانها ياءً حيث كان ما قبلها مكسوراً وذلك نحو قولنا في النّودة تودة وفي الجؤن جؤنٌ ، و إذا كانت الهمزة ساكنةً وقبلها فتحة و أريد التخفيف أبدلت مكانها ألفاً وذلك قولك في رأسٍ وبأسٍ وقرأت رأسٌ وبأسٌ و قرأت ، وإن كان ما قبلها مضموماً و أريد التخفيف أبدلت مكانها واواً وذلك قولك في الجؤنة والبؤس والمؤمن الجونة والبوس والمومن ، وإن كان ما قبلها مكسوراً أبدلت مكانها ياءً كما أبدلت مكانها واواً إذا كان ما قبلها مضموماً ، وألفاً إذا كان ما قبلها مفتوحاً وذلك الذئب والمئرة ذيبٌ وميرةٌ ، فإنما تبدل مكان كل همزة ساكنة الحرف الذي منه الحركة التي قبلها لأنه ليس شيء أقرب منه ولا أولى به منها ¹ ، و يقول سيبويه كذلك : " وسمعت بعض العرب يقول ببس فلا يحقق الهمزة ويدع الحرف على الأصل " ² .

و قد ذكر الخليل : " : بعض العرب تقول ريت بمعنى رأيت " ³ ، و من ذلك ما نقله الفراء في قوله : " ... وذلك على ترك الهمز ونقل إعراب الهمزة إلى الحرف الذي قبلها من ذلك قول العرب : هؤلاء نشء صدق ، فإذا طرحوا الهمزة قالوا : هؤلاء نشو صدق ورأيت نشا صدق ومررت بنشري صدق " ⁴ .

و من ذلك قوله : " فأما قول العرب : واخيت ووامرت وواتيت وواسيت فإنها بُنيت على المواخاة والمواساة والمواتاة والموامرة، وأصلها الهمز، كما قيل: هو سؤل منك ، وأصله الهمز فبُذِّل واوا " ⁵ .

¹ . ينظر الكتاب ، (ج3/ص543 ، 544) .

² . نفسه ، (ج4/ص109) .

³ . العين ، باب الراء و الميم و واي معهما ، (ج8/ص307) .

و مثل هذا النطق في فعل رأيت ، موجود في واقع بعض التخاطبات العامية العربية ، فأهل تونس يقولون ريت بمعنى رأيت و هذا منتشر فيهم بشكل ملحوظ .

⁴ . معاني القرآن للفراء ، (ج2/ص95) .

⁵ . نفسه ، (ج3/ص88) .

و قد ذكر الأخفش من هذا الباب : " وبعض العرب تقول : أَخْطَيْتُ وَتَوَضَّيْتُ لَا يَهْمَزُونَ " ¹ ، و هي طريقة في نطق توضحأت و أخطأت مسموعة حتى في كلام العامة من العرب اليوم في أغلب الأقطار العربية ² .

3 - و أما حذفها تماما كأن تكون - كما ذكر سيبويه - متحركة قبلها حرف ساكن فلذا اريد التخفيف حذفت ، وألقيت حركتها على الساكن الذي قبلها و ذلك قولك من بوك ومن مك وكم بلك إذا أردت أن تخفف الهمزة في الأب والأم و كم إيلك ³ ، و يقول في ذلك أيضا : " ومما حذف في التخفيف لأن ما قبله ساكن قوله أرى وترى ويرى ونرى غير أن كل شيء كان في أوله زائدة سوى ألف الوصل من رأيت فقد اجتمعت العرب على تخفيفه لكثرة استعمالهم إياه جعلوا الهمزة تعاقب ، وحدثني أبو الخطاب أنه سمع من يقول قد أراهم يجيء بالفعل من رأيت على الأصل من العرب الموثوق بهم ، وإذا أردت أن تخفف همزة أراهه قلت روه تلقى حركة الهمزة على الساكن وتلقى ألف الوصل لأنك استغنيت حين حركت الذي بعدها لأنك إنما ألحقت ألف الوصل للسكون ويدلك على ذلك ر ذاك و سل خففوا إرا و اسأل " ⁴ .

و من هذا الباب ما ذكره الخليل : " يوم ريح طيب ، ذو روح ويوم راح ذو ريح شديدة ، بني على قولك كبش صاف أي كثير الصوف ، قالوا ذلك على روح وصوف فلما خففوا استقامت الفتحة قبلها فصارت ألفا ، كما قالوا قال ومال ويقال أرادوا الصائف والرائح فطرحوا الهمزة تخفيفا " ⁵ ، كما ذكر في موضع آخر : " والعرب قاطبة تحذف همزة سـل " ⁶ ،

¹ . معاني القرآن للأخفش ، (ج1/ص335) .

² . و في مجتمعنا الجزائري على سبيل المثال ، نجد أبسط طبقات الشعب ممن لا يقرأ و لا يكتب إذا هم إلى الصلاة يقول : توضيت ، كما اننا نسمع قول العامة : تقييت من تقيأت ، و جيت من جئت و غيرها .

³ . ينظر الكتاب ، (ج3/ص545) .

⁴ . نفسه ، (ج3/ص546) .

⁵ . العين ، باب العين و الدال و الباء ، (ج3/ص292) .

⁶ . نفسه ، مادة سأل ، (ج7/ص301) .

، و قوله : " وتقول أيأسته فاستيأس والمصدر منه إياس فأما العامة فيحذفون الهمزة الأخيرة ويفتحون الياء عليها فيقولون أيسته إياسا " ¹ .

و لقد عقب الفراء بعد حديثه عن إبدال الهمز بقوله : " وأجود من ذلك حذف الواو والألف والياء لأن قولهم : يسل أكثر من يسال ، ومسلة أكثر من مسالة وكذلك بين المر وزوجه إذا تركت الهمزة " ² .

و من أشكال تخفيف الهمز حذف إحدى الهمزتين المتتابتين أولهما آخر الكلمة و ثانيهما أول الكلمة التي تليها ، حيث يقول سيبويه : " واعلم أن الهمزتين إذا التقتا وكانت كل واحدةٍ منهما من كلمة فإن أهل التحقيق يخففون إحداها ويستثقلون تحقيقهما لما ذكرت لك كما استثقل أهل الحجاز تحقيق الواحدة فليس من كلام العرب أن تلتقي همزتان فتحققا ومن كلام العرب تخفيف الأولى وتحقيق الآخرة وهو قول أبي عمرو " ³ .

و من أمثلة ذلك ما ساقه الأخفش ، حيث قال : " فقالوا *إذا كنا ترابا * في هذا الوقت نعاد ؟ ، وهو من كلام العرب بعضهم يقول أَيْنًا وأَيْدًا ، فيخفف الآخرة لأنه لا يجتمع همزتان " ⁴ .

و من أشكال حذف الهمزة ما يطلق عليه القدامى بقصر المد ، أو قلب الممدود مقصورا ، و هي مسموعة في ما نطقت به العرب إلى درجة جعلت ابن جني يقول : " متى أشكلت عليك لفظة فلم تدر مقصورة هي أم ممدودة فلقصرها ، فإن قصر الممدود جـائز

¹ . نفسه ، مادة أوس ، (ج7/ص331) .

² . معاني القرآن للفراء ، (ج2/ص95) .

³ . الكتاب ، (ج3/ص549) .

⁴ . معاني القرنين للاخفش ، (ج2/ص565) .

و مد المقصور خطأ " ¹ ، مع أن جماعة كبيرة من النحاة جعلوه من ضرورات الشعر ² .

و قد قال ابن عبد ربه ³ : " وتحب العرب التخفيف والحذف ، ولهربيها من التثقل والتطويل كان قصر الممدود أحب إليها من مد المقصور " .

و قد يذهب بذلك إلى حذف الهمزة و الألف جميعا ، يقول الفراء في هذا : " وكثير من كلام العرب أن تحذف المدّة والياء الساكنة فيقال: هذا زكريّ قد جاء فيُجْرَى ، لأنه يشبه المنسوب من أسماء العرب " ⁴ ، و هذا كذلك مشاهد حتى في العامية العربية حيث نلاحظ كثيرا من الناس يعدلون عن مناداة من اسمه زكرياء إلى قولهم زكريا ثم إلى قولهم زكريّ .

3.1.1.5 - اختزال الكلمات أو الاختصار : Abréviation

يعد حذف ما يستغنى عنه في الكلام من أهم سمات العربية الفصيحة التخاطبية إن لم نقل أنها تعتمد عليه اعتمادا كليا ، إذا علمنا أن العربية الفصيحة الأدبية تتراوح بين الإختصار و المسالواة و الإطناب مع كونها أيضا أميل إلى الإيجاز .

ذلك أن العربية كغيرها من لغات العالم تستعين بالقرائن البصرية و الحالية لتجنب التطويل و ذكر ما يغني المقام عن ذكره ، و هذا معلوم و مشاهد و محسوس دلت عليه أحدث المقولات اللسانية ، و درسته دراسة وافية .

و قد ذكر العلماء العرب القدامى ممن خالط الفصحاء و أمضى بينهم زمانا ، أن العرب تؤثر الاختصار و تقدم حذف فضول الكلام ، فيما تتخاطب به و تتعامل به من العربية ،

¹ . الألفاظ المهموزة و عقود الهمز ، تح : مازن المبارك ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، ط 1 ، 1988 م ، ص 50 .

² . الأصول في النحو لابن السراج (ج3/ص447) ، و الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الأنباري ، ص 605 .

³ . العقد الفريد ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، (1420 هـ / 1999 م) ، (ج4/ص142) .

⁴ . معاني القرآن للفراء ، (ج1/ص188) .

كون لغة التخاطب تنزع إلى الاقتصاد في المجهود و بذل الحركة الأدنى في الاستعمال اللغوي ، و هكذا كانوا أيضا في فنون القول كالشعر و النثر .

و من ذلك ما ذكره ابن جني حيث قال : " فلما رأى القوم كثيرا من اللغة مقيسا منقادا وسموه بمواسمه ، وغنوا بذلك عن الإطالة والإسهاب فيما ينوب عنه الاختصار والإيجاز فهذا مذهب العلماء بلغة العرب وما ينبغي أن يعمل عليه ويؤخذ به ، فأمضه على ما أريناه وحددناه ، غير هائب له ولا مرتاب به . وهو كثير ، وفيما جئنا به منه كاف " ¹ .

و يفسر ابن جني هذا بشكل أعمق في موضع آخر إذ يقول : " هذا يدل على أنهم قد يستعملون من الكلام ما غيره أثر في نفوسهم منه سعه في التفسح ، وإرخاء للتنفس ، وشحا على ما جشموه فتواضعوه ، أن يتكارهوه فيلغوه ويطرحوه . فاعرف ذلك مذهبا لهم ، ولا تطعن عليهم متى ورد عنهم شيء منه " ² ، و يقول كذلك : " ولا يستنكر الاعتداد بما لم يخرج إلى اللفظ لأن الدليل إذا قام على شيء كان في حكم الملفوظ به وإن لم يجر على ألسنتهم استعماله " ³ .

و العرب تسلك هذا المسلك فيما تتخاطب به من العربية للتخفيف كما ذكرنا ، و هذا التخفيف يستفيد منه المتكلم و السامع ، خصوصا و أن العرب في أغلبها تتشابه بالكلام القليل ثقة بفهم السامع لما عدل عن ذكره ، أو لقيام الدليل عليه ⁴ .

و ننبه إلى مصطلح الاختصار للغة التخاطبية دون الإيجاز لأن الاختصار معناه ترك فضول الكلام ، اما الإيجاز فهو من سمات اللغة الأدبية لأنه توخي المعنى الكثير بالكلام القليل ، و الأول كما نرى يأتي عفوا دون إعمال فكر ، و الثاني يكون بالروية غالبا .

¹ . الخصائص ، (ج2/ص43) .

² . المصدر السابق ، (ج3/ص319) .

³ . نفسه ، (ج2/ص343) .

⁴ . ينظر الاختصار سمة العربية ، عبد الله جاد الكريم ص 58 ، 59 .

و لذلك كان اختزال الالفاظ سمة العربية التخاطبية العفوية ، و نجد له من الشواهد الفصيحة عند علماء اللغة الاوائل الشيء الكثير ، من ذلك ما نقله سيبويه قال : " ومن ذلك قول العرب : كليهما وتمراً ، فذا مثل قد كثر في كلامهم واستعمل ، وترك ذكر الفعل لما كان قبل ذلك من الكلام ، كأنه قال : أعطني كليهما وتمراً ، ومن ذلك قولهم : كل شيء ولا هذا ، و كل شيء ولا شتيمة حر ، أي انت كل شيء ولا ترتكب شتيمة حر ، فحذف لكثرة استعمالهم إياه ، فأجري مجرى : ولا زعماتك. ومن العرب من يقول : كلاهما وتمراً ، كأنه قال : كلاهما لي ثابتان وزدني تمراً ، و كل شيء ولا شتيمة حر ، كأنه قال : كل شيء أمم ولا شتيمة حر ، وترك ذكر الفعل بعد لا لما ذكرت لك ولأنه يستدل بقوله : كل شيء ، أنه ينهاه " ¹ .

و من مواضع ما سمع عن العرب في كلامهم ما نقله سيبويه حيث يقول : " من ذلك قول العرب في مثل من أمثالهم : اللهم ضبعاً وذنباً ، إذا كان يدعو بذلك على غنم رجل ، وإذا سألتهم ما يعنون قالوا : اللهم أجمع أو اجعل فيها ضبعاً وذنباً ، وكلهم يفسر ما ينوي ، وإنما سهل تفسيره عندهم لأن المضمّر قد استعمل في هذا الموضع عندهم بإظهــــــــــــــــار ، و حدثنا أبو الخطاب أنه سمع بعض العرب و قيل له : لم أفسدتم مكانكم هذا ؟ فقال : الصبيان بأبي ، كأنه حذر أن يلام ، فقال : لم الصبيان ، وحدثنا من يوثق به أن بعض العرب قيل له : أما بمكان كذا وكذا وجد ؟ وهو موضع يمسك الماء ، فقال : بلى ، وجاذاً أي فأعرف بها وجاذاً " ² .

¹ . الكتاب ، (ج1/ص281) .

- و إذا أمعنا في أمثلة سيبويه عن العرب الفصحاء ، نلاحظ قولهم كل شيء و لا شتيمة حر ، و هي صيغة لها ما يشبهها حتى في العامية الجزائرية اليومية حيث نسمع بعضهم يقول : كلش كلش و لا كذا و كذا .

² . نفسه ، (ج1/ص255 ، 256) .

278

الجمل في كلامهم لأنها كما نرى تحقق من كيفية صياغتها الاقتصاد في استعمال اللغة ، فتصير أشبه بما يسميه بعض علماء اللغة المحدثين بالقوالب اللفظية التي تضاهي في نسبة استعمالها بعض الصيغ اللصيقة بالالسن كعبارات التحية و الوداع ، و تصير لها في نفس الوقت قيمة في الاستعمال الاقتصادي للخطاب اللغوي تشبه القيمة المتداولة للعمليات المصرفية ن و بنفس خلفياتها المنفعية .

و لم ينقل لنا سيبويه فقط هذا عن العرب ، فقد نقل الأخفش الوسط بعضا مما سمع عن العرب في هذا الصدد ، و هي من مسموعات النحويين التي نصت على ان العرب تميل في أبسط استعمالاتها اللغوية إلى الاختصار ، و هذا كقوله : " قالت العرب : الغلام يلعب الكعاب تريد : يلعب بالكعاب " ¹ ، و قوله : " وتحذف نحو قول العرب : نَزَلْتُ زيدا تريد نَزَلْتُ عَلَيْهِ " ² .

و نص الفراء على بعض ما سمع عن العرب في هذا الصدد ، و بين ما تقصد إليه العرب من بعض الحذف ، منها قوله : " سمعت العرب تقول : من شبَّ إلى دبِّ بالفتح ، ومن شبَّ إلى دبِّ يقول : مذ كان صغيرا إلى أن دبَّ " ³ .

و يقول كذلك : " وزعم الكسائي نه سمع العرب تقول لكنّ واللّه ، يريدون : لكن أنا واللّه " ⁴ ، كما يقول : " سمعت العرب تقول : ما يعرف أيّ من أيّ " ⁵ ، لعله يقصد ان العرب تريد أي شيء من آخر ، و يقول : " قول العرب : سَقِيَا لَكَ ، وَرَعِيَا لَكَ ، يجوز مكانه : سَقَاكَ الله ، وَرَعَاكَ الله " ⁶ .

¹ . معاني القرآن للأخفش ، (ج1/ص52) .

² . نفسه ، (ج2/ص406) .

³ . معاني القرآن للفراء ، (ج1/ص469) .

⁴ . نفسه ، (ج2/ص145) .

⁵ . نفسه ، (ج1/ص142) .

⁶ . نفسه ، (ج1/ص3) .

و قد نبه الفراء في مواضع متعددة أن العرب لا تقتصر على حذف الأسماء و الأفعال ،
و إنما تحذف بعض حروف المعاني و تنويها ، من ذلك قوله : " العرب تقول : ربطت
الفرس لا يفلت ، وأوثقت العبد لا يفرر " ¹ ، أي : كي لا يتفلت و كي لا يفرر .

و يقول : " من كلام العرب : أن يضمروا من فى مبتدأ الكلام ، فيقولون : منّا يقول
ذلك ، و منّا لا يقوله " ² .

كما يقول : " كما قالت العرب إذا قيل لأحدهم : كيف أصبحت ؟ قال : خير عـافاك
الله ، فخفض ، يريد : بخير " ³ ، و قد ذكر سيبويه شيئاً من هذا ، كقوله : " ومثل ذلك :
الله لتفعلن ؟ إذا استقهمت ، أضمروا الحرف الذي يجزّ وحذفوا ، تخفيفاً على اللسان " ⁴ .

و في موضع آخر يقول : " ومن العرب من يقول : الله لأفعلن ، وذلك أنه أراد حـرف
الجزّ ، وإيـاه نوى ، فجاز حيث كثر في كلامهم ، وحذفوه تخفيفاً وهم ينوونه " ⁵ ، و يقول :
" وزعم الخليل أن قولهم : لاه أبوك ولقيته أمس ، إنما هو على : لله أبوك ، ولقيته أمس ،
ولكنهم حذفوا الجارّ والألف واللام تخفيفاً على اللسان " ⁶ .

على هذا كان العرب في مخاطباتهم العادية اليومية ، و معظم العبارات التي نقلها لنا
العلماء العرب القدامى إنما هي عبارات من قبيل ما يستخدم اليوم في التخاطب العفوي بين
الناس جميعهم ، كعبارات التحية ، و أساليب التهكم أو الإخبار عن الانشغالات البسيطة ،
التي تكون بين جميع البشر دون تمييز للطبقة فكرياً أو مادياً .

¹ . نفسه ، (ج2/ص278) .

² . نفسه ، (ج1/ص271) .

³ . المصدر السابق ، (ج1/ص169) .

⁴ . الكتاب ، (ج2/ص161) .

⁵ . نفسه ، (ج3/ص498) .

⁶ . نفسه ، (ج2/ص163) .

و تعتمد العرب إلى هذا في مخاطباتها لجريه على ألسنتهم ، و لعلمهم بما درج عليه مجتمع المتكلمين منهم من المقاصد و النيات و الدلالات العامة ، حتى إن بعض هذه الصيغ يستحيل عندهم إلى ما يشبه الأمثال السائرة و الجمل الدائرة أو ما يمكن تسميته بالعادات اللفظية ، و ما دام قائما على الحذف و الاختزال لما يستغنى عنه في الخطابات المرئية المباشرة ، فإنه الجانب الاقتصادي الواضح و الثابت المستقر في لغة الحياة اليومية لديهم ، و هذا من المعلوم و المشاهد في لغة الحياة اليومية المعاصرة التي نسمعها و نلاحظها في ألسنة الناس اليوم .

2.5 – الوقف La pause :

يعد الوقف في حد ذاته ظاهرة لغوية اقتصادية تقابل الابتداء في اللغة و في قراءة القرآن الكريم ، و هي قضية متعلقة بالجانب المنظوق الصوتي للغة ، و قد اشتهر فيها مقولة يكاد يعرفها العام و الخاص هي قولهم العرب لا تبتدئ بساكن و لا تقف على متحرك¹ ، و في هذا يقول السيوطي : " الوقف هو الانتهاء ، والانتهاء مضاد للابتداء ، فينبغي أن تكون صفته مضادة لصفته ، و الابتداء لا يكون إلا بمتحرك فيكون هذا ساكنا " ² .

و الوقف مبحث عظيم يختص بالقراءات القرآنية ، و في لغة العرب هو من وجوه الاقتصاد اللغوي ، " و تميزت اللغة العربية الفصحى بأنها جعلت للصوت حال الوقف أحكاما تختلف عنها في حال الوصل ، و لا شك في أن هذا التباين ناتج عن إدراك الناطق بهذه اللغة أنهما مقامان مختلفان ، فالوصل استمرار في الأداء اللغوي على حين أن الوقف هو انقطاع ذلك الأداء بالصمت ، فالعلاقة بين الوصل و الوقف تشبه تلك العلاقة بين الحركة والسكون ، والمقصود ههنا بهاتين الكلمتين ما تحمله من معنى لغوي ، فالحركة

¹ . ينظر المظهر للسيوطي (ج2 / ص346) .

² . همع الهوامع للسيوطي ، (ج3 / ص431) .

حدث نشط ، وذلك حال المتكلم إذا وصل كلامه ، والسكون هو انعدام ذلك النشاط وتوقفه ، ومن ثم فإنه لا يبدو من قبيل المصادفة أن يرتبط الوصل بمصطلح الحركة عند اللغويين ، والوقف بمصطلح السكون " ¹ .

ويمكن أن تتضح تلك العلاقة أكثر إذا ما تأملنا الفارق بين الصامت والحركة ، فالصوامت لها من السمات والملاح ما يجعلها الوحدة الأساسية في الكلام ، إذ هي أكثر في عددها من الحركات وأعقد في تكوينها منها ، فهي تتميز فيما بينها بناء على عدة عوامل منها مكان حدوث الإعاقة من أعضاء النطق للهواء الخارج من الرئتين ، وذلك ما يعرف بالمرج ، وكيفية مرور الهواء عند النطق بالصوت المعين ، ويقصد بذلك درجة الإعاقة أهي تامة أم جزئية ، وذلك ما قسمت على أساسه الصوامت إلى احتكاكية ، وانفجارية ، وبينية . وكذلك وضع الوترين الصوتيين ، وهذا ما جعلها بين مجهور ومهموس وغير ذلك " ² .

و الوقف قبل ذلك إنما هو استراحة قصيرة جدا قد تكثر عند المتكلم المسرع بالكلام في أغلب الأحيان لاستعادة الهواء أو الاستراحة أو لغرض في المقام و الدلالة ، و لذلك أشهر ما تقف عليه العرب للتخفيف كما هو معلوم السكون التي تسقط به الحركات الأواخر ، و هو عدول عن ثقل الحكة إلى خفة السكون ، لأن " السكون يؤدي إلى مقطع مغلق ، على العكس من الحركة التي تؤدي إلى مقطع مفتوح ، و المقطع المغلق أخف على النطق و

¹ . الوقف عند ابن جني ، دراسة صوتية دلالية ، رسالة ماجستير في اللغة العربية ، محمد احمد محمد احمد ، بإشراف :

أحمد محمد عبد العزيز كشك ، و طارق محمد عبد العزيز النجار ، كلية التربية ، قسم اللغة العربية و الدراسات الإسلامية ، جامعة عين شمس ، مصر ، (1430 هـ / 2009 م) ، ص 8 .

² . ينظر علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ، لمحمود السعران ص 160 و ما بعدها .

أريح للسمع و أقل استهلاكاً للوقت من المقطع المفتوح ، و هو ما يناسب السرعة في النطق التي ميزت البدوي ، الطي كثيراً ما يسكن المتحرك توفيراً للجهد و اختصاراً للوقت " ¹ .

و من أمثلة ذلك أنه قد تضطر العرب إلى تسكين ما آخره همزة ، فتلقي حركتها على الحرف الذي قبلها لأن تسكينها يؤدي إلى ذهاب الصوت بها ، يقول سيبويه : " و اعلم أن ناساً من العرب كثيراً يلقون على الساكن الذي قبل الهمزة حركة الهمزة ، سمعنا ذلك من تميم و أسدٍ يريدون بذلك بيان الهمزة و هو أبين لها ، إذا وليت صوتاً والساكن لا ترفع لسانك عنه بصوت لو رفعت بصوت حركته فلما كانت الهمزة أبعد الحروف وأخفاها في الوقف ، حركوا ما قبلها ليكون أبين لها وذلك قولهم : هو الوثؤ ، و من الوثئ ، ورأيت الوثأ ، و هو البطؤ و من البطئ ، و رأيت البطأ ، و هو الردؤ و تقديرها الردع ، و من الردئ ، و رأيت الردأ يعني بالردء الصاحب " ² .

كما أنه سمع عن العرب تحريك الحرف المستحق للسكون بإلقاء حركة الهاء عليه حال الوقف على الهاء ، و ذلك لنفس السبب السابق و هو تبين صوت الهاء الذي يذهب صوتها حال الوقف بالسكون ، حيث يقول سيبويه : " و ذلك قولك ضربته و اضربُـهُ ، و قد و منه و عنه سمعنا ذلك من العرب ألقوا عليه حركة الهاء حيث حركوا لتبيانها " ³ .

و في نفس السياق ، و لخفة الهاء و كون صوتها فيه بعض الترويح و إخراج النفس و ترويضه اطرّد عن العرب ما سمي بهاء السكت ، من ذلك ما نقله الأخفش في قوله : " و قد قالت العرب في نون الجميع و نون الاثنين في الوقف بالهاء فقالوا : هُما رجُلانِه ،

¹ . الاقتصاد المورفولوجي في التواصل اللساني ، دراسة لسانية في اللغة العربية ، أحمد الطيبي ، عالم الكتب الحديث ، إريد ، لبنان ، (1431 هـ / 2010 م) ، ص 17 ، 18 .

² . الكتاب ، (ج4/ص 177) .

³ . نفسه ، (ج4/ص 179) .

و مُسْلِمُوهُ و قد قُمْتُه ¹ ، و قد قالت العرب كذلك فيم ذكر سيبويه : علامه و لمه و بمه يريدون علام ؟ و لم ؟ و بم ؟ ² .

و يلحقون هذه الهاء كذلك في النداء و الندبة إذ نجد سيبويه يقول : " و قد يلحقون في الوقف هذه الهاء الألف التي في النداء والألف والياء والواو في الندبة لأنه موضع تصويت وتبيين فأرادوا أن يمدوا فألزموها الهاء في الوقف لذلك وتركوها في الوصل لأنه يستغنى عنها كما يستغنى في المتحرك في الوصل لأنه يجيء ما يقوم مقامها وذلك قولك يا غلاماه ووازيداه " ³ .

3.5 - تكرير الكلام و إعادته (les Redites) :

و من الخصائص التي تلاحظ بشدة في التخاطب اليومي تكرار الكلام و إعادته لأسباب يقتضيها المقام ، فاللغة اليومية عادة ما تقع في ظروف تكون فيها القناة الواصلة بين المرسل و المرسل إليه مشوبة ببعض التشويش و الضوضاء و الصوات المختلطة .

و التكرار و الإعادة كما هو معلوم مستهجن غالبه في اللغة الأدبية النوعية ، لذلك فهو قليل و نادر و لا يكون إلا حيث يستحسن وقوعه ، لأن اللغة الأدبية أو لغة التحرير و الكتابة تقوم على الروية و لحظة إعمال الفكر ، و في التشافه بها تعتمد على الإنصات و الذوق ، فلا يضطر صاحبها إلى الإعادة و التكرار على ما يقع ف اللغة اليومية ، كما أن هذا التكرار قد يكون باعثا على التبرم و التذمر عند القارئ أو السامعين ، و قد يبين عن ضعف في تحكم صاحبها في آلة اللغة .

¹ . معاني القرآن للاخفش ، (ج1/ص 196) .

² . ينظر الكتاب ، (ج4/ص 164) .

³ . المصدر السابق ، (ج4/ص 165) .

أما لغة الحياة اليومية فخلاف ذلك تماما ، بل قد يكون من أكثر خصائصها هذا التكرير و إعادة نطق الألفاظ مرات و مرات كما قلنا لطبيعة الوسط المفتوح الذي تساق فيه ، أو لتفاوت مستويات الفهم عند السامعين .

و يرد التكرار و الإعادة في لغة العرب الفصحاء متمثلا في بابين من أبواب النحو العربي ، يعرف الأول منهما بالمركبات و الثاني منهما التوكيد اللفظي ، فالأول منه صيغ معروفة لدى جميع الناس إلى يومنا كقول العرب لقيته كفة كفة¹ ، و غالبا ما يراد به ملازمة الشيء للشيء أو مجاورته له أو مواجهته ، و الثاني عرفه ابن عقيل (ت 769 هـ) بقوله : " وهو تكرار اللفظ الأول بعينه اعتناء به " ² ، و يقصد به تأكيد معناه كما هو معروف .

و يقول السيوطي : " من سنن العرب التكرير و الإعادة " ³ ، و ينبغي التنبيه هنا إلى نقطة مهمة ، و هي أن التكرار كما أسلفنا قليل في اللغة الأدبية و الراقية لأنه في أغلب تجلياته غير محمود في الكلام ، على أن له حضورا جماليا و بلاغيا راقيا في مواضع قليلة كالتي نجدها في القرآن الكريم ، سواء تكرار الكلمات كقوله تعالى : * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ⁴ ، كقوله تعالى : * إِلَّا قِيْلًا سَلَامًا سَلَامًا * ⁵ ، أو تكرار الآيات كالذي نجده في سور الشعراء و الرحمن و المرسلات .

¹ . اللمع في العربية لابن جني ، (ج1/ص162) .

و من الصيغ المسموعة في العاميات العربية اليوم قول الجزائريين مثلا : فلان جاري باب باب ، و العبوا خاوة خاوة ، و نشوفوا ساعات ساعات ، و قول المصريين مثلا : نشوفوا أيام أيام ، و فهمني وحدة وحدة و غيرها .

² . شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، تح : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار التراث ، القاهرة ، مصر ، ط 20 ، (1400هـ/1980م) ، (ج3/ص214) .

³ . المزهر ، (ج1/ص332) .

⁴ . سورة المؤمنون 36 .

⁵ . سورة الواقعة 26 .

أما الذي نجده في كلام العرب فأغلبه دائر على نية إفهام السامع أو عادات لفظية كانوا يتداولونها بينهم ، و التي كما أسلفنا بقي الناس يتكلمون بها إلى اليوم .

و قد أورد الفراء مما سمع عن العرب تكرارات تقع في كلامهم في تخاطبهم العادي اليومي ، و ذلك كقوله : " والعرب تقول إذا التقوا فقالوا سلام سلام ، على معنى قالوا السلام عليكم فردّ عليهم الآخرون " ¹ ، و قوله : " و العرب تقول : التقينا فقلنا : سلام سلام " ² ، و قوله : " وسمع الكسائي العرب يقولون : التقينا فقلنا : سلام سلام " ³ .

و ساق مثالا من هذا في موضع آخر إذ يقول : " أمّا قوله : لم أره منذ يوم يوم ، فإنه ينوى بالثاني غير اليوم الأوّل ، إنما هو في المعنى : لم أره منذ يوم تعلم ، وأمّا قوله :

نحمى حقيقتنا وبعض القوم يسقط بين بينا

فإنه أراد : يسقط هو لا بين هؤلاء ولا بين هؤلاء ، فكان اجتماعهما في هذا الموضع بمنزلة قولهم : هو جاري بيت بيت ، ولقيته كفة كفة ، لأن الكفتين واحدة منك وواحدة منه ، وكذلك هو جاري بيت بيت معناه : بيتي وبيته لصيقان " ⁴ .

و من طريف ما ذكر الفراء أن العرب تكرر بعض أسماء الأصوات على نفس الطريقة التي يتكلم بها الناس اليوم ، حيث يقول : " ذلك قول العرب : سمعت طاقٍ طاقٍ لصوت الضرب ، ويقولون : سمعت تغ تغ لصوت الضحك " ⁵ ، و هي كذلك مما يتشابه به العوام

¹ . معاني القرآن للفراء ، (ج 1/ص 40) .

² . نفسه ، (ج 2/ص 21) .

³ . نفسه ، (ج 3/ص 124) .

⁴ . نفسه ، (ج 1/ص 177) .

و ما ذكر الفراء له ما يشابهه في العاميات العربية اليوم ، و الدائر السائر بين كثير من الناس حيث إذا سئل عن أحدهم قد تكون الإجابة بقولهم في الجزائر مثلا : نقولوا صحا صحا ، أو قولهم سلام سلام ، و قولهم جاري باب باب ، جاري حيط حيط و ما إلى ذلك .

⁵ . نفسه ، (ج 2/ص 121) .

في أبسط تخاطباتهم اليومية المسموعة في زماننا ، إذ نسمع بعضهم يقول : سمعت دق دق لصوت قرع الباب ، أو قولهم سمعت كا كا لصوت الضحك ، و في التخاطب بالفرنسية يقولون : trop de blabla ، للثرثرة و كثرة الكلام ، و على هذا فالعرب لم تكن مختلفة في بعض استعمالاتها اليومية للغتها ، ردا على من اعتقد أن العرب لم تتكلم إلا بما هو من قبيل اللغة الأدبية ، و أنها لم يكن للغتها اليومية خصائص لا تختلف عن الموجودة اليوم .

4.5 - تغيير بنى الكلم :

تجدر الإشارة إلى أن ظواهر القلب المكاني و الإبدال و الإعلال هي ظواهر مشتركة من الصرف العربي ، و هي تتعلق بالعربية في كل استعمالاتها ، و قد درج النحاة قديما و حديثا على دراسة هذه الظواهر ، و تأصيلها و الاستشهاد لها و ذكر أنواعها و أحوالها خصوصا من القرآن و الشعر و النثر ، مما يدفعنا إلى القول إنه من المنطقي و من الفائدة العلمية أن نشير إلى أن هذا البحث لا نرى فيه متسعا لسرد ما أطبقت على بسطه آلاف الكتب و الدراسات ، لأن ذلك سيكون استنفادا للجهد و الوقت ، و إنما نريد من التعرّيج عليها ، أن ننبه إلى ما ذكره النحاة المحققون فيها أنها من كلام العرب او مما اعتادت العرب أن تتشافه به على سبيل القلب أو الإبدال أو الإعلال ، هذا لأننا لا نملك في هذا الباب مدونة صريحة يمكن تصنيفها في التخاطب اليومي العادي ، لأن علماء الصرف العرب ينصون على أمثلة من كلام العرب بمفردات منعزلة لا غير ، و في غالب الأحيان يمثلون بالقرآن أو بالشعر على ما يذهبون إليه .

1.4.5 - القلب المكاني :

القلب ظاهرة تقترب في طبيعتها من المستعمل في اللغة اليومية أكثر من الأدبية ، بدليل أننا نجد ابن فارس يقول : " من سُنن العرب القَلْب ، و ذلك يكونُ في الكلمة و يكونُ في القصّة ، فأما الكلمةُ فقولهم : جَبَدَ و جَذَبَ ، وبكَل ولبَكَ ، و هو كثير و قد صنّفه علماء

اللغة و ليس في القرآن شيء من هذا فيما أظن¹ ، و نقل السيوطي : " و قال ابنُ دُرَيْدٍ في الجمهرة : باب الحروف التي قُلِّبت : و زعم قومٌ من النحويين أنها لغاتٌ ، و هذا القولُ خلافٌ على أهل اللغة يقال : جَبَذَ وَجَذَبَ ، و ما أُطِيبَ و أُيْطِبَ ، و رَبَضَ وَرَضَّ ، و أُنْبَضَ القَوْسُ و أنْضَبَ ، و صَاعَقَ و صَاقَعَا ، و لَعَمْرِي و رَعَمَلِي ، و اضمحلَّ و امضحلَّ ، و عميق و مَعِيق " ² .

و هذه الظاهرة موجودة في العربية بشكل مستفيض ، تمثل شكلا من أشكال الانزياح في بنية الكلمات التي ترد على ألسنة المستعملين للغة العربية ، لذلك فهي عدول عن الأصل ، " و الواقع أنه ظاهرة لغوية واضحة في اللغة العربية و لا يصح إنكارها ، و نحن نلاحظها كل يوم في لغة الأطفال الذين لا يستطيعون نطق الألفاظ الكثيرة التي يسمعونها كل يوم فيقبلون بعض حروفها مكان البعض الآخر ، و نلاحظها أيضا في لغة العامة " ³ .

و قد يلح هذا بجلاء في الألسن الدارجة المعاصرة ، و هو شيء من خصائصها ، فبعض أهل الديار العربية يقولون لخبط بينما آخرون يقولون خلبط ، و أهل الشام يقولون للحصى الصغير بحص ، و هو حصب في العربية الفصيحة ، و لو اننا استقرينا ما انحرفت به الألسن الدارجة عن الفصيحة لوقفنا على الكثير ⁴ .

¹ . الصاحبي ، ص 172 .

و قد أنكر سيبويه القلب في جذب و جبذ ، حيث يقول : " و أما جذبت و جذبت و نحوه فليس فيه قلب و كل واحدٍ منهما على حدته ، لأن ذلك يطرد فيهما في كل معنى و يتصرف الفعل فيه ، و ليس هذا بمنزلة ما لا يطرد مما إذا قلبت حروفه عما تكلموا به ، وجدت لفظه لفظ ما هو في معناه من فعلٍ أو واحدٍ هو الأصل الذي ينبغي أن يكون ذلك داخلاً عليه كدخول الزوائد ، وجميع هذا قول الخليل " الكتاب ، (ج4/ص381) ، و وافقه ابن جني في الخصائص (ج2/ص69) .

² . المزهر ، (ج1/ص476) .

³ . التطبيق الصرفي ، عبده الراجحي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، (1393هـ/1973م) ، ص 14 .

⁴ . ينظر ظاهرة القلب المكاني في العربية ، عبد الفتاح الحموز ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان — ان ، ط 1 ، (1406هـ/1986م) ص 4 .

و في الجزائر مثلا أمثلة من ذلك ، منها ان أهل الوسط و الشرق يقولون قبض ، و أهل الغرب يقولون قضب .

و ذكر عبد الفتاح الحموز¹ أن سيبويه ساق عددا مما كانت العرب تنطق به على سبيل القلب المكاني ، منها أينق في أنوق قلبت الواو ياء في هذا الجمع إضافة إلى القلب المكاني الحادث فيها ، و كذلك قولهم طمأن في طأمن ، و منه أيضا قول بعض العرب : لهي أبوك في لاه أبوك ، فقلبت العين و جعلت اللام ساكنة ، و منها قولهم أشياء في شيئا ، و في الكتاب ألفاظ تعد مقلوبة عند شيخه الخليل بن أحمد من ذلك مسائية في مساوئة في قول العرب : أكره مسائيك ، إنما جمعت المساءة ثم قلبت .

و يشرح الفراء هذا المثال بقوله : " لئما نرى أن أشياء جمعيت على أفعلاء كما جمع لئين وألينا ، فحذف من وسط أشياء همزة ، كان ينبغي لها أن تكون أشياء ، فحذفت الهمزة لكثرتها ، وقد قالت العرب : هذا من أبناوات سعد ، وأعيذك بأسموات الله " ² .

2.4.5 - الإبدال :

الإبدال سبيل من سبل التخفيف على اللسان ، يقول الجرجاني : " الإبدال هو أن يجعل حرف موضع حرف آخر لدفع الثقل " ³ ، و قال ابن فارس : " من سنن العرب إبدال الحروف وإقامة بعضها مقام بعض ، ويقولون : مَدَحَه و مَدَّهه ، و فَرَسٌ رِفْلٌ و رِفْنٌ و هو كثير مشهور قد أَلَفَ فيه العلماء " ⁴ .

و ذكر عز الدين التنوخي في مقدمته لكتاب الإبدال لأبي الطيب اللغوي أن المحققين من اهل اللغة يعرفونه أنه : " إقامة حرف مكان حرف مع الإبقاء على سائر احرف الكلمة ، و بذلك قد تشترك الكلمتان أو الصورتان بحرفين أو أكثر ، و يبدل حرف منها بحرف آخر يتقاربان مخرجا ، أو في المخرج و الصفة معا ، و لا بد من شرط التقارب في المخرج

¹ . ينظر ظاهرة القلب المكاني في العربية ، ص 18 ، 19 .

² . معاني القرآن للفراء (ج 1 / ص 321) .

³ . التعريفات للجرجاني ، ص 21 .

⁴ . الصاحبى ، ص 173 .

بينهما " ¹ ، و يقودل أدما طربية : " إقامة حرف مقام حرف آخر ، بحيث يحذف حرف
و يوضع حرف آخر مكانه ، من دون أن تغير فيه الحركات " ² .

فالحروف تتعاض حسب قرب مخرجها فيما كانت العرب تتشابه به ، فعلى سبيل المثال
تتعاض الحروف الحلقية كالهزمة و الهاء ، و قد ذكر الخليل عن اهل الحجاز شيئاً من هذا
في قوله : " أهل الحجاز يقولون في الإجابة ها خفيفة ، وفي هذا المعنى يقولون :
ها بدل من ألف الاستفهام ، تقول : ها إنك زيد ؟ ، معناه : إنك زيد
؟ " ³ ، و قد نقل أحد الدارسين عن رمضان عبد التواب قوله إن مثل هذا الإبدال في هذا
المثال واقع في التخاطب باللغة العبرية و ليس مقصوراً على العربية ⁴ .

و قد تعرض سيبويه لنماذج من إبدال العرب للحروف بحروف أخرى ، و ضم إليها
الحروف التي تتعاض و ليست من نفس المخرج تحت عنوان : " هذا باب الحرف
الذي يضارع به حرف من موضعه و الحرف الذي يضارع به ذلك الحرف و ليس من
موضعه " ⁵ ، و من أمثله في هذا الباب إبدال الصاد زايًا في قوله : " وسمعنا العرب
الفصحاء يجعلونها زايًا خالصة كما جعلوا الإطباق ذاهباً في الإدغام ، و ذلك قولك في
التصدير التزدير ، و في الفصد الفزد ، و في أصدرت أزدريت ، و إنما دعاهم إلى أن

¹ . كتاب الإبدال ، لأبي الطيب اللغوي ، تح : عز الدين التتوخي ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق ، سوريا ،
(1379 هـ / 1960 م) ، (ج 1 / ص 9) .

² . الإبدال ، أدما طربية ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 2005 م ، ص 1 .

³ . العين ، باب الثلاثي اللفيف من باب الهاء ، (ج 4 / ص 103) .

و قد مضى في مبحث تخفيف الهمز أن طرق التخلص من الهمزة عند العرب إبدالها ، و هذا نموذج من ذلك .

⁴ . إبدال الحروف في اللهجات العربية ، سلمان بن سـالم بن رجاء السحيمي ، مكتبة الغرباء الأثرية ، ط 1 ،
(1415 هـ / 1995 م) ، ص 119 .

⁵ . الكتاب ، (ج 4 / ص 477) .

يقربوه — و يبدلوها أن يكون عملهم من وجه واحد و ليستعملوا — ألسنتهم في ضرب واحد " ¹ .

و أما التي ليست من نفس المخرج فأبدال الصاد و السين شيئا في قوله : " وأما الحرف الذي ليس من موضعه فالشين ، لأنها استطالت حتى خالطت أعلى الثنيتين ، وهي في الهمس والرخاوة كالصاد والسين ، وإذا أجريت فيها الصوت وجدت ذلك بين طرف لسانك وانفراج أعلى الثنيتين وذلك قولك أشدق فتضارع بها الزاي والبيان أكثر وأعرف وهذا عربي كثير " ² ، و نلاحظ في قوله (و هذا عربي كثير) ما يفيد اطراد هذه الظاهرة في كلام العرب حيث رأينا سابقا أن هذه من صيغ الدلالة على كثرة الاستعمال فيما تتخاطب به العرب من اللغة اليومية التخاطبية .

و من ذلك ما نقله أن بعض العرب تبدل العين حاء في قوله : " محم يريدون معه — ، و محاولاء يريدون مع هؤلاء " ³ ، و قد ذكر أحد الباحثين أن هذا موجود في بعض العاميات العربية الحديثة ، ففي منطقة من المغرب يقولون للكعك (كحك) ، و في منطقة من مصر يقولون عوض دعك منه : (دحك منه) ، و في السودان يقولون لجعفر : (جحفر) ⁴ ، و في الجزائر بعضهم يسمي العسل (حسل) .

¹ . نفسه ، (ج 4 / ص 478) .

و ذلك شاهده قراءة أبي عمرو بن العلاء و حمزة في قوله تعالى : * إِهْدِنَا الزَّرَّاطَ الْمُسْتَقِيمَ * ، ينظر السبعة في القرءات لابن مجاهد ص 105 ، 106 .

² . نفس المصدر السابق ، (ج 4 / ص 479) .

³ . نفسه ، (ج 4 / ص 450) .

⁴ . ينظر إبدال الحروف في اللهجات العربية ، سلمان بن سالم بن رجاء السحيمي ، ص 200 .

و ذكر سيبويه أن بعض العرب يبدلون الياء ألفا في آخر الكلام ، و ذلك في قوله :
" وقد يبدلون مكان الياء الألف لأنها أخف وذلك قولك يا ربا تجاوز عنا ، ويا غلاما لا
تفعل " ¹ ، و نقل الفراء قائلا : " و العرب تقول بأبا وأما يريدون : بأبي وأمي " ² .

و ذكر الفراء أيضا ما نصه : " العرب تقول : ليس هذا بضربة لازب ولازم ، يبدلون
الباء ميما لتقارب المخرج " ³ .

و قد ذكر كثير من أهل اللغة القدامى و المحدثين العرب بعض نماذج الإبدال ، لكن
الانطباع الغالب على هؤلاء أنهم يعتبرونه من جهة ظاهرة لهجية غير مطردة ، و من جهة
أخرى عيبا من العيوب التي لا ترقى إلى الفصاحة العربية ، و لا تتكلم به القبائل خارج
موطنها مما يمكن أن يطلق عليه بلغة التخاطب الفصيحة المشتركة .

3.4.5 - الإعلال :

يقول الجرجاني : " الإعلال هو تغيير حرف العلة للتخفيف " ⁴ ، و يقول الكفوي :
" الإعلال هو تخفيف حرف العلة بالإسكان والقلب والحذف " ⁵ ، و يعرف عند الصرفيين
أيضا أنه " تغيير يطرأ على أحد حروف العلة (اوي) أو ما يلحق بها (الهمزة) ، و ذلك
للتخفيف " ⁶ .

¹ . الكتاب ، (ج 2 / ص 210) .

² . معاني القرآن للفراء (ج 2 / ص 176) .

و من طريف ما يمكن مقابله في هذا الباب ما يشيع في العاميات العربية من مناداة الأفراد للوالدين على نفس الطريقة
التي ذكرها الفراء ، حيث في مصر يقولون لهما : يا مآ للأم و يا با للأب ، و في بعض مناطق الخليج يقولون : يو با
للأب ، و في الجزائر يقولون : يا يما للأم ، و منهم من يقول : أمّا للأم و هكذا .

³ . نفسه (ج 2 / ص 384) .

⁴ . التعريفات ، ص 48 .

⁵ . الكليات ، ص 216 .

⁶ . المعجم المفصل في علم الصرف ، راجي السمر ، ص 144 .

و قد ذكر عبده الراجحي أن ظاهرتي الإعلال و الإبدال هما ظاهرتان تقعان في جميع لغات العالم حيث يقول : " حين تتجاوز الأصوات داخل الكلام يؤثر بعضها في بعض ، حسب قوانين صوتية مدروسة و معروفة ، و اللغويون المحدثون يدرسونها في علم الأصوات اللغوية تحت عنوان sound in speech أي الصوت في الكلام ، و قد درس العرب القدماء هذا الموضوع بطريقة لا تختلف اختلافا كبيرا ، تحت هذا الباب الذي يسمونه الإعلال و الإبدال " ¹ .

و هو طريقة من طرق تخفيف النطق على المتكلم ، و الميل نحو الأبسط في الجهد اللغوي ، لذلك نجد ابن جني يقول عن الإعلال بنقل حرف العلة بالتسكين : " و الإعلال إلى السواكن لضعفها أسبق منه إلى المتحركات لقوتها " ² .

و قد شاع الإعلال في كلام العرب لأنهم يؤثرون التخلص من حروف العلة إما بقلبها أو بنقلها إلى السكون أو حذفها ، و قد نص سيبويه على أنه الغالب الأغلب في كلام العرب ، مطرد اطرادا كبيرا حيث نجده يقول في حذف الواو إذا كانت بمثابة فاء الاسم في المضارع : " و قد قال ناسٌ من العرب وجد يجد كأنهم حذفوها من يَوجِدُ ، و هذا لا يكاد يوجد في الكلام ، و قالوا ورد يرد وروداً ، و وجب يجب وجوباً ، كما قالوا خرج يخرج خروجاً ، و جلس يجلس جلوساً " ³ ، و استثنى من ذلك الياء لخفتها في هذا الباب قائلاً : " و أما ما كان من الياء فإنه لا يحذف منه ، و ذلك قولك يئس يئس ، و يسر يسر ، و يمن يمن ، و ذلك أن الياء أخف عليهم ، و لأنهم قد يفرون من استئقال الواو مع الياء إلى الياء في

¹ . التطبيق الصرفي ، عبده الراجحي ، ص 156 .

² . الخصائص ، (ج 1 / ص 89) .

³ . الكتاب ، (ج 4 / ص 53) .

غير هذا الموضع ، و لا يفرون من الياء إلى الواو فيه وهي أخف ، و سترى ذلك إن شاء الله فلما كان أخف عليهم سلموه" ¹ .

و من ذلك حذف الياء إذا كانت بمثابة عين الاسم في النسبة ، و ذلك في قوله :
" و ذلك قولك في ربيعة ربعي ، و في حنيفة حنفي ، و في جذيمة جذمي ، و في جهينة جهني ، و في قتيبة قتيبي ، و في شنوءة شني و تقديرها شنوعة و شنعبي ، و ذلك لأن هذه الحروف قد يحذفونها من الأسماء لما أحدثوا في آخرها لتغييرهم منتهى الاسم ، فلما اجتمع في آخر الاسم تغييره و حذف لازم لزمه حذفه هذه الحروف ، إذ كان من كلامهم أن يحذف لأمر واحد فكلما ازداد التغيير كان الحذف ألزم إذ كان من كلامهم أن يحذفوا لتغيير واحد " ² .

و من ذلك أن العرب درجت على قلب الواو ياء للتخفيف ، و قد نص على ذلك ابن فارس في قوله : " ومما اختصت به العرب بعد الذي تقدم ذكره : قلبهم الحروف عن جهاتها ليكون الثاني أخف من الأول ، نحو قولهم ميعاد ولم يقولوا موعاد ، وهما من الوعد إلا أن اللفظ الثاني أخف " ³ .

و كما ذكرنا من قبل فإن الإعلال شأنه شأن القلب المكاني و الإبدال ، ففضلا عن انها مباحث صرفية كثر فيها البحث و التأليف ، فإنه من الصعب أن نجد لها مدونة صريحة من فصحي التخاطب العفوي الشفاهي - لغة الحياة اليومية - عند العرب الفصحاء ، ذلك لأن النحاة العرب و من جاء بعدهم يغلب عليهم التمثيل في هذه الأبواب بالمفردات لا بالسياقات و التراكيب ، و لسبب ثان هو أنها تطرد في اللغة الأدبية اطرادها في اللغة التخاطبية اليومية .

¹ . نفسه ، (ج 4 / ص 54) .

² . المصدر السابق ، (ج 3 / ص 339) .

³ . الصاحبى ، ص 15 .

و لذلك قد نقع في هذه المباحث في اشتباه يحيلنا إلى نوع من الخلط بين المستويين ، و لكن قد يشفع لنا في هذا ان النحاء من أمثال سيبويه قد يعلقون على ذلك بقولهم : و سمعنا ناسا من العرب يقولون ، و هذا في كلام العرب كثير ، مما يجعلنا نقول إنها ظواهر لغوية غلبت على كلام العرب اليومي بسبب ميلهم إلى التخفيف و الاقتصاد اللغوي ، و قد تقدم لدينا سابقا أن مثل هذه التعليقات عند النحاة العرب خصوصا أئمة المدرستين البصرية و الكوفية ، يقصد بها ما تتكلم به العرب في أبسط أحوالها مما أسميناه : اللغة الشفاهية اليومية ، أو لغة التخاطب اليومي ، مما يكون ضابطا من ضوابط معرفة هذا المستوى من الاستعمال اللغوي عند العرب .

5.5 – العدول المعجمي L'écart léxical :

نقصد بذلك ان العرب الفصحاء سمع منهم في كلامهم ما يعد خروجا عن الوضع اللغوي على سبيل العادات الفظية التي تشيع على السنة العوام مما قد تعد إغرابا في القول ، أو خرقا للمألوف من الكلام ، و هذا ليس على سبيل المجاز المعروف لأنه ليس من جماليات اللغة التي هي من خصائص اللغة الأدبية .

و ضابط هذا المفهوم اننا نجد في كلام العامة من الناس خروجا عن المواضع اللغوية و توظيفا لبعض المفردات في غير ما تدل عليه أصلا إما على سبيل المبالغة أو على سبيل التهكم ، او على الأقل عادة جارية في السنة الناس ترد على أفواههم لسبب دلالي يعرفونه أو دون سبب ¹ .

و يقابل هذا النوع من الاستعمال اللغوي في اللغة التخاطبية العفوية المجاز في اللغة الأدبية ، لأن المجاز هو ضرب من ضروب الاقتصاد اللغوي ، لأن استعمال لفظ في معناه الوضعي و في معان كثيرة غير المعنى الوضعي يعدّ تحميلا لما لا حصر له من المعاني

¹ . و قد يسمع من بعض الناس في العاميات العربية شيء من ذلك ، و من أمثلته في العامية الجزائرية قولهم : ضربت خبزة بمعنى أكلتها .

في الألفاظ القليلة ، و تجنبنا لوضع اللغة البشرية على ما لا حصر له من المفردات ،
و التي قد يستحيل الإحاطة بها نظرا لطاقة الإنسان الفكرية و العضلية المحدودة .

و العرب لم تكن تختلف في هذا الجانب ، إذ عرف عنها انها كانت تتشابه ببعض
الكلمات في غير موضعها في كلامها العادي و السائر بين العوام ، و قد جاء عند ثعلب
قوله في تفسير إطلاق العرب على الملدوغ الذي لسعته حية أو عقرب و إطلاقهم على
الصحراء مفازة ، قوله : " قالت العرب : إنما سمي الملدوغ سليماً لأنه أسلم لما به ، و قال
بعضهم : سميت المفازة مفازة تفاؤلاً ، أي ينجو.. " ¹ .

و من هذا قول الفراء : " العرب تقول : ذهب الرجال ، وذهب الرجال " ² .

و قد نقل الأخفش : " قول العرب : أَكَلْتُ خبزاً ولبناً ، واللبن لا يؤكل ، ويقولون :
ماسمعت برائحة أطيب من هذه ، و لا رأيت رائحة أطيب من هذه ، وما رأيت كلاماً أصوب
من هذا " ³ .

و قد شاع في العاميات العربية اليوم مثل هذه الأساليب نظراً لتوسع الثقافات ، و تفتح
الأفراد و المجتمعات على بعضها ، و لذلك يمكن ان نصف هذه الظاهرة بانها نوع من
التضايق بالشكل المعتاد من اللغة ، و ترويج لبعض الأساليب المحلية المستجدة ، هذا من
وجهة نظر اجتماعية ، أما من الجهة اللسانية فلا يعدو ان يكون ذلك شكلاً من أشكال
التطور الذي يصيب دلالات الألفاظ ، فيحصل معه تغير في المنظومة المعجمية التي
تصيب اللغات البشرية على مر الأزمان كما أشار إلى ذلك انطوان مابيه ⁴ ، و هي ظاهرة

¹ . مجالس ثعلب ، (ج 9 / ص 170) .

² . معاني القرآن للفراء ، (ج 3 / ص 10) .

³ . معاني القرآن للأخفش ، (ج 1 / ص 277) .

⁴ . ينظر دور الكلمة في اللغة ، ستيفن اولمان ، تر : كمال بشر ، دار الطباعة القومية ن القاهرة ، مصر ، 1962 م ،
ص 155 .

معروفة في الدراسات المعجمية و الدلالية أثبتتها الدراسات التي وقعت على واقع
الاستعمال اللغوي عند الأجيال المتعاقبة .

خاتمة البحث

حاولت هذه الدراسة أن تسلط الضوء على جانب مهم من دراسة اللغة البشرية ، و هو جانب الاستعمال اللغوي اليومي المتصف بالعفوية ، و ذلك في مدونة محددة هي لغة العرب في عصر الفصحاة ، و التي دونها النحاة العرب الأوائل ، و سجلوا ملاحظاتهم عليها .

و لغة التخاطب اليومي هي الجانب الذي يمثل في كل اللغات البشرية ، و عبر جميع العصور الجانب الاقتصادي في اللغة ، و المشتمل على خصائص التخفيف و بذل الجهد الأدنى في التواصل اللساني .

و لذلك عمدنا في هذه الدراسة إلى الانطلاق من المفاهيم الأولية للغة المنظومة إلى خصائص هذه اللغة عند الفصحاء من العرب اعتمادا على المصادر النحوية الموثوقة في ذلك ، عملا بمنطق الانطلاق من العام إلى الخاص مروراً بالمفاهيم النظرية و المنهجية التي تتعلق بهذا الموضوع ، و قد تطرقنا كذلك لقضايا مهمة تتعلق بحقائق اللغة العربية التي تشافه بها العرب في تخاطبهم اليومي بين إشكالات اللغة الأدبية الموحدة النموذجية و قضايا اللهجات و العامية ، و تعرضنا لقضية كون الاقتصاد في التواصل اللغوي تعد أصلا في ما كانت العرب تتكلم به في حياتها اليومية ، و كذلك سبل التوصل إلى هذا النوع من المدونة في البحث عن خصائصها ، وصولاً إلى توضيح تلك الخصائص من خلال ما أثبتته النحاة و اللغويون العرب الأوائل و من خلال ما تراءى لنا مما يقابل ذلك في العاميات العربية المعاصرة .

و لقد خلصت الدراسة إلى جملة من التصورات و المفاهيم نوجزها فيما يلي :

- 1 - الدراسات اللسانية الحديثة تعنى بدراسة واقع التخاطب باللغة ، و دعت إلى تبني المنهج الآني الوصفي لما للحقائق و الوقائع اللغوية من أهمية ، و هي في ذلك قللت من شأن الاهتمام باللغة الأدبية او لغة الكتابة و دعت بالمقابل إلى دراسة كل المستويات الاستعمالية للغة البشرية ، وفق مفاهيم التطور اللغوي الذي دل على أن أي شكل من أشكال

اللغة اليوم ما هو إلا صورة تطورية للغة ، و هي طبيعة العلاقة بين الفصحى و العامية ،
أو بين اللغة الأدبية و لغة الحياة اليومية .

2 - لغة التخاطب العفوي الشفاهي هي لغة الحياة اليومية ، و لذلك فمفهومها يرتكز على
مكوناتها الأساسية و هي صفتها الصوتية الشفاهية و لذلك استعمل في الدلالة عليها عدة
إطلاقات كالمتكلمة و الملفوظة و المنطوقة و لغة التحدث ، و وظيفتها التواصلية
المجتمعية التي لا ترتبط بطبقة معينة أو مستوى فكري ، و أيضا اتسامها بالعفوية و التلقائية
و لذلك فهي تنزع إلى تجاوز المعايير اللغوية .

4 - و اللغة الشفاهية هي الشق المقابل لما يطلق عليه بلغة الكتابة و التحرير ، و لذلك
أخذت موقعين من وجهة نظر اصطلاحية و مفهومية : أولهما استقلالها بخصائصها عن
لغة الكتابة ، الأمر الذي ظل محل نقاش عميق بين دارسي اللغة الإنسانية في بعدها
المتصل بالدراسة اللسانية من جهة ، و بعدها التراثي الشعبي المتصل بمخلفات الشعوب
القديمة ، و ثانيهما : انقسامها على نفسها بين شفاهية أدبية ، و شفاهية يومية محكومة في
كليهما إلى المقام و الاستعمال .

5 - و حقيقة لغة التخاطب اليومي عند العرب الفصحاء قديما قضية تناوأتها الدراسات
اللغوية بالنقاش محاولة للوصول إلى مفهوم دقيق و واضح يتصل بها ، و لقد أسهم كثير
من المستشرقين في البحث فيها و تابعهم على ذلك فئة من الدارسين العرب ، لكن ميل
أكثرهم إلى التفريق بين اللغة التي أطلقوا عليها الموحدة النموذجية المقصورة على الفنون
الأدبية بعيد كل البعد عن العلمية و الموضوعية ، نظرا لما تقتضيه الوقائع اللغوية ،
و مفاهيم التطور اللغوي ، و عدم تنبيه اللغويين العرب القدامى إلى هذا التفريق .

6 - العربية الفصحى القديمة هي عربية واحدة في الأدب و في التخاطب اليومي ، و الفرق
هنا إنما هو فرق بين شكلين من الاستعمال أولهما ينزع إلى تحقيق المعايير الأدائية في

جميع مستوياته الصوتية و المعجمية و الصوفية و النحوية و البلاغية ، و الثاني ينزع إلى التخلّص من هذه المعايير في حدود معينة ، كما أن الفصحى القديمة إنما هي نتيجة لاحتكاك اللهجات العربية بفعل عوامل كثيرة أهمها مجيء الإسلام ، لذلك بقيت فيها عوالم من تلك اللهجات ، و لذلك عدت عامية ذلك العصر فصيحة لا تنزل رتبة عن الاستعمال الأدبي لها ، و لا تعتبر لحنا ، و مرتبطة بالحياة اليومية للعرب الفصحاء ، و موصوفة بالافتقار اللغوي ، و متصلة بمقام الاسترخاء و الأُنس ، و هي صفات موجودة في لغة التخاطب عند جميع شعوب العالم إلى اليوم .

7 - و لغة التخاطب اليومي عند العرب الفصحاء لغة اقتصادية بالدرجة الأولى ، و إن كان الافتقار اللغوي ليس مقصورا عليها و إنما هو من خصائص اللغة البشرية في جميع استعمالاتها ، إلا أنه أظهر في هذا المستوى و لذلك وصفه الدارسون العرب القدامى بالتخفيف ، و لأن الافتقار نزعة إنسانية أكثر ما تظهر في الممارسات اليومية التلقائية ، و هو مفهوم تنبّه إليه العلماء العرب ، فإنهم درجوا على بيان خصائص اقتصادية لاحظوها فيما كثر دورانه على ألسنة العرب و كثر استعماله و هو ما كان في لغتهم اليومية .

8 - و التخاطب العفوي الشفاهي العربي جزء معتبر من المدونة الفصحائية التي جمعها و دونها النحاة العرب الأوائل ، وفق مقاييس علمية و حدود مكانية و زمانية لرقعة الفصاحة ، و لذلك فإن تحديدها يكون تبعا لفهم منهج هؤلاء في تصنيف هذا النوع من العربية الفصحى ، و كذلك لاصطلاحاتهم و إطلاقاتهم التي تدل عليها ، و لقد حوى كتاب سيبويه على وجه الخصوص جزءا كبيرا من هذه المدونة الموثوقة .

9 - و خصائص فصحى التخاطب العفوي الشفاهي التي وقفنا عليها استنادا إلى ما ذكرته المصادر النحوية الموثوقة ، و استنادا للمفاهيم النظرية المتعلقة بذلك هي :

أ - تسريع الكلام في التخاطب **Débit de la parole – verbomanie** و هو أهم خصائص اللغة اليومية ، و هذا التسريع سببه الظروف المحيطة بالعملية التخاطبية ، و يقصد به الاقتصاد في زمن النطق باللغة ، و لذلك فهو يؤدي بدوره إلى خصائص كثيرة تتجم عنه بصورة طبيعية ، و هي :

1. ظاهرة الاختزال **Brachylogie – Réduction** ، و هي ظاهرة متنوعة تمس عدة مستويات من اللغة التخاطبية ، و هي :

أ - اختزال الصوائت **Brachylogie des voyelles** : و نقصد بذلك إسقاط الحركات الإعرابية في درج الكلام **Brachylogie des désinences** ، أو ما يسمى لدى البعض اختلاس الحركات و هذه الظاهرة ليست لحنا و إنما هي نوع من التجوز كانت العرب تلجا إليه في الحديث اليومي ، و من ذلك إشمام الحركة في الوقف و هو تمويه بالشفة دون تصويت بالحركة هروبا من ثقلها ، و مثله روم الحركة في الوقف و هو ضعف الصوت بالحركة من غير سكون فتكون حالة متوسطة بين الحرك ة والسكون ، و هذا كله كانت تفعله العرب تخفيفا عن ألسنتها و وضعاً للتكلف .

ب- اختزال الأصوات **Brachylogie des phonèmes** و هو ، و تمثل عند العرب الفصحاء بظواهر عديدة منها الاختزال بحذف صوت أو أصوات من الكلمة **Haplologie** و هو حذف بعض الأصوات من الكلمة اختصارا لبنيتها ، و تيسيرا للنطق بها ، و الإدغام **Assimilation** و هو دمج حرفين إما من جنس واحد أو ليسا من نفس الجنس مع تقاربهما في المخرج تقليلا للجهد ، و ترخيم المنادى **L'Euphonie** و هو إسقاط آخر حرف من المنادى لكثرتة في تخاطبات الناس ، و تخفيف الهمز لكونه أشق الأصوات مخرجا بجعله بين الهمز و حرف اللين أو إبداله الصريح حرف لين أو حذفه تماما .

ج - اختزال الكلمات أو الاختصار **Abréviation** ، و هو من أظهر خصائص لغة التخاطب اليومي عند العرب ، و تحدث بشكل واسع مقارنة مع اللغة الأدبية ، و تكون بحذف ما يمكن الاستغناء عنه في التخاطبات اليومية لقيام دليل عليه من قرائن بصرية و حالية ، و بعض أساليبه تستحيل نمطا متكررا في التخاطب بينهم فتصدر عنهم تراكيب موصوفة بالقصر و الاقتضاب الشديد تنتزل منزلة إشارات خاطفة يتحقق بها التواصل بشكل طبيعي جدا .

2 - و الوقف **La pause** ظاهرة من ظواهر الاقتصاد اللغوي المتعلقة بكلام العرب الفصحاء ، و هو عبارة عن سكتة تتخلل الكلام يقصد منها استراحة المتكلم و استعادته للهواء أثناء التسريع بالتخاطب ، و لذلك درجت العرب على الوقف بالساكن في أغلب كل ما تنطق به ، أو السكوت على بعض الحروف المتصفة بالخفة كهاء السكت .

3 - ظاهرة تكرير الكلام و إعادته **Recurrences (les Redites)** ، و هو تكرار يقع على مستوى المفردات و التراكيب على السواء ، إما على سبيل توكيد المعنى أو على سبيل المركبات ، تصدر عن العربي حاجة إفهام معنى للسامع .

4 - ظواهر تغيير بنى الكلم على الصعيد الصرفي ، كالقلب المكاني أو الإبدال أو الإعلال ، أما القلب المكاني فهو تقديم و تاخير يقع بين حرفين في الكلمة الواحدة فيقع بها التداول على تلك الصورتين ، و أما الإبدال فهو قيام بعض الحروف مقام بعض في الكلمات مع احتفاظ الكلمة بأغلب حروفها ، فيقع تداولها على الصورتين كذلك ، و أما الإعلال فهو التخلص من حروف العلة في الكلم

5 - و العدول المعجمي **L'écart léxical** خاصية أخرى من خصائص التخاطب العفوي الشفاهي العربي الفصيح ، و هو استعمال لبعض الكلم في غير مواضعها على سبيل الخروج عن المألوف أو الإغراب أو التهكم .

سبيلوغرافيا البحث

. القرآن الكريم (بروايات مختلفة) .

أ - المصادر و المراجع :

1. الإبدال ، أدما طربية ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 2005 م .
2. إبدال الحروف في اللهجات العربية ، سلمان بن سالم بن رجاء السحيمي ، مكتبة الغرباء الأثرية ، ط 1 ، (1415 هـ / 1995 م) .
3. إتجاهات البحث اللساني ميلكا إيفيتش ، تر : سعد عبد العزيز مصلوح ، وفاء كامل فايد ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، مصر ، 2000 م .
4. إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ، الدمياطي ، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني ، تح : أنس مهرة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1419 هـ / 1998 م .
5. الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن ، تح : سعيد المندوب ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 1416 هـ / 1996 م .
6. أخبار النحويين البصريين ، السيرافي ، أبو سعيد الحسن بن عبد الله ، تح : طه محمد الزيتي و محمد عبد المنعم خفاجي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده بمصر ، ط 1 ، 1374 هـ / 1955 م .
7. الإختصار سمة العربية ، عبد الله جاد الكريم ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، مصر ، ط 1 ، 2006 م .
8. أدب الكاتب ، ابن قتيبة ، أبو محمد عبدالله بن مسلم الكوفي المروزي الدينوري ، تح : محمد الدالي ، المؤسسة الرسالة ، بيروت .
9. الإزدواج اللغوي في اللغة العربية ، عبد الرحمن بن محمد القعود ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض ، السعودية ، ط 1 ، 1417 هـ / 1997 م .
10. إزدواجية اللغة - النظرية والتطبيق - ، إبراهيم صالح الفلاي ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض ، الطبعة الأولى ، 1417 هـ ، 1996 م .

11. أساسيات اللغة ، رومان جاكبسون وموريس هالة ، تر: سعيد الغانمي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 1429هـ / 2008م .
12. أسباب حدوث الحروف ، ابن سينا ، أبو علي الحسين بن علي ، تح : محمد حسان الطيان ، يحي مير علم ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، سوريا .
13. أسرار العربية ، ابن الأنباري ، أبو البركات عبد الرحمن بن أبي الوفاء محمد بن عبيدالله بن أبي سعيد ، تح : فخر صالح قدارة ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1415 هـ / 1995 م .
14. أسس علم اللغة ، ماريو باي ، تر: أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة مصر ، ط8 ، 1419هـ / 1908 م .
15. الأصوات اللغوية ، إبراهيم أنيس ، مكتبة نهضة مصر .
16. الأصول – دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب ، تمام حسان ، عالم الكتب القاهرة ، 1420م / 2000 م .
17. الأصول في النحو ، ابن السراج ، أبو بكر محمد بن سهل النحوي البغدادي ، تر: عبد الحسين الفتلي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط3 ، 1417هـ / 1996 م .
18. الاقتراح في علم أصول النحو ، السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن ، تح : محمود سليمان ياقوت ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، 1426هـ / 2006م .
19. الإقتصاد اللغوي في صياغة المفرد ، فخر الدين قباوة ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، مصر ، ط1 ، 2001 م .
20. الإقتصاد المورفونولوجي في التواصل اللساني ، دراسة لسانية في اللغة العربية ، أحمد الطيبي ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، لبنان ، (1431 هـ / 2010 م) .
21. الألفاظ المهموزة و عقود الهمز ، ابن جني ، أبو الفتح عثمان الموصلي ، تحقيق : مازن المبارك ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، ط 1 ، 1988 م .
22. الأمالي ، القالي ، أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1398هـ / 1978م .

23. الإمتاع والمؤانسة ، التوحيدي ، أبو حيان علي بن محمد ابن العباس ، تح : محمد حسن إسماعيل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1424هـ/2003م .
24. الأمثال ، ابن سلام ، أبو عبيد القاسم ، تح : عبد العزيز قطامش ، دار المأمون للتراث ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1400هـ/1980م .
25. إنباه الرواة على أنباه النحاة ، القفطي ، جمال الدين بن يوسف ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1406هـ/1986م
26. الأنثروبولوجيا اللغوية ، مها محمد فوزي نهاد ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، 1430هـ/2009م .
27. إنسان الكلام ، كلود حجاج ، تر: رضوان ظاظا، دار الطباعة للطباعة والنشر، بيروت ، ط 1 ، 2003 م .
28. الإنصاف في مسائل الخلاف ، ابن الأنباري ، أبو البركات عبد الرحمن بن أبي الوفاء محمد بن عبيدالله بن أبي سعيد ، تح : جودة مبروك محمد مبروك ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر ، ط 2 ، 2002 م .
29. إيجاز التعريف في علم التصريف ، محمد ابن مالك الأندلسي ، تح : محمد المهدي عبد الحي عمار سالم ، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، السعودية ، ط 1 ، 1422هـ/2002 م .
30. الإيضاح في علوم البلاغة ، القزويني ، أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن ابن ع مر الشافعي ، تح : بهيج غزاوي ، دار إحياء العلوم، بيروت ، لبنان ، 1419هـ/1998م .
31. البحث اللغوي عند العرب ، أحمد مختار عمر ، عالم الكتاب ، القاهرة ، ط 6 ، 1988 م .
32. بحوث و دراسات في اللسانيات العربية ، عبد الرحمن حاج صالح ، موفم للنشر ، الجزائر ، 2007 م .

33. البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، بدر الدين أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله ، تح : أبو الفضل الدمياطي ، دار الحديث ، القاهرة ، مصر ، 1427هـ/2006 م .
34. البصائر والفخائر، التوحيدي ، أبو حيان علي بن محمد ابن العباس ، تح : وداد القاضي، دار صادر، بيروت، لبنان، ط4، 1419هـ/1999 م .
35. بلاغة المکتوب وبلاغة المنطوق - دراسة في تحول الخطاب البلاغي - ، نور الهدى باديس النويري ، مركز النشر الجامعي ، منوبة ، تونس ، 2005 م .
36. بهجة المجالس و أنس المجالس ، بن عبد البر ، يوسف بن عبد الله بن محمد النمري القرطبي المالكي ، تح : محمد مرسي الخولي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1981 م .
37. البيان والتبيين ، الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني ، تح : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط7 ، 1418هـ/1998 م .
38. تاريخ آداب العرب ، مصطفى صادق الرافعي ، راجعه و ضبطه : عبد الله المنشاوي و مهدي البقيري ، مكتبة الإيمان ، المنصورة ، مصر، ط2 ، 1369هـ ، 1940 م .
39. تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف ، دار المعارف، ط 24 ، 1960 م .
40. تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، نفوسة زكرياء سعيد، دار نشر الثقافة بالإسكندرية، مصر، ط1، 1383هـ/1964 م .
41. تاريخ اللغات السامية ، إسرائيل ولفنسون ، مطبعة الاعتماد، مصر، ط 1، 1348هـ/1929 م .
42. تحريفات العامية للفصحى ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، 1994 م .
43. التحفة السنية شرح المقدم الأجرومية ، محمد محي الدين عبد الحميد ، مكتبة السنة، القاهرة، 1409هـ/ 1989 م .

44. التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل لأبي حيان ، م حمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان الأندلسي ، تح : حسين الهنداوي ، دار التعلم ، دمشق ، سورية .
45. الترخيم في العربية ، معناه أغراضه أنواعه ، إبراهيم حسن إبراهيم ، مطبعة حسان ، القاهرة ، مصر ، 1404هـ / 1984 م .
46. التطبيق الصرفي ، عبده الراجحي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، (1393هـ / 1973م) .
47. التطور اللغوي - مظاهره علله و قوانينه - ، رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر ، ط2 ، 1410هـ / 1990 م .
48. التفسير اللغوي الاجتماعي للقراءات القرآنية ، هادي نهر ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن ، ط1 ، 1429هـ / 2008 م .
49. التفكير اللساني في الحضارة العربية ، عبد السلام المسدي ، الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، مصر ، ط2 ، 1986 م .
50. التوجيه اللغوي للقراءات القرآنية عند الفراء في معاني القرآن ، طه صالح أمين آغا ، دار المعرفة للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1428 هـ / 2007 م .
51. التوجيه النحوي و الصرفي للقراءات القرآنية عند أبي علي الفارسي في كتابه الحجة للقراء السبع ، سحر سويلم راضي ، بلنسية للنشر و التوزيع ، المنوفية ، مصر ، ط1 ، 1429هـ / 2008 م .
52. التيسير في القراءات السبع ، أبو عمرو الداني ، عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر ، تح : أتو تريزل ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، 1404 هـ / 1984 م .
53. جواهر أدب، أحمد الهاشمي ، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع .
54. الحجة في القراءات السبع ، ابن خالويه ، أبو عبد الله الحسين بن أحمد ، تح : عبد العال سالم مكرم ، دار الشروق ، بيروت ، لبنان ، 1401 هـ .

55. الحجة للقراء السبعة ، أبو علي الفارسي ، الحسن بن أحمد بن عبد الغفار ،
تح : بدر الدين قهوجي ، بشير جويجاني ، دار المأمون للتراث ، بيروت ، لبنان ،
ط 2 ، 1413 هـ / 1992 م .
56. الحياة الأدبية في العصر الجاهلي ، عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ،
بيروت ، ط1 ، 1412هـ/ 1992 م .
57. الحيوان ، الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني ، تح :
عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، 1416هـ/ 1996 م .
58. خزانة الأدب للخطيب البغدادي ، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد
بن مهدي ، تح : محمد نبيل طريفي و إميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية ،
بيروت ، لبنان ، 1998 م .
59. الخصائص ، ابن جني ، أبو الفتح عثمان الموصلي ، تح : محمد علي
النجار ، عالم الكتب ، بيروت ، لبنان .
60. الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث ، محمد حسين آل
ياسين ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1400 هـ / 1980 م .
61. دراسات في العربية ، وولفديتريش فيشر ، تر: سعيد حسن بحري ، مكتبة
الآداب القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1426م/ 2005 م .
62. دراسة الصوت اللغوي ، أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، مصر ،
1418هـ/ 1979 م .
63. دروس التصريف ، محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية بيروت ،
لبنان ، 1416هـ/ 1995 م .
64. دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، أ بوبكر بن عبد الرحمن بن محمد
الفارسي ، تح : محمد التونجي ، دار الكت -اب العربي ، بيروت لبنان ، ط 1 ،
1995 م .
65. دور الكلمة في اللغة ، ستيفن اولمان ، تر : كم -ال بشر ، دار الطباعة
القومية ن القاهرة ، مصر ، 1962 م .

66. رسالتان في اللغة ، الرماني ، أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله ، تح : إبراهيم السامرائي ، دار الفكر للنشر و التوزيع ، عمان ، الأردن ، 1984 م .
67. الرسائل ، الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني ، تح : عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، 1991 م .
68. الروح ، ابن قيم الجوزية ، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد ، تح : محمد اسكندر يلدا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1402هـ/1982 م .
69. السبعة في القراءات ، ابن مجاهد ، أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس البغدادي ، تح : شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، 1400 هـ .
70. سر الفصاحة ، الخفاجي ، عبد الله بن محمد بن سعيد ابن سنان الحلبي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1402هـ/1982 م .
71. سر صناعة الإعراب ، ابن جني ، أبو الفتح عثمان الموصلي ، تح : حسن هندراوي ، دار القلم ، دمشق ، سوريا ، 1405هـ/1985 م .
72. السماع اللغوي العلمي عند العرب و مفهوم الفصاحة ، عبد الرحمن حاج صالح ، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية ، 2007 م .
73. سوسيولوجيا اللغة ، بيار أشار ، تر: عبد الوهاب تزو ، منشورات عويدات ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1996 م .
74. الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه ، خديجة الحديثي ، مطبوعات جامعة الكويت ، 1394هـ ، 1974 م .
75. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، ابن عقيل ، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري ، تح : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار التراث ، القاهرة ، مصر ، ط 20 ، (1400هـ/1980م) .
76. شرح المفصل ، ابن يعيش ، موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي ، تح : إميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1422هـ/2001م

77. شرح جمل الزجاجي ، ابن خروف الإشبيلي ، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحضرمي ، تح : سلوى محمد عمرعرب، مطبوعات جامعة أم القرى، 1418هـ .
78. شرح شافية ابن الحاجب ، الاسترابادي ، رضى الدين محمد بن الحسن ، تح : محمد نور حسن و محمد الزفزاف و محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1402هـ/1982 م .
79. شرح كافية ابن الحاجب ، الاسترابادي ، رضى الدين محمد بن الحسن ، تح : يوسف حسن عمر ، منشورات جامعة قان يونس ، بنغازي ، ليبيا، ط2 ، 1996 م .
80. شعب الإيمان ، البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين ، تح : محمد السعيد بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1410هـ .
81. الصاحبى في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، ابن فارس ، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكر ياء القزويني الرازي ، المكتبة السلفية ، القاهرة ، مصر، 1328هـ/ 1910 م .
82. الصناعتين ، أبو هلال العسكري ، الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد ابن يحيى بن مهران اللغوي ، تح : علي محمد بجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1371هـ/1952 م .
83. الصوتيات العربية ، منصور بن محمد الغامدي، مكتبة الملك فهد، الرياض، السعودية ، ط1، 1421هـ/2001م
84. طبقات النحويين و اللغويين ، الزبيدي ، أبو بكر محمد بن الحسن الأندلسي تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر، ط2، 1974 م .
85. ظاهرة التخفيف في النحو العربي ، عبد الرحمن عفيفي ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1417هـ/1996 م .
86. ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي سليمان طاهر حمودة ، الدار الجامعية للطباعة و النشر و التوزيع ، الاسكندرية ، مصر ، 1998 م .
87. ظاهرة القلب المكاني في العربية ، عبد الفتاح الحموز ، مؤسسة الرس —الة ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، (1406هـ/1986م) .

88. العربية ، دراسات في اللغة واللهجات الأساليب، يوهان فك ، تر: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي ، مصر، 1400هـ/ 1980 م .
89. العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، دار المعارف، القاهرة ، مصر، ط 24، 1960 م .
90. علم الأصوات ، كمال بشر ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر، 2000 م .
91. علم الأصوات اللغوية ، عصام نور الدين ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، لبنان ، ط1، 1992 م .
92. علم الدلالة : إطار جديد ، بالمر تر: صبري ابراهيم السيد ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، مصر ، 1995 م .
93. علم الدلالة ، بيار جيرو تر : انطوان أبو زيد ، منشورات عويدات ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1986 م .
94. علم اللسان العربي عبد الكريم مجاهد ، دار أسامة للنشر و التوزيع ، عمان،الأردن ، 2009 م .
95. علم اللغة : مقدمة للقارئ العربي ، تمام حسان ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت ، لبنان .
96. علم اللغة الاجتماعي ، هـسون ، تر: محمود عياد ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط2 ، 1990 م .
97. علم اللغة العام ، تر: يوثيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية ، بغداد ، العراق ، 1985 م .
98. علم اللغة العربية : مدخل تاريخي مقارنة في ضوء التراث واللغات السامية ، محمود فهمي حجازي ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، 1996 م .
99. علم اللغة علي عبد الواحد وافي ، مكتبة نهضة مصر للطباعة و النشر ، ط9 ، 2009 م .

100. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ابن رشيق ، أبو علي الحسن القيرواني ، تح : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة ، دمشق ، سوريا ، ط 5 ، 1401هـ/1981 م .
101. فصول في فقه العربية ، رمضان عبد التواب ، مكتبة الخ — انجي للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة ، مصر ، ط 6 ، 1420هـ /1999 م .
102. الفصيح ، ثعلب ، أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني ، تح : عاطف مدكور ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .
103. فقه اللغات السامية ، كارل بروكلمان ، تر : رمضان عبد التواب ، مطبوعات جامعة الرياض ، السعودية ، 1397هـ/1977 م .
104. فقه اللغة ، علي عبد الواحد وافي ، دار نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة ، مصر ، ط 3 ، 2004م
105. فقه اللغة ، محمد بن إبراهيم الحمد ، دار بن خزيمة ، الرياض ، السعودية ، ط 1 ، 1426هـ/2005 م .
106. فقه اللغة العربية و خصائصها ، إميل بديع يعقوب ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1982 م .
107. فقه اللغة في الكتب العربية ، عبده الراجحي دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، 1392 هـ / 1972 م .
108. فقه اللغة مناهله ومسائله ، محمد أسعد النادري ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان ، 1430هـ/2009 م .
109. في الأدب الجاهلي ، طه حسين ، مطبعة فاروق ، القاهرة، مصر ، ط 3 ، 1352هـ/1933 م .
110. في البحث الصوتي عند العرب ، خليل إبراهيم عطية ، دار الجاحظ للنشر، بغداد، العراق ، 1983 م .
111. في التراث والشعر واللغة ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر، 1987 م .
112. في اللسانيات العامة ، مصطفى غلفان ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، بيروت، لبنان، ط1، 2010 م .

113. في اللهجات العربية ، إبراهيم أنيس ، مكتبة الانجلو مصرية ، القا هرة ، مصر ، ط 9 ، 1995 م .
114. في اللهجات العربية ، محمد أحمد خاطر ، مطبعة الحسين الإسلامية ، القا هرة ، مصر ، 1979 م .
115. في علم الكتابة جاك دريدا ، تر: أنور مغيث ، منى طلبة ، المركز القومي للترجمة ، القا هرة ، مصر ، ط2 ، 2008 م .
116. في علم اللغة العام ، عبد الصبور شاهين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط6 ، 1413هـ / 1993 م .
117. في مدار اللغة واللسان ، أحمد حاطوم ، شركة المطبوعات للنشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1996 م .
118. القراءات و أثرها في علوم العربية ، محمد سالم محيسن ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القا هرة ، مصر ، 1404هـ / 1984 م .
119. الكامل ، المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثم ـالى الأزدي ، تح: محمد أحمد الدالي ، مؤسسة الرسالة ، ط3 ، 1418 م .
120. الكتاب ، سيبويه ، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي ، تح : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القا هرة ، مصر .
121. كتاب الإبدال ، لأبي الطيب اللغوي ، عبد الواحد بن علي ، تح : عز الدين التنـوخي ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق ، سوريا ، (1379هـ / 1960 م) .
122. الكتابية والشفاهية ، والتر أونج ، تر: حسين البنا عز الدين ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، 1414هـ / 1994 م .
123. لحن العامة والتطور اللغوي ، رمضان عبد التواب ، مكتبة زهراء الشرق ، القا هرة ، مصر ، ط2 ، 2000 م .
124. اللغات الأجنبية ، نايف خرما و علي حجاج ، منشورات عالم المعرفة ، الكويت ، ط 1988 م .

125. لغات القبائل في كتب إعراب القرآن و معانيه ، اسماعيل محمود منيزل القيام ، مكتبة الحامد ، ط 1 ، 2008 م .
126. اللغة ، جوزيف فندريس ، تر: عبد الحميد الرواحلي ، محمد القصاص ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، مصر .
127. اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة - بحث في النظرية - ، محمد العيد ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1990 م .
128. اللغة بين المعيارية و الوصفية ، تمام حسان ، عالم الكتب ن القاهرة ، مصر ، ط 4 ، (1421 هـ / 2001 م) .
129. لغة قريش ، مخت ——— دار الغوث ، دار المعراج الدولية للنش ——— ، الري ——— ، السعودية ، ط1 ، (1418 هـ / 1997 م) .
130. اللغة و الاقتصاد ، فلوريان كولماس ، تر : أحمد عوض ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت ، 2000 م .
131. اللغة و علم اللغة ، جون لاينز ، تر : مصطفى التوني ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، مصر ، 1987 م .
132. اللغة والتواصل - اقتريات لسانية للتواصلين الشفهي والكتابي - ، عبد الجليل مرتاض ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر .
133. اللغة والمجتمع ، رأي ومنهج ، محمود السعران ، مطبعة الإسكندرية ، مصر ، ط2 ، 1963 م .
134. لمع الأدلة في أصول النحو ، ابن الأنباري ، أبو البركات عبد الرحمن بن أبي الوفاء محمد بن عبيدالله بن أبي سعيد ، تح : سعيد الأفغاني ، مطبعة الجامعة السورية، سوريا ، 1377هـ/ 1975 م .
135. اللمع في العربية ، ابن جني ، أبو الفتح عثمان الموصلي ، تح : فائز فارس ، دار الكتب الثقافية ، الكويت ، 1972 م .
136. مبادئ الاقتصاد السياسي ، محمد دويدار ، الاسكندرية ، 1992 م .

137. مبادئ في اللسانيات ، خولة طالب الإبراهيمي ، دار القصة للنشر ، الجزائر ، ط2 ، 2006 م .
138. مبادئ في اللسانيات العامة ، أندري مارتيني ، تر: الزبي ر سعدي ، دار الآفاق ، الجزائر .
139. المبدع في التصريف ، أبو حيان الأندلسي ، م حمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان الغرناطي ، تح : عبد الحميد سيد الطلب ، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع ، الصفاة ، الكويت، ط1 ، 1402هـ/1982 م .
140. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ابن الأثير ، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم ، تح : محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، 1995 م .
141. مجالس ثعلب ، ثعلب ، أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني ، تح : عبد السلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .
142. المدارس النحوية ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، ط7 ، 1968 م .
143. مدخل إلى اللسانيات ، بارتيل مالبرج ، تر : السيد عبد الظاهر ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 2010 م .
144. مدخل إلى علم اللغة ، محمود فهمي حجازي ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، 1997 م .
145. مدخل إلى معرفة اللسانيات ، محمد إسماعيل بصل ، دار الحداثة ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1986 م .
146. المزهر في العلوم اللغة وأنواعها ، السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن ، عناية : محمد أحمد جاد المولى بك ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، علي محمد البجاوي ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، مصر ، ط3 .
147. المعاجم العربية ، مدارسها ومناهجها ، عبد الحميد محمد أبو سكين ، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر ، شبرا ، مصر ، ط2 ، 1402هـ/1981 م .

148. معالم التنزيل ، البغوي ، أبو محمد الحسين بن مسعود ، تح : محمد عبد الله النمر ، و عثمان ضميرية ، و سليمان سلم الخرش ، دار طيبة للنشر و التوزيع ، الرياض ، ط4 ، 1417هـ/ 1997 م .
149. معاني القراءات ، الأزهري ، أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي ، تح : عيد مصطفى درويش ، عوض بن حمد الفوزي ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1991 م .
150. معاني القرآن ، الأخفش ، أبو الحسن سعيد بن مسعدة ال مجاشعي البلخي البصري ، تح : هدى محمود قراة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1411هـ/ 1990 م .
151. معرفة اللغة ، جورج بول ، تر: محمود فراج عبد الحافظ ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية ، مصر .
152. مفتاح العلوم ، السكاكي ، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي الخوارزمي تح : عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1، 1460هـ/ 2000 م .
153. مقالات في اللغة و الأدب ، تمام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1427هـ/ 2006 م .
154. المقتضب ، المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي ، تح : محمد عبد الخالق عزيمة ، مطبوعات وزارة الأوقاف المصرية، القاهرة ، ط3 ، 1415هـ/ 1994م
155. المقدمة ، ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن خلدون أبو زيد ولي الدين الحضرمي الإشبيلي ، تح : عبد السلام الشدادتي ، بيت الفنون و العلوم و الآداب ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 2005 م .
156. من أسرار اللغة ، ابراهيم انيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، مصر ، ط6 ، 1978 م .
157. المنصف ، ابن جني ، أبو الفتح عثمان الموصلي ، تح : إبراهيم مصطفى ، عبد الله الأمين ، إدارة إحياء التراث القديم ، مصر ، ط1، 1373هـ/ 1954 م .

158. منهج البحث اللغوي بين التراث و علم اللغة الحديث ، علي زوين ، دار الشؤون الثقافية بغداد العراق 1986 م .
159. النثر العربي القديم ، من الشفاهية إلى الكتابة ، محمد رجب النجار، دار الكتاب الجامعي القاهرة ، مصر، ط1 ، 1996 م .
160. النحو الشافي حمود حسين مغالسة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط3 ، 1418هـ / 1997 م .
161. النحو العربي : - نشأته تطوره مدارسه رجاله- ، صلاح راوى ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة، مصر، 2003 م .
162. نشأة الدرس اللساني العربي الحديث ، فاطمة الهاشمي بكوش ، إيتراك للنشر والتوزيع ، مصر الجديدة، ط1 ، 2004م .
163. النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ، محمد بن محمد بن محمد بن علي ابن يوسف أبو الخير شمس الدين العمري الدمشقي الشيرازي الشافعي ، تح : محمد علي الضباع ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
164. النظم الشفوي في الشعر الجاهلي ، جيمس مونرو، دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، الرياض، السعودية، ط1 ، 1407هـ / 1987 م .
165. نقد الشعر، قدامة بن جعفر ، تح: عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان
166. هم—ع الوامع في شرح جمع الجوامع —ع ، السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن ، تح : عبد الحميد هندراوي ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، مصر .
167. وظيفة الألسن وديناميتها ، أندري مارتيني تر: نادر سراج ، المنظمة العربية للنشر، بيروت، ط1 ، 2009 م .

المعاجم و الموسوعات :

1. أساس البلاغة ، الزمخشري ، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله ، تح : محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، ط1 ، 1419هـ/ 1998 م .

2. تاج العروس من جواهر القاموس ، الزبيدي ، محمد مرتضى الحسيني ، تر: حسين نصار ، مطبعة حكومة الكويت، 1369هـ / 1969 م .
3. التعريفات ، الشريف الجرجاني ، علي بن محمد بن علي ، تح : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي بيروت ، لبنان، ط1 ، 1405 هـ .
4. تهذيب اللغة ، الأزهرى ، أبو منصور محمد بن أحمد ، تح : محمد عوض مـرعب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 2001 م .
5. الصحاح : تاج اللغة وصحاح العربية ، الجوهري ، أبو نصر اسماعيل بن حماد ، تح : أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين ، ط 2 ، 1402هـ/1982 م .
6. العين ، الخليل بن أحمد ، أبو عبد الرحمن بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري ، تح : مهدي المخزومي ، ابراهيم السامرائي ، دار و مكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان .
7. الفروق اللغوية ، أبو هلال العسكري ، الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد ابن يحيى بن مهران اللغوي ، تح : محمد ابراهيم سليم ، دار العلم و الثقافة للنشر و التوزيع ، مدينة نصر ، مصر ، 1418هـ/1997 م .
8. القاموس المحيط ، الفيروزآبادي ، أحمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر ، أبو طاهر، مجد الدين الشيرازي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ط1 .
9. الكليات ، الكفوي ، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني ، تح : عدنان الدرويش و محمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، 1419هـ / 1998 م
10. لسان العرب ، ابن منظور ، أبو الفضل مـحمد بن مكرم بن علي جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي ، تح : عبد الله علي الكبير ، محمد أحمد حسب الله ، هاشم محمد الشاذلي ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .
11. المحيط في اللغة ، صاحب بن عباد ، أبو القاسم اسماعيل بن عباد بن العباس ، تح : محمد حسين آل ياسين ، عالم الكتب بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1414هـ/1994 م .

12. مختار الصحاح ، الرازي ، محمد بن أبي بكر عبد القادر ، تح : محمود خاطر، مكتبة لبن —ان ناشرون ، بيروت ، لبــــنان ، 1415هـ/1995 م .
13. المخصص ، ابن سيده ، أبو الحسن علي بن اسماعيل ، تح : خليل إبراهيم الجفال ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، 1417هـ / 1996 م .
14. المصطلحات المفاتيح في اللسانيات ، ماري نوال غاري بريور، ترجمة : عبد القادر فهم الشيباني ، سيدي بلعباس ، الجزائر، ط1 ، 2007 م .
15. المعجم العربي الأساسي ، أحمد مختار عمر وجماعة من المؤلفين ، طبعة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .
16. المعجم العربي نشأته و تطوره ، حسين نصار ، دار مصر للطباعة و النشر ، القاهرة ، مصر ، 1956 م .
17. معجم المصطلحات المالية و الاقتصادية في لغة الفقهاء ، نزيه حماد ، دار القلم ، دمشق ، سوريا ، ط1 ، 1429هـ/2008 م .
18. المعجم المفصل في علم الصرف ، راجي الأسمر، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان ، ط1 ، 1413هـ/ 1993 م .
19. المعجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، مصر ، ط 1 ، 1400هـ/1980 م .
20. المعجم الوسيط ، إبراهيم أنيس وجماعة من المؤلفين ، طبع مجمع اللغة العربية، القاهرة، مصر، ط2 .
21. مقاييس اللغة ، ابن فارس ، تح : عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، 1423هـ/2002 م .
22. معجم اللسانيات ، جورج موانان ، تر : جمال الحضري ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع .
23. مشروع المصطلحات الخاصة ، هيثم الناهي ، هبة شري ، حياة حسنين ، المنظمة العربية للترجمة .

الرسائل الجامعية :

1. آثار المشافهة في أيام العرب ، شرح نقائض الفرزدق و جرير "لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري ، تر: أنثون آشلي بيفان ، رسالة دكتوراه ، من إعداد راضية طاووس، إشراف : محمد القاضي ، مكتبة كلية الآداب والفنون والإنسانيات ، جامعة منوبة ، تونس .
2. الوقف عند ابن جني ، دراسة صوتية دلالية ، رسالة ماجستير في ال لغة العربية ، محمد احمد محمد احمد ، بإشراف : أحمد محمد عبد العزيز كشك ، و طارق محمد عبد العزيز النجار ، كلية التربية ، قسم اللغة العربية و الدراسات الإسلامية ، جامعة عين شمس ، مصر ، (1430هـ / 2009 م) .

الحوليات و المجلات :

1. حوليات الجامعة التونسية ، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، العدد : 44 ، 2000 م .
2. حولية : الفصحى وعاميتهما - لغة التخاطب بين التقريب والتهذيب - ، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية ، الجزائر ، 2008 م .
3. مجلة المجلس الأعلى للغة العربية ، 2009 م ، عدد خاص .
4. مجلة بحوث في اللغة ، صادر عن اتحاد الكتاب العرب ، عدد 1 .
5. مجلة فصول ، القاهرة ، مصر ، الجزء 1 ، العدد 3 ، المجلد 4 ، 1984 م
6. مجلة مجمع اللغة العربية المصري ، القاهرة 1983 م ، العدد : 35
7. مجلة مجمع اللغة العربية المصري ، القاهرة 1983 م ، العدد : 53
8. مجلة مجمع اللغة العربية المصري ، القاهرة 1990 م ، العدد : 66
9. مجلة منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ، ط1، 2005م

المقالات :

1. نحو رؤية جديدة للبحث التربوي في مجتمع الاقتصاد المعرفي ، منى مؤتمن عماد الدين ، الأردن ، 2003 م .

بييوغرافيا المراجع و المقالات الأجنبية :

1. **Contribution à l'analyse du langage oral spontané**, these pour obtenir le grade de docteur de l'universite joseph fourier, laboratoire de Communication Langagière et Interaction ersonne-Système – Fédération imag, grenoble 1, france, par Mohamed-Zakaria kurdi, avril 2003 .
2. **Français parlé - oral spontané** , Quelques réflexions , article publier par Claire Blanche-Benveniste , École Pratique des Hautes Études , Mireille Bilger, Université de Perpignan .
3. **Le Dictionnaire** , Dictionnaire générale linguistique technique et scientifique , par bureau des études et des recherches , dar al-koutoub al-ilmiyah , beirut , liban , 2 eme éditon 1424h/2004a.d .